ذخائر العرب
(٦٩)

المختصر فى أخبار البشر

للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل
ابن على المعروف بابى الفدا
٦٧٢ - ٧٣٢ هـ/ ١٢٧٣ - ١٣٣١ م

تقديم الدكتور حسين مؤنس

تحقيق
الدكتور محمد زينهم محمد عزب
الأستاذ يحيى سيد حسين

الجزء الثالث



دار المعارف

الجزء الثالث
من كتاب المختصر فى أخبار البشر

وهو ذلك التاريخ الذى سرت بذكره الركبان
وأثنى عليه أرباب هذا الفن فى كل زمان
حتى كان عمدتهم الذى يرجعون فى إحقاق
الحق إليه ، ويعولون فى مهمات
منقولاتهم عليه .

تأليف الملك المؤيد عماد الدين
إسماعيل أبى الفدا
صاحب حماة
المتوفى سنة اثنتين
وثلاثين وسبعمائة
هجرية رحمه الله
تعالى آمين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أخبار الإسماعيلية بالشام
وقتلهم وحصر الفرنج
دمشق

كان قد سار رجل من الإسماعيلية يسمى بهرام بعد قتل خاله إبراهيم الإسترابادى ببغداد إلى الشام ودخل دمشق ، ودعا الناس إلى مذهبه ، وأعانه وزير تورى صاحب دمشق وهو طاهر بن سعد المزدغانى ، وسلم إلى بهرام قلعة بانياس ، فعظم أمر بهرام بالشام ، وملك عدة حصون بالجبال ، وجرى بين بهرام وبين أهل وادى التيم مقاتلة ، فقتل فيها بهرام ، وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم يسمى إسماعيل ، وأقام الوزير المزدغانى عوض بهرام بدمشق رجلاً منهم يسمى أبا الوفا ، وعظم أمر أبى الوفا حتى صار الحكم له بدمشق ، فكاتب أبو الوفا الفرنج على أن يسلم إليهم دمشق ويسلموا إليه عوضها مدينة صور ، واتفقوا على ذلك ، وأن يكون قدوم الفرنج إلى دمشق يوم الجمعة ، ليجعل أبو الوفا أصحابه على أبواب جامع دمشق ، وعلم تاج الملوك تورى صاحب دمشق بذلك ، فاستدعى وزيره المزدغانى وقتله وأمر بقتل الإسماعيلية الذين بدمشق ، فثار بهم أهل دمشق وقتلوا من الإسماعيلية ستة آلاف نفر ، ووصل الفرنج إلى الميعاد ، وحصروا دمشق فلم يظفروا بشىء ، وكان البرد والشتاء شديدًا ، فرحلوا عن دمشق شبه المنهزمين ، وخرج تورى بعسكر دمشق فى أثرهم ، وقتلوا منهم عدة كثيرة ، وأما إسماعيل الباطنى الذى كان فى قلعة بانياس ، فإنه سلم قلعة بانياس إلى الفرنج وصار معهم .

ذكر ملك عماد الدين زنكى حماة

فى هذه السنة : ملك عماد زنكى حماة ، وسببه أنه كان بحماة (سونج) ابن تورى نائبًا بها عن أبيه تورى ، وكان قد سار عماد الدين زنكى من الموصل إلى جهة الشام وعبر الفرات ، وأرسل إلى تورى يستنجده على الفرنج ، فأرسل تورى إلى ولده سونج بحماة يأمره بالمسير إلى عماد الدين زنكى فسار سونج إليه ، فغدر عماد الدين زنكى بسونج وقبض عليه ، وارتكب أمرًا شنيعًا من الغدر ونهب خيامه والعسكر الذين كانوا صحبته ، واعتقل سونج وجماعة من

مقدمي عسكره بحلب ، ولما قبض عماد الدين زنكى على سونج سار من وقته إلى حماة وملكها لخلوها من الجند ، ثم رحل عنها إلى حمص وحاصرها مدة ، وكان قد غدر أيضًا بصاحبها قيرخان بن قراجا ، وقبض عليه وأحضره صحبته إلى حمص ممسوكا ، وأمره أن يأمر ابنه وعسكره بتسليم حمص فأمرهم قيرخان فلم يلتفتوا إليه ، فلما أيس زنكى منها رحل عنها عائدًا إلى الموصل ، واستصحب سونج وأمراء دمشق معه ، واستمر بهم معتقلين ، وكتب تورى إليه وبذل له مالاً فى ابنه سونج فلم يتفق حال .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : ملك الفرنج حصن القَدْمُوس .

وفيها : توفى أبو الفتح أسعد بن أبى نصر الفقيه الشافعى ، مدرس النظامية وله طريقة مشهورة فى الخلاف ، وكان له قبول عظيم عند الخليفة والناس .

وفيها : توفى الشريف حمزة بن هبة الله بن محمد العلوى الحسينى النيسابورى ، سمع الحديث الكثير ورواه ، ومولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وجمع بين شرف النسب وشرف النفس والتقوى ، وكان زيدى المذهب .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وخمسمائة :

ذكر فتح الأثَارِب

فيها : جمع عماد الدين زنكى عساكره ، وسار من الموصل إلى الشام ، وقصد حصن الأثارب لشدة ضرره على المسلمين ، فإن أهله الفرنج كانوا يقاسمون أهل حلب على جميع أعمال حلب الغربية حتى على رحى بظاهر باب الجنان بينها وبين سور حلب عرض الطريق ، وأظن أن اسمها العربية ، وكان أهل حلب معهم فى ضيق شديد ، فسار عماد الدين إليه ونازله ، وجمع الفرنج فأرسلهم وراجلهم وقصدوا عماد الدين ، فرحل عماد الدين عن الأثارب وسار إلى ملتقاهم ، فالتقوا واقتتلوا أشد قتال ، ونصر الله المسلمين وانهزم الفرنج ، ووقع كثير من فرسانهم فى الأسر ، وكثر القتل فيهم – ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الأثارب فأخذوه عنوة ، وقتلوا وأسروا كل من فيه ، وخرب عماد الدين فى ذلك الوقت حصن الأثارب المذكور وجعله دكا ، وبقى خرابًا إلى الآن .

ذكر وفاة الآمر بأحكام الله العلوى

فى هذه السنة : فى ذى القعدة قتل الآمر بأحكام الله العلوى أبو على منصور بن المستعلى أحمد بن المستنصر معد العلوى صاحب مصر ، وكان قد خرج إلى مستنزه له ، فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه ، وكانت ولايته تسعًا وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يومًا ، وعمره أربعًا وثلاثين سنة ، وهو العاشر من ولد المهدى عبيد الله ، وهو العاشر من الخلفاء العلويين ، ولما قتل الآمر لم يكن له ولد ، فولى بعده ابن عمه الحافظ عبدالمجيد بن أبى القاسم ابن المستنصر بالله ولم يبايع أولا بالخلافة بل كان على صورة نائب لانتظار حمل إن ظهر للآمر ، ولما تولى الحافظ استوزر أبا على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، فاستبد بالأمر وتغلب على الحافظ وحجر عليه ، ونقل أبو على ما كان بالقصر من الأموال إلى داره ، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قتل أبوعلى سنة ست وعشرين على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : كان الرصد فى دار السلطنة شرقى بغداد ، تولاه البديع الأسطرلابى ولم يتم .

وفى هذه السنة : ملك السلطان مسعود قلعة ألموت .

وفيها : توفى إبراهيم بن عثمان بن محمد الغزى عند قلعة بلخ ودفن فيها ، وهو من أهل غزة ومولده سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وهو من الشعراء المجيدين ، فمن قصائده المشهورة قصيدته التى مدح فيها الترك التى أولها :

أمط عن الدرر الزهر اليواقيتا ... واجعل لحج تلاقينا مواقيتا

ومنها :

فى فتية من جيوش الترك ماتركت ... للرعد كراتهم صوتًا ولا صيتا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة ... حسنًا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

ثم ترك الغزى قول الشعر وغسل كثيرًا منه وقال :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة ... باب البواعث والدواعى مغلق

خلت البلاد فلا كريم يرتجى   منـه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجـائب أنـه لايشتـرى   ويخان فيه مع الكساد ويسرق

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة :

فيها : أسر دُبَيْس بن صدقة ، وسبب ذلك مسيره من العراق إلى صرخد ، لأن صرخد كان صاحبها خصيًّا وكانت له سرية ، فتوفى الخصى فى هذه السنة ، واستولت سريته على قلعة صرخد وما فيها ، وعلمت أنه لا يتم لها ذلك إن لم تتصل برجل يحميها ، فأرسلت إلى دبيس ابن صدقة تستدعيه للتزوج به وتسلم إليه صرخد وما فيها من مال وغيره ، فسار دبيس من العراق إليها ، فضل به الأدلاء بنواحى دمشق ، فنزل بناس من كلب كانوا شرقى الغوطة ، فأخذوه وحملوه إلى تاج الملوك تورى بن طغتكين صاحب دمشق فى شعبان من هذه السنة فحبسه تورى ، وسمع عماد الدين زنكى بأسر دبيس ، فأرسل إلى تورى يطلبه ويبذل له إطلاق ولده سونج ومن معه من الأمراء الذين غدربهم زنكى وقبضهم .. كما تقدم ذكره — فأجاب تورى إلى ذلك ، وأفرج زنكى عن المذكورين وتسلم دبيس ، فأيقن دبيس بالهلاك لأنه كان كثير الوقيعة فى عماد الدين زنكى ، ففعل معه زنكى بخلاف ما كان يظن ، وأحسن إلى دبيس وحمل إليه الأموال والسلاح والدواب وقدمه على نفسه ، ولم يزل دبيس مع عماد الدين زنكى حتى انحدر معه إلى العراق على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وسمع الخليفة المسترشد بقبض دبيس ، فأرسل يطلبه مع سديد الدولة ابن الأنبارى ، وأبى بكر بن بشر الجزرى فأمسكهما عماد الدين زنكى وسجن ابن الأنبارى ، ووقع منه فى حق ابن بشر مكروه قوى ، ثم شفع المسترشد فى ابن الأنبارى فأطلقه .

ذكر وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

فى هذه السنة : فى شوال توفى السلطان محمود بن محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بهمدان ، فأقعد وزيره أبو القاسم الأنساباذىُّ ابنه داود بن محمود فى السلطنة ، وصار أتابكه الأقسنقر الأحمديلى ، وكان عمر السلطان محمود لما توفى نحو سبع وعشرين سنة ، وكانت ولايته للسلطنة اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يومًا ، وكان حليمًا عاقلاً يسمع المكروه ولا يعاقب عليه مع قدرته عليه .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : وثبت الباطنية على تاج الملوك تورى بن طغتكين صاحب دمشق فجرحوه جرحين ، برئ أحدهما وبقى الآخر ينسر عليه ، إلا أنه يجلس للناس ويركب على ضعف فيه .

وفيها : توفى حماد بن مسلم الرحبى الرياش الزاهد المشهور ، صاحب الكرامات وسمع الحديث وله أصحاب وتلاميذ كثيرة ، وكان أبو الفرج بن الجوزى يذمه ويثلبه .

ثم دخلت سنة ست وعشرين وخمسمائة :

فيها : قتل أبو على بن الأفضل بن بدر الجمالى وزير الحافظ لدين الله العلوى ، وكان أبو على المذكور قد حجر على الحافظ وقطع خطبة العلويين وخطب لنفسه خاصة ، وقطع من الأذان حى على خير العمل ، فنفرت منه قلوب شيعة العلويين وثار به جماعة من المماليك وهو يلعب بالكرة فقتلوه ونهبت داره ، وخرج الحافظ من الاعتقال ، ونقل ما بقى فى دار أبى على إلى القصر ، وبويع الحافظ فى يوم قتل أبى على بالخلافة ، واستوزر أبا الفتح يانسى الحافظى وبقى يانسى مدة قليلة ومات ، فاستوزر الحافظ ابنه الحسن بن الحافظ وخطب له بولاية العهد ، ثم قتل الحسن المذكور سنة تسع وعشرين وخمسمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : تحرك السلطان مسعود بن محمد فى طلب السلطنة وأخذها من ابن أخيه ابن محمود ، وكذلك تحرك سلجوق بن محمد صاحب فارس أخو مسعود وأتابكه قراجا الساقى فى طلب السلطنة ، وقدم سلجوق إلى بغداد واتفق الخليفة المسترشد معه واستنجد مسعود بعماد الدين زنكى فسار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق ، فقاتله قراجا أتابك سلجوق ، وانهزم زنكى إلى تكريت وعبر منها ، وكان الدزدار بها إذْ ذَاك نجم الدين أيوب ، فأقام له المعابر فعبر عماد الدين وسار إلى بلاده ، وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سبباً للاتصال بعماد الدين زنكى حتى ملك بنو أيوب البلاد .

ثم اتفق الحال بين مسعود وأخيه سلجوق والخليفة المسترشد على أن تكون السلطنة لمسعود ، ويكون أخوه سلجوق شاه ولى عهده ، وعادوا إلى بغداد ، ونزل مسعود بدار السلطنة وسلجوق بدار الشحنكية ، وكان اجتماعهم فى جمادى الأولى من هذه السنة – ثم إن السلطان سنجر سار من خراسان ومعه طُغريل ابن أخيه السلطان محمد لأخذ السلطنة من مسعود ، وجرى المصاف بينه وبين مسعود وسلجوق فانهزم مسعود .

ثم إن السلطان سَنْجَر بذل الأمان لمسعود فحضر عنده ، وكان قد بلغ خونج ، فلما رآه سنجر قبله وأكرمه وعاتبه وأعاده إلى كنجه ، وأجلس الملك طغريل فى السلطنة ، وخطب له فى جميع البلاد ، ثم عاد سَنْجَر إلى خراسان فوصل إلى نيسابور فى رمضان من هذه السنة .

ذكر الحرب بين المسترشد الخليفة وبين عماد الدين زنكى

فى هذه السنة : سار عماد الدين زنكى ومعه دُبَيْس بن صدقة وعدى الخليفة إلى الجانب الغربى ، وسار ونزل بالعباسية ، ونزل عماد الدين بالمنارية من دجيل ، والتقيا بحصن البرامكة فى سابع وعشرين رجب ، فحمل عماد الدين على ميمنة الخليفة فهزمها ، وحمل الخليفة بنفسه وبقية العسكر فانهزم دُبَيْس ، ثم انهزم عماد الدين وقتل بينهم خلق كثير .

ذكر وفاة تورى صاحب دمشق

فى هذه السنة : توفى تاج الملوك تورى بن طغتكين صاحب دمشق بسبب الجرح الذى كان به من الباطنية على ماتقدم ذكره ، فتوفى فى حادى وعشرين رجب ، وكانت إمارته أربع سنين وخمسة أشهر وأياما ، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل ، ووصى ببعلبك وأعمالها لولده شمس الدولة محمد ، وكان تورى شجاعًا سد مسد أبيه ، ولما استقر إسماعيل ابن تورى فى ملك دمشق وأعمالها ، واستقر أخوه محمد فى ملك بعلبك ، استولى محمد على حصن الرأس ، وحصن اللبوة ، وكاتب إسماعيل صاحب دمشق أخاه محمدًا صاحب بعلبك فى إعادتها ، فلم يقبل محمد ذلك ، فسار إسماعيل وفتح حصن اللبوة ، ثم فتح حصن الرأس وقرر أمرهما ، ثم سار إلى أخيه محمد وحصره ببعلبك وملك المدينة وحصر القلعة ، فسأله محمد فى الصلح فأجابه وأعاد عليه بعلبك وأعمالها ، واستقرت أمورهما ، وعاد إسماعيل إلى دمشق مؤيدًا منصورًا .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمائة :

فيها : سار شمس الملوك إسماعيل بن تورى صاحب دمشق على غفلة من الفرنج إلى حصن بانياس ، فملك مدينة بانياس بالسيف ، وقتل وأسر من كان بها ، وحاصر قلعة بانياس وتسلمها بالأمان .

وفى هذه السنة : جمع السلطان مسعود العساكر وانضم إليه ابن أخيه داود بن محمود وسار السلطان مسعود إلى أخيه طُغريل ، وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه طُغريل ، واستولى مسعود على السلطنة وتبع أخاه طُغريل يطرده من موضع إلى موضع حتى وصل إلى الرى ، واقتتلا ثانيا فانهزم طُغريل أيضًا وأسر جماعة من أمرائه .

وفيها : سار الخليفة المسترشد بعساكر بغداد وحصر الموصل ثلاثة أشهر ، وكان عماد الدين زنكى قد خرج من الموصل إلى سنجار وحصن الموصل بالرجال والذخائر ، ثم رحل الخليفة عن الموصل وعاد إلى بغداد ووصل إليها فى يوم عرفة ولم يظفر منها بطائل .

ذكر ملك شمس الملوك إسماعيل مدينة حماة

وفى هذه السنة : سار إسماعيل بن تورى صاحب دمشق من دمشق فى العشر الآخر من رمضان إلى حماة وهى لعماد الدين زنكى من حين غدر بسونج بن تورى ، وأخذها منه حسبما تقدم ذكره فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، فحصرها شمس الملوك إسماعيل وقاتل من بها يوم عيد الفطر وعاد ولم يملكها ، فلما كان الغد بكر إليهم وزحف من جميع جوانب البلد فملكه عنوة وطلب من به الأمان فأمنهم وحصر القلعة ولم تكن إذ ذاك حصينة ، فإنها حصنت فيما بعد ، لأن تقى الدين عمر ابن أخى السلطان صلاح الدين قطع جبلها وعملها على ما هى عليه الآن فى سنين كثيرة ، فلما حصرها شمس الملوك إسماعيل عجز النائب بها عن حفظها فسلمها إليه فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح ، وذلك فى شوال من هذه السنة ، ولما فرغ شمس الملوك إسماعيل من حماة سار إلى شَيْزَر وبها صاحبها من بنى منقذ ، فنهب بلدها وحصر القلعة فصانعه صاحبها بمال حمله إليه فعاد عنها ، وسار إلى دمشق ووصل إليها فى ذى القعدة من هذه السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : اجتمعت التركُمان وقصدوا طرابلس ، فخرج من بها من الفرنج إليهم واقتتلوا فانهزم الفرنج ، وسار القمّص صاحب طرابلس ومن فى صحبته فانحصروا فى حصن بعرين وحصرهم التركمان بها ، ثم هرب القمّص من الحصن فى عشرين فارسًا وخلى بحصن بعرين من يحفظه ، ثم جمع الفرنج وقصدوا التركمان ليرحلوهم عن بعرين فاقتتلوا ، فانحاز الفرنج إلى نحو رفنية وعاد التركمان عنهم .

وفيها : اشترى الإسماعيلية حصن القُدمُوس من صاحبه ابن عمرون .

وفيها : فى ربيع الآخر وثب على شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق بعض مماليك جده طُغتكين فضربه بسيف فلم يعمل فيه ، وتكاثر على ذلك الشخص مماليك شمس الملوك فقبضوه وقرره شمس الملوك ، فقال : ما أردت إلا إراحة المسلمين من شرك وظلمك ، ثم أقر على جماعة من شدة الضرب فقتلهم من غير تحقيق ، وقتل شمس الملوك إسماعيل أيضا مع ذلك الشخص أخاه سونج بن تورى الذى كان بحماة ، وأسره زنكى على ما تقدم ذكره فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، فعظم ذلك على الناس ونفروا من شمس الملوك إسماعيل المذكور .

وفيها : توفى على بن يعلى بن عوض الهروى ، وكان واعظاً ، وله بخراسان قبول كثير ، وسمع الحديث فأكثر .

وفيها : توفى أبو فُلَيْتة أمير مكة ، وولى إمارة مكة بعده أبو القاسم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة :

فيها : فى المحرم سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق إلى حصن الشقيق ، وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادى التيم قد تغلب عليه وامتنع به ، فأخذه شمس الملوك منه ، وعظم ذلك على الفرنج ، وقصدوا بلد حوران ، وجمع شمس الملوك الجموع وناوشهم ، ثم أغار على بلادهم من جهة طبرية ، ففت ذلك فى أعضاد الفرنج ، ورحلوا عائدين إلى بلادهم ، ثم وقعت الهدنة بينهم وبين شمس الملوك .

وفى هذه السنة : استولى عماد الدين زنكى على جميع قلاع الأكراد الحميدية ، منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما ، ثم استولى على قلاع الهكارية وكواشى .

وفيها : أوقع ابن دانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيراً منهم .

وفيها : اصطلح الخليفة المسترشد وعماد الدين زنكى .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة :

فيها : مات السلطان طغريل ابن السلطان محمد ، وكان بعد هزيمته من أخيه مسعود قد استولى على بلاد الجبل فمات فى هذه السنة فى المحرم ، وقيل إن وفاته كانت فى أول سنة ثمان وعشرين وهو الأصح فى ظنى ، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة فى المحرم أيضًا ، وكان خيرًا عاقلاً ولما بلغ أخاه مسعودًا خبر وفاته سار نحو همدان ، وأقبلت العساكر جميعًا إليه ، واستولى على همدان وأطاعته البلاد جميعها .

ذكر قتل إسماعيل صاحب دمشق

فى هذه السنة : فى رابع عشر ربيع الآخر ، قتل شمس الملوك إسماعيل بن تورى بن طغتكين ، وكان مولده فى سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة ، قتله على غفلة جماعة باتفاق من والدته ، وقد اختلف فى سببه ، فقيل : إن الناس لفرط جور إسماعيل المذكور وظلمه ومصادرته كرهوه وشكوه لأمه ، فاتفقت مع من قتله ، وقيل : بل إن أمه اتهمت بشخص من أصحاب والده يقال له يوسف بن فيروز ، فأراد قتل أمه فاتفقت مع من قتله ، وسر الناس بقتله ، ولما قتل ملكَ بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تورى وحلف له الناس .

وفيها : بعد قتل شمس الملوك وصل عماد الدين زنكى إلى دمشق وحصرها وضيق عليها ، وقام فى حفظ البلد معين الدين أتزَ مملوك طُغْتُكين القيام التام الذى تقدم به واستولى على الأمر بسببه ، فلما لم ير زنكى فى أخذ دمشق مطمعا اصطلح مع أهلها ورحل عنها عائدا إلى بلاده .

ذكر قتل حسن بن الحافظ لدين الله العلوى

قد تقدم فى سنة ست وعشرين وخمسمائة أن أباه استوزره ، فتغلب حسن المذكور على الأمر واستبد له وأساء السيرة ، وأكثر من قتل الأمراء وغيرهم ظلما وعدوانا ، وأكثر من مصادرات الناس ، فأراد العسكر الإيقاع به وبأبيه ، فعلم أبوه الحافظ ذلك فسقاه سمًّا فمات ، ولما مات حسن استوزر الحافظ تاج الدولة بهرام وكان نصرانيا فتحكم ، واستعمل الأرمن على الناس فكان ما سنذكره .

ذكر الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود وأسر الخليفة وقتله

فى هذه السنة : كانت الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود ، وسببه أن جماعة من عسكر مسعود فارقوه مغاضبين ، واتصلوا بالخليفة المسترشد ، وهونوا عليه قتال السلطان

مسعود فاغتر بكلامهم ، وسار من بغداد إلى قتال السلطان مسعود ، وسار مسعود إليه ، واتفقوا عاشر رمضان من هذه السنة ، فصار غالب عسكر الخليفة مع مسعود وانهزم الباقون ، وأخذ الخليفة المسترشد أسيرًا ونهب عسكره وأسروا ، وبقى المسترشد مع مسعود أسيرًا ، ثم سار به مسعود من همدان إلى مراغة فى شوال لقتال ابن أخيه داود بن محمود فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه فى خيمة منفردة ، وكان قد اتفق مسعود مع الخليفة على مال يحمله الخليفة إليه وأن لايعود يخرج من بغداد واتفق وصول رسول السلطان سَنْجَر إلى مسعود ، فركب مسعود والعساكر لملتقاه فوثبت الباطنية على المسترشد وهو فى تلك الخيمة فقتلوه ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه ، وقتل معه نفر من أصحابه .

وكان قتل المسترشد يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة بظاهر مراغة ، وكان عمره لما قتل ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يومًا ، وأمه أم ولد ، وكان فصيحا حسن الخط شهما .

ذكر خلافة الراشد – وهو الثلاثون من خلفاء بنى العباس

لما قتل المسترشد بالله ، بويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن المسترشد فضل ابن المستظهر أحمد ، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد فى حياته ، ثم بعد قتله جددت له بيعة فى يوم الاثنين السابع والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة ، وكتب مسعود إلى بغداد بذلك ، فحضر بيعته أحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء .

ذكر قتل دُبَيْس

فى هذه السنة : قتل السلطان مسعود دُبَيْس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خُوَنج – أمر غلامًا أرمنيًا بقتله ، فوقف على رأس دبيس وهو ينكث فى الأرض بأصبعه ، فضرب رقبته وهو لا يشعر ، وكان ابنه صدقة بن دُبَيْس بالحِلَّة ، فلما بلغه الخبر اجتمع عليه عسكر أبيه وكثر جمعه ، وما أكثر ما يتفق قرب موت المتعاديين ، فإن دبيسًا كان يعادى المسترشد بالله ، فاتفق قتل أحدهما عقيب قتل الآخر .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : استولى الفرنج على جزيرة جربة من أعمال أفريقية ، وهرب وأسر من كان بها من المسلمين .

وفيها : صالح المستنصر بن هود الفرنج على تسليم حصن زوطة من بلاد الأندلس وسلمه إلى صاحب طليطلة الفرنجى .

ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة :

ذكر ملك شهاب الدين حمص

فى هذه السنة : فى الثانى والعشرين من ربيع الأول تسلم شهاب الدين محمود بن بورى صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها ، وسبب ذلك أن أصحابها أولاد الأمير قيرخان بن قراجا والوالى بها من قبلهم ، ضجروا من كثرة تعرض عماد الدين زنكى إليها وإلى أعمالها ، فراسلوا شهاب الدين فى أن يسلموها إليه ويعطيهم عوضها تدمر فأجابهم إلى ذلك وتسلم حمص وأقطعها المملوك جده معين الدين أتز وسلم إليهم تدمر ، فلما رأى عسكر حلب وحماة خروج حمص إلى صاحب دمشق ، تابعوا على بلدها ، فأرسل شهاب الدين محمود إلى عماد الدين زنكى فى الصلح ، فاستقر بينهما وكف عسكر عماد الدين عن حمص .

ذكر غير ذلك

فيها : سارت عساكر عماد الدين زنكى الذين بحلب وحماة ، ومقدمهم أسوار نائب زنكى بحلب إلى بلاد الفرنج بنواحى اللاذقية ، وأوقعوا بمن هناك من الفرنج ، وكسبوا من الجوارى والمماليك والأسرى والدواب ما ملأ الشام من الغنائم وعادوا سالمين .

ذكر خلع الراشد وخلافة المقتفى
وهو حادى ثلاثينهم

كان الراشد قد اتفق مع بعض ملوك الأطراف مثل عماد الدين زنكى وغيره ، على خلاف السلطان مسعود وطاعة داود ابن السلطان محمود ، فلما بلغ مسعودًا ذلك جمع العساكر وسار إلى بغداد ونزل عليها وحصرها ، ووقع فى بغداد النهب من العيارين والمفسدين ، ودام مسعود محاصرها نيفًا وخمسين يومًا فلم يظفر بهم ، فارتحل إلى النهروان ، ثم وصل طرنطاى صاحب واسط بسفن كثيرة ، فعاد مسعود إلى بغداد ، وعبر إلى غربى دجلة ، واختلفت كلمة عساكر بغداد ، فعاد الملك داود إلى بلاده أذربيجان فى ذى القعدة ، وسار الخليفة الراشد من بغداد مع عماد الدين زنكى إلى الموصل .

ولما سمع مسعود بمسير الخليفة وزنكى ، سار إلى بغداد واستقر بها فى منتصف ذى القعدة ، وجمع مسعود القضاة وكبراء بغداد وأجمعوا على خلع الراشد بسبب أنه كان قد عاهد مسعودًا على أنه لا يقاتله ومتى خالف ذلك فقد خلع نفسه ، وبسبب أمور ارتكبها ، فخلع وحكم بفسقه وخلعه ، وكانت مدة خلافة الراشد أحد عشر شهرًا وأحد عشر يومًا ، ثم استشار السلطان مسعود فيمن يقيمه فى الخلافة فوقع الاتفاق على ابن محمد المستظهر ، فأحضر وأجلس فى الميمنة ، ودخل إليه السلطان مسعود وتحالفا ، ثم خرج السلطان وأحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ولقبوه المقتفى لأمر الله .

والمقتفى : عم الراشد المذكور هو والمسترشد أبناء المستظهر وليا الخلافة – وكذلك السفاح والمنصور أخوان –وكذلك المهدى والرشيد أخوان – وكذلك الواثق والمتوكل ، وأما ثلاثة إخوة ولوا الخلافة : فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد – وكذلك المكتفى والمقتدر والقاهر بنو المعتضد – والراضى والمتقى والمطيع بنو المقتدر ، وأما أربعة إخوة ولوها : فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبدالملك بن مروان لايعرف غيرهم .

وعمل محضر بخلع الراشد ، وأرسل إلى الموصل ، وزاد المقتفى فى إقطاع عماد الدين زنكى وألقابه ، وأرسل المحضر فحكم به قاضى القضاة الزينبى بالموصل ، وخطب للمقتفى فى الموصل فى رجب سنة إحدى وثلاثين .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة :

فيها : عزل الحافظ وزيره بهرام النصرانى الأرمنى بسبب ما اعتمده من تولية الأرمن على

المسلمين وإهانتهم لهم ، فأنف من ذلك شخص يسمى رضوان بن الوكحشى وجمع جمعًا وقصد بهرام فهرب بهرام إلى الصعيد ، ثم عاد وأمسكه الحافظ وحبسه فى القصر ، ثم إن بهرام المذكور ترهب وأطلقه الحافظ ، ولما هرب بهرام استوزر الحافظ رضوان المذكور ولقبه « الملك الأفضل » وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ، ثم إنه فسد ما بين رضوان والحافظ ، فهرب رضوان وجرى له أمور يطول شرحها ، آخرها أن الحافظ قتل رضوان المذكور ولم يستوزر بعده أحدًا ، وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات .

ذكر حصر زنكى حمص ورحيله
إلى بارين وفتحها

فى هذه السنة : نازل عماد الدين زنكى حمص وبها صاحبها معين الدين أنّز ، فلم يظفر بها فرحل عنها فى العشرين من شوال إلى بعرين وحصر قلعتها وهى للفرنج ، وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا إلى زنكى ليرحلوه عن بعرين ، فلما وصلوا إليه لقيهم وجرى بينهم قتال شديد ، فانهزمت الفرنج ودخل كثير من ملوكهم لما هربوا إلى حصن بعرين ، وعاود عماد الدين زنكى حصار الحصن وضيق عليه ، وطلب الفرنج الأمان ، فقرر عليهم تسليم حصن بعرين ، وخمسين ألف دينار يحملونها إليه ، فأجابوا إلى ذلك فأطلقهم وتسلم الحصن وخمسين ألف دينار .

وكان زنكى فى مدة مقامه على حصار بعرين قد فتح المعرة وكفر طاب وأخذهما من الفرنج ، وحضر أهل المعرة وطلبوا تسليم أملاكهم التى كان قد أخذها الفرنج ، فطلب زنكى منهم كتب أملاكهم ، فذكروا أنها عدمت ، فكشف من ديوان حلب عن الخراج وأفرج عن كل ملك كان عليه الخراج لأصحابه .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة :

ذكر ملك عماد الدين زنكى
حمص وغيرها

فى هذه السنة : فى المحرم وصل زنكى إلى حماة وسار منها إلى بقاع بعلبك ، فملك حصن المجدل ، وكان لصاحب دمشق ، وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وسار إلى حمص وحصرها ،

ثم رحل عنها إلى سَلَمْيَة بسبب نزول الروم على حلب على ما نذكره ، ثم عاد إلى منازلة حمص فسلمت إليه المدينة والقلعة .

أرسل عماد الدين زنكى وخطب أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق وتزوجها واسمها زمرّد خاتون بنت جاولى وهى التى قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل بن بورى وهى التى بنت المدرسة المطلة على وادى الشقرا بظاهر دمشق ، وحملت الخاتون إلى عماد الدين فى رمضان ، وإنما تزوجها طمعًا فى الاستيلاء على دمشق ، لما رأى من تحكمها فلما خاب ما أمله ولم يحصل على شيء أعرض عنها .

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وما فعله

كان قد خرج ملك الروم متجهزًا من بلاده فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فاشتغل بقتال الأرمن وصاحب أنطاكية وغيره من الفرنج ، فلما دخلت هذه السنة وصل إلى الشام وسار إلى بُزاعة وهى على ستة فراسخ من حلب وحاصرها وملكها بالأمان فى الخامس والعشرين من رجب ، ثم غدر بأهلها وقتل فيهم وأسر وسبى ، وتنصر قاضيها وقدر أربعمائة نفس من أهلها ، وأقام على بزاعة بعد أخذها عشرة أيام ، ثم رحل عنها بمن معه من الفرنج إلى حلب ، ونزل على فويق وزحف على حلب وجرى بين أهلها وبينهم قتال كثير ، فقتل من الروم بطريق عظيم القدر عندهم ، فعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى الأثارب وملكوها وتركوا فيها سبايا بزاعة وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم ، وسار ملك الروم بجموعه من الأثارب نحو شيزر فخرج الأمير أَسْوارٌ نائب زنكى بحلب بمن عنده ، وأوقع بمن فى الأثارب من الروم فقتلهم ، واسْتَفَكّ أسرى بزاعة وسباياها ، وسار ملك الروم بجموعه إلى شيزر وحصرها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا ، وأرسل صاحب شيزر أبو العساكر سلطان بن على بن مقلد ابن نصر بن منقذ الكنانى إلى زنكى يستنجده ، فسار زنكى ونزل على العاصى بين حماة وشيزر ، وكان يركب عماد الدين زنكى وعسكره كل يوم ويشرفون على الروم وهم محاصرون لشيزر بحيث يراهم الروم ، ويرسل السرايا فيأخذون كل ما يظفرون به منهم ، وأقام ملك الروم محاصرًا شيزر أربعة وعشرين يومًا ، ثم رحل عنها من غير أن ينال منها غرضًا ، وسار زنكى فى أثر الروم فظفر بكثير ممن تخلف منهم ، ومدح الشعراء زنكى بسبب ذلك فأكثروا ، فمن ذلك ما قاله مسلم بن خضر بن قَسِيْم الحموى من أبيات :

لعزمك أيها الملك العظيم ... تذلُّ لك الصعابُ وتستقيمُ

أَلَم تر أن كلب الروم لما تبين أنه الملك الرحيم
وقد نزل الزمان على رضاه ودان لخطبه الخطب العظيم
فحين رميته بك فى خميس تيقن فوت ما أمسى يروم
كأنك فى العجاج شهاب نور توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى وليس سوى الحمام له حميم

ذكر مقتل الراشد

كان الراشد قد سار من بغداد إلى الموصل مع عماد الدين زنكى وخلع كما تقدم ذكره ، ثم فارق الراشد زنكى وسار من الموصل إلى مراغة ، واتفق الملك داود ابن السلطان محمود وملوك تلك الأطراف على خلاف السلطان مسعود وقتاله وإعادة الراشد إلى الخلافة ، فسار السلطان مسعود إليهم واقتتلوا ، فانهزم داود وغيره ، واشتغل أصحاب السلطان مسعود بالكسب وبقى وحده ، فحمل عليه أميران يقال لهما بوزابة وعبدالرحمن طغايرك ، فانهزم مسعود من بين أيديهما ، وقبض بوزابة على جماعة من أمرائه وعلى صدقة بن دُبيس صاحب الحلة ، ثم قتلهم أجمعين .

وكان الراشد إذ ذاك بهمدان ، فلما كان من الوقعة ما كان سار الملك داود إلى فارس وتفرقت تلك الجموع ، وبقى الراشد وحده فسار إلى أصفهان ، فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا فى خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة ، وكان من أعقاب مرض قد برئ منه ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان ، ولما وصل خبر قتل الراشد إلى بغداد جلسوا لعزائه يومًا واحدًا .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : ملك حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين قلعة الهناخ من ديار بكر أخذها من بعض بنى مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهو آخر من بقى منهم .

وفيها : قتل السلطان مسعود البقش شحنة بغداد .

وفيها : جاءت زلزلة عظيمة بالشام والعراق وغيرهما من البلاد فخربت كثيرًا وهلك تحت الهدم عالم كثير .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة :

ذكر الحرب بين السلطان سَنجر وخُوارزم شاه

فى هذه السنة : فى المحرم سار سنجر بجموعه إلى خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوش تكين ، وقد تقدم ذكر ابتداء أمر محمد بن أنوش تكين فى سنة تسعين وأربعمائة ، ووصل سنجر إلى خوارزم ، وخرج خوارزم شاه لقتاله واقتتلوا ، فانهزم أتسز خوارزم شاه ، واستولى سنجر على خوارزم ، وأقام بها من يحفظها ، وعاد إلى مرو فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، وبعد أن عاد سنجر إلى بلاده عاد أتسز إلى خوارزم واستولى عليها .

ذكر قتل محمود صاحب دمشق

فى هذه السنة : فى شوال قتل شهاب الدين محمود بن بورى بن طغتكين صاحب دمشق ، قتله غيلة على فراشه ثلاثة من خواص غلمانه وأقرب الناس منه ، وكانوا ينامون عنده فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا ، فنجا أحدهم وأخذ الاثنان وصلبا ، واستدعى معين الدين أنَز أخاه جمال الدين محمد بن بورى ، وكان صاحب بعلبك ، فحضر إلى دمشق وملكها .

ذكر ملك زنكى بعلبك

فى هذه السنة : فى ذى القعدة سار عماد الدين زنكى إلى بعلبك ووصل إليها فى العشرين من ذى الحجة وحصرها ، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقًا ، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وسلموا إليه المدينة ، واستمر الحصار على القلعة حتى طلبوا الأمان أيضًا فأمنهم وسلموا إليه القلعة ، فلما نزلوا منها وملكها غدربهم وأمر فصلبوا عن آخرهم ، فاستقبح الناس ذلك واستعظموه وحذره الناس ، وكانت بعلبك لمعين الدين أنَز ، أعطاه إياها جمال الدين محمد لما ملك دمشق ، وكان أنَز قد تزوج بأم جمال الدين محمد صاحب دمشق ، وكان له جارية يحبها

فأخرجها أنَز إلى بعلبك ، فلما ملك بعلبك أخذ الجارية المذكورة وتزوجها فى حلب ، وبقيت مع زنكى حتى قتل على قلعة جعبر فأرسلها ابنه نور الدين محمود بن زنكى إلى أنَز ، وهى كانت أعظم الأسباب فى المودة بين نور الدين وأنَز .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : توالت الزلازل بالشام ، وخربت كثير من البلاد لاسيما حلب فإن أهلها فارقوا بيوتهم وخرجوا إلى الصحراء ، ودامت من رابع صفر إلى تاسع عشره .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : سار عماد الدين زنكى إلى دمشق وحصرها وزحف عليها وبذل لصاحبها جمال الدين محمد بعلبك وحمص فلم يأمنوا إليه بسبب غدره بأهل بعلبك وكان نزوله على داريا فى ثالث عشر ربيع الأول ، واستمر منازلا لدمشق ، فمرض فى تلك المدة جمال الدين محمد بن بورى صاحب دمشق ومات فى ثامن شعبان ، فطمع زنكى حينئذ فى ملك دمشق وزحف إليها واشتد القتال فلم ينل غرضا ، ولما مات جمال الدين محمد أقام معين الدين أنَز فى الملك ولده مجير الدين أرتق بن محمد بن بورى بن طغتكين ، واستمر أنَز يدير الدولة ، فلم يظهر لموت جمال الدين محمد أثر ، ثم رحل زنكى ونزل بعذرا من المرج فى سادس شوال ، وأحرق عدة من قرى المرج ورحل عائدًا إلى بلاده .

وفى هذه السنة : ملك زنكى شهرزور وأخذها من صاحبها قبجق بن ألب أرسلان شاه التركمانى ، وبقى قبجق فى طاعة زنكى ومن جملة عسكره .

وفيها : قتل المقرب جوهر من كبراء عسكر سنجر ، وكان قد عظم فى الدولة ، وكان من جملة إقطاع المقرب المذكور الرى ، قتله الباطنية ووقفوا له فى زى النساء واستغثن به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه .

وفيها : توفى هبة الله بن الحسين بن يوسف المعروف بالبديع الأسطرلابى ، وكانت له اليد الطولى فى عمل الأسطرلاب والآلات الفلكية ، وله شعر جيد وأكثره فى الهزل .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : وصل رسول السلطان سنجر ومعه بردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب وكانا أخذا من المسترشد ، فأعادهما الآن إلى المقتفى .

وفى هذه السنة : ملك الإسماعيلية حصن مصياث بالشام ، وكان واليه مملوكًا لبنى منقذ أصحاب شيزر ، فاحتال عليه الإسماعيلية ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن .

وفيها : توفى الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان قتيلا فى فندق بمراكش ، وكان فاضلا فى الأدب ، ألف عدة كتب منها قلائد العقيان ، ذكر فيه عدة من الفضلاء وأشعارهم ، ولقد أجاد فيه .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى المحرم وقيل فى صفر كان المصاف العظيم بين الترك الكفار من الخطا وبين السلطان سنجر ، فإن خوارزم شاه أتسز بن محمد لما هزمه سنجر وقتل ولد أتسز عظم ذلك عليه وكاتب الخطا وأطمعهم فى ملك ما وراء النهر ، فساروا فى جمع عظيم ، وسار إليهم السلطان سنجر فى جمع عظيم ، والتقوا بما وراء النهر فانهزم عسكر سنجر وقتل منهم خلق عظيم ، وأسرت امرأة سنجر ، ولما تمت الهزيمة على الميزان سار خوارزم شاه أتسز إلى خراسان ونهب من أموال سنجر ومن بلادها شيئا كثيرًا ، واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : بعث عماد الدين زنكى جيشًا ففتحوا قلعة أشب ، وكانت من أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها ، ولما ملكها زنكى أمر بإخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضًا عنها ، وكانت العمادية حصنًا عظيما خرابًا ، فلما عمره عماد الدين زنكى سمى العمادية نسبة إليه .

وفيها : سارت الفرنج فى البحر من صقلية إلى طرابلس الغرب فحصروها ثم عادوا عنها .

وفيها : توفى محمد بن الدانشمند صاحب ملطية والثغر ، واستولى على بلاده الملك مسعود ابن قليج أرسلان السلجوقى صاحب قونية .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : كان الصلح بين السلطان مسعود وبين عماد الدين زنكى .

وفيها : سار زنكى بعساكره إلى ديار بكر ففتح منها طنزة واستعرد وحيزان وحصن الروق وحصن قطليس وحصن باتاسا وحصن ذى القرنين ، وأخذ من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج جملين والموزر وتل موزر من حصون شختان .

وفيها : سار السلطان سنجر بعساكره إلى خوارزم ، وحصر أتسز بها ، فبذل خوارزم شاه أتسز الطاعة فأجابه سنجر إلى ذلك واصطلحا وعاد سنجر إلى مرو .

وفيها : ملك زنكى عانة من أعمال الفرات .

وفيها : قتل داود ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، قتله جماعة اغتالوه ولم يعرفوا .

وفيها : توفى أبو القاسم محمود بن عمر النحوى الزمخشرى ، ولد فى رجب سنة سبع وستين وأربعمائة ، وهو من زمخشر : قرية من قرى خوارزم ، كان إمامًا فى العلوم ، صنف الفصل فى النحو والكشاف فى التفسير وجهر القول فيه بالاعتزال وافتتحه بقوله : الحمد لله الذى خلق القرآن منجما ، ثم أصلحه أصحابه فكتبوا : الحمد لله الذى أنزل القرآن ، وله غير ذلك من المصنفات ، فمنها كتاب الفائق فى غريب الحديث ، وقدم الزمخشرى بغداد وناظر بها ثم حج ، وجاور بمكة سنين كثيرة فسمى لذلك جار الله ، وكان حنفى الفروع ، معتزلى الأصول ، وللزمخشرى نظم حسن ، فمنه من جملة أبيات :

فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت عيونهم والله يجزى من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة ولم أر فى الدنيا صفاء بلا كدر

ومن شعره يرثى شيخه أبا مضر منصورًا :

وقائلة ما هذه الدرر التى تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها الدر الذى كان قد حشا أبو مضر أذنى تساقط من عينى

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فتح عماد الدين زنكى الرها من الفرنج بالسيف بعد حصار ثمانية وعشرين يومًا ، ثم تسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ، وأما البيرة فنزل عليها وحاصرها ، ثم رحل عنها بسبب قتل نائبه بالموصل وهو نصير الدين جقر ، وسبب قتله أنه كان عند زنكى ألب أرسلان ابن السلطان محمود بن محمد السلجوقى ، وكان زنكى يقول : إن البلاد التى بيدى إنما هى لهذا الملك ألب أرسلان المذكور وأنا أتابكه ، ولهذا سمى أتابك زنكى ، وكان ألب أرسلان المذكور بالموصل وجقر يقوم بوظائف خدمته ، فحسن بعض المناحيس لألب أرسلان المذكور قتل جقر وأخذ البلاد من عماد الدين زنكى ، فلما دخل جقر إلى ألب أرسلان على عادته وثب عليه من عند ألب أرسلان فقتلوه ، فاجتمعت كبراء دولة زنكى وأمسكوا ألب أرسلان ولم يطعه أحد ، ولما بلغ زنكى ذلك وهو محاصر للبيرة عظم عليه قتل جقر وخشى من الفتن فرحل عن البيرة لذلك ، وخشى الفرنج الذين بها من معاودة الحصار ، وعلموا بضعفهم عن عماد الدين فراسلوا نجم الدين صاحب ماردين وسلموا البيرة إليه وصارت للمسلمين .

وفيها : خرج أسطول الفرنج من صقلية إلى ساحل أفريقية وملكوا مدينة برسك وقتلوا أهلها وسبوا الحريم .

وفيها : توفى تاشفين بن علىّ بن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب ، وولى بعده أخوه إسحق بن علىّ ، وضعف أمر الملثمين وقوى عبدالمؤمن ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سنة أربع عشرة وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة :

وفيها : هرب على بن دبيس بن صدقة من السلطان مسعود ، وكان قد أراد حبسه فى قلعة تكريت ، فهرب إلى الحلة واستولى عليها وكثر جمعه وقويت شوكته .

وفيها : اعتقل الخليفة المقتفى أخاه أبا طالب وضيق عليه ، وكذلك احتاط على غيره من أقاربه .

وفيها : ملك الفرنج شنترين وتاجّر وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس .

وفيها : توفى مجاهد الدين بهروز ، وحكم فى العراق نيفًا وثلاثين سنة ، وكان بهروز خصيًّا أبيض .

وفيها : توفى الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى اللغوى ، ومولده فى ذى الحجة سنة خمس وستين وأربعمائة ، أخذ اللغة عن أبى زكريا التبريزى ، وكان يؤم بالخليفة المقتفى ، وكان طويل الصمت ، كثير التحقيق ، لا يقول الشىء إلا بعد فكر كثير ، وكان يقول كثيرًا إذا سئل لا أدرى ، وأخذ العلم عنه جماعة منهم تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندى ، ومحب الدين أبو البقاء ، وعبد بن سكينة .

وفيها : توفى أبو بكر يحيى بن عبدالرحمن بن تقى الأندلسى القرطبى ، الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة ، ومن شعره ما أورده فى قلائد العقيان :

يا أفتك الناس ألحاظًا وأطيبهم	ريقًا متى كان فيك الصاب والعسل
فى صحن خدك وهو الشمس طالعة	ورد يزيدك فيه الراح والخجل
إيمان حبك فى قلبى مجدده	من خدك الكتب أو من لحظك الرسل
إن كنت تجهل أنى عبد مملكة	مرنى بما شئت آتيه وأمتثل
لو اطلعت على قلبى وجدت به	من فعل عينيك جرحًا ليس يندمل

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة :

ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب

وسبب ملكها أنهم نزلوا عليها وحصروها ، فلما كان اليوم الثالث من نزولهم سمع الفرنج فى المدينة ضجة عظيمة ، وخلت الأسوار من المقاتلة ، وكان سببه أن أهل طرابلس اختلفوا ، فأراد طائفة منهم تقديم رجل من الملثمين ليكون أميرهم ، وأرادت طائفة أخرى تقديم بنى مطروح فوقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار فانتهز الفرنج الفرصة وصعدوا بالسلالم وملكوها بالسيف فى المحرم من هذه السنة ، وسفكوا دماء أهلها ، وبعد أن استقر الفرنج فى ملك طرابلس بذلوا الأمان لمن بقى من أهل طرابلس وتراجعت إليها الناس وحسن حالها .

ذكر حصار عماد الدين زنكى حصنى جعبر وفنك ومقتله

فى هذه السنة : سار زنكى ونزل على قلعة جعبر وحصرها وصاحبها على بن مالك بن سالم ابن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلى ، وأرسل عسكرًا إلى قلعة فنك وهى تجاور جزيرة ابن عمر فحصرها أيضًا وصاحبها حسام الدولة الكردى البشنوى - ولما طال على زنكى منازلة قلعة جعبر أرسل مع حسان البعلبكى الذى كان صاحب منبج يقول لصاحب قلعة جعبر : قل لى مَنْ يخلصك منى ، فقال صاحب قلعة جعبر لحسان : يخلصنى منك الذى خلصك من بلك بن بهرام بن أرتق، وكان بلك محاصرًا لمنبج فجاءه سهم قتله ، فرجع حسان إلى زنكى ولم يخبره بذلك ، فاستمر زنكى منازلا قلعة جعبر ، فوثب عليه جماعة من مماليكه وقتلوه فى خامس ربيع الآخر من هذه السنة بالليل وهربوا إلى قلعة جعبر ، فصاح مَنْ بها على العسكر وأعلموهم بقتل زنكى ، فدخل أصحابه إليه وبه رمق ، وكان عماد الدين زنكى حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان قد زاد عمره على ستين سنة ، ودفن بالرقة ، وكان شديد الهيبة على عسكره عظيمها ، وكان له الموصل وما معها من البلاد ، وملك الشام خلا دمشق ، وكان شجاعًا ، وكانت الأعداء محيطة بمملكته من كل جهة وهو ينتصف منهم ويستولى على بلادهم .

ولما قتل زنكى كان ولده نور الدين محمود حاضرًا عنده ، فأخذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه ، وسار إلى حلب فملكها ، وكان صحبة زنكى أيضًا الملك ألب أرسلان بن محمود بن

السلطان محمد السلجوقى ، فركب فى يوم قتل زنكى واجتمعت عليه العساكر ، فحسن له بعض أصحاب زنكى الأكل والشرب وسماع المغانى ، فسار ألب أرسلان إلى الرقة وأقام بها منعكفًا على ذلك ، وأرسل كبراء دولة زنكى إلى ولده سيف الدين غازى بن زنكى يعلمونه بالحال وهو بشهرزور ، فسار إلى الموصل واستقر فى ملكها ، وأما ألب أرسلان فتفرقت عنه العساكر ، وسار إلى الموصل يريد ملكها ، فلما وصل قبض عليه غازى بن زنكى وحبسه فى قلعة الموصل ، واستقر ملك سيف الدين غازى للموصل وغيرها .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : أرسل عبدالمؤمن بن علىّ جيشًا إلى جزيرة الأندلس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام واستولوا عليها .

وفيها : بعد قتل عماد زنكى ، قصد صاحب دمشق مجير الدين أبق حصن بعلبك وحصره ، وكان به نجم الدين أيوب بن شاذى مستحفظًا ، فخاف أن أولاد زنكى لا يمكنهم إنجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة إليه ، وأخذ منه إقطاعًا ومالا ، وملكه عدة قرى من بلاد دمشق ، وانتقل أيوب إلى دمشق وسكنها وأقام بها .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : دخل نورالدين محمود بن زنكى صاحب حلب بلاد الفرنج ، ففتح منها مدينة أرتاح بالسيف وحصر مأمولة وبصرفوت وكفرلانا .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة :

ذكر ملك الفرنج المهدية بإفريقية وحال مملكة بنى باديس

كان قد حصل بإفريقية غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضًا ، ودام من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى هذه السنة ، ففارق الناس القرى ، ودخل أكثرهم إلى جزيرة صقلية ، فاغتنم رجار الفرنجى صاحب صقلية هذه الفرصة ، وجهز أسطولا نحو مائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحًا ، واسم مقدمهم جرج وساروا من صقلية إلى جزيرة قوصرة وهى مابين المهدية وصقلية وساروا منها وأشرفوا على المهدية ثانى صفر من هذه السنة .

وكان فى المهدية الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب إفريقية ، فجمع كبراء البلد واستشارهم ، فرأو اضعف حالهم وقلة المؤونة عندهم ، فاتفق رأى

الأمير حسن بن عليّ على إخلاء المهدية فخرج منها ، وأخذ معه ما خف حمله ، وخرج أهل المهدية على وجوههم بأهليهم وأولادهم ، وبقى الأسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول إلى المهدية ، ثم دخلوا المهدية بعد مضى ثلثى النهار المذكور بغير ممانع ولا مدافع ، ولم يكن قد بقى من المسلمين بالمهدية ممن عزم على الخروج أحد ودخل جرج مقدم الفرنج إلى قصر الأمير حسن بن عليّ فوجده على حاله لم يعدم منه إلا ما خف حمله ، ووجد فيه جماعة من حظايا الحسن بن على ، ووجد الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة من كل شىء غريب يقل وجود مثله ، وسار الأمير حسن بأهله وأولاده إلى بعض أمراء العرب ممن كان يحسن إليه.وأقام عنده ، وأراد الحسن المسير إلى الخليفة العلوى الحافظ صاحب مصر ، فلم يقدر على المسير لخوف الطرق فسار إلى ملك بجاية يحيى بن العزيز من بنى حماد ، فوكل يحيى المذكور على الحسن وعلى أولاده من يمنعهم من التصرف ، ولم يجتمع يحيى بهم ، وأنزلهم فى جزائر بنى مزغنان ، وبقى الحسن كذلك حتى ملك عبدالمؤمن بن عليّ بجاية فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وأخذها هى وجميع ممالك بنى حماد ، فحضر الأمير الحسن عنده ، فأحسن إليه عبدالمؤمن وأكرمه ، واستمر على ذلك فى خدمة عبدالمؤمن إلى أن فتح المهدية فأقام فيها واليًا من جهته وأمره أن يقتدى برأى الأمير حسن ويرجع إلى قوله .

وكان عدة من ملك من بنى باديس بن زيرى بن مناذ إلى الحسن تسعة ملوك ، وكانت ولايتهم فى سنة إحدى وستين وثلثمائة ، وانقضت فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم إن جرج بذل الأمان لأهل المهدية ، وأرسل وراءهم بذلك وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع فتراجعوا إلى المهدية .

ذكر حصر الفرنج دمشق

فى هذه السنة : سار ملك الألمان ، والألمان بلادهم وراء القسطنطينية حتى وصل إلى الشام فى جمع عظيم ، ونزل على دمشق وحصرها وصاحبها مجير الدين أُرتق بن محمد بن بورى بن طغتكين ، والحكم وتدبير المملكة إنما هو لمعين الدين أُنَز مملوك جده طغتكين وفى سادس ربيع الأول زحفوا على مدينة دمشق ، ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر ، وأرسل أُنَز إلى سيف الدين غازى صاحب الموصل يستنجده ، فسار بعسكره من الموصل إلى الشام ، وسار معه أخوه نور الدين محمود بعسكره ونزلوا على حمص ، ففت ذلك فى أعضاد الفرنج ، وأرسل أُنَز إلى فرنج الشام ، يبذل لهم تسليم قلعة بانياس فتخلوا عن ملك الألمان ، وأشاروا عليه بالرحيل ، وخوفوه من أمداد المسلمين ، فرحل عن دمشق وعاد إلى بلاده ، وسلم أُنَز قلعة بانياس إلى الفرنج حسبما شرطه لهم .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : كان بين نور الدين محمود وبين الفرنج مصاف بأرض يغرى من العمق فانهزم الفرنج ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة ، وأرسل من الأسرى والغنيمة ، إلى أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل .

وفيها : ملك الفرنج من الأندلس مدينة طرطوشة وجميع قلاعها وحصون لاردة .

وفيها : كان الغلاء العام من خراسان إلى العراق إلى الشام إلى بلاد المغرب .

وفى ربيع الأول من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، قتل نور الدولة شاهنشاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ، قتله الفرنج لما كانوا منازلين دمشق ، فجرى بينهم وبين المسلمين مصاف قتل فيه شاهنشاه المذكور ، وهو أبو الملك المظفر عمر صاحب حماة ، وأبو فرخشاه صاحب بعلبك ، وكان شاهنشاه أكبر من صلاح الدين وكانا شقيقين .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة :

ذكر وفاة غازى بن زنكى

فى هذه السنة : توفى سيف الدين غازى بن عماد الدين أتابك زنكى صاحب الموصل بمرض حاد فى أواخر جمادى الآخرة ، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً وكان حسن الصورة ، ومولده سنة خمسمائة ، وخلف ولداً ذكراً ، فرباه عمه نور الدين وأحسن تربيته ، وتوفى المذكور شاباً ، وانقرض بموته عقب سيف الدين غازى .

وكان سيف الدين المذكور كريماً ، يصنع لعسكره كل يوم طعاماً كثيراً بكرة وعشية ، وهو أول من حمل على رأسه السنجق فى ركوبه ، وأمر الأجناد ألا يركبوا إلا بالسيوف فى أوساطهم ، والدبوس تحت ركبهم ، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف ، ولما توفى سيف الدين غازى ، كان أخوه قطب الدين مودود بن زنكى مقيما بالموصل ، فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تمليكه فحلفاه وحلفا له ، وكذلك باقى العسكر ، وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين – ولما تملك تزوج الخاتون ابنة تمرتاش صاحب ماردين ، وكان أخوه سيف الدين قد تزوجها ومات قبل الدخول بها ، وهى أم أولاد قطب الدين .

ذكر وفاة الحافظ لدين الله العلوى وولاية الظافر

فى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، توفى الحافظ لدين الله عبدالمجيد ابن الأمير أبى القاسم بن المستنصر العلوى صاحب مصر ، وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر ، وكان عمره نحو سبع وسبعين سنة ، ولم يل الخلافة من العلويين المصريين مَنْ أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد على ما سنذكره .

ولما توفى الحافظ بويع بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسمعيل بن الحافظ عبدالمجيد ، واستوزر ابن مصال فبقى أربعين يومًا ، وحضر من الاسكندرية العادل بن السلار ، وكان قد خرج ابن مصال من القاهرة فى طلب بعض المفسدين فأرسل العادل بن السلار ربيبه عباس ابن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى ، وكان أبوه أبو الفتوح قد فارق أخاه على بن يحيى صاحب أفريقية وقدم إلى الديار المصرية وتوفى بها ، فتزوج العادل بن السلار بزوجة أبى الفتوح المذكور ومعها ولدها عباس بن أبى الفتوح ، فرباه العادل وأحسن تربيته ، ولما قدم العادل إلى مصر يريد الاستيلاء على الوزارة أرسل ربيبه عباسًا فى عسكر إلى ابن مصال ، فظفر به عباس وقتله وعاد إلى العادل بالقاهرة ، فاستقر العادل فى الوزارة وتمكن ، ولم يكن للخليفة الظافر معه حكم ، وبقى العادل كذلك إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، فقتله ربيبه عباس المذكور ، وتولى الوزارة على ما سنذكره .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : حصر نور الدين محمود بن زنكى حصن حارم ، فجمع البرنس صاحب أنطاكية الفرنج وسار إلى نور الدين واقتتلوا ، فانتصر نور الدين وقتل البرنس ، وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم ، ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل وتزوجت أمه برجل آخر وتسمى بالبرنس ، ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى فهزمهم وقتل فيهم وأسر ، وكان فيمن أسر البرنس الثانى زوج أم بيمند ، فتمكن حينئذ بيمند فى ملك أنطاكية .

وفيها : زلزلت الأرض زلزلة شديدة .

وفيها : توفى معين الدين أنَز صاحب دمشق ، وهو الذى كان إليه الحكم فيها ، وإليه ينسب

وفيها : تولى أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفى يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر ، وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام .

وفيها : توفى القاضى ناصح الدين الأرجانى ، وأرجان من أعمال تستر ، وتولى المذكور قضاء تستر ، واسمه أحمد بن محمد بن الحسين وله الشعر الفائق ، فمن ذلك قوله :

ولما بلوتُ الناسَ أطلب عندهم　　أخا ثقة عند اعتراض الشدائد
تطلعتُ فى حالى رخاءٍ وشدةٍ　　وناديتُ فى الأحياء هل من مساعد
فلم أر فيما ساءنى غير شامت　　ولم أر فيما سرنى غير حاسد
تمتعتما يا ناظرى بنظرة　　وأوردتما قلبى أمر الموارد
أعينىّ كفا عن فؤادى فإنه　　من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وفيها : توفى بمراكش القاضى عياض بن موسى بن عياض السبتى ، ومولده بها فى سنة ست وسبعين وأربعمائة ، أحد الأئمة الحفاظ الفقهاء المحدثين الأدباء وتآليفه وأشعاره شاهدة بذلك ، ومن تصانيفه الإكمال فى شرح كتاب مسلم ، ومشارق الأنوار فى تفسير غريب الحديث .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : رابع عشر المحرم ، أخذت العرب جميع الحجاج بين مكة والمدينة ، ذكر أن اسم ذلك المكان الغرابى فهلك أكثرهم ، ولم يصل منهم إلى البلاد إلا القليل .

وفيها : سارنور الدين محمود بن زنكى إلى فامية وحصر قلعتها ، وتسلمها من الفرنج وحصنها بالرجال والذخائر ، وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنها فملكها قبل وصولهم ، فلما بلغهم فتحها تفرقوا .

وفيها : سار الأدفونش صاحب طليطلة بجموع الفرنج إلى قرطبة وحصرها ثلاثة أشهر ثم رحل عنها ولم يملكها .

وفيها : مات الأمير علىّ بن دُبيس بن صدقة صاحب الحلة .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة :

ذكر هزيمة نور الدين من جوسلين
ثم أسر جوسلين

كان جوسلين من أعظم فرسان الفرنج ، قد جمع بين الشجاعة وجودة الرأى ، وكان نور الدين قد عزم على قصد بلاده ، فجمع جوسلين الفرنج فأكثر وسار نحو نور الدين والتقوا ، فانهزم المسلمون وقتل وأسر منهم جمع كثير ، وكان من جملة من أسر السلحدار ومعه سلاح نور الدين ، فأرسله جوسلين إلى مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية وأقسرا وقال : هذا سلاح زوج ابنتك وسآتيك بعده بما هو أعظم منه ، فعظم ذلك على نور الدين وهجر الملاذ وافتكر فى أمر جوسلين ، وجمع التركمان ، وبذل لهم الوعود إن ظفروا به إما بإمساك أو بقتل ، فاتفق أن جوسلين طلع إلى الصيد فكبسه التركمان وأمسكوه ، فبذل لهم مالاً فأجابوه إلى إطلاقه ، فسار بعض التركمان وأعلم أبا بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب ، فأرسل عسكرًا كبسوا التركمان الذين عندهم جوسلين وأحضروه إلى نور الدين أسيرًا .

وكان أسر جوسلين من أعظم الفتوح ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، ولما أسر سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وقلاعه فملكها ، وهى تل باشر وعين تاب وذلوك وعزاز وتل خالد وقورس والرواندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفر سود وكفر لاثا ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك فى مدة يسيرة ، وكان نور الدين كلما فتح منها موضعًا حصنه بما يحتاج إليه من الرجال والذخائر .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة :

من الكامل فى هذه السنة : سار عبدالمؤمن بن على إلى بجاية وملكها ، وملك جميع ممالك بنى حماد وأخذها من صاحبها يحيى بن العزيز بن حماد آخر ملوك بنى حماد ، وكان يحيى المذكور مولعًا بالصيد واللهو ، لا ينظر فى شىء من أمور مملكته ، ولما هزم عبدالمؤمن عسكر يحيى - هرب يحيى وتحصن بقلعة قسطنطينية من بلاد بجاية ، ثم نزل يحيى إلى عبدالمؤمن بالأمان فأمنه وأرسله إلى بلاد المغرب وأقام بها ، وأجرى عبدالمؤمن عليه شيئا كثيرًا - وقد ذكر فى تاريخ القيروان : أن مسير عبدالمؤمن وملكه تونس وأفريقية إنما كان فى سنة أربع وخمسين وخمسمائة .

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه وملك ملكشاه ومحمد ابنى محمود

فى هذه السنة : وقيل فى أواخر سنة ست وأربعين فى أول رجب ، توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان ، ومولده سنة اثنتين وخمسمائة فى ذى القعدة ، ومات معه سعادة البيت السلجوقى ، فلم يقم لهم بعده راية يعتدبها ، وكان حسن الأخلاق ، كثير المزاح والانبساط مع الناس ، كريمًا عفيفًا عن أموال الرعايا .

ولما مات عهد بالملك إلى ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، فقعد فى السلطنة ، وخطب له ، وكان المتغلب على المملكة أميرًا يقال له : خاص بك ، وأصله صبى تركمانى اتصل بخدمة السلطان مسعود ، فتقدم على سائر أمرائه ، ثم إن خاص بك المذكور قبض على السلطان ملكشاه بن محمود وسجنه وأرسل إلى أخيه محمد بن محمود وهو بخورستان فأحضره وتولى السلطنة ، وجلس على السرير ، وكان قصد خاص بك أن يمسكه ويخطب لنفسه بالسلطنة ، فبدره السلطان محمد فى ثانى يوم وصوله ، فقتل خاص بك وقتل معه زنكى الجاندار ، وألقى برأسيهما فتفرق أصحابهما .

ذكر فتح دلوك

فى هذه السنة : جمعت الفرنج وساروا إلى نور الدين وهو محاصر دلوك ، فرحل عنها وقاتلهم أشد قتال رآه الناس ، وانهزمت الفرنج ، وقتل وأسر كثير منهم ، ثم عاد نور الدين إلى دلوك فملكها ، ومما مدح به فى ذلك اليوم :

أعدتَ بعصرك هذا الجديـ ـد فتوح النبى وأعصارها
وفى تل باشر باشرتهم بزحف تسوّر أسوارها
وإن دالكتهم دلوك فقد أسرت فصدقت أخبارها

ذكر ابتداء ظهور الملوك الغورية وانقراض دولة آل سبكتكين

أول من اشتهر من الملوك الغورية أولاد الحسين ، وأولهم محمد بن الحسين ، وكان قد صاهر بهرام شاه بن مسعود صاحب غزنة من آل سبكتكين ، وسار محمد بن الحسين المذكور إلى غزنة

يظهر الطاعة لبهرام شاه ويبطن الغدر فأمسكه بهرام شاه وقتله ، فتولى بعده فى ملك الغورية أخوه سودى بن الحسين وسار إلى غزنة طالبًا بثأر أخيه ، وجرى القتال بينه وبين بهرام شاه ، فظفر بهرام شاه بسودى وقتله أيضًا وانهزم عسكره ، ثم ملك بعدهما أخوهما علاء الدين الحسين ابن الحسين وسار إلى غزنة ، فانهزم عنها صاحبها بهرام شاه واستولى علاء الدين الحسين على غزنة وأقام فيها أخاه سيف الدين سام بن الحسين ، وعاد علاء الدين الحسين بن الحسين إلى الغور ، فكاتب أهل غزنة بهرام شاه فسار إليهم واقتتل مع سيف الدين الغورى ، فانتصر بهرام شاه وظفر بسيف الدين سام فقتله ، واستقر بهرام شاه فى ملك غزنة .

ثم توفى بهرام شاه ، وملك بعده ابنه خسرو شاه ، وتجهز علاء الدين الحسين ملك الغورية وسار إلى غزنة فى سنة خمسين وخمسمائة ، فلما قرب منها فارقها صاحبها خسرو شاه بن بهرام شاه وسار إلى لهاوور ، وملك علاء الدين الحسين بن الحسين غزنة ونهبها ثلاثة أيام ، وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم ، وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية ، وأقام الحسين على ذلك مدة ، واستعمل على غزنة ابنى أخيه وهما غياث الدين محمد بن سام وأخوه شهاب الدين محمد بن سام ، ثم جرى بينهما وبين عمهما علاء الدين الحسين حرب انتصرا فيه على عمهما وأسراه ، ولما أسراه أطلقاه وأجلساه على التخت ووقفا فى خدمته واستمر عمهما فى السلطنة ، وزوج غياث الدين بابنته وجعله ولىّ عهده ، وبقى كذلك إلى أن مات علاء الدين الحسين بن الحسين فى سنة ست وخمسين وخمسمائة على ما سنذكره ، وملك بعده غياث الدين محمد بن سام بن الحسين ، وخطب لنفسه فى الغور وغزنة بالملك ، ثم استولى الغز على غزنة وملكوها منه مدة خمس عشرة سنة ، ثم أرسل غياث الدين أخاه شهاب الدين إلى غزنة فسار إليها ، وهزم الغز وقتل منهم خلقًا كثيرًا ، واستولى على غزنة وما جاورها من البلاد مثل كرمان وشنوران وماه السند ، وقصد لهاوور وبها يومئذ خسروشاه بن بهرام شاه السبكتكينى فملكها شهاب الدين فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة بعد حصار ، وأعطى خسروشاه الأمان وحلف له ، فحضر خسروشاه عند شهاب الدين بن سام المذكور ، فأكرمه شهاب الدين ، وأقام خسروشاه على ذلك شهرين .

ولما بلغ غياث الدين بن سام ذلك أرسل إلى أخيه شهاب الدين يطلب منه خسروشاه فأمره شهاب الدين بالتوجه ، فقال خسروشاه : أنا ما أعرف أخاك ، ولا سلمتُ نفسى إلا إليك فطيب شهاب الدين خاطره وأرسله ، وأرسل أيضًا ابن خسروشاه مع أبيه إلى غياث الدين وأرسل معهما عسكرًا يحفظونهما ، فلما وصلوا إلى الغور لم يجتمع بهما غياث الدين ، بل أمر بهما فرفعا إلى بعض القلاع ، وكان آخر العهد بهما – وخسروشاه المذكور هو ابن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين ، وهو آخر ملوك ال سبكتكين ، وكان

ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة ، وملكوا مائتى سنة وثلاث عشرة سنة تقريبًا ، فيكون انقراض دولتهم فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقدمنا ذلك لتتصل أخبارهم ، وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة ، وقيل إن خسروشاه توفى فى الملك ، وملك بعده ابنه ملكشاه على ما نشير إليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

ولما استقر ملك الغورية بلهاوور واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم ، كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة ، وتلقّب بألقاب منها معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين ، ولما استقر ذلك سار شهاب الدين إلى أخيه غياث الدين واجتمعا وسارا إلى خراسان وقصدا مدينة هراة وحاصراها ، وتسلمها غياث الدين بالأمان ، ثم سار ومعه شهاب الدين فى عساكرهما إلى بوشنج فملكها ، ثم عاد إلى باذغيس وكالين وبيوار فملكها ، ثم رجع غياث الدين إلى بلده فيروزكور ، ورجع أخوه شهاب الدين إلى غزنة ، ولما استقر شهاب الدين بغزنة قصد بلاد الهند وفتح مدينة آجُرّ ، ثم عاد إلى غزنة ، ثم قصد الهند فذلل صعابها وتيسّر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم ، وبلغ منهم ما لم يبلغ أحد من ملوك المسلمين ، ولما كثر فتوحه فى الهند اجتمعت الهنود مع ملوكهم فى خلق كثير ، والتقوا مع شهاب الدين ، وجرى بينهم قتال عظيم ، فانهزم المسلمون ، وجرح شهاب الدين ، وبقى بين القتلى ، ثم اجتمعت عليه أصحابه وحملوه إلى مدينة آجُرّ ، واجتمعت عليه عساكره وأقام شهاب الدين فى آجُرّ حتى أتاه المدد من أخيه غياث الدين ، ثم اجتمعت الهنود وتنازل الجمعان وبينهما نهر ، فكبس عساكر المسلمين الهنود ، وتمت الهزيمة عليهم ، وقتل المسلمون من الهنود ما يفوق الحصر ، وقتلت ملكتهم ، وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند ، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلى ، وهى من كرامى ممالك الهند ، فأرسل أيبك عسكرًا مع مقدم يقال له محمد بن بختيار ، فملكوا من الهند مواضع ما وصلها مسلم قبله حتى قاربوا جهة الصين .

ذكر وفاة صاحب ماردين

فى هذه السنة : توفى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفًا وثلاثين سنة ، لأنه ولى بعد موت أبيه فى سنة ست عشرة وخمسمائة حسبما تقدم ذكره ، وتولى بعده ابنه نجم الدين البلى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أُرتق .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة :

ذكر أخبار الغز وهزيمة السلطان سنجر منهم وأسره

فى هذه السنة : فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الأتراك الغز ، وهم طائفة من الترك ، وكانوا بما وراء النهر ، فلما ملكه الخطا أخرجوهم منه فقصدوا خراسان ، وكانوا كفارًا ، وكان مَنْ أسلم منهم وخالط المسلمين يصير ترجمانًا بين الفريقين حتى صار مَنْ أسلم منهم قيل عنه : إنه صار ترجمانًا ، ثم قيل تركمانًا بالكاف العجمية ، وجمع على تراكمين ، ثم أسلم الغز جميعهم فقيل لهم تراكمين ، ولما قدموا إلى خراسان أقاموا بنواحى بلخ مدة طويلة ، ثم عنَّ للأمير قماح مقطع بلخ أن يخرجهم من بلاده فامتنعوا ، فسار قماح إليهم فى عشرة آلاف فارس ، فحضر إليه كبراء الغز وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم ، ويعطوه عن كل بيت مائتى درهم فلم يجبهم إلى ذلك ، وأسرَّ[1] على إخراجهم أو قتالهم فاجتمعوا واقتتلوا ، فانهزم قماح وتبعه الغز يقتلون ويأسرون ، ثم عاثوا فى البلاد ، فاسترقوا النساء والأطفال ، وخربوا المدارس وقتلوا الفقهاء ، وعملوا كل عظيمة .

ووصل قماح إلى السلطان سنجر منهزمًا وأعلمه بالحال ، فجمع سنجر عساكره وسار إليهم فى مائة ألف فارس ، فأرسل الغز يعتذرون إليه مما وقع منهم ، وبذلوا له بذلا كثيرًا ليكف عنهم فلم يجبهم ، وقصدهم ووقعت بينهم حرب شديدة ، فانهزمت عساكر سنجر وتبعهم الغز يقتلون فيهم ويأسرون ، فقتل علاء الدين قماح ، وأسر السلطان سنجر وأسر معه جماعة من الأمراء فضربوا أعناقهم ، وأما سنجر فلما أسروه ، اجتمع أمراء الغز وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له : نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك ، وبقى معهم كذلك شهرين أو ثلاثة ، ودخلوا معه إلى مرو وهى كرسى ملك خراسان فطلبها منه بختيار أقطاعًا ، وهو من أكبر أمراء الغز ، فقال سنجر : هذه دار الملك ولا يجوز أن يكون إقطاعًا لأحد فضحكوا منه ، وحَبق له بختيار بفمه ، فلما رأى سنجر ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانقاه مرو وتاب من الملك ، واستولى الغز على البلاد ، فنهبوا نيسابور ، وقتلوا الكبار والصغار ، وقتلوا القضاة والعلماء والصلحاء الذين بتلك البلاد ، فقتل الحسين بن محمد الأرسانيدى ، والقاضى على بن مسعود ، والشيخ محيى

---

(١) هكذا فى ط ومعنى أسرَّ : أظهر ، والأقرب إلى الصواب أصرَّ : أى عزم . انظر : لسان العرب مادة : (سَرَرَ) و (صَرَرَ) .

الدين بن يحيى الفقيه الشافعى الذى لم يكن فى زمانه مثله ، وكان رحلة الناس من الشرق والغرب وغيرهم من الأئمة والفضلاء ، ولم يسلم شىء من خراسان من النهب غير هراة ودهستان لحصانتهما .

ولما كان من هزيمة سنجر وأسره ما كان ، اجتمع عسكره على مملوك لسنجر يقال له : (أى به) ولقبه المؤيد ، واستولى المؤيد على نيسابور وطوس ونسا وأبيورد وشهرستان والدامغان وأزاح الغز عنها ، وأحسن السيرة فى الناس ، وكذلك استولى فى السنة المذكورة على الرى مملوك لسنجر يقال له : إينانج وهادى الملوك ، واستقر قدمه وعظم شأنه .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : قتل العادل بن السلار وزير الظافر العلوى ، قتله ربيبه عباس بن أبى الفتوح الصنهاجى بإشارة أسامة بن منقذ ، وكان العادل قد تزوج بأم عباس المذكور ، وأحسن تربية عباس فجازاه بأن قتله وولى مكانه ، وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب .

وفيها : كان بين عبدالمؤمن ملك الغرب وبين العرب حرب شديدة انتصر فيها عبدالمؤمن .

وفيها : مات رجار الفرنجى ملك صقلية بالخوانيق ، وكان عمره قريب ثمانين سنة ، وملكه نحو عشرين سنة ، وملك بعده ابنه غليالم .

وفيها : فى رجب توفى بغزنة بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم السبكتكينى صاحب غزنة ، وقام بالملك بعده ولده نظام الدين خسروشاه ، وكانت مدة ملك بهرام شاه نحو ست وثلاثين سنة وذلك من حين قتل أخاه أرسلان شاه بن مسعود فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وكان ابتداء ولايته من حين انهزم أخوه قبل ذلك فى سنة ثمان وخمسمائة حسبما تقدم ذكره فى السنة المذكورة ، وكان بهرام شاه حسن السيرة .

وفيها : ملك الفرنج مدينة عسقلان ، وكانت لخلفاء مصر ، والوزراء يجهزون إليها المؤن والسلاح ، فلما كانت هذه السنة قتل العادل بن السلار واختلفت الأهواء فى مصر ، فتمكن الفرنج من عسقلان وحاصروها وملكوها .

وفيها : وصلت مراكب من صقلية فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية .

وفيها : توفى أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستانى المتكلم على مذهب الأشعرى ، وكان إمامًا فى علم الكلام والفقه ، وله عدة مصنفات منها : نهاية الإقدام فى علم الكلام ، والملل والنحل ، والمناهج ، وتلخيص الأقسام لمذاهب الأنام ، ودخل بغداد سنة عشر وخمسمائة ، وكانت ولادته سنة سبع وستين وأربعمائة بشهرستان ، وتوفى بها .

وشهرستان : اسم لثلاث مدن :

الأولى : شهرستان خراسان بين نيسابور وخوارزم عند أول الرمل المتصل بناحية خوارزم، وهى التى منها محمد الشهرستانى المذكور ، وبناها عبدالله بن طاهر أمير خراسان .

الثانية : شهرستان بأرض فارس .

الثالثة : مدينة جى بأصفهان يقال لها شهرستان ، وبينها وبين اليهودية مدينة أصفهان نحو ميل ، ومعنى هذه الكلمة مدينة الناحية بالعجمى ، لأن شهر اسم المدينة وأستان الناحية .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة :

ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز

فى هذه السنة : فى المحرم قتل الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبدالمجيد العلوى ، قتله وزيره عباس الصنهاجى ، وسببه أنه كان لعباس ولد حسن الصورة يقال له نصر ، فأحبه الظافر ومابقى يفارقه ، وكان قد قدم من الشام مؤيد الدولة أسامة بن منقذ الكنانى فى وزارةالعادل ، فحسّن لعباس قتل العادل فقتله وتولى مكانه ، ثم حسّن لعباس أيضًا قتل الظافر ، فإنه قال له : كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول ، فقال له عباس : ما هو ؟ فقال : إن الناس يقولون إن الظافر يفعل بابنك نصر ، فأنف عباس وأمر ابنه نصرًا فدعا الظافر إلى بيته وقتلاه وقتلا كل من معه ، وسلم خادم صغير فحضر إلى القصر وأعلمهم بقتل الظافر ، ثم حضر عباس إلى القصر وطلب الاجتماع بالظافر وطلبه من أهل القصر فلم يجدوه ، فقال : أنتم قد قتلتموه ، فأحضر أخوين للظافر يقال لهما : يوسف وجبريل ، وقتلهما عباس المذكور أيضًا .

ثم أحضر الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل ثانى يوم قتل أبوه ، وله من العمر ثلاث سنين ، فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس ، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر النفيسة شيئا كثيرًا ، ولما فعل عباس ذلك اختلفت عليه الكلمة وثارت الجند والسودان ، وكان طلائع بن رزيك فى منية ابن خصيب واليًا عليها ، فأرسل إليه أهل القصر من النساء والخدام يستغيثون به ، وكان فيه شهامة ، فجمع جمعه وقصد عباسًا ، فهرب عباس إلى نحوالشام بما معه من الأموال والتحف التى لا يوجد مثلها ، ولما كان فى أثناء الطريق خرجت الفرنج على عباس المذكور فقتلوه وأخذوا ما كان معه وأسروا ابنه نصرًا ، وكان قد استقر طلائع بن رزيك بعد هرب عباس فى الوزارة ، ولقب الملك

الصالح ، فأرسل الصالح بن رزيك إلى الفرنج وبذل لهم مالاً وأخذ منهم نصر بن عباس وأحضره إلى مصر ، وأدخل القصر فقتل على باب زويلة .

وأما أسامة بن منقذ فإنه كان مع عباس ، فلما قتل عباس هرب أسامة ونجا إلى الشام ، ولما استقر أمر الصالح بن رزيك وقع فى الأعيان بالديار المصرية فأبادهم بالقتل والهروب إلى البلاد البعيدة .

ذكر حصر تكريت

فى هذه السنة : سار المقتفى لأمر الله الخليفة بعساكر بغداد وحصر تكريت وأقام عليها عدة مجانيق ، ثم رحل عنها ولم يظفر بها .

ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغتكين

كان الفرنج قد تغلّبوا بتلك الناحية بعد ملكهم مدينة عسقلان ، حتى إنهم استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصارى ، وأطلقوا قهرًا كل من أراد منهم الخروج من دمشق واللحوق بوطنه شاء صاحبه أو أبى ، فخشى نور الدين أن يملكوا دمشق ، فكاتب أهل دمشق واستمالهم فى الباطن ، ثم سار إليها وحصرها ففتح له الباب الشرقى فدخل منه وملك المدينة وحصر مجير الدين فى القلعة وبذل له إقطاعا من جملته مدينة حمص ، فسلم مجير الدين القلعة إلى نور الدين وسار إلى حمص فلم يعطه إياها نور الدين وأعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها إلى العراق ، وأقام ببغداد ، وابتنى دارا بقرب النظامية وسكنها حتى مات بها .

وفى هذه السنة والتى بعدها : ملك نور الدين قلعة تل باشر وأخذها من الفرنج .

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : سار الخليفة المقتفى إلى دقوقا فحصرها ، وبلغه حركة عسكر الموصل إليه فرحل عنها ولم يبلغ غرضا .

وفيها : هجم الغز نيسابور بالسيف ، وقيل كان معهم السلطان سنجر معتقلا وله اسم السلطنة ولكن لا يلتفت إليه ، وكان إذا قدم إليه الطعام يدخر منه ما يأكله وقتًا آخر خوفًا من انقطاعه عنه لتقصيرهم فى حقه .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : ثارت أهل بلاد أفريقية على من بها من الفرنج فقتلوهم ، وسار عسكر عبدالمؤمن فملك بونة ، وخرجت جميع أفريقية عن حكم الفرنج ماعدا المهدية وسوسة .

وفيها : قبض زين الدين على كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكى بن أقُسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى ، وكان سليمان المذكور قد قدم إلى بغداد ، وخطب له بالسلطنة فى هذه السنة ، وخلع عليه الخليفة المقتفى وقلده السلطنة على عادتهم ، وخرج من بغداد بعسكر الخليفة ليملك به بلاد الجبل ، فاقتتل هو وابن عمه السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه ، فانهزم سليمان شاه وسار يريد بغداد على شهرزور ، فخرج إليه على كوجك بعسكر الموصل فأسره وحبسه بقلعة الموصل مكرمًا إلى أن كان منه ما نذكره فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ذكر وفاة خوارزم شاه

فى هذه السنة : تاسع جمادى الآخرة ، توفى خوارزم شاه أُتْسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد أصابه فالج ، فاستعمل أدوية شديدة الحرارة فاشتد مرضه وتوفى ، وكانت ولادته فى رجب سنة تسعين وأربعمائة ، وكان حسن السيرة ، ولما توفى ملك بعده ابنه أرسلان بن أُتْسز .

ذكر وفاة ملك الروم

فى هذه السنة : توفى الملك مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان ابن سلجوق صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم ، ولما توفى ملك بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان المذكور .

ذكر هرب السلطان سنجر من أسر الغز

فى هذه السنة : فى رمضان ، هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وسار إلى قلعة ترمذ ، ثم سار من ترمذ إلى جيحون ، ووصل إلى دار ملكه بمرو فى رمضان من هذه السنة ، فكانت مدة أسره من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : بايع عبدالمؤمن لولده محمد بولاية العهد بعده ، وكانت ولاية العهد لأبى حفص عمر ، وكان من أصحاب ابن تومرت وهو من أكبر الموحدين ، فأجاب إلى خلع نفسه والبيعة لابن عبدالمؤمن .

وفيها : استعمل عبدالمؤمن أولاده على البلاد ، فاستعمل ابنه عبدالله على بجاية وأعمالها وابنه عمر على تلمسان وأعمالها ، وابنه عليًّا على فاس وأعمالها ، وابنه أبا سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة ، وكذلك غيرهم .

وفى هذه السنة : سار الملك محمد ابن السلطان محمود السلجوقى من همدان بعساكر كثيرة إلى بغداد وحصرها وجرى بينهم قتال ، وحصن الخليفة المقتفى دار الخلافة واعتد للحصار واشتد الأمر على أهل بغداد ، وبينا الملك محمد على ذلك ، إذ وصل إليه الخبر أن أخاه ملكشاه ابن السلطان محمود والدكز صاحب بلاد أران ومعه الملك أرسلان ابن الملك طغريل بن محمد ، وكان الدكز مزوجًا بأم أرسلان المذكور قد دخلوا إلى همدان ، فرحل الملك محمد عن بغداد وسار نحوهم فى الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

وفيها : احترقت بغداد ، فاحترق درب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن جردة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب الأزج وسوق السلطان وغير ذلك .

وفيها : توفى أبو الحسن بن الخل شيخ الشافعية فى بغداد ، وهو من أصحاب الشاشى ، وجمع بين العلم والعمل .

وتوفى : ابن الآمدى الشاعر وهو من أهل النيل فى طبقة الغزى والأرجانى وكان عمره قد زاد على تسعين سنة .

وفيها : قتل مظفر بن حماد صاحب البطيحة ، قتل فى الحمام وتولى بعده ابنه .

وفيها : توفى الوأواء الحلبى الشاعر المشهور .

وفيها : توفى الحكيم أبو جعفر بن محمد البخارى بإسفرائن ، وكان عالما بعلوم الفلسفة .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة :

ذكر الزلازل بالشام وأخبار بنى منقذ أصحاب شيزر إلى أن ملك نور الدين شيزر

فى هذه السنة : فى رجب كان بالشام زلازل قوية ، فخربت بها حماة وشيزر وحمص وحصن الأكراد وطرابلس وأنطاكية وغيرها من البلاد المجاورة لها حتى وقعت الأسوار والقلاع ، فقام نور الدين محمود بن زنكى فى ذلك الوقت المقام المرضى من تداركها بالعمارة ، وإغارته على الفرنج ليشغلهم عن قصد البلاد ، وهلك تحت الهدم ما لا يحصى ، ويكفى أن معلم كتّاب كان بمدينة حماة فارق المكتب ، وجاءت الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، قال المعلم : فلم يحضر أحد يسأل عن صبى كان له هناك ، ولما خربت قلعة شيزر بهذه الزلزلة ، ومات بنو منقذ تحت الردم سار الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى إلى شيزر وملكها يوم الثلاث ثالث جمادى الأولى من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، واستولى على كل من فيها لبنى منقذ وسلمها إلى مجد الدين أبى بكر بن الداية .

وقد ذكر ابن الأثير : أن شيزر لم تزل لبنى منقذ يتوارثونها من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب ، وليس الأمر كذلك ، فإن صالح المذكور كانت وفاته فى سنة عشرين وأربعمائة ، وملك بنى منقذ لشيزر كان فى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، فيكون ملكهم لشيزر بعد وفاة صالح بن مرداس بأربع وخمسين سنة .

ونحن نورد أخبار بنى منقذ محققة حسبما نقلناها من تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ، وكان المذكور أفضل بنى منقذ قال : وفى سنة ثمان وستين وأربعمائة ، بدأ جدى سديد الملك أبو الحسن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى بعمارة حصن الجسر وحصر به حصن شيزر ، (أقول) : ويعرف الجسر المذكور فى زماننا بجسر ابن منقذ ، وموضع الحصن اليوم تل خال من العمارة ، وهو غربى شيزر على مسافة قريبة منها .

رجعنا إلى كلام ابن منقذ قال : وكان فى شيزر والٍ للروم اسمه دمترى ، فلما طالت المضايقة لدمترى المذكور ، راسل جدى هو ومن عنده من الروم فى تسليم حصن شيزر إليه باقتراحات اقترحوها عليه ، منها مال يدفعه إلى دمترى المذكور ، ومنها إبقاء أملاك الأسقف الذى بها عليه ، فإنه استمر مقيما تحت يد جدى حتى مات بشيزر ، ومنها أن القنطارية وهم

رجالة الروم يسلفهم ديوانهم لثلاث سنين ، فسلم إليهم جدى ما التمسوه ، وتسلم حصن شيزر يوم الأحد فى رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، واستمر سديد الملك على بن مقلد المذكور مالكها إلى أن توفى فيها فى سادس المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وتولى بعده ولده أبو المرهف نصر بن على إلى أن توفى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وتولى بعده أخوه أبو العساكر سلطان بن على إلى أن توفى فيها ، وتولى ولده محمد بن سلطان إلى أن مات تحت الردم هو وثلاثة أولاده بالزلزلة فى هذه السنة المذكورة ، أعنى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فى يوم الاثنين ثالث رجب ، انتهى ما نقلناه من تاريخ ابن منقذ .

ولنرجع إلى كلام ابن الأثير قال : فلما انتهى ملك شيزر إلى نصر بن على بن نصر بن منقذ ، استمر فيها إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة – فلما حضره الموت استخلف أخاه مرشد بن على على حصن شيزر ، فقال مرشد : والله لا وليته ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها – ومرشد هو والد مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ، فلما امتنع مرشد من الولاية ولاها نصر أخاه الصغير سلطان بن على ، واستمر مرشد مع أخيه سلطان على أجمل صحبة مدة من الزمان ، وكان لمرشد عدة أولاد نجباء ، ولم يكن لسلطان ولد ، ثم جاء لسلطان الأولاد فخشى على أولاده من أولاد أخيه مرشد ، وسعى المفسدون بين مرشد وسلطان ، فتغير كل منهما على صاحبه ، فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبياتًا يعاتبه ، وكان مرشد عالما بالأدب والشعر ، فأجابه مرشد بقصيدة طويلة منها :

شكت هجرنا والذنب فى ذاك ذنبها — فياعجبًا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فىّ وطالما — عصيت عذولا فى هواها وواشيا
ومال بهاتيه الجمال إلى القلى — وهيهات أن أمسى لها الدهر قاليا

ومنها :

ولما أتانى من قريظك جوهر — جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينًا لأنه — تولى برغمى حين ولى شبابيا

ومنها :

وقلت أخى يرعى بنى وأسرتى — ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتى — وثلم منى صار ما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة — وقربك منهم جفوة وتنائيا
على أننى ماحلت عما عهدته — ولا غيرت هذى السنون وداديا

وكان الأمر بين مرشد وأخيه سلطان فيه تماسك إلى أن توفى مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فأظهر سلطان التغير على أولاد أخيه مرشد المذكور وجاهرهم بالعداوة ففارقوا

شيزر ، وقصد أكثرهم نور الدين محمود بن زنكى وشكوا إليه من عمهم سلطان فغاظه ذلك ، ولم يمكنه قصده لاشتغاله بجهاد الفرنج ، وبقى سلطان كذلك إلى أن توفى ، وولى بعده أولاده ، فلما خربت القلعة فى هذه السنة بالزلزلة لم ينج من بنى منقذ الذين كانوا بها أحد ، فإن صاحبها منهم كان قد ختن ولده ، وعمل دعوة للناس وأحضر جميع بنى منقذ فى داره ، فجاءت الزلزلة فسقطت الدار والقلعة عليهم فهلكوا عن آخرهم ، وكان لصاحب شيزر ابن منقذ المذكور حصان يحبه ولا يزال على باب داره فلما جاءت الزلزلة وهلك بنو منقذ تحت الهدم ، سلم منهم واحد وهرب يطلب باب الدار ، فلما خرج من الباب رفسه الحصان المذكور فقتله ، وتسلم نور الدين القلعة والمدينة .

ذكر وفاة السلطان سنجر

فى هذه السنة : فى ربيع الأول توفى السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق ، أصابه قولنج ثم إسهال فمات منه ، ومولده بسنجار فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، واستوطن مدينة مرو من خراسان وقدم إلى بغداد مع أخيه السلطان محمد ، واجتمع معه بالخليفة المستظهر ، فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان ، واستقام أمره وأطاعته السلاطين ، وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة ، وكان قبلها يخاطب بالملك نحو عشرين سنة ، ولم يزل أمره عاليًا إلى أن أسره الغز ، ولما خلص من أسرهم وكاد أن يعود إليه ملكه أدركه أجله ، وكان مهيبًا كريمًا ، وكانت البلاد فى زمانه آمنة – ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته ،ولماحضر سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان ، وهو ابن أخت سنجر ، فأقام خائفًا من الغز .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : استولى أبوسعيد بن عبدالمؤمن على غرناطة من الأندلس وأخذها من الملثمين ، وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم غير جزيرة ميورقة ، ثم سار أبوسعيد فى جزيرة الأندلس وفتح المرية وكانت بأيدى الفرنج مدة عشر سنين .

وفيها : ملك نور الدين بعلبك وأخذها من إنسان كان قد استولى عليها من أهل البقاع يقال له ضحاك البقاعى ، كان قد ولاه صاحب دمشق عليها ، فلما ملك نور الدين دمشق استولى ضحاك المذكور على بعلبك .

وفيها : قلع المقتفى الخليفة باب الكعبة وعمل عوضه بابًا مصفحًا بالفضة المذهبة ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتًا يدفن فيه .

وفيها : مات محمد بن عبداللطيف بن محمد الخجندى ، رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان ، وكان صدرًا مقدمًا عند السلاطين .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة :

فيها : قصد ملكشاه ابن السلطان محمود السلجوقى قم وقاشان ونهبهما ، وكان أخوه السلطان محمد بن محمود بعد رحيله عن حصار بغداد قد مرض فطال مرضه ، فأرسل إلى أخيه ملكشاه أن يكف عن النهب ويجعله ولى عهده ، فلم يقبل ملكشاه ذلك ، ثم سار ملكشاه إلى خورستان واستولى عليها وأخذها من صاحبها شملة التركمانى .

وفى هذه السنة : توفى يحيى بن سلامة بن الحسن بميافارقين الحصكفى الشاعر ، وكان يتشيع ، ومن شعره :

وخليع بت أعذله ... ويرى عذلى من العبث
قلت إن الخمر مخبثة ... قال حاشاها من الخبث
قلت فالأرفاث تتبعها ... قال طيب العيش فى الرفث
قلت منها القىء قال أجل ... شرفت عن مخرج الخبث
وسألوها فقلت متى ... قال عند الكون فى الجدث

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة :

ذكر فتح المهدية

فى أواخر هذه السنة : نزل عبد المؤمن على مدينة المهدية وأخذها من الفرنج يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وملك جميع أفريقية – وكان قد ملك الفرنج المهدية فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وأخذوها من صاحبها الحسن بن على بن يحيى بن تميم الصنهاجى ، وبقيت فى أيديهم إلى هذه السنة ، ففتحها عبدالمؤمن ، فكان ملك الفرنج المهدية اثنتى عشرة سنة تقريبًا ، ولما ملكها عبدالمؤمن أصلح أحوالها ، واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الصنهاجى الذى كان صاحبها ، وكان قد سار إلى بنى حماد ملوك بجاية ، ثم اتصل بعبد المؤمن حسبما تقدم ذكر ذلك ، فأقام عنده مكرمًا إلى هذه السنة ، فأعاده عبدالمؤمن إلى المهدية ، وأعطاه بها دورًا نفيسة وأقطاعًا ، ثم رحل عبدالمؤمن عنها إلى الغرب .

ذكر وفاة السلطان محمد

وفى هذه السنة : وقيل فى سنة خمس وخمسين ، توفى السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى فى ذى الحجة ، وهو الذى حاصر بغداد - ولما عاد عنها لحقه سل وطال به فمات بباب همدان ، وكان مولده فى ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وكان كريمًا عاقلا ، وخلف ولدًا صغيرًا ، ولما حضره الموت سلم ولده إلى أقسنقر الأحمديلى وقال : أنا أعلم أن العساكر لا تطيع مثل هذا الطفل فهو وديعة عندك ، فارحل به إلى بلادك فرحل به أقسنقر إلى بلدة مراغا ، ولما مات السلطان محمد اختلفت الأمراء ، فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه ، وطائفة طلبوا سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان الذى كان قد اعتقل فى الموصل وهم الأكثر ، ومنهم من طلب أرسلان بن طغريل الذى كان مع الدكز ، وبعد موت محمد سار أخوه ملكشاه إلى أصفهان فملكها .

ذكر مرض نور الدين

وفى هذه السنة : مرض نور الدين بن زنكى مرضًا شديدًا ، أرجف بموته بقلعة حلب ، فجمع أخوه أمير ميران بن زنكى جمعًا وحصر قلعة حلب ، وكان شيركوه بحمص وهو من أكبر أمراء نور الدين ، فسار إلى دمشق ليستولى عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب ، فأنكر عليه أيوب ذلك وقال : أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حيًا خدمته فى هذا الوقت ، وإن كان قد مات فإنا فى دمشق تفعل ما تريد من ملكها ، فعاد شيركوه إلى حلب مجدًا ، وجلس نور الدين فى شباك يراه الناس فلما رأوه حيًا تفرقوا عن أخيه أمير ميران واستقامت الأحوال .

ذكر أخبار اليمن
(من تاريخ اليمن لعمارة)

وفى هذه السنة : استقر فى ملك اليمن على بن مهدى ، وأزال ملك بنى نجاح على ما قدمنا ذكره فى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، وعلى بن مهدى المذكور من حمير من أهل قرية يقال لها العنبرة من سواحل زبيد ، كان أبوه مهدى المذكور رجلا صالحًا ، ونشأ ابنه على طريقة أبيه فى العزلة والتمسك بالصلاح ، ثم حج واجتمع بالعراقيين وتضلع من معارفهم ، ثم صار على بن مهدى المذكور واعظًا ، وكان فصيحًا صبيحًا حسن الصوت عالمًا بالتفسير غزير المحفوظات ،

وكان يتحدث فى شىء من أحواله المستقبلات فيصدق ، فمالت إليه القلوب ، واستفحل أمره ، وصار له جموع ، فقصد الجبال وأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، ثم عاد إلى أملاكه ، وكان يقول فى وعظه : أيها الناس ، دنا الوقت ، أزف الأمر ، كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتمونى عيانا ، ثم عاد إلى الجبال إلى حصن يقال له الشرف ، وهو لبطن من خولان فأطاعوه وسمّاهم الأنصار ، وسمّى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين ، وأقام على خولان رجلا اسمه سبا ، وعلى المهاجرين رجلا اسمه التويتى ، وسمّى كلا من الرجلين شيخ الإسلام وجعلها نقيبين على الطائفتين فلا يخاطبه أحد غيرهما ، وهما يوصلان كلامه إلى الطائفتين ، وكلام الطائفتين وحوائجها إليه ، وأخذ يفادى الغارات ويراوحها على التهائم حتى أخلى البوادى وقطع الحرث والقوافل ، ثم إنه حاصر زبيد واستمر مقيما عليها حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بنى نجاح ، قتله عبيده وجرى بين ابن مهدى وعبيد فاتك حروب كثيرة ، وآخرها أن ابن مهدى انتصر عليهم وملك زبيد ، واستقر فى دار الملك يوم الجمعة رابع عشر رجب من هذه السنة ، أعنى سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وبقى بن مهدى فى الملك شهرين وأحد وعشرين يومًا ، ثم مات على بن مهدى المذكور فى السنة التى ملك فيها فى شوال .

ثم ملك اليمن بعده ولده مهدى بن على بن مهدى ، ولم يقع تاريخ وفاته ، ثم ملك اليمن بعده ولده عبدالنبى بن مهدى ، ثم خرجت المملكة عن عبدالنبى المذكور إلى أخيه عبدالله ، ثم عادت إلى عبدالنبى واستقر فيها حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وفتح اليمن واستقر فى ملكه وأسر عبدالنبى المذكور ، وهو عبدالنبى بن مهدى بن على بن مهدى الحميرى ، وهو من ملك اليمن من بنى حمير .

وكان مذهب على بن مهدى التكفير بالمعاصى وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة واستباحة وطء سباياهم واسترقاق ذراريهم ، وكان حنفى الفروع ، وكان أصحابه يعتقدون فيه فوق ما يعتقده الناس فى الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومن سيرته قتل من شرب ومن سمع الغناء .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة :

ذكر مسير سليمان شاه إلى همدان
وما كان منه إلى أن قتل

مات محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، أرسلت الأمراء وطلبوا عمه

قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل بشىء كثير وجهاز يليق بالسلطنة ، وسار معه زين الدين على كجك بعسكر الموصل إلى همدان ، وأقبلت العساكر إليهم ، كل يوم تلقاه طائفة وأمير ، ثم تسلطت العساكر عليه ولم يبق له حكم ، وكان سليمان فيه تهور وخرق ، وكان يدمن شرب الخمر ، حتى إنه شرب فى رمضان نهارًا ، وكان يجمع عنده المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء ، فأهمل العسكر أمره وصاروا لا يحضرون بابه ، وكان قد ردّ جميع الأمور إلى شرف الدين كردبازو الخادم وهو من مسايخ الخدم السلجوقية يرجع إلى دين وحسن تدبير ، فاتفق يومًا أن سليمان شرب بظاهر همدان بالكشك ، فحضر إليه كردبازو ولامه ، فأمر سليمان مَنْ عنده من المساخر فعَبثوا بكردبازو ، حتى إن بعضهم كشف له سوءته ، فاتفق كردبازو مع الأمراء على قبضه ، وعمل كردبازو دعوة عظيمة ، فلما حضرها الملك سليمان فى داره قبض عليه كردبازو وحبسه ، وبقى فى الحبس مدة ، ثم أرسل إليه كردبازو من خنقه وقيل سقاه سمًا ، فمات فى ربيع الآخر سنة ست وخمسين وخمسمائة .

ولما مات سار الدكز فى عساكر تزيد على عشرين ألفًا ومعه أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان ، ووصل إلى همدان فلقيه كردبازو وأنزله فى دار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة – وكان الدكز مزوجًا بأم أرسلان شاه ، فولدت للدكز أولادًا منهم البهلوان محمد وقزل أرسلان عثمان أبناء الدكز ، وبقى الدكز أتابك أرسلان وابنه البهلوان وهو أخو أرسلان لأمه حاجبه ، وكان هذا الدكز أحد مماليك السلطان مسعود ، اشتراه فى أول أمره ، ثم أقطعه أران وبعض بلاد أذربيجان فعظم شأنه وقوى أمره .

ولما خطب لأرسلان شاه بالسلطنة فى تلك البلاد أرسل الدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه على عادة الملوك السلجوقية فلم يجب إلى ذلك ، ونحن قد قدمنا ذكر موت سليمان وولاية أرسلان ليتصل ذكر الحادثة ، وهى فى الكامل مذكورة فى موضعين فى سنة خمس وسنة ست وخمسمائة .

ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين

فى هذه السنة : توفى الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر خليفة مصر ، وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين ، وكان عمره لما ولى ثلاث سنين ، وقيل خمس سنين ، ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر وسأل عمن يصلح ؟ فأحضر له منهم إنسان كبير السن – فقال بعض أصحاب الصالح له سرا : لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير ، فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه ، وأمر بإحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبدالله

ابن الأمير يوسف بن الحافظ ، ولم يكن أبوه خليفة ، وكان العاضد ذلك الوقت مراهقًا فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح بابنته ، ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله .

ذكر وفاة المقتفى لأمر الله

فى هذه السنة : ثانى ربيع الأول ، توفى الخليفة المقتفى لأمر الله أبو عبدالله محمد بن المستظهر أبى العباس أحمد بعلة التراقى ، وكان مولده ثانى ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأمه أم ولد ، وكانت خلافته أربعًا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يومًا ، وكان حسن السيرة ، وهو أول من استبد بالعراق منفردًا عن سلطان يكون معه ، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد ، حتى كان لايفوته منها شىء .

ذكر خلافة المستنجد
وهو ثانى ثلاثينهم

ولما توفى المقتفى لأمر الله محمد بويع ابنه يوسف ، ولقب المستنجد بالله ، وأم المستنجد أم ولد تدعى طاووس ، ولما بويع المستنجد بالخلافة بايعه أهله وأقاربه ، فمنهم عمه أبو طالب ، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى ، وكان أكبر من المستنجد ، ثم بايعه الوزير ابن هبيرة وقاضى القضاة وغيرهم .

ذكر وفاة صاحب غزنة

فى هذه السنة : فى رجب ، توفى السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم ابن مسعود بن محمد بن سبكتكين صاحب غزنة ، وكان عادلا حسن السيرة ، وكانت ولايته فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ولما مات ملك بعده ابنه ملكشاه بن خسروشاه وقيل والده خسروشاه المذكور توفى فى حبس غياث الدين الغورى ، وأنه آخر ملوك بنى سبكتكين حسبما تقدم ذكره فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، والله أعلم بالصواب .

ذكر وفاة ملكشاه السلجوقى

فى هذه السنة : توفى السلطان ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسمومًا .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : حج أسد الدين شيركوه بن شاذى مقدم جيش نور الدين محمود بن زنكى .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى ربيع الآخر ، توفى الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغورى ملك الغور ، وكان عادلا حسن السيرة ، ولما مات ملك بعده ابن أخيه غياث الدين محمد ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ذكر نهب نيسابور وتخريبها وعمارة الشاذباخ

فى هذه السنة : تقدم المؤيد (أى به) بإمساك أعيان نيسابور ، لأنهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين ، وأخذ المؤيد يقتل المفسدين ، فخربت نيسابور ، وكان من جملة ماخرب مسجد عقيل ، وكان مجمعًا لأهل العلم ، وكان فيه خزائن الكتب الموقوفة وخرب من مدارس الحنفية سبع عشرة مدرسة ، وأحرق ونهب عدة من خزائن الكتب .

وأما الشاذباخ ، فإن عبدالله بن طاهر بن الحسين بناها لما كان أميرًا على خراسان للمأمون وسكنها هو والجند ، ثم خربت بعد ذلك ، ثم جددت فى أيام السلطان ألب أرسلان السلجوقى ، ثم تشعثت بعد ذلك ، فلما كان الآن وخربت نيسابور أمر المؤيد (أى به) بإصلاح سور الشاذباخ وسكنها هو والناس ، فخربت نيسابور كل الخراب ولم يبق بها أحد .

ذكر قتل الصالح بن رزيك

فى هذه السنة : فى رمضان ، قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمنى وزير العاضد العلوى ، جهزت عليه عمة العاضد من قتله وهو داخل فى القصر بالسكاكين ، ولم يمت فى تلك الساعة ، بل حمل إلى بيته ، وأرسل يعتب على العاضد ، فأرسل العاضد إلى طلائع المذكور يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك ، وأمسك العاضد عمته وأرسلها إلى طلائع فقتلها ، وسأل العاضد أن يولى ابنه رزيك الوزارة ولقب العادل ، ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزيك فى الوزارة ، وكان للصالح طلائع شعر حسن ، فمنه فى الفخر :

أبى الله إلا أن يدين لنا الدهر ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المـال تفنى ألوفـه ويبقى لنا من بعده الأجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا سحاب لديه البرق والرعد والقطر

ذكر ملك عيسى مكة
(حرسها الله تعالى)

كان أمير مكة قاسم بن أبى فليتة بن قاسم بن أبى هاشم العلوى الحسينى ، فلما سمع بقرب الحاج من مكة صادر المجاورين وأعيان مكة ، وأخذ أموالهم وهرب إلى البرية ، فلما وصل الحاج إلى مكة رتب أمير الحاج مكان قاسم عمه عيسى بن قاسم بن أبى هاشم فبقى كذلك إلى شهر رمضان ، ثم إن قاسم بن أبى فليتة جمع العرب وقصد عمه عيسى ، فلما قارب مكة رحل عنها عيسى ، فعاد قاسم فملكها ، ولم يكن معه ما يرضى به العرب فكاتبوا عمه عيسى وصاروا معه ، فقدم عيسى إليهم ، فهرب قاسم وصعد إلى جبل أبى قبيس فسقط عن فرسه ، فأخذه أصحاب عمه عيسى وقتلوه ، فغسله عمه عيسى ودفنه بالمَعْلَى عند ابنه أبى فليتة ، واستقرت مكة لعيسى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : عبر عبدالمؤمن بن على المجاز إلى الأندلس ، وبنى على جبل طارق من الأندلس مدينة حصينة وأقام بها عدة أشهر ، ثم عاد إلى مراكش .

وفيها : ملك قرار أرسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان ، وكانت لطائفة من الأكراد ، ولما ملكها خربها وأضاف أعمالها إلى حصن طالب .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة :

فى هذه السنة : نازل نور الدين محمود بن زنكى قلعة حارم وهى للفرنج مدة ، ثم رحل عنها ولم يملكها .

وفيها : سارت الكرج فى جمع عظيم ودخلوا بلاد الإسلام وملكوا مدينة دوين من أعمال أذربيجان ونهبوها ، ثم جمع الدكز صاحب أذربيجان جمعًا عظيمًا وغزا الكرج وانتصر عليهم .

وفيها : حج الناس فوقعت فتنة وقتال بين صاحب مكة وأمير الحج ، فرحل الحجاج ولم يقدر بعضهم على الطواف بعد الوقفة .

قال ابن الأثير : وكان ممن حج ولم يطف جدته أم أبيه فوصلت إلى بلادها وهى على إحرامها ، واستفتت الشيخ أبا القاسم بن البرزى فأفتى : أنها إذا دامت على مابقى من إحرامها إلى قابل وطافت ، كمل حجها الأول ، ثم تفدى وتحل ثم تحرم إحرامًا ثانيًا وتقف بعرفات وتكمل مناسك الحج فيصير لها حجة ثانية ، فبقيت على إحرامها إلى قابل وفعلت كما قال ، فتم حجها الأول والثانى .

وفيها : مات الكيا الصنهاجى صاحب الألموت مقدم الإسماعيلية وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة .

وفيها : فى المحرم توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الكهارية من أعمال الموصل ، وأصل الشيخ عدى من الشام من بلد بعلبك فانتقل إلى الموصل ، وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحى وأطاعوه وأحسنوا الظن به .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة :

ذكر وزارة شاور ثم الضرغام

فى هذه السنة : فى صفر وزر شاور العاضد لدين الله العلوى ، وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رُزِّيك فولاه الصعيد ، وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة ، ولما خرج الصالح أوصى ابنه العادل أن لا يغير على شاور شيئا لعلمه بقوة شاور ، فلما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل ، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة ، فهرب العادل وطرد ووراءه شاور وأمسكه وقتله وهو العادل رُزِّيك ابن الصالح طلائع بن رُزِّيك ، وانقرضت بمقتله دولة بنى رزيك ، وفيهم يقول عمارة التميمى من أبيات طويلة :

ولت ليالى بنى رزيك وانصرمت ... والمدح والشكر فيهم غير منصرم
كأن صالحهم يوما وعاد لهم ... فى صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

واستقر شاور فى الوزارة وتلقب بأمير الجيوش ، وأخذ أموال بنى رُزِّيك وودائعهم ، ثم الضرغام جمع جمعًا ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان وقوى على شاور ، فانهزم شاور إلى الشام مستنجدًا بنور الدين ، ولما تمكن ضرغام فى الوزارة قتل كثيرًا من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد ، فضعفت الدولة لهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم .

ذكر وفاة عبدالمؤمن

فى هذه السنة : فى العشرين من جمادى الآخرة ، توفى عبدالمؤمن بن على صاحب بلاد المغرب وأفريقية والأندلس ، وكان قد سار من مراكش إلى سلا ، فمرض بها ومات ، ولما

حضره الموت ، جمع شيوخ الموحدين وقال لهم : قد جربت ابنى محمدًا فلم أره يصلح لهذا الأمر ، وإنما يصلح له ابنى يوسف فقدموه ، فبايعوه ودعى بأمير المؤمنين ، واستقرت قواعد ملكه ، وكانت مدة ولاية عبدالمؤمن ثلاثا وثلاثين سنة وشهورًا ، وكان حازمًا سديد الرأى حسن السياسة للأمور ، كثير سفك الدم على الذنب الصغير ،وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس بالصلاة بحيث إنه من رؤى وقت الصلاة غير مصل قتل ، وجمع الناس فى المغرب على مذهب مالك فى الفروع وعلى مذهب أبى الحسن الأشعرى فى الأصول .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : ملك المؤيد (أى به) قومس ، ولما ملكها أرسل إليه السلطان أرسلان بن طغريل بن ملكشاه خلعة وألوية وهدية جليلة ، فلبس المؤيد (أى به) الخلع وخطب له فى بلاده .

وفى هذه السنة :كبس الفرنج نور الدين محمود وهو نازل بعسكره فى البقيعة تحت حصن الأكراد ، فلم يشعر نور الدين وعسكره إلا وقد أطلت عليهم صلبان الفرنج وقصدوا خيمة نور الدين فلسرعة ذلك ركب نور الدين فرسه وفى رجله السنجة ، فنزل إنسان كردى فقطعها فنجا نورالدين وقتل الكردى ، فأحسن نور الدين إلى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ، وسار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها وتلاحق به من سلم من المسلمين .

وفيها : أمر الخليفة المستنجد بإجلاء بنى أسد ، وهم أهل الحلة المزيدية ، فقتل منهم جماعة وهرب الباقون وتشتتوا فى البلاد ، وذلك لفسادهم فى البلاد ، وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى رجل يقال له ابن معروف .

وفيها : توفى سديد الدولة محمد بن عبدالكريم بن إبراهيم المعروف بابن الأنبارى ، كاتب الإنشاء بدار الخلافة ، وكان فاضلا أديبًا ، وكان عمره قريب تسعين سنة .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة :

x

فى هذه السنة : سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرًا مقدمهم أسد الدين شيركوه بن شاذى إلى الديار المصرية ومعهم شاور ، وكان قد سار من مصر هاربًا من ضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة ، فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام ، وقتل ضرغام عند قبر السيدة نفيسة ، وأعاد شاور إلى وزارة العاضد العلوى .

وكان مسير أسد الدين فى جمادى الأولى من هذه السنة ، واستقر شاور فى الوزارة ،

وخرجت إليه الخلع فى مستهل رجب من هذه السنة ، ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشىء مما شرط ، فسار أسد الدين واستولى على بلبيس والشرقية ، فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من البلاد ، فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر ، وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار مدة ثلاثة أشهر ، وبلغ الفرنج حركة نور الدين وأخذه حارم فراسلوا شيركوه فى الصلح وفتحوا له ، فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا إلى الشام سالمين .

وفى هذه السنة : فى رمضان ، فتح نور الدين محمود قلعة حارم وأخذها من الفرنج بعد مصاف جرى بين نور الدين والفرنج ، انتصر فيه نور الدين وقتل وأسر من الفرنج عالمًا كثيرًا ، وكان فى جملة الأسرى البرنس صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس ، وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا .

وفى هذه السنة : أيضًا ، فى ذى الحجة سار نور الدين إلى بانياس وفتحها ، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة .

وفى هذه السنة : توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الأصفهانى وزير قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل فى شعبان مقبوضًا عليه ، وكان قد قبض عليه قطب الدين فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكان قد تعاهد جمال الدين المذكور وأسد الدين شيركوه أنهما من مات منهما قبل الآخر ينقله الآخر إلى مدينة الرسول ﷺ فيدفنه فيها ، فنقله شيركوه ، واكترى له من يقرأ القرآن عند شيله وحطه ، وكان ينادى فى كل بلد ينزلونه بها بالصلاة عليه ، ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتبكى رماله . عليه وبالنادى فتثنى أرامله

وطيف به حول الكعبة ، ودفن فى رباط بالمدينة بناه لنفسه ، وبينه وبين قبر النبى ﷺ نحو خمسة عشر ذراعًا .

وهذا جمال الدين هو الذى جدد مسجد الخيف بمنى ، وبنى الحجر بجانب الكعبة ، وزخرف الكعبة ، وغرم جملة طائلة لصاحب مكة وللمقتفى حتى مكنه من ذلك ، وهو الذى بنى المسجد الذى على جبل عرفات وعمل الدرج إليه ، وعمل بعرفات مصانع الماء ، وبنى سورًا على مدينة النبى ﷺ ، وبنى على دجلة جسرًا عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ، فقبض قبل أن يفرغ ، وبنى الربط وغيرها .

وفى هذه السنة : توفى نصر بن خلف ملك سجستان وعمره أكثر من مائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة ، وملك بعده ابنه أبو الفتح أحمد بن نصر .

وفيها : توفى الإمام عمر الخوارزمى خطيب بلخ ومفتيها – والقاضى أبو بكر المحمودى صاحب التصانيف والأشعار ، وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريرى .

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى ربيع الأول ، توفى شاه مازندران رستم بن على بن شهريار بن قارن ، وملك بعده ابنه علاء الدين الحسن .

وفيها : ملك المؤيد (أى به) مدينة هراة .

وفيها : كان بين قليج أرسلان صاحب قونية وما جاورها من بلاد الروم وبين باغى أرسلان ابن الدانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلاد الروم حروب شديدة ، انهزم فيها قليج أرسلان ، واتفق موت باغى أرسلان صاحب ملطية فى تلك المدة ، وملك بعده ملطية ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن الدانشمند ، واستولى ذو النون بن محمد بن الدانشمند على قيسارية ، وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قليج أرسلان مدينة أنكورية واصطلح المذكورون على ذلك ، واستقرت بينهم القواعد واتفقوا .

وفيها : توفى عون الدين الوزير ابن هبيرة ، واسمه يحيى بن محمد بن المظفر ، وكان موته فى جمادى الأولى ومولده سنة سبعين وأربعمائة ، ودفن بالمدرسة التى بناها للحنابلة بباب البصرة ، وكان حنبلى المذهب ، وأنفق على المقتفى إنفاقًا عظيما ، حتى إن المقتفى كان يقول : لم يتوزر لبنى العباس مثله ، ولما مات قبض على أولاده وأهله .

وفيها : توفى الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزى ، الفقيه الشافعى تفقه على الكيا الهراسى ، وكان أوحد زمانه فى الفقه ، وهو من جزيرة ابن عمر .

وفيها : توفى أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن هبة الله المعروف بأمين الدولة ابن التلميذ ، وقد ناهز المائة من عمره ، وكان طبيب دار الخلافة ببغداد ، ومحظيًا عند المقتفى ، وكان حاذقًا فاضلا ظريف الشخص عالى الهمة مصيب الفكر ، شيخ النصارى وقسيسهم ، وكان له فى الأدب يد طولى ، وكان متفننا فى العلوم ، وكان فضلاء عصره يتعجبون : كيف حرم الإسلام مع كمال فهمه وغزارة علمه ، والله يهدى من يشاء بفضله ، ويضل من يريد بحكمه .

وكان أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن ملكان الحكيم المشهور ، صاحب كتاب المعتبر فى الحكمة معاصرًا لابن التلميذ المذكور ، وكان بينهما تنافس كما يقع كثيرًا بين أهل كل فضيلة وصنعة ، وكان أبو البركات المذكور يهوديًا ، ثم أسلم فى آخر عمره ، وأصابه الجذام ، وتداوى وبرئ منه ، وذهب بصره وبقى أعمى وكان متكبرًا ، وكان ابن التلميذ متواضعًا فعمل ابن التلميذ فى أبى البركات المذكور :

لنا صديق يهودى حماقته إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه

ولابن التلميذ أيضًا :

يامن رمانى عن قوس فرقته بسهم هجر على تلافيه
ارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيه

وله التصانيف الحسنة : منها كتاب أقراباذين ، وله على كليات القانون حواشى ، وكتاب أقراباذين ابن التلميذ المذكور هو المعتمد عليه عند الأطباء ، وكان شيخه فى الطب أبا الحسن هبة الله بن سعيد صاحب المغنى فى الطب ، ولابن سعيد المذكور أيضًا الإقناع فى الطب ، وهو كتاب جيد فى أربعة أجزاء .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام ، وكان بيد الفرنج .

وفيها : فى ربيع الآخر ، توفى الشيخ عبدالقادر بن أبى صالح الجيلى ، وكنيته أبو محمد ، وكان مقيما ببغداد ، ومولده سنة سبعين وربعمائة ، قال ابن الأثير : كان من الصلاح على حال عظيم ، وهو حنبلى المذهب ، ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ، وجهزه نور الدين بعسكر جيد ، عدتهم ألفا فارس ، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة ، وأرسل شاور إلى الفرنج واستنجدهم وجمعهم وساروا فى إثر شيركوه إلى جهة الصعيد ، والتقوا على بلد يقال له إيوان ، فانهزم الفرنج والمصريون ، واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ، ثم سار إلى الإسكندرية وملكها ، وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد ، فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالإسكندرية مدة ثلاثة أشهر ، فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الإسكندرية ويعود إلى الشام ، فتسلم المصريون الإسكندرية فى منتصف شوال من هذه السنة ، وسار شيركوه إلى الشام فوصل إلى دمشق فى ثامن عشر ذى القعدة ، واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على أن يكون للفرنج بالقاهرة شحنة ، ويكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

وفى هذه السنة : فتح نور الدين صافيتا والغربية .

وفيها : عصا غازى بن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فسير إليه نور الدين

عسكرًا أخذوا منه منبج ، ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازى المذكور ، فبقى فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفيها : توفى فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أُرتق صاحب حصن كيفا ، وملك بعده ولده نوز الدين محمود بن قرا أرسلان بن داود .

وفيها : توفى عبدالكريم أبو سعيد بن محمد بن منصور بن أبى بكر المظفر السمعانى المروزى الفقيه الشافعى ، وكان مكثرًا من سماع الحديث ، سافر فى طلبه إلى ما وراء النهر ، وسمع منه ما لم يسمعه غيره ، وله التصانيف المشهورة الحسنة ، منها : ذيل تاريخ بغداد ، وتاريخ مدينة مرو ، وكتاب الأنساب فى ثمان مجلدات ، وقد اختصر كتاب الأنساب المذكور الشيخ عز الدين على بن الأثير فى ثلاثة مجلدات ، والمختصر المذكور هو الموجود فى أيدى الناس ، والأصل قليل الوجود ، وله غير ذلك ، وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزى فأوقع فيه ، فمن جملة قوله فيه : أنه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى ويقول : حدثنى فلان بما وراء النهر - وهذا بارد جدًا لأن السمعانى المذكور سافر إلى ما وراء النهر حقًا ، فأى حاجة به إلى هذا التدليس ، وإنما ذنبه عند ابن الجوزى أنه شافعى وله أسوة بغيره ، فإن ابن الجوزى لم يبق على أحد غير الحنابلة .

وكانت ولادة أبى سعيد السمعانى المذكور فى شعبان سنة ست وخمسمائة ، وكان أبوه وجده فاضلين ، والسمعانى منسوب إلى سمعان وهو بطن من تميم .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة :

وفى هذه السنة : فارق زين الدين على كجك بن بكتكين نائب قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل خدمة قطب الدين واستقر بأربل ، وكانت فى إقطاع زين الدين على المذكور قد عمى وطرش .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة :

ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر

فى هذه السنة : ملك نور الدين محمود قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك ابن على بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المثيب العقيلى ، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه ، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن أسر صاحب مالك المذكور

بنو كلاب وأحضروه إلى نور الدين محمود ، واجتهد به على تسليمها فلم يفعل فأرسل عسكرًا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبى على الزعفرانى ، وردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبى بكر المعروف بابن الداية ، وكان رضيع نور الدين ، وحصروا قلعة جعبر فلم يظفروا منها بشىء ، ومازالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضًا مدينة سرو بأعمالها ، والملوحة من بلد حلب وعشرين ألف دينار معجلة ، وباب بزاعة .

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ، ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

فى هذه السنة : أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة فى ربيع الأول ، سار أسد الدين شيركوه ابن شاذى إلى ديار مصر ومعه العساكر النورية ، وسبب ذلك تمكن الفرنج من البلاد المصرية ، وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبيس قهرًا فى مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها فأحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الفرنج ، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يومًا ، فأرسل العاضد الخليفة إلى نور الدين يستغيث به ، وأرسل فى الكتب شعور النساء .

وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم ، فحمل إليهم مائة ألف دينار وسألهم أن يرحلوا على القاهرة ليقدر على جمع المال وحمله فرحلوا - فجهز نور الدين العسكر مع شيركوه ، وأنفق فيهم المال ، وأعطى شيركوه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك ، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾[1] ، ولما قارب شيركوه مصر رحل الفرنج من ديار مصر على أعقابهم إلى بلادهم ، فكان هذا لمصر فتحًا جديدًا ، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة فى رابع ربيع الآخر ، واجتمع بالعاضد وخلع عليه ، وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية ، وأجرى عليه وعلى عسكره الإقامات الوافرة ، وشرع شاور يماطل شيركوه فيما بذله لنور الدين من تقرير المال ،

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢١٦ .

وإفراد ثلث البلاد له ، ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1] .

ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك ، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور ، واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف ، وعزالدين جرديك وغيرهما وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه ، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده فى المخيم ، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعى رضى الله عنه ، فلقى صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه إلى زيارة الشافعى ، فساروا جميعًا إلى شيركوه ، فوثب صلاح الدين وجرديك ومن معهما على شاور وألقوه إلى الأرض عن فرسه وأمسكوه فى سابع ربيع الآخر من هذه السنة - أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة -فهرب أصحابه عنه ، وأرسلوا أعلموا شيركوه بما فعلوه فحضر ، ولم يمكنه إلا إتمام ذلك .

وسمع العاضد الخبر ، فأرسل إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور فقتله ، وأرسل رأسه إلى العاضد ، ودخل بعد ذلك شيركوه إلى القصر عند العاضد ، فخَلَعَ عليه العاضد خِلَعَ الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش ، وسار بالخِلَع إلى دار الوزارة وهى التى كان فيها شاور واستقر فى الأمر ، وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلى أو له بعد البسملة :

من عبدالله ووليه أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجلّ الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة مجير الأمة أسد الدين أبى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ، سلام عليك ، فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

ونسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما ».

ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه ووصايا أضربنا عنها للاختصار ، وكتب العاضد بخطه على طرة المنشور : « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة البنوة » .

ومدحت الشعراء أسد الدين ، ووصل إليه من الشام مديح لعماد الكاتب قصيدة أولها :

بالجد أدركتَ ما أدْركتَ لا اللَّعب ... كم راحة جُنِيَتْ من دَوْحَة التعب

---

(١) سورة النساء من الآية ١٢٠ .

يا شيركوه بن شاذى الملك دعوة مَنْ نادى فعرَّف خير ابن لخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم من المَدَى فى العلا ما حزت بالخَبَبِ
تمل من ملك مصر رتبة قصرت عنها الملوك فظالت سائر الرتب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من فتح البلاد فباد نحوها وثب

وفى شيركوه وقتل شاور يقول عرقلة الدمشقى :

لقد فاز بالملك العقيم خليفة له شيركوه العاضدىّ وزير
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال صحبه على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ولا زال فيها منكر ونكير

وأما الكامل بن شاور ، فلما قتل أبوه دخل القصر ، فكان آخر العهد به .

ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾[1] ، وتوفى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

وكان شيركوه وأيوب ابنى شاذى من بلد دوين ، قال ابن الأثير : وأصلهما من الأكراد الروادية ، فقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد ، وكان أيوب أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظًا لقلعة تكريت ، ولما انكسر عماد الدين زنكى من عسكر الخليفة ومرَّ على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ، ثم إن شيركوه قتل إنسانًا بتكريت فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكى فأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جليلة ، ولما ملك عماد الدين زنكى قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظًا لها ، ولما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكى سلمها أيوب إليهم على إقطاع كبير شرطوه له ، وبقى أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق ، وبقى شيركوه مع نور الدين محمود بعد قتل أبيه زنكى ، وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليهما ، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب ،فساعد أيوب نور الدين على ملك دمشق وبقيا مع نور الدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها وتوفى فيها فى هذه السنة على ما ذكرناه .

ولما توفى شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذى ، وكان قد سار معه على كره ، قال صلاح الدين : أمرنى نور الدين بالسير مع عمى شيركوه ، وكان قد قال شيركوه بحضرته لى : تجهَّز يا يوسف للمسير ، فقلتُ : والله لو أعطيتُ ملك مصر ما سرت

---

[1] (١) من الآية ٤٣ سورة الأنعام .

إليها ، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية ما لا أنساهُ أبدًا ، فقال لنور الدين : لابد من مسيره معي ، فأمرني نور الدين وأنا أستقيل ، فقال نور الدين : لابد من مسيرك مع عمك ، فشكوتُ الضائقة ، فأعطاني ما تجهزتُ به ، فكأنما أنساق إلى الموت ، فلما مات شيركوه ، طلب جماعة من الأمراء النورية التقدم على العسكر وولاية الوزارة العاضدية ، منهم : عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين ينال المنبجي ، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري ، وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين ، فأرسل العاضد [مَنْ] أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، فلم تطعه الأمراء المذكورون ، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري ، فسعى مع المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين ، ثم قصد الحارمي وقال : هذا ابن أختك ، وعزه وملكه لك ، فمال إليه أيضًا ، ثم فعل بالباقين كذلك ، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال : أنا لا أخدم يوسف ، وعاد إلى نور الدين بالشام .

وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب لنور الدين ، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الإسفهلار(1) ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيمًا عن أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده بكتاب بل إلى الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله ، فأرسلهم إليه نور الدين ، فأعطاهم صلاح الدين الإقطاعات بمصر ، وتمكن من البلاد ، وضعف أمر العاضد ، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد ، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى .

قال ابن الأثير مؤلف الكامل : رأيت كثيرًا من ابتدئ بالملك ينتقل إلى غير عقبه :

* فإن معاوية تغلّب وملك ، فانتقل الملك إلى بني مروان بعده .
* ثم ملّك السفاح من بني العباس ، فانتقل الملك إلى أخيه المنصور وعقبه .
* ثم السامانية أول من ابتدئ بالملك منهم نصر بن أحمد ، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل وعقبه .
* ثم عماد الدولة بن بويه ملّك ، فانتقل الملك إلى عقب أخيه ركن الدولة .
* ثم ملّك طغريل بك السلجوقي ، فانتقل الملك إلى عقب أخيه داود .
* ثم شيركوه ملك ، فانتقل الملك إلى ابن أخيه – ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه ، بل انتقل إلى أخيه العادل وعقبه ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب ،

(1) الإسفهلار : هو لقب يطلق على كبير الأمراء .

وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى ذلك أولاً وأخذه الملك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبه ذلك .

ولما استقر قدم صلاح الدين فى الوزارة قتل مؤتمن الخلافة وكان مقدم السودان ، فاجتمعت السودان وهم حفاظ القصر فى عدد كثير ، وجرى بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين انهزم فيها السودان ، وقتل منهم خلق كثير ، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلا وتهجيجًا ، وحكم صلاح الدين على القصر ، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدى وكان خصيًا أبيض ، وبقى لا يجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : كان بين إينانج صاحب الرى والدكز حرب انتصر فيها الدكز وملك الرى ، وهرب إينانج وانحصر فى بعض القلاع ، فأرسل الدكز ورغب غلمان إينانج فى الإقطاعات إن قتلوا إينانج أستاذهم فقتلوه ولحقوا بالدكز فلم يف لهم وقال : مثل هؤلاء لا ينبغى الإبقاء عليهم ، فهربوا إلى البلاد ، ولحق بعضهم وهو الذى قتل أستاذه بخوارزم شاه فصلبه لخيانته أستاذه .

وفيها : توفى الشيخ أبو محمد الفارقى وكان أحد الزهاد وله كرامات كثيرة ، كان يتكلم على الخاطر ، وكلامه مجموع مشهور .

وفيها : توفى ياروق أرسلان التركمانى ، وكان مقدمًا كبيرًا ، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان ، وكان عظيم الخلقة ، يسكن بظاهر حلب ، وبنى على شاطئ قويق هو وأتباعه عمائر كثيرة ، وتعرف الآن بالياروقية وهى مشهورة هناك .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة :

فيها : سارت الفرنج إلى دمياط وحصروها ، وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر ، وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة ، فحصروها خمسين يومًا ، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام ، فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشىء منها ، قال صلاح الدين : ما رأيتُ أكرمَ من العاضد ، أرسل إلىَّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها .

وفيها : سار نور الدين وحاصر الكرك مدة ثم رحل عنه .

وفيها : كانت زلزلة عظيمة خربت الشام ، فقام نور الدين فى عمارة الأسوار وحفظ البلاد أتم قيام ، وكذلك خربت بلاد الفرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خرب من بلاده .

وفيها : فى ذى الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكى بن أُقسنقر صاحب الموصل ، وكان مرضه حمى حادة ، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود إلى أخيه الذى هو أصغر منه وهو سيف الدين غازى بن مودود ،فسار عماد الدين زنكى إلى عمه نور الدين مستنصرًا به ، وتوفى قطب الدين وعمره أربعون سنة تقريبًا ، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفًا ، وكان من أحسن الملوك سيرة .

وفى هذه السنة : توفى الملك طغريل بك بن قاورت بك صاحب كرمان ، واختلف أولاده بهرام شاه ،وأرسلان شاه وهو الأكبر ، واستنجد كل منهما وطلب الملك فاتفق فى تلك المدة أن أرسلان شاه الأكبر مات فاستقر بهرام شاه فى ملك كرمان .

وفيها : توفى مجد الدين أبو بكر بن الداية رضيع نور الدين ، وكانت حلب وحارم وقلعة جعبر إقطاعة ، فأقر نور الدين أخاه عليًّا بن الداية على إقطاعه .

وفيها : توفى محمد بن محمد بن ظفر صاحب كتاب « سلوان المطاع » صنفه لبعض القواد بصقلية سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وله أيضًا كتاب « نجباء الأبناء » ، وشرح مقامات الحريرى ، ومولده بصقلية ، وتنقل بالبلاد ، وأقام بمكة شرفها الله تعالى ، وسكن آخر وقت مدينة حماة وتوفى بها ، ولم يزل يكابد الفقر حتى مات رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة :

ذكر وفاة المستنجد وخلافة المستضىء وهو ثالث ثلاثينهم

فى هذه السنة : تاسع ربيع الآخر ، توفى المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية ، وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خاف منه أستاذ داره عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء ، وقطب الدين قيماز المقتفوى وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد ، فاتفقا ووضعا الطبيب على أن يصف له ما يهلكه فوصف له دخول الحمام فامتنع منه لضعفه ، ثم إنه دخلها وغلق عليه الباب فمات .

ولما مات المستنجد أحضر عضد الدين وقطب الدين المستضىء بأمر الله ابن المستنجد واشترطا عليه شروطًا : أن يكون عضد الدين وزيرًا ، وابنه كمال الدين أستاذ داره ، وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك ، واسم المستضىء الحسن وكنيته أبو محمد ، ولم يل الخلافة مَنْ اسمه حسن غير الحسن بن على المستضىء فبايعوه بالخلافة يوم مات أبوه بيعة خاصة وفى غده بيعة عامة ، وكان المستنجد حسن السيرة ، أطلق كثيرًا من المكوس[1] ، وكان شديدًا على أهل العبث والفساد .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار نور الدين محمود بن زنكى إلى الموصل وهى بيد ابن أخيه غازى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ، فاستولى عليها نور الدين وملكها ، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها ، وأطلق المكوس منها ، ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازى المذكور ، وأعطى سنجار لعماد الدين زنكى بن مودود ، وهو أكبر من أخيه سيف الدين غازى ، فقال كمال الدين الشهر زورى : فى هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكى ، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين ، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين ، فيحصل الخلف وتطمع الأعداء .

وفى هذه السنة : سار صلاح الدين عن مصر ، فغزا بلاد الفرنج قرب عسقلان والرملة ، وعاد إلى مصر ، ثم خرج إلى أيلة وحصرها ، وهى للفرنج على ساحل البحر الشرقى ، ونقل إليها المراكب وحصرها برًا وبحرًا ، وفتحها فى العشر الأول من ربيع الآخر ، واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر ، ولما استقر صلاح الدين بمصر ، كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية ، وكذلك بنى دار الغزل مدرسة للشافعية ، وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة ، ورتب قضاة شافعية ، وذلك فى العشرين من جمادى الآخرة ، وكذلك اشترى تقى الدين عمر ابن أخيه صلاح الدين منازل العز وبناها مدرسة للشافعية .

وفى هذه السنة : توفى القاضى ابن الخلال من أعيان الكتاب المصريين وفضلائهم ، وكان صاحب ديوان الإنشاء بها .

---

(١) المَكْسُ : الجباية انظر لسان العرب مادة مكس .

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة :

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

فى هذه السنة : ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد ، ولم يل الخلافة ابن المستنصر بالله أبى تميم معد ابن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على ابن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور ابن العزيز بالله أبى منصور ابن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى الطاهر إسماعيل ابن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد ابن المهدى بالله أبى محمد عبيد الله أول الخلفاء العلويين من هذا البيت ، وقد مرَّ ذكر نسبه فى ابتداء دولتهم .

وكان سبب الخطبة العباسية بمصر ، أنه لما تمكن صلاح الدين من مصر وحكم على القصر وأقام فيه قراقوش الأسدى ، وكان خصيًا أبيض ، وبلغ نور الدين ذلك ، أرسل إلى صلاح الدين يأمره حتمًا جزمًا بقطع الخطبة العلوية ، وإقامة الخطبة العباسية ، فراجعه صلاح الدين فى ذلك خوف الفتنة ، فلم يلتفت نور الدين إلى ذلك وأصر عليه .

وكان العاضد قد مرض ، فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضىء ويقطعوا خطبة العاضد فامتثلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته ، فتوفى العاضد يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع خطبته ، ولما توفى العاضد جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه ، وكان كثرته تخرج عن الإحصاء ، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق المثمنة والكتب والتحف ، فمن ذلك الحبل الياقوت ، وكان وزنه سبعة عشر درهمًا أو سبعة عشر مثقالاً - قال ابن الأثير مؤلف الكامل : أنا رأيته ووزنته .

ومما حكى أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضُرِبَ الإنسان به ضَرِطَ . فكُسِرَ ولم يعلموا به إلا بعد ذلك ، ونقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر وَوَكَلَ بهم من يحفظهم ، وأخرج جميع من فيه من عَبْدٍ وأَمَةٍ ، فباع البعض وعتق البعض ووهب البعض ، وخلا القصر من سكانه كأن لم يغنَ بالأمس ، ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ، فظن ذلك خديعة فلم يمض إليه ، فلما توفى علم صدقه فندم لتخلفه عنه .

وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربع عشرة خليفة : المهدى والقائم والمنصور والمعز

والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد – وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدى بسجلماسة فى ذى الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفى العاضد فى هذه السنة ، أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة – مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريبًا ، وهذا دأب الدنيا ، لم تعط إلا واستردت ، ولم تحل إلا وتمررت ، ولم تصف إلا وتكدرت ، بل صفوها لا يخلو من الكدر .

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ، ضربت لها البشائر عدة أيام وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل – وهو من خواص الخدم المقتفوية – إلى نور الدين وصلاح الدين ، والخطباء وسيرت الأعلام السود .

وكان العاضد المذكور قد رأى فى منامه أن عقربًا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد ، ولدغته ، فاستيقظ العاضد مرعوبًا ، واستدعى من يعبر الرؤيا ، وقَصَّ ما رآه عليه فعبره له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد ، فتقدم العاضد إلى والى مصر بإحضار مَنْ بذلك المسجد ، فأحضر إليه شخصًا صوفيًا يقال له نجم الدين الخُبُوشانى ، فاستخبره العاضد عن مقدمه وسبب مقامه بالمسجد المذكور ، فأخبره بالصحيح فى ذلك ، فرآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه فوصله بمال وقال له : ادع لنا ياشيخ وأمره بالانصراف ، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى فى ذلك ، فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء ، وكان نجم الدين الخُبُوشَانى المذكور من جملتهم ، فبالغ فى الفتيا وصرح فى خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام فى ذلك ، فصح بذلك رؤيا العاضد .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة فى الباطن ، فإن صلاح الدين سار ونازل الشوبك وهى للفرنج ، ثم رحل عنه خوفًا أن يأخذه ، فلم يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك ، وبلغ نور الدين ذلك فكتمه ، وتوحش باطنه لصلاح الدين .

ولما استقر صلاح الدين بمصر ، جمع أقاربه وكبراء دولته وقال : بلغنى أن نور الدين يقصدنا فما الرأى ؟ فقال تقى الدين عمر ابن أخيه : نقاتله ونصدّه ، وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب ، فأنكر على تقى الدين ذلك وقال : أنا والدكم ، لو رأيت نور الدين ، نزلت وقبّلت الأرض بين يديه ، بل اكتب وقل لنور الدين ، إنه لو جاءنى من عندك إنسان واحد ،

وربط المنديل فى عنقى وجرّنى إليك ، سارعتُ إلى ذلك ، وانفضوا على ذلك ، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة وقال له : لو قصدنا نور الدين ، أنا كنتُ أول من يمنعه ويقاتله ، ولكن إذا أظهرنا ذلك ، يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ، ولا ندرى ما يكون من ذلك ، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله ، فكان كما قال .

وفى هذه السنة : توفى الأمير محمد بن مردانيش ، صاحب شرقى بلاد الأندلس ، وهى مرسية وبلنسية وغيرهما ، فقصد أولاده أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب ، وسلموا إليه بلادهم ، فسُرَّ يوسف بذلك وتسلّمها منهم ، وتزوج بأختهم ، وأكرمهم ووصلهم بالأموال الجزيلة ، وكان قد قصدهم يوسف المذكور فى مائة ألف مقاتل ، فأجابوا بدون قتال كما ذكرنا .

وفى هذه السنة : عبر الخطا نهر جيحون ، فجمع خوارزم شاه أرسلان بن أتسِز بن محمد ابن أنوش تكين عساكره ، وسار إلى لقائهم ، فمرض خوارزم شاه ، ورجع مريضًا ، وأرسل عسكرًا مع بعض المقدمين ، فاقتتلوا مع الخطا ، وانهزم عسكر خوارزم شاه وأسر مقدمهم ، ورجع الخطا إلى بلادهم بعد ذلك .

وفى هذه السنة : اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادى ، وتسمَّى المناسيب لنقل البطايق والأخبار .

وفيها : عزل المستضىء وزيره عضد الدين بن رئيس الرؤساء مكرهًا ، لأن قطب الدين قيماز ألزمه بعزله ، فلم يمكنه مخالفته .

وفيها : مات يحيى بن سعدون بن تمام الأزدى الأندلسى القرطبى ، وكان إمامًا فى القراءة والنحو وغيره من العلوم ، توفى بالموصل .

وفيها : توفى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ، المعروف بابن الخشاب البغدادى ، العالم المشهور فى الأدب والنحو والتفسير والحديث ، وكان متضلعًا فى العلوم ، وكان قليل الاكتراث بالمأكل والملبس .

وفيها : توفى نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد النور بن قلاقس الشاعر المشهور الإسكندرى ، مدح القاضى الفاضل ، وكان كثير الأسفار ، سار إلى صقلية فى سنة ثلاث وخمسين ، ثم عاد وسار إلى اليمن فى سنة خمس وستين وخمسمائة وفى كثرة أسفاره يقول :

النـاس كثر ولكن لا يقـدّر لى   إلاَّ مـرافقـة المـلاح والحـادى

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : توفى خوارزم شاه أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد عاد

من قتال الخطا مريضًا ، ولما مات ملك بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود ، ودبرت والدته المملكة ، وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكين مقيمًا فى جَنْد قد أقطعه أبوه إياه ، فلما بلغه موت أبيه ، وولاية أخيه الصغير أنف من ذلك واستنجد بالخطا ، وسار إلى أخيه سلطان شاه وطرده ، ثم إن سلطان شاه قصد ملوك الأطراف ، واستنجدهم على أخيه تكش وطرده ، وكانت الحرب بينهم سجالاً حتى مات سلطان شاه فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، واستقر فى ملك خوارزم أخوه تكش بن أرسلان ، وفى تلك الحروب بين الأخوين قتل المؤيد (أى به) ، قتله تكش صَبرًا ، وملك بعده ابنه طغانشاه ابن المؤيد (أى به) .

وفى هذه السنة : سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى النوبة للتغلب عليها ، فلم تعجبه تلك البلاد ، فغنم وعاد إلى مصر .

وفى هذه السنة : توفى شمس الدين الدكز بهمدان ، وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد ، وكان الدكز هذا مملوكًا للكمال السميرى وزير السلطان محمود ، ثم صار للسلطان محمود ، فلما ولى السلطان مسعود ولاه وكبّره حتى صار ملك أذربيجان وغيرها من بلاد الجبل وأصفهان والرى ، وكان عسكره خمسين ألف فارس ، وكان يخطب فى بلاده بالسلطنة للسلطان أرسلان بن طغريل بك ، ولم يكن لأرسلان معه حكم ، وكان الدكز حسن السيرة .

وفى هذه السنة : سار طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى أفريقية ، ونزلوا على طرابلس الغرب فحاصرها مدة ثم فتحها ، واستولى عليها قراقوش المذكور ، وملك كثيرًا من بلاد أفريقية .

وفيها : غزا أبو يعقوب بن عبد المؤمن بلاد الفرنج بالأندلس .

وفيها : سار نور الدين محمود بن زنكى إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، واستولى على مرعش وبهنسا ومرزبان وسيواس ، فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح ، فقال نور الدين : لا أرضى إلا بأن ترد ملطية على ذى النون بن الدانشمند ، وكان قليج أرسلان قد أخذها منه ، فبذل له سيواس ، واصطلح معه نور الدين ، فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس ، وطرد ابن الدانشمند .

وفيها : سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها ، وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك ، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم ، وهو بالقرب من الكرك ، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين ، فرحل صلاح الدين عن الكرك عائدًا إلى مصر ، وأرسل تحفا إلى نور الدين ، واعتذر أن أباه أيوب مريض ويخشى أن يموت فتذهب مصر ، فقبل نور الدين عذره فى الظاهر وعلم المقصود ، ولما وصل صلاح الدين إلى مصر ، وجد أباه أيوب قد مات ، وكان سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذى المذكور أنه

ركب بمصر فنفرت به فرسه ، فوقع وحمل إلى قصره ، وبقى أيامًا ومات في السابع والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وكان أيوب خبيرًا عاقلاً حسن السيرة كريمًا كثير الإحسان .

وفيها : توفى أبونزار حسن بن أبى الحسن صافى بن عبد الله بن نزار النحوى ، وقد ناهز الثمانين ، وهو المعروف بملك النحاة ، وبرع فى النحو حتى فاق فيه أهل طبقته ، وكان معجبًا بنفسه ، ولقب نفسه بملك النحاة ، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وكذلك قرأ الأصولين والخلاف ، وسافر إلى خراسان وكرمان وغزنة ، ثم رحل إلى الشام ، واستوطن دمشق .

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة :

ذكر ملك شمس الدولة توران شاه ابن أيوب اليمن

كان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين ، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر ، بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه ، فإن هزمهم التجئوا إلى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها ، ثم سيره فى هذه السنة بعسكر إلى اليمن ، وكان صاحب اليمن حينئذ إنسانًا يسمى عبد النبى المقدم الذكر فى سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، فتجهز توران شاه ووصل إلى اليمن وجرى بينه وبين عبد النبى قتال ، فانتصر توران شاه وهزم عبد النبى ، وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبى ، ثم قصد عدن ، وكان صاحبها إنسانًا اسمه ياسر فخرج لقتال توران شاه ، فهزمه توران شاه وهجم عدن وملكها ، وأسر ياسر أيضًا ، واستولى توران شاه على بلاد اليمن ، واستقرت فى ملك صلاح الدين ، واستولى على أموال عظيمة لعبد النبى وكذلك من عدن .

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمنى

فى هذه السنة : فى رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين ، فإنهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية ، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم ، فمنهم عبد الصمد الكاتب ، والقاضى العويرس ، وداعى الدعاة ، وعمارة بن على اليمنى الشاعر الفقيه ، وله

أشعار حسنة ، فمنها ما يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله قصيدة منها :

رميت يادهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا ينفك ما بين أمر الشين والخجل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتها فى أكرم الدول
ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة لك الملامة أن أقصرت فى عذل
بالله زر ساحة القصرين وابك معى عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما والله لا التحمت فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة فى نسل آل أمير المؤمنين على

ومنها :

وقد حصلتم عليها واسم جدكم محمد وأبوكم خير منتعل
مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة القبل

ومنها :

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب الله غير ولى
أئمتى وهداتى والذخيرة لى إذا ارتهنت بما قدمت من عمل
والله لاحلت عن حبى لهم أبدًا ما أخر الله لى فى مدة الأجل

وأيضًا له فيهم :

غصبت أمية إرث آل محمد سفهًا وشنت غارة الشنآن
وغدت تخالف فى الخلافة أهلها وتقابل البرهان بالبرهان
لم تقتنع حكامهم بركوبهم ظهر النفاق وغارب العدوان
وقعودهم فى رتبة نبوية لم يبنها لهم أبو سفيان
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم أخذوا بثار الكفر فى الإيمان
فأتى زياد فى القبيح زيادة تركت يزيد يزيد فى النقصان

ذكر وفاة نور الدين محمود

فى هذه السنة : توفى الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن أُقسنفر ، صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك ، يوم الأربعاء حادى عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة ، وكان نور الدين قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ، وكان يريد أن يخلى ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود فى الشام قبالة الفرنج ، ويسير هو بنفسه إلى مصر ، فأتاه أمر الله الذى لا مردّ له ، وكان نور الدين أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية إلا فى حنكه ، حسن الصورة ، وكان قد اتسع ملكه جدًّا ، وخطب له بالحرمين ، واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب ، وكذلك كان يخطب له بمصر ، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله ، وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم ، وكان يصلّى كثيرًا من الليل ، فكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبى حنيفة ، وليس عنده فيه تعصب ، وهو الذى بنى أسوار مدن الشام مثل دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل ، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية ، ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله .

ولما توفى نور الدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بالملك بعده ، وعمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها ، وأطاعه صلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضربت السكة باسمه ، وكان المتولى لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المقدم ، ولما مات نور الدين ، وتملك ابنه الملك الصالح ، سار من الموصل سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ، وملك جميع البلاد الجزرية .

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة :

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

فى أول هذه السنة : اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع كثير ، وأظهر الخلاف على صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين إليه عسكرًا ، فاقتتلوا وقتل الكنز وجماعة معه وانهزم الباقون .

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

فى هذه السنة : سلخ ربيع الأول ، ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وحمص وحماة ، وسببه أن شمس الدين بن الداية المقيم بحلب ، أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعى الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ، ليكون مقامه بها ، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين ، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين ، قبض على شمس الدين بن الداية وإخوته ، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وإخوته ، وهو رئيس حلب ، واستبدّ سعد الدين بتدبير الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر ، واستدعوه ليملكوه عليهم ، فسار صلاح الدين جريدة[1] فى سبعمائة فارس ، ولم يلبث ووصل إلى دمشق ، فخرج كل من كان بها من العسكر ، والتقوه وخدموه ، ونزّل بدار والده أيوب ، المعروفة بدار العقيقى وعصت عليه القلعة ، وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان ، فراسله صلاح الدين واستماله ، فسلّم القلعة إليه ، فصعد إليها صلاح الدين ، وأخذ ما فيها من الأموال .

ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق ، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى ، وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة ، فى إقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ، فلما مات نور الدين ، لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس ، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها ، فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين ، وليس لفخر الدين معهم فى القلاع حكم إلا بارين ، فإن قلعتها كانت له أيضًا ، ونزل صلاح الدين على حمص فى حادى عشر جمادى الأولى ، وملك المدينة ، وعصت عليه القلعة ، فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة ، فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك ، أحد المماليك النورية ، فامتنع فى القلعة ، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح إسماعيل ، وإنما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير إلى حلب فى رسالة ، فاستحلفه جرديك على ذلك ، وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين ، واستخلف فى قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك إلى حلب ، قبض عليه كمشتكين وسجنه ،

---

(١) جريدة : أى لم يكن معه راجلا فى السير ، أوجدّ فى السير .

فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين فملكها ، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحصرها وبها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، فجمع أهل حلب ، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب ، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين ، فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه ، واستمر صلاح الدين محاصرًا لحلب إلى مستهل رجب ، ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص ، ووصل صلاح الدين إلى حماة ثامن رجب ، وسار إلى حمص فرحل الفرنج عنها ، ووصل صلاح الدين إلى حمص ، وحصر قلعتها ، وملكها فى الحادى والعشرين من شعبان من هذه السنة ، ثم سار إلى بعلبك فملكها .

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد ، أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ، يستنجده على صلاح الدين ، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ، ولقبه سلقندار ، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار ليسير فى النجدة أيضًا ، فامتنع مصانعة لصلاح الدين ، فسار بسيف الدين غازى وحصره بسنجار ، ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلقندار إلى حلب ، وانضم إليهم عسكر حلب ، وساروا إلى صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة ، وأن تقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائبًا للملك الصالح فلم يجيبوا إلى ذلك ، وساروا إلى قتاله ، واقتتلوا عند قرون حماة ، فانهزم عسكر الموصل وحلب ، وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم ، وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم فى حلب ، وقطع صلاح الدين حينئذ خطبة الملك الصالح ابن نور الدين ، وأزال اسمه عن السكة ، واستبد بالسلطنة ، فراسلوا صلاح الدين فى الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقى بيده منه ، فصالحهم على ذلك ، ورحل عن حلب فى العشر الأول من شوال من هذه السنة ، أعنى سنة سبعين وخمسمائة .

وفى العشر الأخير من شوال من هذه السنة : ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ، وكان فخر الدين المذكور من أكابر الأمراء النورية .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : ملك البهلوان بن الدكز مدينة تبريز ، وأخذها من أُقسنقر الأحمد يلى .

وفيها : مات شملة التركمانى صاحب خورستان ، وملك ابنه بعده .

وفيها : وقع بين الخليفة وبين قطب الدين قيماز مقدم عسكر بغداد فتنة ، فنهبت دار قيماز وهرب إلى الحلة ، ثم إلى الموصل ، فلحق قيماز فى الطريق عطش شديد ، فهلك أكثر أصحابه ، ومات قطب الدين قيماز قبل أن يصل إلى الموصل ، فحمل ودفن بظاهر باب العمادى ، ولما هرب قيماز خلع الخليفة على عضد الدولة الوزير ، وأعاده إلى الوزارة .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة :

ذكر انهزام سيف الدين غازى صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

فى هذه السنة : عاشر شوال ، كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بتل السلطان ، فهرب سيف الدين غازى والعساكر التى كانت معه ، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا ، وصاحب ماردين وغيرهما ، وتمت على سيف الدين غازى الهزيمة حتى وصل الموصل مرعوبًا ، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل ، واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم وغنم ما فيها ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى بزاعة فحصرها وتسلمها ، ثم سار إلى منبج فحصرها فى آخر شوال ، وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وكان شديد البغض لصلاح الدين ، وفتحها عنوة ، وأسرينال ، وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه ، فسارينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازى مدينة الرقة ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى إعزاز ونازلها ثالث ذى القعدة ، وتسلمها حادى عشر ذى الحجة ، فوثب إسماعيلى على صلاح الدين فى حصاره أعزاز فضربه بسكين فى رأسه فجرحه ، فأمسك صلاح الدين يدى الإسماعيلى ، وبقى يضرب بالسكين فلا يؤثر ، حتى قتل الإسماعيلى على تلك الحال ، ووثب آخر عليه فقتل أيضًا ، وجاء السلطان إلى خيمته مذعورًا ، وأعرض جنده ، وأبعد من أنكره منهم .

ولما ملك السلطان أعزاز رحل عنها ، ونازل حلب فى منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين ، وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب ، فسألوا صلاح الدين فى الصلح فأجابهم إليه ، وأخرجوا إليه بنتًا صغيرة لنور الدين محمود فأكرمها السلطان صلاح الدين ، وأعطاها شيئًا كثيرًا ، وقال لها : ما تريدين ؟ فقالت : أريد قلعة أعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها إليهم ، واستقر الصلح ، ورحل السلطان صلاح الدين عن حلب فى العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : سار أمير الحاج العراقى طاشتكين ، وأمره الخليفة بعزل صاحب مكة مكثر ابن عيسى ، فجرى بين الحجاج وبينه قتال ، فانهزم مكثر فى البرية ، وأقام أخاه داود مكانه بمكة .

وفيها : فى رمضان ، قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام ، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب إليه أبياتًا من شعر ابن المنجم المصرى :

وإلى صلاح الدين أشكو أننى ... من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعًا لبعد الدار عنه ولم أكن ... لولا هواه لبعد دار أجزع
ولأركبن إليه متن عزائمى ... ويخب بى ركب الغرام ويوسع
ولأسرين الليل لا يسرى به ... طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدُمَنّ إليه قلبى مخبرًا ... أنى بجسمى عن قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة ... من أفقها صبح السعادة يطلع

وفيها : توفى الحافظ أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله ، المعروف بابن عساكر الدمشقى الملقب نور الدين ، كان إمامًا فى الحديث ، ومن أعيان الفقهاء الشافعية ، صنف تاريخ دمشق فى ثمانين مجلدًا على وضع تاريخ بغداد ، أتى فيه بالغرائب ، ومولد المذكور فى أول سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة :

فيها : قصد السلطان صلاح الدين بلد الإسماعيلية فى المحرم ، فنهب بلدهم وخرّبه وأحرقه ، وحصر قلعة مصياف ، فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى خال صلاح الدين ، وهو شهاب الدين الحارمى صاحب حماة يسأله أن يسعى فى الصلح ، فسأل الحارمى الصفح عنهم ،

فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وصالحهم ، ورحل عنهم ، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ، ووصل إلى مصر ، فإنه كان قد بعد عهده بها بعد أن استقر له ملك الشام .

ولما وصل إلى مصر فى هذه السنة ، أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم ، ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمى ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين .

وفى هذه السنة : أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التى على الشافعى بالقرافة بمصر وعمل بالقاهرة مارستان .

وفيها : تولى القاضى جمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهر زورى قاضى دمشق وجميع الشام .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى جمادى الأولى ، سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الفرنج ، فوصل إلى عسقلان فى الرابع والعشرين من الشهر ، فنهب وتفرق عسكره فى الإغارات ، وبقى السلطان فى بعض العسكر ، فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليه ، فقاتلهم أشد قتال ، وكان لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد ، وهو من أحسن الشباب أول ما قد تكاملت لحيته ، فأمره أبوه تقى الدين بالحملة على الفرنج ، فحمل عليهم وقاتلهم ، فأثر فيهم أثرًا كبيرًا وعاد سالمًا ، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية ، فحمل عليهم فقتل شهيدًا ، وتمت الهزيمة على المسلمين ، وقاربت حملات الفرنج السلطان فمضى منهزمًا إلى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا فى طريقهم مشقة وعطشًا شديدًا ، وهلك كثير من الدواب ، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون فى الإغارات أسرى ، وأسر الفقيه عيسى ، وكان من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين ، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار ، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة .

قال الشيخ عز الدين علىّ بن الأثير مؤلف الكامل : « ورأيت كتابًا بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة ، وفى أوله :

ذكرتك والخطى تَخْطِرُ بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى :

* وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر * » .

وفى هذه السنة : سار الفرنج وحصروا مدينة حماة فى جمادى الأولى ، وطمع الفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الفرنج ، ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه صلاح الدين ، وليس عنده كثير من العسكر ، وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك فى اللذات ، مائلا إلى الراحات ، ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين وهو مريض ، واشتد حصار الفرنج لحماة ، وطال زحفهم عليها ، حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة ، وكادوا يملكون البلد قهرًا ، ثم جدّ المسلمون فى القتال ، وأخرجوا الفرنج إلى ظاهر السور ، وأقام الفرنج كذلك على حماة أربعة أيام ، ثم رحلوا عنها إلى حارم ، وعقيب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمى ، وكان له ابن من أسن الناس شبابًا مات قبله بثلاثة أيام .

وفى هذه السنة : قبض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين ، وكان قد تغلب على الأمر ، وكانت حارم لكمشتكين ، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلّموها إليه ، فأمر كمشتكين أن يسلّمها فأمرهم بذلك ، فلم يقبلوا منه ، فأمر تعذيب كمشتكين ليسلّموا القلعة ، فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه ، فمات فى العذاب ، وأصبر أصحابه على الامتناع ، ووصل الفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماة ، وحصروا حارم مدة أربعة أشهر ، فأرسل الملك الصالح مالًا للفرنج وصالحهم ، فرحلوا عن حارم ، وقد بلغ بأهلها الجهد ، وبعد أن رحل الفرنج عنها ، أرسل إليها الملك الصالح عسكرًا وحصروها ، فلم يبق بأهلها ممانعة ، فسلموها إلى الملك الصالح ، فاستتاب بقلعة حارم مملوكا كان لأبيه اسمه سرخك .

وفى هذه السنة : فى المحرم ، خطب للسلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل ابن السلطان محمد ابن السلطان ملكشاه ، المقيم ببلاد الدكز ، وكان أبوه أرسلان الذى تقدم خبره قد توفى ، ولم يذكر ابن الأثير وفاة أرسلان بن طغريل إلا فى هذا الموضع ، وكان ينبغى أن يذكره قبل هذه السنة .

وفيها : فى ذى الحجة ، قتل عضد الدين محمد بن عبد الله بن هبة الله وزير الخليفة ، وكان قد عبر دجلة عازمًا على الحج فقتله الإسماعيلية ، وحمل مجروحًا إلى منزله فمات به ، وكان مولده فى جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة .

وفيها : توفى صدقة بن الحسين الحداد الذى ذيل تاريخ ابن الزعفرانى ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : طلب توران شاه من أخيه السلطان صلاح الدين بعلبك ، وكان السلطان

اعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ، لمَّا سلّم دمشق إلى صلاح الدين ، فلم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك ، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلّمها ، فأرسل السلطان وحصره ببعلبك ، وطال حصارها ، فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على عوض ، فعوض عنها وتسلمها السلطان ، وأقطعها أخاه توران شاه .

وفيها : كان بالبلاد غلاء عام ، وتبعه وباء شديد .

وفيها : سير السلطان صلاحْ الدين ابن أخيه تقى الدين عمر إلى حماة ، وابن عمه محمد ابن شيركوه إلى حمص ، وأمرهما بحفظ بلادهما ، فاستقر كل منهما ببلده .

وفيها : توفى الحصيص الشاعرّ ، واسمه سعد بن محمد بن سعد ، وشعره مشهور ، فمنه :

لا تلمنى فى شقـائى بـالـعـلا   رغـد العيش لـربـات الحجـال
سـيـف عـزا زانـه رونـقـه   فهـو بـالـطبـع غنى عن صقـال

وفيها : ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر الأبرى ، سمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما ، وعمرت حتى قاربت مائة سنة ، وسمع عليها خلق كثير لعلو إسنادها .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة :

فيها : سار السلطان صلاح الدين وفتح حصنًا كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس عند بيث يعقوب ، وفى ذلك يقول علىّ بن محمد الساعاتى الدمشقى :

أتسكن أوطـان النبيـين عصبـة   تمـين لـدى إيمـانها وهى تحلف
نصحتكم والنصـح للديـن واجب   ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وفيها : كان حرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وبين عسكر قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، صاحب بلاد الروم ، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم ، فطمع فيه قليج أرسلان وأرسل إليه عسكرًا كثيرًا ليحصروه ، وكانوا قريب عشرين ألفا ، فسار إليهم تقى الدين فى ألف فارس فهزمهم ، وكان تقى الدين يفتخر ويقول : « هزمت بألف عشرين ألفا » .

ذكر وفاة المستضيء وخلافة الإمام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

في هذه السنة : ثاني ذي القعدة ، توفي المستضيء بأمر الله ، أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد ، وأمه أم ولد أرمنية ، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر ، وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وكان عادلاً ، حسن السيرة ، وكان قد حكم في دولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر ، المعروف بابن العطار ، بعد قتل عضد الدين الوزير ، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين بن العطار وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله ، ولما استقرت البيعة للإمام الناصر حكم أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل ، فقبض في سابع ذي القعدة على ظهير الدين بن العطار ونقل إلى التاج ، وأخرج ظهير الدين المذكور ميتاً على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة ، فثارت به العامة ، وألقوه عن رأس الحمال ، وشدوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد ، وكانوا يضعون في يده مغرفة ، يعني أنها قلم ، وقد غمس تلك المغرفة في العذرة ويقولون : وقع لنا يا مولانا ، هذا فعلهم به ، مع حسن سيرته فيهم ، وكفه عن أموالهم ، ثم خلص منهم ودفن .

وفي هذه السنة : في ذي القعدة ، نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك ، وطلب عوضها الإسكندرية ، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك ، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، فسار إليها فرخشاه ، وسار شمس الدين توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات بها .

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة :

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

في هذه السنة : ثالث صفر ، توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية ، وكان مرضه السل وطال ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر ، وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلاً عفيفًا شديد الغيرة ، لا يدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغارًا ، فإذا كبر أحدهم منعه ، وكان عفيفًا عن أموال الرعية مع شح كان فيه ، وحين حضره الموت ،

أوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود ، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه بن غازى ، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره ، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز .

وفى هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين إلى جهة قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ، ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوا ، فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمنى ، وشن فيها الغارات ، فصالحه ابن ليون على مال حمله ، وأسرى أطلقهم .

وفيها : توفى شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية ، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ، ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما ، وكان أجود الناس وأسخاهم كفا ، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ، ودخل الإسكندرية ، ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتى ألف دينار مصرية دينا عليه ، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل إلى مصر ، ووصل السلطان صلاح الدين إلى مصر فى هذه السنة فى شعبان ، واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق ، فجمع وقصد بلاد الكرك وأغار عليها ، وأقام فى مقابلة البرنس ، ففرق البرنس جموعه ، وانقطع عزمه عن الحركة .

وفيها : وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف ، فخشى السلطان صلاح الدين على اليمن ، فجهز إليه عسكرا مع جماعة من أمرائه ، فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه ، وكان نواب توران شاه : على عدن عز الدين عثمان بن الزنجيلى ، وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكنانى من بيت صاحب شيزر .

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

فى هذه السنة : فى رجب ، توفى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكى بن أقسنقر صاحب حلب وعمره نحو تسع عشرة سنة ، ولما اشتد به مرض القولونج ، وصف له

الأطباء الخمر ، فمات ولم يستعمله ، وكان حليمًا عفيف اليد والفرج واللسان ، ملازما لأمور الدين ، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب ، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل ، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب ، واستقر فى ملكها ، ولما استقر مسعود بن مودود فى ملك حلب ، كاتبه أخوه عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار فى أن يعطيه حلب ، ويأخذ منه سنجار ، فأشار قيماز بذلك فلم يمكن مسعود إلا موافقته ، فأجاب إلى ذلك ، فسار عماد الدين إلى حلب وتسلّمها ، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود ، وعاد مسعود إلى الموصل .

وفى هذه السنة : فى شعبان ، توفى أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد النحوى ، المعروف بابن الأنبارى ببغداد ، وله تصانيف حسنة فى النحو ، وكان فقيهًا .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة :

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام

فى هذه السنة : خامس المحرم ، سار السلطان صلاح الدين عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة ، وخرجت أعيان الناس لوداعه ، أخذ كل منهم يقول شيئًا فى الوداع وفراقه ، وفى الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان ، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين ، وانقبض بعد انبساطه ، وتنكد المجلس على الحاضرين ، فلم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدة ، وسار السلطان صلاح الدين ، وأغار فى طريقه على بلاد الفرنج وغنم ، ووصل إلى دمشق فى حادى عشر صفر من السنة ، ولما سار السلطان إلى الشام اجتمعت الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه ، فانتهز فرخشاه ابن أخى السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق الفرصة ، وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه ، وأغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج ، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك .

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن

فى هذه السنة : سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها ، وكان بها حطان بن منقذ الكنانى ، وعز الدين عثمان الزنجيلى ، وقد عادا إلى ولايتها ، فإن الأمير الذى كان سيره السلطان نائبًا إلى اليمن تولى وعزلها ثم توفى ، فعاد بين حطان وعثمان الفتن قائمة ، فوصل سيف الإسلام إلى زبيد ، فتحصن حطان فى بعض القلاع ، فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته ، ثم إن حطان طلب دستورًا ليسير إلى الشام فلم يجبه إلا بجهد ، فجهز حطان أثقاله قدامه ، ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه وأرسل استرجع أثقاله ، وأخذ جميع أمواله ، وكان فى جملة ما أخذه سيف الإسلام من حطان سبعين غلاف زردية مملوءة ذهبًا عينًا ، ثم سجن حطان فى بعض قلاع اليمن ، فكان آخر العهد به .

وأما عثمان الزنجيلى ، فإنه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام ، وسير أمواله فى البحر ، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام ، فأخذوا كل ما لعثمان الزنجيلى وصفت بلاد اليمن لسيف الإسلام .

ذكر غارات السلطان الملك صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد

فى هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين من دمشق فى ربيع الأول ، ونزل قرب طبرية وشن الإغارة على بلاد الفرنج مثل بانياس وجينين والغور ، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق ، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها ، وأغار على بلادها ثم عاد إلى دمشق ، ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية ، وعبر الفرات من البيرة ، فصار معه مظفر الدين كُوكَبُورى بن زين الدين على بن بكتكين ، وكان حينئذ صاحب حران ، وكاتب السلطان صلاح الدين ملوك تلك الأطراف واستمالهم ، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه ، ونازل السلطان الرها وحاصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كُوكَبُورى صاحب حران ، ثم سار السلطان إلى الرقة وأخذها من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبيجى ، فسار ينال

إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرقيسيا وماكسين وعربان والخابور ، واستولى على الخابور جميعه ، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم القلعة ، ثم أقطع نصيبين أميرًا كان معه يقال له أبو الهيجا السمين ، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار ، وشحنوها بالرجال والسلاح فحصر الموصل ، وأقام عليها منجنيقًا ، فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق ، وضايق الموصل فنزل السلطان صلاح الدين محاذاة باب كندة ، ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر ، ونزل تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين على باب العمادى وجرى القتال بينهم ، وكان ذلك فى شهر رجب من هذه السنة ، فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها ، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز ، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى حران وعزل فى طريقه عن نصيبين أبا الهيجا السمين .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً فى بحر أيلة ، وساروا فى البحر فرقتين : فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه ، وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون فى السواحل ، وبغتوا المسلمين فى تلك النواحى ، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجًا قط ، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبًا عن أخيه السلطان صلاح الدين ، فعمر أسطولاً فى بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين الحاجب لولو وهو متولى الأسطول بديار مصر ، وكان مظفرًا فيه شجاعًا ، فسار لولو مجدًا فى طلبهم ، وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم ، ثم سار فى طلب الفرقة الثانية ، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسها الله تعالى ، وسار لولو يقفو أثرهم ، فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الحورا ، وتقاتلوا أشد قتال ، فظفر الله تعالى بهم ، وقتل لولو أكثرهم وأخذ الباقين أسرى ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها ، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم .

وفى هذه السنة : توفى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك ، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق ، وهو ثقته من بين أهله ، وكان فرخشاه شجاعًا كريمًا فاضلاً ، وله شعر جيد ، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو فى البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها ، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور .

وفيها : توفى أبو العباس أحمد بن على بن الرفاعى من سواد واسط ، وكان صالحًا ذا قبول عظيم عند الناس ، وله من التلامذة ما لا يحصى .

وفيها : توفى بقرطبة ، خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجى الأنصارى ، وكان من علماء الأندلس ، وله التصانيف المفيدة ، ومولده فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة .

وفيها : توفى بدمشق ، مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى الفقيه الشافعى ، ولد سنة خمس وخمسمائة ، وهو الملقب قطب الدين ، وكان إمامًا فاضلًا فى العلوم الدينية ، قدم إلى دمشق ، وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين ، وكان السلطان يُقرئها أولاده الصغار .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة :

ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد

فى هذه السنة : ملك السلطان صلاح الدين حصن آمد بعد حصار وقتال فى العشر الأول من المحرم ، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، ثم سار إلى الشام ، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها ، ثم سار إلى عين تاب وحصرها ، وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ إسماعيل ، الذى كان خازن نور الدين محمود بن زنكى ، وكان قد سلم نور الدين عين تاب إلى إسماعيل المذكور ، فبقيت معه إلى الآن ، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه ، فأقره السلطان عليها ، وبقى فى خدمة السلطان ومن جملة أمرائه ، ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر وطال الحصار عليه وكان قد كثر اقتراحات أمراء حلب وعسكرها عليه ، وقد ضجر من ذلك ، وكره حلب كذلك ، فأجاب السلطان صلاح الدين إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج ، واتفقوا على ذلك ، وسلم حلب إلى السلطان فى صفر من هذه السنة فكان ينادون أهل حلب على عماد الدين المذكور : يا حمار بعت حلب بسنجار ، وشرط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه ، ولا يحتج بحجة عن ذلك .

ومن الاتفاقات العجيبة أن محيى الدين بن الزكىّ قاضى دمشق ، مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حَلبًا بالسيف فى مصر   مبشِّر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك تورى بن أيوب أخو السلطان الأصغر ، وكان كريمًا شجاعًا ، طعن فى ركبته

فانفكت فمات منها ، ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكى المذكور دعوة للسلطان ، واحتفل لها ، فبيناهم فى سرورهم ، إذ جاء إنسان فأسَرَّ إلى السلطان بموت أخيه تورى ، فوَجِدَ عليه فى قلبه وَجْدًا عظيماً ، وأمر بتجهيزه سرًّا ، ولم يُعْلِم السلطان فى ذلك الوقت أحدًا ممن كان فى الدعوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه ، وكان يقول السلطان : ما وقعت حلب علينا رخيصة بموت تورى ، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم .

ولما ملك السلطان حلب ، أرسل إلى حارم وبها سرخك الذى ولّاه الملك الصالح بن نور الدين فى تسليم حارم ، وجرت بينهما مراسلات ، فلم ينتظم بينهما حال ، وكاتب سرخك الفرنج ، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان فتسلمها ، وقرر أمر حلب وبلادها وأقطع أعزاز أميرًا يقال له سليمان بن جندر .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز .

وفيها : لمَّا فرغ السلطان من تقرير أمر حلب ، جعل فيها ولده الملك الظاهر غازى ، وسار إلى دمشق ، وتجهز منها للغزو ، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة ، فأغار على بيسان وحرقها ، وشنَّ الغارات على تلك النواحى ، ثم تجهز السلطان إلى الكرك وأرسل إلى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه إلى الكرك ، فسارا واجتمعا عليها ، وحصر الكرك وضيق عليها ، ثم رحل عنها فى منتصف شعبان ، وسار معه أخوه العادل ، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر إلى مصر نائبا عنه موضع الملك العادل ، ووصل السلطان إلى دمشق ، وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها فى شهر رمضان من هذه السنة وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق .

وفى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، توفى محمد بن بختيار بن عبد الله الشاعر المعروف بالأبلة .

وفى هذه السنة : أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة فى أواخرها ، توفى شَاهْرَ مَنْ سكمان بن ظهير الدين إبراهيم بن سكمان القطبى صاحب خِلاط ، وقد تقدم ذكر شَاهْرَمَنْ المذكور فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وكان عمر سكمان لما توفى أربعًا وستين سنة ، ولما مات سكمان كان بكتمر مملوكه بميافارقين ، فلما سمع بكتمر بموته ، سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط ، وكان أكثر أهلها يريدونه ، وكان مماليك شاهْرَ مَنْ متفقين معه ، فأول وصوله استولى على خلاط وتملكها ، وجلس على كرسى شاهْرَ مَن ، واستقر فى مملكة خلاط حتى قتل فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة :

ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن

فى هذه السنة : سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب إلى بلاد الأندلس وعبر البحر فى جمع عظيم من عساكره ، وقصد بلاد الفرنج ، فحصر شنترين من غرب الأندلس ، وأصابه مرض فمات منه فى ربيع الأول ، وحمل فى تابوت إلى مدينة أشبيلية ، وكانت مدة مملكته اثنتين وعشرين سنة وشهورا ، وكان حسن السيرة ، واستقامت له المملكة لحسن تدبيره ، ولما مات بايع الناس ولده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكنيته أبو يوسف وملكوه عليهم فى الوقت الذى مات فيه أبوه لئلايكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو ، فقام يعقوب بالملك أحسن قيام ، وأقام راية الجهاد وأحسن السيرة .

ذكر غزو السلطان الكرك

فى هذه السنة : فى ربيع الآخر ، سار السلطان صلاح الدين من دمشق للغزوة ، وكتب إلى مصر فسارت عساكرها إليه ، ونازل الكرك وحصره وضيق على من به ، وملك ربض الكرك وبقيت القلعة ، وليس بينها وبين الربض غير خندق خشب ، وقصد السلطان صلاح الدين طَمَّهُ فلم يقدر لكثرة المقاتلة ، فجمعت الفرنج فارسها وراجلها وقصدوه فلم يمكن السلطان إلا الرحيل ، فرحل عن الكرك ، وسار إليهم فأقاموا فى أماكن وعرة ، وأقام السلطان قبالتهم ، وسار من الفرنج جماعة ودخلوا الكرك ، فعلم بامتناعه عليه ، فسار إلى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك النواحى ، وقتل وأسر وسبى فأكثر ، ثم سار إلى سَبَسْطِيَة وبها مشهد زكريا ، فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ، ثم سار إلى جنينين ثم عاد إلى دمشق .

ذكر وفاة صاحب ماردين

فى هذه السنة : مات قطب الدين إيلغازى بن نجم الدين البى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، أقول : إنه قد تقدم فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ذكر ملك البى ولد إيلغازى المذكور ، وبقى البى فى ملك ماردين حتى مات ، وملك بعده ابنه إيلغازى المذكور ، ولم يقع لى وفاة البى وملك إيلغازى المذكورين متى كان لأثبته .

ولما مات إيلغازى المذكور ، كان له أولاد أطفال ، فأقيم فى الملك بعده حسام الدين بولق

أرسلان ، وقام بتدبير المملكة وترتيبها مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان ، وكان به هوج وخبط ، فمات بولق أرسلان ، وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن قطب الدين إيلغازى ، ولم يكن له حكم ، بل الحكم إلى البقش وإلى مملوك لبقش اسمه لولو ، وكان قد تغلب على أستاذه البقش ، بحيث كان لا يخرج عن رأى لولو المذكور ، ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردين من الحكم شىء .

وبقى الأمر كذلك إلى سنة إحدى وستمائة ، فمرض النظام البقش ، وأتاه ناصر الدين صاحب ماردين يعوده ، فلما خرج من عنده خرج معه لولو ، فضربه ناصر الدين بسكين فقتله ، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض ، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع .

وفى هذه السنة : توفى شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبى سعيد أحمد ، وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان صلاح الدين فى رسالة ومعه شهاب الدين بشير الخادم ، ليصلحا بين السلطان صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فلم ينتظم حال ، واتفق أنهما مرضا بدمشق ، وطلبا المسير إلى العراق ، وسارا فى الحر فمات بشير بالسخنة ، ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ، ودفن بمشهد البوق ، وكان أوحد زمانه ، قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا .

وفيها : فى المحرم ، أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل ، مجاهد الدين قيماز من الحبس ، وأحسن إليه .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة :

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل

فى هذه السنة : حصر السلطان صلاح الدين الموصل[1] ، وهو حصاره الثانى ، فأرسل إليه عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة ، يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم فردهم ، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما وفيهن بنت نور الدين محمود ، وحاصر الموصل وضايقها وبلغه وفاة شاهرمَن صاحب خِلاط فى ربيع الآخر من هذه السنة ، فسار عن الموصل إلى جهة خِلاط ، فاستدعى أهلها ليملكها .

(١) وردت فى الطبعة الأوروبية بغداد .

ذكر وفاة صاحب حصن كيفا

فى هذه السنة : توفى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد ، وملك بعده ولده سقمان ، ولقبه قطب الدين ، وكان صغيراً ، فقام بتدبيره القوام بن سماقا الأشعردى ، وحضر سقمان إلى السلطان صلاح الدين وهو نازل على ميافارقين ، فأمره على ما كان بيد والده نور الدين محمد ، وأقام معه أميراً من أصحاب أبى سقمان المذكور .

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميافارقين

لما سار السلطان عن الموصل إلى خِلاط ، جعل طريقه على ميافارقين ، وكانت لصاحب ماردين الذى توفى ، وفيها من حفظها من جهة مشاهْرَمَنّ صاحب أخلاط المتوفى ، فحاصرها السلطان وملكها فى سلخ جمادى الأولى ، ثم إن السلطان رجع عن قصد خِلاط إلى الموصل ، فجاءته رسل عز الدين مسعود يسألونه الصلح ، واتفق حينئذ أن السلطان صلاح الدين مرض ، وسار من كفر زمار عائداً إلى حران ، فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ما طلب ، وهو أن يسلم صاحب الموصل إلى السلطان صلاح الدين شهرزور وأعمالها ، وولاية القرابلى وجميع ما وراء الزاب ، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل ومابيده ، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير ، وتسلم السلطان ذلك ، واستقر الصلح ، وأمنت البلاد ، ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضاً ، واشتد به المرض حتى أيسوا منه ، ثم إنه عوفى وعاد إلى دمشق فى المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذى صاحب حمص إلى حمص ، وكاتب بعض أكابر دمشق فى أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : ليلة عيد الأضحى ، شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى فأصبح ميتاً ، قيل : إن السلطان صلاح الدين دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبته أهل دمشق فى مرضه ، ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشرة سنة ، وخلف صاحب حمص شيئاً كثيرًا من الدواب والآلات وغيرها ، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص فى عودته من حران ، وأخذ أكثرها ولم يترك إلا مالا خير فيه .

وفيها : توفى الحافظ محمد بن عمر بن أحمد الأصفهانى المدينى المشهور ، وكان إمام عصره فى الحفظ والمعرفة ، وله فى الحديث وعلومه تآليف مفيدة ، وله كتاب « الغيث » فى مجلد كمل به كتاب « الغريبين » للهروى ، واستدرك فيه عليه مواضع ، وهو كتاب نافع ، وكان مولده سنة إحدى وخمسمائة .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة :

ذكر نقل الملك العادل أخى السلطان من حلب وإخراج الملك الأفضل ابن السلطان من مصر إلى دمشق

فى هذه السنة : أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق ، وسببه أن الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخى السلطان ، كان نائب عمه بمصر ، وكان معه الملك الأفضل ، فأرسل تقى الدين يشتكى من الأفضل : إنى لا أتمكن من استخراج الخراج ، فإنى إذا أحضرت من عليه الخراج وأردت عقوبته ، يطلقه الملك الأفضل ، فأرسل السلطان وأخرج ابنه الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق .

وتغيّر السلطان على تقى الدين عمر فى الباطن ، فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليتملّك مصر إذا مات السلطان ، ثم أحضر أخاه العادل من حلب ، وجعل معه ولده العزيز عثمان ابن السلطان نائبا عنه بمصر ، واستدعى تقى الدين عمر من مصر ، فقيل : إنه توقف عن الحضور ، وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولى على بعض بلاد أفريقية وبرقة من المغرب ، وبلغ السلطان ذلك فساءه ، وأرسل يستدعى تقى الدين عمر ويلاطفه فحضر إليه ، ولما حضر تقى الدين عند السلطان زاده على حماة منبج والمعرّة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها ، واستقر العادل والعزيز عثمان فى مصر ، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرّها .

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قَزل

فى هذه السنة : فى أولها ، توفى البهلوان محمد بن الدكز ، صاحب بلد الجبل همدان والرى وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد ، وكان عادلا حسن السيرة ، وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان ، وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن

ملكشاه السلجوقى مع البهلوان ، وله الخطبة فى بلاده ، وليس له من الأمر شىء ، فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قَزل وكثر جمعه ، واستولى على بعض البلاد ، وجرت بينه وبين قَزل حروب .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : غدر البرنس صاحب الكرك ، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم فأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التى كانت بينهم على ذلك فلم يفعل ، فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده .

وفيها : توفى أبو محمد عبد الله بن أبى الوحش برى بن عبد الجبار بن برى المصرى ، الإمام فى علم النحو واللغة ، اشتغل عليه جماعة وانتفعوا به ، ومن جملتهم أبو موسى الجزولى صاحب المقدمة الجزولية فى النحو ، وكانت وفاته بمصر ، وولد بها فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة :

ذكر غزوات السلطان الملك الناصر صلاح الدين وفتوحاته

فى هذه السنة : جمع السلطان العساكر ، وسار بفرقة من العسكر ، وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحب الكرك ، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل ، فأغاروا على بلد عكا وتلك الناحية ، وغنموا شيئا كثيراً ، ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف ، وتأخرت القلعة ، وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل فى طاعته ، فأرسلت الفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه ، فصار معهم واجتمع الفرنج لملتقى السلطان .

ذكر وقعة حطين ، وهى الوقعة العظيمة التى فتح الله بها الساحل وبيت المقدس

لما فتح السلطان مدينة طبرية ، اجتمعت الفرنج فى ملوكهم بفارسهم وراجلهم ، وساروا إلى السلطان ، فركب السلطان من عند طبرية ، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر ، والتقى الجمعان ، واشتد بينهم القتال ، ولما رأى القومص شدّة الأمر حمل على من قدامه من المسلمين ، وكان هناك تقى الدين صاحب حماة ، فأفرج له وعطف عليهم ، فنجا القومص ووصل إلى طرابلس ، وبقى مدة يسيرة ومات غَبْنًا ، ونصر الله المسلمين ، وأحدقوا بالفرنج من كل ناحيةٍ ، وأبادوهم قتلا وأسْرًا ، وكان فى جملة من أسر ملك الفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفرى ومقدم الدّاويّة وجماعة من الاسبتارية ، وما أصيبت الفرنج من حين خرجوا إلى الشام ، وهى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الوقعة .

ولما انقضى المصاف ، جلس السلطان فى خيمته ، وأحضر ملك الفرنج ، وأجلسه إلى جانبه ، وكان الحر والعطش به شديداً ، فسقاه السلطان ماء مثلوجاً ، وسقى ملك الفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك ، فقال له السلطان : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فيكون أماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وفزعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين ، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه ، فارتعدت فرائص ملك الفرنج ، فسكن جأشه ، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان ، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان ، ثم أرسل أخاه الملك العادل فنازل مَجْدَ اليابا[1] وفتحه عنوة بالسيف ، ثم سار السلطان إلى تبنين ففتحها بالأمان ، ثم سار إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم سار إلى بيروت فحصرها وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان ، وكان حصرها مدة ثمانية أيام ، وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى ، فبذل جبيل فى أن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب إلى ذلك ، وكان صاحب جبيل من

---

(١) هكذا فى الأصل . أما فى معجم البلدان لياقوت الحموى فهى مَجْدَلْيَابَةُ : قرية قرب الرمله فيها حصن محكم .

أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين ، ولم تك عاقبة إطلاقه حميدة ، وأرسل السلطان فتسلم جبيل وأطلقه .

وفيها : حضر المركيس فى سفينة إلى عكا وهى للمسلمين ، ولم يعلم المركيس بذلك واتفق هجوم الهواء ، فراسل المركيس الملك الأفضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر ، والملك الأفضل يجيب المركيس إلى ذلك ، إلى أن هب الهواء فأقلع المركيس إلى صور ، واجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً ، وكان وصول المركيس إلى صور ، وإطلاق الفرنج الذين يأخذ السلطان بلادهم بالأمان ويحملهم إلى صور من أعظم أسباب الضرر التى حصلت حتى راحت عكا ، وقوى الفرنج بذلك ، ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوماً ، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الآخرة ، ثم بث السلطان عسكره ، ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبْرين والنطرون وغير ذلك .

ثم سار السلطان ونازل القدس ، وبه من النصارى عدد يفوت الحصر ، وضايق السلطان السور بالنقابين ، واشتد القتال ، وغلقوا السور ، فطلب الفرنج الأمان فلم يجبهم السلطان إلى ذلك وقال : لا آخذها إلا بالسيف مثل ما أخذها الفرنج من المسلمين ، فعاودوه فى الأمان ، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة ، وأنهم إن أيسوا منه من الأمان قاتلوا خلاف ذلك ، فأجابهم السلطان إليه بشرط أن يؤدى كل من بها عشرة الدنانير ، عشرة الدنانير من الرجال ، ويؤدى النساء خمسة خمسة ، ويؤدوا عن كل طفل دينارين ، وأى من عجز عن الأداء كان أسيراً ، فأجيب إلى ذلك ، وسلمت إليه المدينة يوم الجمعة فى السابع والعشرين من رجب ، وكان يوماً مشهوداً ، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ، ورتب السلطان على أبواب البلد مَنْ يقبض منهم المال المذكور ، فخان المرتبون فى ذلك ، ولم يحملوا منه إلا القليل .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، وتسلق المسلمون وقلعوه فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها منْ المسلمين للفرح والسرور ، ومن الكفار بالتفجع والتوجع ، وكان الفرنج قد عملوا فى غربى الجامع الأقصى هرباً ومستراحاً ، فأمر السلطان بإزالة ذلك ، وإعادة الجامع إلى ما كان عليه ، وكان نور الدين محمود بن زنكى قد عمل منبراً بحلب قد تعب عليه مدة وقال : هذا لأجل القدس ، فأرسل السلطان صلاح الدين أحضر المنبر من حلب وجعله فى الجامع الأقصى ، وأقام السلطان بعد فتوح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان ، يرتب أمور البلد وأحوالها ، وأمر بعمل الرُّبُط والمدارس الشفعوية .

ثم رحل السلطان إلى عكا ، ورحل منها إلى صور وصاحبها المركيس ، وقد حصنها بالرجال وحفر خندقها ، ونزل السلطان على صور تاسع شهر رمضان وحاصرها وضايقها ، وطلب الأسطول فوصل إليه فى عشرة شوان ، فاتفق أن الفرنج كبسوهم فى الشوانى ، وأخذوا خمسة

شوان ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا ، وأخذ الباقون ، وطال الحصار عليها ، فرحل السلطان عنها فى آخر شوال ، وكان أول كانون الأول ، وأقام بعكا ، وأعطى العساكر الدستور ، فسار كل واحد إلى بلده ، وبقى السلطان بعكا فى حلقته ، وأرسل إلى هوبين ففتحها بالأمان .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار شمس الدين محمد بن عبد الملك ، عرف بابن المقدم بعد فتح القدس حاجاً ، وكان هو أمير الحاج الشامى ، ليجمع بين الغزوة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج فى عام واحد ، فسار ووقف بعرفات ، ولما أفاض أرسل إليه طاشتكين أمير الحاج العراقى يمنعه من الإفاضة قبله ، فلم يلتفت إليه ، فسار العراقيون واتقعوا مع الشاميين ، فقتل بينهم جماعة ، وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال ، ولو أمكنهم لانتصفوا من العراقيين ، فجرح ابن المقدم ومات شهيداً ، ودفن بمقبرة المَعْلَى

وفيها : قوى أمر السلطان طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وملك كثيراً من البلاد ، فأرسل قزل بن الدكز إلى الخليفة يستنجده ويخوفه عاقبة أمر طغريل .

وفيها : سار شهاب الدين الغورى ، وغزا بلاد الهند .

وفيها : قتل الخليفة الناصر أستاذ داره مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب ، ولم يكن للخليفة معه حكم ، وظهر له أموال عظيمة فأخذت جميعها .

وفيها : استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ، ولقبه جلال الدين ، ومشى أرباب الدولة فى ركابه حتى قاضى القضاة ، وكان ابن يونس من خملة الناس ، فكان يمشى ويقول : لعن الله طول العمر .

وفيها : توفى قاضى القضاة الدامغانى ، وكان قد ولى القضاء للمقتفى .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة :

ذكر فتوحات السلطان صلاح الدين وغزواته

شتى السلطان هذه السنة فى عكا ، ثم سار بمن معه وقصد كوكب ، وجعل على حصارها أميراً يقال له قيماز النجمى ، وسار منها فى ربيع الأول ودخل دمشق ، ففرح الناس بقدومه ، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر ، وأقام فى دمشق تقدير خمسة أيام ، وسار من دمشق فى منتصف ربيع الأول من هذه السنة ، ونزل على بحيرة مقدس غربى حمص ، وأتته العساكر بها ، فأولهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن أقسنقر صاحب سنجار ونصيبين ، ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد ، وشن الغارات على بلاد الفرنج ، وسار من حصن الأكراد فنزل على أنطرطوس سادس جمادى الأولى ، فوجد الفرنج قد أخلوا أنطرطوس ، فسار إلى مرقية ، فوجدهم قد أخلوها أيضًا ، فسار إلى تحت المرقب وهو للاستبتار ، فوجد لا يرام ولا لأحد فيه مطمع فسار إلى جبلة ووصل إليها ثامن جمادى الأولى ، وتسلمها حالة وصوله ، فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ، ثم سار السلطان إلى اللاذقية ، ووصل إليها فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، ولها قلعتان ، فحصر القلعتين ، وزحف إليهما ، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلم القلعتين .

ولما ملك السلطان اللاذقية ، سلّمها إلى ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فعمرها وحصّن قلعتها ، وكان تقىُّ الدين عظيم الهمّة فى تحصين القلاع والغرامة عليها ، كما فعل بقلعة حماة ، ثم رحل السلطان عن اللاذقية فى السابع والعشرين من جمادى الأولى إلى صهيون وحاصرها وضايقها ، فطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه إلى ذلك ، وتسلّم السلطان قلعة صهيون ، وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين منكورس ، صاحب قلعة أبى قبيس ثم فرق عسكره فى تلك الجبال ، فملكوا حصن بلاد نوس ، وكان الفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه ، وملكوا حصن العبد وحصن الجماهريين ، ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ، ووصل إلى قلعة بكاس ، فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر ، فحصرها ووجدها منيعة وضايقها ، فأرمى الله فى قلوب أهلها الرعب ، وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان ، وأرسل السلطان ولده الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، فحصر سرمينية وضايقها

وملكها ، واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم ، وهدم الحصن وعفى أثره ، وكان فى هذا الحصن ، وفى الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير ، فأطلقوا فأعطوا الكسوة والنفقة ، ثم سار السلطان من الشغر إلى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف ، وملكها بالسيف فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، وسبى وأسر وقتل أهلها .

قال مؤلف الكامل ابن الأثير : كنت مع السلطان فى مسيره وفتحه هذه البلاد طلباً للغزوة فنحكى ذلك عن مشاهدة ، ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من أنطاكية ، فأقام عليه أياماً حتى تلاحق به من تأخر من العسكر ، ثم سار إلى درباك ونزل عليها ثامن رجب من هذه السنة ، وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط ألا يخرج أحد منها إلا بثيابه فقط ، وتسلمها تاسع عشر رجب ، ثم ثار من درباك إلى بغراس وحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان درباك ، وأرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل إطلاق كل أسير عنده ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، واصطلحوا ثمانية أشهر ، وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الفرنج فى هذه البلاد ، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس بعد موت القومص صاحبها على ما ذكرناه ، فجعل بيمند صاحب أنطاكية ابنه فى طرابلس ، ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة ، سار إلى حلب فدخلها ثالث شعبان وسار منها إلى دمشق ، وأعطى عماد الدين زنكى بن مودود دستوراً ، وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية ، وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فزاره ، وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان مقيما هناك ، وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة .

وكان مع السلطان أبو فليته الأمير قاسم بن مهنا الحسينى ، صاحب مدينة الرسول صلّى الله عليه وسلم ، وشهد معه مشاهده وفتوحاته ، وكان السلطان يتبرك برؤيته ، ويتيمن بصحبته ، ويرجع إلى قوله ، ودخل السلطان دمشق فى شهر رمضان المعظم ، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا ، فقال السلطان : إن العمر قصير والأجل غير مأمون ، وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها ، وخلا أخاه الملك العادل فى تلك الجهات يباشر ذلك ، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان ، فأمر الملك العادل لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد ، ثم سار السلطان من دمشق فى منتصف رمضان وسار إلى صفد فحصرها وضايقها وتسلمها بالأمان ، ثم سار إلى كوكب وعليها قيماز النجمى يحاصرها فضايقها السلطان وتسلمها بالأمان فى منتصف ذى القعدة ، وسير أهلها إلى صور ، وكان اجتماع أهل هذه القلاع فى صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين ، ظهر ذلك فيما بعد ، ثم سار السلطان إلى القدس فعيّد فيه عيد الأضحى ، ثم سار إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : أرسل قزل بن الدكز يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقى ، ويحذره عاقبة أمره ، فأرسل الخليفة عسكرًا إلى طغريل ، والتقوا ثامن ربيع الأول من هذه السنة قرب همدان ، فانهزم عسكر الخليفة ، وغنم طغريل أموالهم ، وأسر مقدم العسكر جلال الدين عبيد الله وزير الخليفة .

وفيها : توفى محمد بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذى الشاعر المشهور ، وقصائده فى الغزل والنسيب مشهورة ، وله فى غير ذلك أشياء حسنة أيضاً ، فمنها وقد صودر ببغداد جماعة من الدواوين من جملة قصيدته :

يا قاصداً بغداد حز عن بلدة	للجور فيها زجرة وعتاب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد	سدت على الراجى بها الأبواب
والناس قد قامت قيامتهم فلا	أنساب بينهم ولا أسباب
والمرء يسلمه أبوه وعرسه	ويخونه القرباء والأحباب
لا شافع تغنى شفاعته ولا	جان له مما جناه متاب
شهدوا معادهم فعاد مصدقًا	من كان قبل ببعثه يرتاب
جسر وميزان وعرض جرائد	وصحائف منشورة وحساب
ما فاتهم من يوم ما وعدوا به	فى الحشر إلا راحم وهاب

ومولد ابن التعاويذى المذكور فى سنة تسع عشرة وخمسمائة .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة :

فى هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين ونزل بمرج عيون ، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون ، وبذل إليه تسليم الشقيف ، بعد مدة ظهر بها خديعة منه ، فلما بقى للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان ، وكان اسم صاحب الشقيف أرناط ، فقال له السلطان فى التسليم فقال : لا يوافقنى عليه أهلى وأهل الحصن ، فأمسكه السلطان وبعثه إلى دمشق فحبس .

ذكر حصار الفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التى أخذها السلطان بالأمان ، فكثر جمعهم حتى صاروا فى عالم لا يحصى كثرتهم ، وأرسلوا إلى البحر يبكون ويستنجدون ، وصوروا صورة المسيح

وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه ، وقالوا : هذا نبي العرب يضرب المسيح ، فخرجت النساء من بيوتهنّ ، ووصل من الفرنج فى البحر عالم لا يحصون كثرة ، وساروا إلى عكا من صور ونازلوها فى منتصف رجب من هذه السنة ، وضايقوا عكا ، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر ، ولم يبق للمسلمين إليها طريق ، فسار إليهم السلطان ، ونزل قريب الفرنج وقاتلهم فى مستهل شعبان وباتوا على ذلك وأصبحوا ، فحمل تقى الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان على الفرنج فأزالهم عن موقفهم والتزق بالصور ، وانفتح الطريق إلى المدينة ، يدخل المسلمون ويخرجون وأدخل السلطان إلى عكا عسكرًا نجدة ، فكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين ، وبقى المسلمون يغادون القتال ويراوحونه إلى العشرين من شعبان ، ثم كان بين المسلمين وبينهم وقعة عظيمة ، فإن الفرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان مصافاً ، وحملوا على القلب فأزالوه ، وأخذوا يقتلون فى المسلمين إلى أن بلغوا إلى خيمة السلطان ، فانحاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة ، وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة ، فحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب ، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلا ، فكانت قتلى الفرنج نحو عشرة آلاف نفس ، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم إلى طبرية ، وبعضهم وصل إلى دمشق ، وجافت الأرض بعد هذه الوقعة ، ولحق السلطان مرض ، وحدث له قولونج ، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع ، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان من هذه السنة إلى الخروبة .

فلمّا رحل ، تمكن الفرنج من حصار عكا ، وانبسطوا فى تلك الأرض ، وفى تلك الحال وصل أسطول المسلمين فى البحر مع حسام الدين لولو وكان شهماً ، فظفر ببطشه للفرنج فأخذها ، ودخل بها إلى عكا ، فقوى قلوب المسلمين ، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر وبالسلاح إلى أخيه السلطان ، فقويت قلوب المسلمين بوصوله .

ذكر غير ذلك

فيها : توفى بالخروبة الفقيه عيسى ، وكان مع السلطان ، وهو من أعيان عسكره ، كان جنديًا فقيها شجاعًا ، وكان من أصحاب الشيخ أبى القاسم البرزى .

وفيها : توفى محمد بن يوسف بن محمد بن قائد ، الملقب موفق الدين الأربلى الشاعر المشهور ، وكان إماماً مقدمًا فى علم العربية ، وكان أعلم الناس بالعروض وأحذقهم بنقد الشعر ، وأعرفهم بجيده من رديئه ، واشتغل بعلوم الأوائل ، وحلّ كتاب أقليدس ، وهو شيخ أبى البركات بن المستوفى صاحب تاريخ أربل ، ورحل بن القائد المذكور إلى شهر زور ، وقام

بها مدة . ثم رحل إلى دمشق ، ومدح السلطان صلاح الدين يوسف ، ومن شعره قصيدة مدح بها زين الدين يوسف صاحب أربل منها :

رب دار بالحمى طال بلاها ... عكف الركب عليها فبكاها
كان لى فيها زمان وانقضى ... فسقى الله زمانى وسقاها
قل لجيران مواثيقهمُ ... كلما أحكمتها رثت قواها
كنتُ مشغوفًا بكم إذْ كنتمُ ... شجرًا لا يبلغ الطير ذراها
وإذا ما طامع أغرى بكم ... عرض اليأس لنفسى فثناها
فصبابات الهوى أولها ... طَمَعُ النفس وهذا منتهاها
لا تظنوا لى إليكم رجعة ... كشف التجريب عن عينى عماها
إن زين الدين أولانى يدًا ... لم تدع لى رغبة فيها سواها

وهى طويلة ، اقتصرنا منها على هذا القدر ، وكان أبوه محمد تاجرًا يتردد إلى البحرين لتحصيل اللآلى من المغاصات .

وفيها : توفى محمود بن على بن أبى طالب بن عبد الله الأصبهانى المعروف بالقاضى ، صاحب الطريقة فى الخلاف ، وصنف فيه التعليقة ، وهى عمدة المدرسين فى إلقاء الدروس ، ومن لم يذكرها فإنما هو لقصور فهمه عن إدراك دقائقها ، وكان متفننا فى العلوم ، وله فى الوعظ اليد الطولى .

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة :

فى هذه السنة : بعد دخول صفر ، رحل السلطان صلاح الدين عن الخروبة ، وعاد إلى قتال الفرنج على عكا ، وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبرجة ، طول البرج ستون ذراعًا ، جاءوا بخشبها من جزائر البحر ، وعملوها طبقات ، وشحنوها بالسلاح والمقاتلة ، ولبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار ، فتحيَّل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح ، ثم أحرقوا الثانى والثالث ، وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة ، ووصل إلى السلطان العساكر من البلاد ، وبلغ المسلمون وصول ملك الألمان ، وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل ، واهتم المسلمون لذلك ، وأيسوا من الشام بالكلية ، فسلط الله تعالى على الألمان الغلاء والوباء ، فهلك أكثرهم فى الطريق .

ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن ، نزل فى نهر هناك اغتسل فغرق ، وأقاموا ابنه مقامه ،

فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم ، وطائفة خامرت ابن الملك المذكور فرجعوا أيضًا ، ولم يصل مع ابن ملك الألمان إلى الفرنج الذين على عكا غير تقدير ألف مقاتل ، وكفى الله المسلمين شرهم ، وبقى السلطان والفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة ، فخرجت الفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل ، وأزالوا الملك العادل عن موضعه ، وكان معه عسكر مصر ، فعطفت عليهم المسلمون ، وقتلوا من الفرنج خلقًا كثيراً ، فعادوا إلى خنادقهم ، وحصل للسلطان مغص ، فانقطع فى خيمة صغيرة ، ولولا ذلك لكانت الفيصلة ، ولكن إذا أراد الله أمرًا فلا مردّ له .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : لما قوى الشتاء واشتدت الرياح ، أرسل الفرنج المحاصرون عكا مراكبهم إلى صور خوفًا عليها أن تنكسر ، فانفتحت الطريق إلى عكا فى البحر ، وأرسل البدل إليها ، فكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل .

وفيها : فى ثامن شوال ، توفى زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب أربل ، وكان مع السلطان فى عسكره ، ولما توفى أقطع السلطان صلاح الدين أربل أخاه مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك ، وأضاف إليه شهرزور وأعمالها ، وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها ، وسار مظفر الدين إلى أربل وملكها .

وفيها : استولى الخليفة الناصر لدين الله على حديثة عانة بعد أن حصرها مدة .

وفيها : أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسمساط والموزر الملك المظفر تقى الدين عمر زيادة على ما بيده وهو ماياقارقين ، ومن الشام حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس ومكرابيك .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة :

ذكر استيلاء الفرنج على عكا

واستمر حصار الفرنج لعكا إلى هذه السنة ، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر ، وحفروا عليهم خندقًا ، فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم ، وكانوا محاصرين لعكا ، وهم

كالمحصورين من السلطان ، واشتد حصارهم لعكا وطال ، وضعف من بها عن حفظ البلد ، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم ، فخرج الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب من عكا وطلب الأمان من الفرنج على مال وأسرى يقومون به للفرنج فأجابوهم إلى ذلك ، وصمدت أعلام الفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة ، واستولوا على البلد بما فيها ، وحبسوا المسلمين فى أماكن من البلد وقالوا : إنما نحبسهم ليقوموا بالمال والأسرى وصليب الصلبوت ، وكتبوا إلى السلطان صلاح الدين بذلك ، فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك ، وطلب منهم إطلاق المسلمين ، فلم يجيبوا إلى ذلك ، فعلم منهم الغدر واستمر أسرى المسلمين بها ، ثم قتل الفرنج من المسلمين جماعة كثيرة ، واستمروا بالباقين فى الأسر ، وبعد استيلاء الفرنج على عكا وتقرير أمرها ، رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية ، والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم ، ووصلوا إلى سوق المسلمين ، فقتلوا من السوقية وغيرهم خلقًا كثيرًا ، ثم سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكوها ، ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا ، فسار إليها وأخلاها وخربها ، ورتب الحجارين فى تفليق أسوارها وتخريبها فدكها إلى الأرض ، فلما فرغ السلطان من تخريب عسقلان ، رحل عنها ثانى شهر رمضان إلى الرملة ، فخرب حصنها ، وخرب كنيسة لد ، ثم سار إلى القدس وقرر أموره ، وعاد إلى مخيمه بالنظرون[1] ثامن شهر رمضان ، ثم تراسل الفرنج والسلطان فى الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك الانكتار ، ويكون للملك العادل القدس ، ولامرأته عكا ، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك ، إلا أن يتنصر الملك العادل ، فلم يتفق بينهم حال ، ثم رحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذى القعدة ، وبقى فى كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات ، فلقوا من ذلك شدة شديدة ، وأقبل الشتاء ، وحالت الأوحال بينهم ، ولما رأى السلطان ذلك ، وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور ، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذى القعدة ، ونزل داخل البلد ، واستراحوا مما كانوا فيه ، وأخذ السلطان فى تعمير القدس وتحصينه ، وأمر العسكر بنقل الحجارة ، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدى به العسكر ، فكان يجتمع عند العمالين فى اليوم الواحد مايكفيهم لعدة أيام .

---

(١) هكذا فى الأصل وربما الأقرب إلى الصواب أن تكون اللفظة بالنطرون .

ذكر وفاة الملك المظفر تقى الدين عمر

كان الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، قد سار إلى البلاد المرتجعة من كوكبورى التى زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات ، وهى حران وغيرها ، فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه ، واستولى على السويدا وحانى ، واتقع مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحصره فى خلاط ، وتملك على معظم البلاد ، ثم رحل عنها ونازل ملازكرد وهى لبكتمر وضايقها، وكان فى صحبته ولده الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر عمر المذكور، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به ، حتى توفى يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فأخفى ولده الملك المنصور وفاته ، ورحل عن ملازكرد ، ووصل به إلى حماة ودفنه بظاهرها ، وبنى إلى جانب التربة مدرسة ، وذلك مشهور هناك .

وكان الملك المظفر شجاعاً شديد البأس ، ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبى ، وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، واتفق أن فى ليلة الجمعة التى توفى فيها الملك المظفر ، توفى فيها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان ، فأصيب السلطان فى تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته ، ولما مات الملك المظفر ، راسل ابنه الملك المنصور السلطان صلاح الدين ، واشترط شروطا نسبه السلطان فيها إلى العصيان ، وكاد أمره يضطرب بالكلية ، فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل فى استعطاف خاطر السلطان ، فما برح الملك العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع فى الملك المنصور حتى أجابه السلطان ، وقرر الملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عن كل ماله من الإقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصه بمصر ، وأن يكون عليه فى كل سنة ستة آلاف غرارة ، تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس ، ولما استقر ذلك ، سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها فقررها ، وعاد إلى خدمة السلطان فى آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة ، أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ولما قدم الملك العادل على السلطان ، كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته ، فلما رأى السلطان الملك المنصور بن تقى الدين ، نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله فى مقدمة عسكره .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة : فى شعبان ، قتل قزل أرسلان ، واسمه عثمان بن الدكز ، وهو الذى ملك أذربيجان وهمدان وأصفهان والرى بعد أخيه محمد البهلوان ، وكان قد قوى عليه السلطان طغريل السلجوقى وهزم عسكر بغداد ، كما تقدم ذكره ، ثم إن قزل أرسلان تغلب ، واعتقل السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل فى بعض البلاد ، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان ، وتعصب على الشافعية ، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم ، وعاد إلى همدان ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، ودخل لينام على فراشه ، وتفرق عنه أصحابه ، فدخل عليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله .

وفيها : قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، صاحب بلاد الروم إلى السلطان صلاح الدين ، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده ، وأعطى ولده هذا ملطية ، ثم تغلب بعض إخوته على والده ، وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور ، فخاف من ذلك ، فسار إلى السلطان ملتجئًا إليه ، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل ، وعاد معز الدين إلى ملطية فى ذى القعدة ، وقد انقطعت أطماع أخيه منه .

قال ابن الأثير : لما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ، ترجل معز الدين له ، فترجل السلطان صلاح الدين ، ولما ركب السلطان صلاح الدين عضده قيصر شاه وركبه ، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك فسوى ثياب السلطان أيضاً ، فقال بعض الحاضرين فى نفسه : ما بَقِيتَ تبالى يا ابن أيوب ، بأى موتة تموت ، يركبك ملكُ سلجوق ، ويسوى قماشك ابن أتابك زمكى .

وفيها : قتل أبو الفتح يحيى بن حنش بن أميرك ، الملقب شهاب الدين السهروردى الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوسًا ، أمر بخنقه الملك الظاهر غازى بأمر والده السلطان صلاح الدين ، قرأ المذكور الأصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين الجيلى ، شيخ الإمام فخر الدين ، ثم سافر السهروردى المذكور إلى حلب ، وكان علمه أكثر من عقله ، فنسب إلى انحلال العقيدة ، وأنه يعتقد مذهب الفلاسفة ، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه ، لما ظهر من سوء مذهبه واشتهر عنه ، وكان أشدهم عليه فى ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهيل ، حكي الشيخ سيف الدين الآمدى قال : اجتمعت بالسهروردى فى حلب فقال لى : لابد أن أملك الأرض ، فقلت له : من أين لك هذا ؟ قال : رأيت فى المنام كأنى شربت ماء البحر ، فقلت : لعله يكون اشتهار علمك وما يناسب هذا ، فرأيته لا يرجع عما وقع فى نفسه ، ووجدته كثير

العلم ، قليل العقل ، وكان عمره لما قتل ثمانيًا وثلاثين سنة ، وله عدة مصنفات فى الحكمة منها : التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات وكتاب الهياكل وحكمة الإشراق ، وكان ينتسب إلى أنه يعرف السيميا وله نظم حسن فمنه :

أبداً تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح
وإذا هُم كتموا يحدث عنهم عند الوشاة المدمع السحاح
لا ذنب للعشاق أن غلب الهوى كتمانهم فنمى الغرام وباحوا

وهى قصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة :

وفيها : سار الفرنج إلى عسقلان ، وشرعوا فى عمارتها فى المحرم والسلطان فى القدس .

وفيها : قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى ، قتله بعض الباطنية ، وكانوا قد دخلوا فى زى الرهبان إلى صور .

ذكر عقد الهدنة مع الفرنج وعود السلطان إلى دمشق

وسبب ذلك أن ملك الانكتار مرض وطال عليه البيكار ، فكاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان فى الصلح ، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك ، ثم اتفق رأى الأمراء على ذلك لطول البيكار ، وضجر العسكر ونفدت نفقاتهم ، فأجاب السلطان إلى ذلك ، واستقر أمر الهدنة فى يوم السبت ثامن عشر شعبان ، وتحالفوا على ذلك فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان ولم يحلف ملك الانكتار ، بل أخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع السلطان بذلك ، وحلف الكندهرى ابن أخيه وخليفته فى الساحل ، وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج ، ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ، ومعهما جماعة من المقدمين ، وأخذوا يد السلطان على الصلح ، واستحلفوا الملك العادل أخا السلطان والملك الأفضل والظاهر ابنى السلطان ، والملك المنصور صاحب حماة محمد بن تقى الدين عمر ، والملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ، والملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك ، والأمير بدر الدين إيلدرم الياروقى صاحب تل باشر ، والأمير سابق

الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ، والأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار ، وعقدت هدنة عامة فى البحر والبر ، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها أيلول ، الموافق الحادى والعشرين من شعبان ، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها ، وقيسارية وعملها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها ، وأن تكون عسقلان خرابًا ، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية فى عقد هدنته ، واشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس فى عقد هدنتهم ، وأن يكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك .

ثم رحل السلطان إلى القدس فى رابع شهر رمضان ، وتفقد أحواله ، وأمر بتشييد أسوار ، وزاد فى وقف المدرسة التى عملها بالقدس ، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصند حَنَّة ، يذكرون أن فيها قبر حَنَّة أم مريم ، ثم صارت فى الإسلام دار علم قبل أن يتملك الفرنج بالقدس ، ثم لما ملك الفرنج القدس فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة ، كما كانت قبل الإسلام ، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضى بهاء الدين بن شداد ، ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة حجار لتخريب عسقلان ، وأن يخرج من بها من الفرنج ، وعزم على الحج والإحرام من القدس ، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك ، ثم فنده الأمراء وقالوا : لا نعتمد على هدنة الفرنج خوفاً من غدرهم ، فانتقض عزمه عن ذلك ، ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال إلى نابلس ، ثم سار إلى بيسان ، ثم إلى كوكب فبات بقلعتها ، ثم رحل إلى طبرية ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى وقد خلص من الأسر ، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الفرنج مع من أسر ، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق ، ثم سار منها قراقوش إلى مصر ، ثم سار السلطان إلى بيروت ، ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت حادى وعشرين شوال ، فأكرمه السلطان وفارقه غد ذلك اليوم ، وسار السلطان إلى دمشق ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال ، وفرح الناس به لأن غيبته كانت عنهم مدة أربع سنين .

وأقام العدل والإحسان بدمشق ، وأعطى السلطان العساكر الدستور ، فودعه ولده الملك الظاهر وداعًا لالقاء بعده وسار إلى حلب ، وبقى عند السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل والقاضى الفاضل ، وكان الملك العادل قد استأذن السلطان ، وسار من القدس إلى الكرك لينظر فى مصالحه ، ثم عادل الملك العادل إلى دمشق طالبًا البلاد الشرقية التى صارت له بعد تقى الدين ، فوصل إلى دمشق فى الحادى والعشرين من ذى القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه .

وفى يوم الخميس ، السادس والعشرين من شوال من هذه السنة ، توفى الأمير سيف الدين

على بن أحمد المشطوب بنابلس ، وكانت إقطاعة ، فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس ، وأقطع الباقى للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن المشطوب وأميرين معه .

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده

فى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، فى منتصف شعبان ، توفى السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق ، وكان ملكه فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكان ذا سياسة حسنة ، وهيبة عظيمة ، وعدل وافر ، وغزوات كثيرة ، وكان له عشرة بنين ، قد ولى كل واحد منهم قطرًا من بلاد الروم ، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور ، وكان قد أعطاه أبوه سيواس ، فسولت له نفسه القبض على أبيه وإخوته والانفراد بالسلطنة ، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان ، فسار قطب الدين ملكشاه ، وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه ، وقال لوالده وهو فى قبضته : أنا بين يديك أنفذ أوامرك ، ثم إنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولى عهده ، ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده فى القبضة معه ، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده ، فخرج عسكر قيسارية لحربه ، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة ، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظمه ، كما يجب عليه ، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة ، وبقى أبوه قليج أرسلان يتردد فى بلاده بين أولاده ، كلما ضجر منه واحد منهم ينتقل إلى الآخر ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو ، فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع له وحشد ، وسار معه إلى قونية فملكها وأخذها من ابنه ملكشاه ، ثم سار إلى أقصرا ، فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات فى التاريخ المذكور ، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها ، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه قليج أرسلان بقليل ، فاستقر كيخسرو فى ملك قونية وأثبت أنه ولى عهد أبيه قليج أرسلان ، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوى على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية ، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهر صاحب حلب .

ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة ، وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان فرجع

غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان إلى بلاد الروم ، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان وملك بلاد الروم جميعها ، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم ، وبقى كذلك إلى أن قتل ، وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ، ثم توفى كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو ، وتوفى علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو ، وكسره التتر سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم ، ثم مات غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق ، وانقضى بموت كيخسرو المذكور سلاطين بلاد الروم فى الحقيقة ، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم ، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما : ركن الدين وعز الدين فملكا معًا مدة مديدة ، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة ، وهرب أخوه عز الدين إلى قسطنطينية ، وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه ، والبلاد فى الحقيقة للتتر ، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين ، وأقام أبداً لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب التتر على ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : غزا شهاب الدين الغورى الهند ، فغنم وقتل مالا يحصى .

وفيها : خرج السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل من الحبس ، بعد قتل قزل أرسلان بن الدكز ، وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وفيها : توفى راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد ، وكنيته أبو الحسن ، صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام وأصله من البصرة .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة :

ذكر وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب بن شادى وشىء من أخباره

دخلت هذه السنة والسلطان بدمشق على أكمل مايكون من المسرة ، وخرج إلى شرقى دمشق متصيدًا ، وغاب خمسة عشر يومًا وصحبته أخوه الملك العادل ، ثم عاد إلى دمشق ،

وودعه أخوه الملك العادل وداعًا لا لقاء بعده ، فمضى إلى الكرك وأقام فيه حتى بلغه وفاة السلطان ، وأقام السلطان بدمشق ، وركب فى يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج ، وكان عادته ألا يركب إلا وهو لابس كزاغند[1] ، فركب ذلك اليوم ، وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم ، ولم يلبس الكزاغند ، ثم ذكره وهو راكب ، فطلب الكزاغند فلم يجده ، وقد حملوه معه ، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج ، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن ، ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنيبع ، ودخل إلى القلعة على الجسر إليها ، وكانت هذه آخر ركباته ، فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم ، وغشيه نصف الليل حمى صفراوية ، وأخذ المرض فى التزايد ، وقصده الأطباء فى الرابع ، فاشتد مرضه ، وحدث له فى التاسع رعشة ، وغاب ذهنه ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الإرجاف فى البلد ، وغشى الناس من الحزن والبكاء عليه مالا يمكن حكايته ، وحقن فى العاشر حقنتين ، فحصل له راحة ، وتناول من ماء الشعير مقدارًا صالحًا ، ثم لحقه عرق كثير حتى نفذ من الفراش ، واشتد المرض ليلة الثانى عشر من مرضه وهى ليلة السابع والعشرين من صفر ، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده فى القلعة ، بحيث إن احتضر بالليل ذكره الشهادة .

وتوفى السلطان فى الليلة المذكورة ، أعنى فى الليلة المستقرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح من هذه السنة ، أعنى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضى الفاضل بعد صلاة الصبح ، فحضر وفاته ، ووصل القاضى بهاء الدين بن شداد بعد موته وانتقاله إلى رحمة الله وكرامته ، وغسله الفقيه الدولعى خطيب دمشق ، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور ، فى تابوت مسجى بثوب ، وجميع ما احتاجوا من الثياب فى تكفينه أحضره القاضى الفاضل من جهة حل عرفة ، وصلى عليه الناس ، ودفن فى قلعة دمشق فى الدار التى كان مريضًا فيها ، وكان نزوله إلى جدته وقت صلاة العصر من النهار المذكور ، وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه ، وجلس للعزاء فى القلعة ، وأرسل الملك الأفضل على الكتب بوفاة والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر ، وإلى أخيه الظاهر غازى بحلب ، وإلى عمه الملك العادل أبى بكر بالكرك .

ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع ، وكانت داراً لرجل صالح ، ونقل

---

(١) الكزاغند : قال صاحب كتاب « الملابس المملوكية » تأليف ل . ا . ماير ترجمة صلاح الشيتى ما نصه ص ٧١ و ٧٢ « والبريجاندين الذى يطلق عليه اسم كزاغند أشير إليه كثيرًا فى القرن الثالث عشر ، فهو لابد أن يكون حلة شائعة الاستعمال فى تلك الأيام ، ولكنه كان فخمًا إلى درجة حملت السلطان على ارتدائه كذلك » ، ويقول فى هامش ص ٧٢ فى وصف الكزاغند « كان من المألوف أن يرتديه صلاح الدين دائمًا أثناء ركوبه ، وكان له ياقة عريضة ، ولم يكن فى استطاعة سكين أن تقطعه ، ولا يمكن للنصل أن ينفذ منه ليلحق بالجسد .

إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وخمسمائة ، ومشى الملك الأفضل بين يدى تابوته ، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد ، وأدخل الجامع ووضع قدام الستر ، وصلى عليه القاضى محيى الدين ابن القاضى زكى الدين ثم دفن ، وجلس ابنه الملك الأفضل فى الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فى هذه النوبة أموالا عظيمة ، وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت فى شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، فكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة ، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة ، وملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة ، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتا واحدة ، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين على بن يوسف ، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين ، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما ، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر ، ولم يخلف السلطان صلاح الدين فى خزانته غير سبعة وأربعين درهماً ، وحرم واحد صورى ، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن ، دليل قاطع على فرط كرمه ، ولم يخلف داراً ولا عقاراً .

قال العماد الكاتب : حسبت ما أطلقه السلطان فى مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش ، فكان اثنى عشر ألف رأس ، وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة فى القتال ، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، أو موعود به ، ولم يؤخر صلاة عن وقتها ، ولا صلّى إلا فى جماعة ، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله ، ولا يفضل يوماً على يوم ، وكان كثير سماع الحديث النبوى ، قرأ مختصراً فى الفقه ، تصنيف سليم الدارى ، وكان حسن الخلق ، صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره ، ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه ، وكان يوما جالسًا فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزة فأخطأته ، ووصلت إلى السلطان فأخطأته ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها ، وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد فى مجلسه أحداً إلا بالخير ، وطاهر اللسان فما يولع بشتم قط .

قال العماد الكاتب : مات بموت السلطان الرجال ، وفات بوفاته الأفضال ، وغاضت الأيادى وفاضت الأعادى ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ، ورزئ الإسلام بمشيد أركانه .

ذكر ما استقر عليه الحال
بعد وفاة السلطان

لما توفى السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، استقر فى الملك (بدمشق) وبلادها المنسوبة إليها ، ولده الملك الأفضل نور الدين على ، و (بالديار المصرية) الملك العزيز عماد الدين عثمان ، و (بحلب) الملك الظاهر غياث الدين غازى ، و (بالكرك والشوبك والبلاد الشرقية) الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، و (بحماة وسَلَمْية والمعرة ومنبج وقلعة نجم) الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر ، و (ببعلبك) الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، و (بحمص والرحبة وتدمر) شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى ، وبيد الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين (بصرى) ، وهو فى خدمة أخيه الملك الأفضل .

وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم : سابق الدين بن الداية بيده (شيزر) وأبو قبيس وناصر الدين بن كورس بن خماردكين بيده (صهيون وحصن برزية) ، وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده (تل باشر) ، وعز الدين أسامة بيده (كوكب وعجلون) ، وعز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم بيده (بعرين وكفرطاب وفامية) .

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان ، والمعهود إليه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير مصنف « المثل السائر » ، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى « بالكامل » ، فحسّن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر .

قال العماد الكاتب : وتفرد الوزير فى توزره ، ومد الجزرى فى جزره ، ولما اجتمعت أكابر الأمراء بمصر ، حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ، ووقعوا فى أخيه الأفضل ، فمال إلى ذلك ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز .

وفى هذه السنة : بعد موت السلطان ، قدم الملك العادل من الكرك إلى دمشق وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه ، ثم توجه إلى بلاده التى وراء الفرات .

ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التى بيد الملك العادل وعوده وموته

فى هذه السنة : لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل ملوك البلاد المجاورين للموصل يستنجدهم ولذلك اتفق مع أخيه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار ، وسار إلى جهة حران وغيرها ، فلحق عز الدين مسعود إسهال قوى وضعف ، فترك العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل ، وصحبه مجاهد الدين قيماز ، فخلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن أقسنقر ، وقوى بعز الدين مسعود المرض ، وتوفى فى السابع والعشرين من شعبان فى هذه السنة ، فكانت مدة ما بين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة ، وكانت مدة ملك عز الدين بن مسعود للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر ، وكان ديناً خيراً كثير الإحسان ، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين ، يشبه جده عماد الدين زنكى ، واستقر فى ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه ، وكان القيم بأمره مجاهد الدين قيماز .

ذكر قتل بكتمر صاحب خِلاط

فى هذه السنة : فى أول جمادى الأولى ، قتل سيف الدين بكتمر صاحب خِلاط ، وكان بين قتله وبين موت السلطان صلاح الدين شهران ، ولما بلغ بكتمرموت السلطان صلاح الدين أسرف فى إظهار الشماتة بموت السلطان ، وضرب البشائر ببلاده ، وفرح فرحًا كثيرًا ، وعمل تختًا يجلس عليه ، ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين ، وكان اسمه بكتمر ، فسمى نفسه الملك العزيز ، فلم يمهله الله تعالى ، وكان بكتمر هذا من مماليك ظهير الدين شاهر مَنّ ، وكان له خشداش اسمه هزار دينارى ، وكان قد قوى وتزوج ابنة بكتمر ، وطمع فى الملك ، فوضع على بكتمر من قتله .

ولما قتل ملك بعده هزار دينارى خِلاط وأعمالها ، واسم هزار دينارى المذكور آقسنقر ، ولقبه بدر الدين ، جلبه تاجر جرجانى اسمه على إلى خِلاط ، فاشتراه منه شَاهْرَمَنّ سكمان بن إبراهيم ، وأعجب به شاهر مَنّ فجعله ساقياً له ، ولقّبه هزار دينارى ، وبقى على

ذلك برهة من الزمان ، فلما تولى بكتمر على مملكة خِلاط ، بقى المذكور من أكبر الأمراء ، وتزوج ببنت بكتمر عينا خاتون ، فلما قتل بكتمر خلف ولدًا ، فأخذ هزار دينارى المذكور ولد بكتمر وأمه واعتقلهما بقلعة أرزاس عوش ، وكان عمر ابن بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين ، واستمر بدر الدين أقسنقر هزار دينارى فى مملكة خِلاط حتى توفى فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، حسبما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : شتى شهاب الدين الغوري فى برشاور ، وجهز مملوكه أيك فى عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ، ففتح وغنم وعاد منصوراً مؤيداً .

وفيها : توفى سلطان شاه بن أرسلان بن أطسز بن محمد بن أتوشتكين ، وكان قد ملك مرو وخراسان ، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة ، وقد تقدم ذكرهما فى سنة تمان وستين وخمسمائة .

وفيها : مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبى هاشم أمير مكة ، وما زالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثرتارة حتى مات .

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة :

ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الرىّ

كان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل السلجوقى قد حبسه قزل أرسلان بن الدكز ، وخرج طغريل من الحبس فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وملك همدان وغيرها ، وجرى حرب بينه وبين مظفر الدين أزبك بن البهلوان محمد بن الدكز ، وقيل بل هو قطلغ إينانج أخو أزبك المذكور ، فانهزم ابن البهلوان ، ثم إن ابن البهلوان بعد هزيمته ، استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش فخاف منه ، فلم يجتمع بخوارزم شاه فسار خوارزم شاه تكش وملك الرى ، وذلك فى سنة ثمان وثمانين ، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم ، فصالح طغريل السلجوقى ، وعاد تكش إلى خوارزم ، وبقى الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه فى سنة تسع وثمانين

وخمسمائة ، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه ، وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور ، وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو .

ولما دخلت سنة تسعين ، سارتكش إلى حرب طغريل السلجوقى ، فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره ، والتقى العسكران بالقرب من الرى ، وحمل طغريل بنفسه فقتل ، وكان قتله فى الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة ، وحمل رأس طغريل إلى تكش ، فأرسله إلى بغداد فنصب بها عدة أيام ، وسارتكش فملك همدان وتلك البلاد جميعها ، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان وأقطع بعضها لمماليكه ، ورجع إلى خوارزم ، وهذا طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، هو آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم ، وقد تقدم ذكر ابتداء الدولة السلجوقية فى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة .

وأول من ملك منهم العراق ، وأزال دولة بنى بويه طغريل بك بن ميكائيل بن سلجوق ، ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ، ثم ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ، ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلا ، فقامت بتدبير المملكة أم محمود تركان خاتون ، ومات محمود وهو ابن سبع سنين ، وملك أخوه بركيارق بن ملكشاه ، ثم أخوه محمد بن ملكشاه ، ثم ابنه محمود بن محمد المذكور ، ثم ابنه داود بن محمود بن محمد المذكور مدة يسيرة ، ثم عمه طغريل بن محمد ، ثم أخوه مسعود بن محمد ، ثم ابن أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياما يسيرة ، ثم أخوه محمد بن محمود ، ثم بعد محمد المذكور اختلفت العساكر ، وقام من بنى سلجوق ثلاثة : أحدهم ملكشاه بن محمود أخو محمد المذكور ، والثانى سليمان شاه بن محمد ابن السلطان ملكشاه ، وهو عم محمد المذكور ، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه .

وكان الدكز متزوجاً بأم أرسلان شاه المذكور ، فقوى عليها سليمان شاه ، واستقر فى همدان فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ثم قبض سليمان شاه وقتل ، وكذلك سم ملكشاه بن محمود المذكور ومات بأصفهان فى السنة المذكورة ، أعنى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وانفرد بالسلطنة أرسلان شاه بن طغريل ربيب الدكز ، ثم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل المذكور فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وجرى له ما ذكرناه حتى قتله تكش فى هذه السنة ، أعنى سنة تسعين وخمسمائة ، وانقرضت به الدولة السلجوقية من تلك البلاد .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : أرسل الخليفة الإمام الناصر عسكراً مع وزيره مؤيد الدين محمد بن على المعروف بابن القصاب إلى خورستان ، وهى بلاد ابن شملة وأولاده من بعده ، وكان قد مات صاحبها ابن شملة فاختلفت أولاده ، فوصل عسكر الخليفة إلى خورستان ، وملكوا مدينة تستر فى المحرم سنة إحدى وتسعين وغيرها من البلاد ، وكذلك ملكوا قلعة الناطر وقلعة كاكرد وقلعة لاموج وغيرها من القلاع والحصون ، فأنفذوا بنى شملة أصحاب بلاد خورستان إلى بغداد .

وفى هذه السنة : أعنى سنة تسعين ، استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابنى السلطان صلاح الدين ، فسار العزيز فى عسكر مصر ، وحصر أخاه الأفضل بدمشق ، فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم ، فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين ، ورجع العزيز إلى مصر ، ورجع كل ملك إلى بلده ، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغانى والأوتار ليلا ونهاراً ، وأشاع ندماؤه أن عمّه الملك العادل حسّن له ذلك ، وكان يعمله بالخفية ، فأنشده العادل :

* فلا خير فى اللذات من دونها ستر *

فقبل وصية عمه وتظاهر بذلك ، وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، يدبرها برأيه الفاسد ، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك ، وأزال المنكرات وواظب على الصلوات ، وشرع فى نسخ مصحف بيده .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة :

وفيها : سار ابن القصاب وزير الخليفة بعد ملك خورستان إلى همدان فملكها ، وملك غيرها من بلاد العجم ، وأخذ يستولى على سائر البلاد للخليفة ، فتوفى مؤيد الدين بن القصّاب المذكور فى أوائل شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وفيها : غزا ملك الغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس ، وجرى بينهم مصاف عظيم انتصر فيه المسلمون ، وقتل من الفرنج مالا يحصى وولوا منهزمين ، وغنم المسلمون منهم مالا يحصى .

وفيها : جهز الخليفة الإمام الناصر عسكراً مع مملوك له يقال له سيف الدين طغريل ، فاستولوا على أصفهان .

وفيها : قدَّمَ مماليك البهلوان عليهم مملوكاً من البهلوانية يقال له كلجا ، فعظم أمر كلجا واستولى على الرَّى وهمدان .

وفيها : عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل ، فسار ونزل الغوار من أرض السواد من بلاد دمشق ، فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه ، فبادر العزيز العود إلى مصر بمن بقى معه من العسكر ، وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل لمَّا قصده أخوه العزيز ، فلمَّا رحل العزيز عائداً إلى مصر ، رحل الملك الأفضل وعمه العادل ومن انضم إليهما من الأسدية وساروا فى أثر العزيز طالبين مصر ، فساروا حتى نزلوا على بلبيس ، وقد ترك فيها العزيز جماعة من الصلاحية ، وقصد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعه العادل عن ذلك ، فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها ، فمنعه عمه العادل أيضًا عن ذلك وقال : مصر لك متى شئت ، وكاتب العادل العزيز فى الباطن وأمره بإرسال القاضى الفاضل ليصلح بين الإخوان ، وكان القاضى الفاضل قد اعتزل عن ملابستهم لما رأى من فساد أحوالهم ، فدخل عليه الملك العزيز وسأله ، فتوجه القاضى الفاضل من القاهرة إلى عند الملك العادل ، واجتمع به ، واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين فأصلحا بينهما ، وأقام الملك العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته ، وعاد الأفضل إلى دمشق .

وفيها : كان بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب ، وبين الفرنج بالأندلس شمالى قرطبة حروب عظيمة انتصر فيها يعقوب وانهزم الفرنج .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة :

وفيها : سار شهاب الدين الغورى صاحب غزنة إلى بلاد الهند ، وفتح قلعة عظيمة تسمَّى بهنكر بالأمان ، ثم سار إلى قلعة كوكيرو بينهما نحو خمسة أيام ، فصالحه أهلها على مال حملوه إليه ، ثم سار فى بلاد الهند فغنم وأسر وعاد إلى غزنة .

وفيها : قتل صدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن محمد الخجندى ، رئيس الشافعية بأصفهان وهو الذى سلم أصفهان إلى عسكر الخليفة ، قتله سنقر الطويل شِحْنَةَ للخليفة[1] بسبب منافرة جرت بينهما .

---

(١) شِحْنَةً للخليفة : أى عداوة انظر : لسان العرب مادة شحن ج ٤ ط دار المعارف .

وفيها : نقل الملك الأفضل أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة فى صفر ، فكان مده لبثه بالقلعة ثلاث سنين ، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة وأموره مفوضة إلىَ وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، وقد اختلفت الأحوال به وكثر شاكوه وقلّ شاكروه .

ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل

لما بلغ الملك العادل فى مصر والملك العزيز اضطراب الأمور على الملك الأفضل ، اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق ، وأن يسلمها العزيز إلى العادل ، لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه ، فخرجا وسارا من مصر ، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين ، وهو أحد أمرائه ، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه ، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ما طلبه ، وأتم العادل والعزيز السير حتى نزلا على دمشق ، وقد حصنها الملك الأفضل ، فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه ، وأنهم يسلمون المدينة إليه ، فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة ، فدخل الملك العزيز من باب الفرج ، والملك العادل من باب توما ، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة ، وانتقل منها بأهله وأصحابه وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفياً فى صندوق خوفاً عليه من القتل .

وكان الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الأفضل ومعاضداً له ، فأخذت منه بصرى أيضاً ، فلحق بأخيه الملك الظاهر فأقام عنده بحلب ، وأعطى الأفضل صرخد ، فسار إليها بأهله واستوطنها ، ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان ، ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، وتسلمها الملك العادل ، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان ، وكانت مدة ملك الملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهرًا ، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز .

ولما استقر الملك الأفضل بصرخد ، كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه العادل أبى بكر وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد غصبا بالسيف حق على
فانظر إلى خط هذا الإسم كيف لقى ... من الأواخر مالاقى من الأول

فكتب الإمام الناصر جوابه :

وافى كتابك يا بن يوسف معلنًا   بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليًّا حقه إذ لم يكن   بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم   وابشر فناصرك الإمام الناصر

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : توفى ملكشاه بن تكش بنيسابور ، وكان أبوه خوارزم شاه تكش قد جعله فيها ، وجعل له الحكم على تلك البلاد ، وجعله ولى عهده ، وخلف ملكشاه ولدًا اسمه هندوخان ، فلما مات ملكشاه جعل تكش فيها عوضه ولده الآخر قطب الدين محمد ، وهو الذى ملك بعد أبيه ، وغير لقبه عن قطب الدين وجعله علاء الدين ، وكان بين الأخوين ملكشاه وقطب الدين عداوة مستحكمة .

ذكر وفاة سيف الإسلام

فى هذه السنة : فى شوال ، توفى سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن ، ولما مات سيف الإسلام كان ولده الملك العزيز إسماعيل بالسمرين ، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده ، ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموها إليه ، وكانت وفاة سيف الإسلام بزبيد ، وكان شديد السيرة ، مضيقاً على رعيته ، يشترى أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء ، وجمع من الأموال مالا يحصى ، حتى إنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فى المحرم ، توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن أقسنقر ، صاحب سنجار والخابور والرقة ، وكان حسن السيرة متواضعاً ، يحب أهل العلم ، إلا أنه كان بخيلا شديد البخل ، وملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكى ، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برنقش مملوك أبيه .

وفيها : فى جمادى الأولى ، سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل إلى نصيبين ، فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكى وتسلّم نصيبين .

وفيها : سار خوارزم شاه تكش إلى بخارى وهى للخطا وحاصرها وملكها ، وكان تكش أعور . فأخذ أهل بخارى فى مدة الحصار كلبًا أعور ، وألبسوه قباء ، وقالوا للخوارزمية : هذا سلطانكم ، ورموه بالمنجنيق إليهم ، فلمَّا ملكها خوارزم شاه تكش ، أحسن إلى أهل بخارى ، وفرّق فيهم أموالا ، ولم يؤاخذهم بما فعلوه فى حقه .

وفيها : وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل ، واستولوا على قلعة بيروت ، وسار الملك العادل ، ونزل بتل العجول ، وأتته النجدة من مصر ، ووصل إليه سنقر الكبير ، صاحب القدس ، وميمون القصرى صاحب نابلس ، ثم سار الملك العادل إلى يافا ، وهجمها بالسيف وملكها ، وقتل الرجال المقاتلة ، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها ، ونازلت الفرنج تِبنين ، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر ، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقى عنده من عساكر مصر ، واجتمع بعمه الملك العادل على تِبنين ، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين ، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر ، وترك غالب العسكر مع عمه العادل ، وجعل إليه أمر الحرب والصلح ، ومات فى هذه المدة سنقر الكبير ، فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين قطلق ، مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب .

ولما عاد الملك العزيز إلى مصر فى هذه المدة ، مدحه القاضى ابن سناء الملك بقصيدة منها :

قدمت بالسعد وبالمغنم　　كذا قدوم الملك المقدم
قميصك الموروث عن يوسف　　ما جاء إلا صادقًا فى الدم
أغثت تبنين وخلصتها　　فريسة من ماضغى ضيغم
شنشنة تعرف من يوسف　　فى النصر لا تعرف من أخزم
مقدمه صار جمادى به　　كمثل ذى الحجة ذام موسم

ثم طاول الملك العادل بالفرنج ، فطلبوا الهدنة ، واستقرت بينهم ثلاث سنين ، ورجع الملك العادل إلى دمشق ، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها ، وصاحبها حينئذ يولق أرسلان بن إيلغازى بن إلبى بن عمر تاش بن إيلغازى بن أرتق ، وليس ليولق أرسلان من الحكم شىء ، وإنما الحكم إلى مملوك والده البقش .

ذكر أخبار ملوك خِلاط

وفيها : توفى صاحب خِلاط بدر الدين (أقسنقر) هزاردينارى ، وقد تقدم ذكر ملكه لخِلاط فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ولما توفى هزاردينارى استولى على خلاط بعده خشداشه (قتلغ) ، وكان مملوكًا أرمنى الأصل من سناسنة ، فملك خِلاط نحو سبعة أيام ، ثم اجتمع

عليه الناس وأنزلوه من القلعة ، ثم وثبوا عليه فقتلوه ، فلما قتل قتلغ ، اتفق كبراء الدولة فأحضروا محمد بن بكتمر من القلعة التى كان معتقلا فيها ، واسمها أرزاس ، وأقاموه فى مملكة خلاط ، ولقبوه الملك المنصور ، وقام بتدبير أمره شجاع الدين قتلغ الدوادار ، وكان قتلغ المذكور قفجاقىّ الجنس دَوَادَارًا لشاهْرَ مَنْ سكمان بن إبراهيم ، واستقر ابن بكتمر كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة ، فقبض على أتابكه قتلغ المذكور وحبسه ثم قتله ، فخرج عليه مملوك لشاهْرَ مَنْ يقال له عز الدين بلبان ، واتفق العسكر مع بلبان المذكور ، وقبضوا على محمد بن بكتمر وحبسوه ثم خنقوه ورموه من سور القلعة إلى أسفل وقالوا : وقع .

واستمر (بلبان) فى مملكة خلاط دون سنة ، وقتله بعض أصحاب طغريل بن قليج أرسلان شاه صاحب أرزن ، وقصد طغريل المذكور أن يتسلم خلاط فلم يجبه أهلها إلى ذلك وعصوا عليه فعاد إلى أرزن ، ثم وصل الملك الأوحد أيوب بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وتسلّم خلاط ، وملكها قريب ثمان سنين حسبما نذكر ذلك فى سنة أربع وستمائة إن شاه الله تعالى .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة :

ذكر وفاة العزيز صاحب مصر

فى هذه السنة : فى منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم ، توفى الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان قد طلع إلى الصيد فركض خلف ذئب فتقنطر وحم سابع المحرم فى جهة الفيوم ، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه ، ثم توجه إلى القاهرة فدخلها يوم عاشوراء ، وحدث به يرقان وقرحة فى المعى واحتبس طبعه فمات فى التاريخ المذكور ، وكانت مدة مملكته ست سنين إلا شهرا ، وكان عمره سبعًا وعشرين سنة وأشهرا ، وكان فى غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والإحسان إليهم ، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة .

وكان الغالب على دولة الملك العزيز فخر الدين جهاركس ، فأقام فى الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد ، واتفقت الأمراء على إحضار أحد من بنى أيوب ليقوم بالملك ، وعملوا مشورة بحضور القاضى الفاضل ، فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد ، فأرسلوا إليه فسار مجدًا ، ووصل إلى مصر على أنه أتابك الملك المنصور ابن الملك العزيز ، وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهوراً ، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر فى تسعة عشر نفراً متنكرًا خوفًا من أصحاب عمه الملك العادل ، فإن غالب تلك البلاد كانت

له فوصل بلبيس خامس ربيع الأول ، ثم سار الملك الأفضل إلى القاهرة ، فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه ، فترجل له عمه الملك الأفضل ، ودخل بين يديه إلى دار الوزارة ، وهى كانت مقر السلطنة .

ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر ، فتنكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه ، وتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام ، وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردين ، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل ، يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل ، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين ، فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق ، وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق ، فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل ، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين .

ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة ، وزحف من الغد على البلد ، وجرى بينهم قتال ، وهجم بعض عسكره المدينة ، حتى وصل إلى باب البريد ولم يمدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل ، وأخرجوهم من البلد ، ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب ، فعاد إلى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها ، وقلت الأقوات إلى الملك العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد ، لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف ، وخرجت السنة وهم على ذلك ، وكان منهم ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين صاحب حماة على بارين

وفى شهر رمضان من هذه السنة ، قصد الملك المنصور صاحب حماة بارين ، وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وحاصرها ، وكان عز الدين إبراهيم مع الملك العادل محصوراً معه بدمشق ، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق ، وانجرح الملك المنصور حال الزحف،ثم فتحها فى التاسع والعشرين من ذى القعدة ، وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها .

ذكر وفاة يعقوب ملك المغرب

فى ربيع الآخر ، وقيل فى جمادى الأولى ، توفى أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا ، وكانت ولايته خمس عشرة سنة ، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية ، وأعرض عن مذهب مالك ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وتلقب يعقوب المذكور بالمنصور ، ولما مات يعقوب ، ملك بعده ابنه محمد بن يعقوب ، وتلقب محمد بالناصر ، ومولد محمد المذكور سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وعبد المؤمن وبنوه جميعهم كانوا يسمون بأمير المؤمنين .

وفى هذه السنة : رحل عسكر الملك العادل ، مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين .

ذكر الفتنة بفَيْرُوزْكُوه

فى هذه السنة : كانت فتنة عظيمة فى عسكر غياث الدين ملك الغورية ، وهو بفَيْرُوزْكُوه ، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازى ، الإمام المشهور ، كان قد قدم إلى غياث الدين ، فبالغ غياث الدين فى إكرامه واحترامه ، وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع ، فعظم ذلك على الكرامية ، وهم كثيرون بهراة ، ومذهبهم التجسيم والتشبيه ، وكان الغورية كلهم كرامية ، فكرهوا فخر الدين ، لأنه شافعى ، وهو يناقض مذهبهم ، فاتفق أن فقهاء الكرامية والحنفية والشافعية حضروا بفيروزكوه عند غياث الدين للمناظرة ، وحضر فخر الدين الرازى ، والقاضى عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة ، وهو من الكرامية الهيصمية ، وله عندهم محل كبير لتزهده وعلمه ، فتكلم الرازى ، فاعترض عليه ابن القدوة ، وطال الكلام ، فقام غياث الدين ، فاستطال فخر الدين الرازى على ابن القدوة وشتمه وبالغ فى أذاه ، وابن القدوة لا يزيده على أن يقول : لا يفعل مولانا إلا وأخذ الله ، فصعب على الملك ضياء الدين ، وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته ، وشكا إلى غياث الدين ، وذم فخر الدين الرازى ، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ إليه غياث الدين ، فلما كان الغد ، وعظ الناس ابن عمر بن القدوة بالجامع وقال بعد حمد الله ، والصلاة على نبيه محمد صلّى الله عليه وسلم : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1] ، أيها

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٣ .

الناس : إنَّا لا نقول إلا ماصحّ عندنا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وأما علم أرسطو ، وكفريات ابن سينا ، وفلسفة الفارابى فلا نعلمها ، فلأى حال يُشتَم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يَذُبُّ عن دين الله وسنة نبيه ، وبَكَى وبَكَى الكرامية واستغاثوا وثار الناس من كل جانب ، وامتلأ البلد فتنة ، فبلغ ذلك السلطان ، فأرسل جماعة سكنوا الناس ووعدهم إخراج فخر الدين الرازى من عندهم ، وتقدم عليه بالعود إلى هراة فعاد إليها .

وفى هذه السنة : فى ربيع الأول ، توفى مجاهد الدين قايماز بقلعة الموصل ، وهو الحاكم فى دولة نور الدين أرسلان ، صاحب الموصل ، وقايماز المذكور هو الذى كان حاكما على مسعود والد أرسلان ، حتى قبض عليه مسعود ، ثم أخرجه بعد مدة ، وكان قايماز عاقلا أديبًا فاضلا فى الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس .

وفيها : فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية ، وصار شافعى المذهب .

وفيها : توفى محمد بن عبد الملك بن زُهْر الأندلسىّ الأشبيلى ، وكان فاضلًا فى الأدب ، وكان طبيبًا ، وكان جده زهر وزيراً وفيلسوفاً ، وتوفى زهر المذكور فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة بقرطبة ، وزُهْر بضم الزاى المعجمة ، وسكون الهاء ، وقد قيل فى ابن زهر :

قل للوبا أنت وابن زُهْرٍ　　قد جُزْتُمَا الحدّ فى النكايه
ترفقا بالورى قليلا　　فى واحد منكما كفايه

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة :

والمِلكان : الأفضل والظاهر ، محاصران لمدينة دمشق ، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر ، وسببه أنه كان للملك الظاهر مملوك يحبه اسمه أيبك ففقد ، ووجِد عليه الملك الظاهر وجْدًا عظيمًا ، وتوهم أنه دخل دمشق ، فأرسل من تكشف خبره ، واطلع الملك العادل وهو محصور على القضية ، فأرسل إلى الظاهر يقول له : إن محمود بن الشكرى أفسد مملوك ، واحمله إلى الأفضل أخيك ، فقبض الظاهر على ابن الشكرى ، فظهر المملوك عنده ، فتغير الظاهر على أخيه الأفضل ، وترك قتال العادل ، وظهر الفشل فى العسكر ، فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق ، وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر ، ثم سارا إلى رأس الماء ليقيما به إلى أن ينسلخ الشتاء ، ثم انثنى عزمهما ، وسار الأفضل إلى مصر ، والظاهر إلى حلب على القريتين ولما تفرقا خرج الملك العادل إلى دمشق ، وسار فى أثر الأفضل إلى مصر ، ولما وصل الأفضل إلى مصر ، تفرقت عساكره فى بلادهم لأجل الربيع ، فأدركه عمه العادل ، فخرج الأفضل بمن بقى عنده من العسكر ، وضرب معه مصافاً بالسايح ، فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة ، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام ، فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن

يعوض عنها ميافارقين وحانى وسميساط ، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به ، وكان دخول العادل إلى القاهرة فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة ، وقال ابن الأثير : كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر .

وفيها : توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، فى سابع عشر ربيع الآخر ، وقيل : إن مولد القاضى الفاضل سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فكان عمره نحو سبعين سنة .

ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد ، وأقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد ابن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال الملك المنصور محمد المذكور ، واستقل العادل فى السلطنة ، ولما استقرت المملكة للملك العادل ، أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعرين من ابن المقدم ، فقبل الملك العادل عذره ، وأمره برد بعرين إلى ابن المقدم ، فاعتذر الملك المنصور عنها بقربها من حماة ، ونزل على منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضاً عن بعرين ، فرضى ابن المقدم بذلك ، لأنهما خير من بعرين بكثير ، وتسلمهما عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، وكان له أيضاً فامية وكفر طاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة .

وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه ، وخطب له بحلب وبلادها ، وضرب السكة باسمه ، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب فى خدمة الملك العادل ، كلما خرج إلى البيكار ، والتزم صاحب حلب بذلك .

وقصر النيل فى هذه السنة تقصيراً عظيماً ، حتى إنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعًا .

ذكر وفاة خوارزم شاه

فى هذه السنة : فى العشرين من رمضان ، توفى خوارزم شاه تكش بن أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوشتكين صاحب خوارزم وبعض خراسان والرى وغيرها من البلاد الجبلية بشهرستانة ، وولى الملك بعده ابنه محمد بن تكش ، وكان لقب محمد – قطب الدين فغيره إلى علاء الدين ، وكان تكش عادلا حسن السيرة ، يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة والأصول ، ولما بلغ غياث الدين ملك الغورية موت خوارزم شاه ، ترك ضرب نوبته ثلاثة أيام ، وجلس للعزاء – مع ما كان بينهما من العداوة المستحكمة ، وهذا خلاف ما فعله بكتمر من الشماتة بالسلطان صلاح الدين ، ولما استقر محمد بن تكش فى المملكة ، هرب ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه بن تكش إلى غياث الدين ملك الغورية ، يستنصره على عمه ، فأكرمه غياث الدين ووعده بالنصر .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة :

لما دخلت هذه السنة ، كان بالديار المصرية الملك العادل ، وعنده ابنه الملك الكامل محمد ، وهو نائبه بها ، وبحلب الملك الظاهر ، وهو مجدّ فى تحصين حلب خوفًا من عمه الملك العادل ، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل نائب أبيه بها ، وبالشرق الملك إبراهيم ابن الملك العادل ، وبميافارقين الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل .

وفى هذه السنة : توفى عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، وصارت البلاد بعده وهى منبج وقلعة نجم وفامية وكفر طاب لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، ولما استقر شمس الدين عبد الملك بمنبج ، سار إليها الملك الظاهر صاحب حلب وحصرها وملك منبج ، وعصى عبد الملك بن المقدم بالقلعة فحصره ، ونزل عبد الملك بالأمان ، فاعتقله الملك الظاهر ، وملك قلعة منبج ، وبعد أن فرغ من منبج ، سار إلى قلعة نجم وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها فى آخر رجب من هذه السنة .

وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة ، يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين التى فى عنقه للملك العادل ، فلما أيس الملك الظاهر منه ، سار إلى المعرة وأقطع بلادها ، واستولى على كفرطاب ، وكانت لابن المقدم ، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم ، وأرسل الملك الظاهر فأحضر عبد الملك بن المقدم من حلب ، وكان معتقلا بها ، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم فامية ، فامتنع قراقوش فأمر الملك الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم ، فضرب ضرباً شديداً وبقى يستغيث ، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلد صراخه ، ولم يُسَلِّم القلعة ، فرحل عنها الملك الظاهر ، وتوجه إلى حماة وحاصرها لثلاث بقين من شعبان من هذه السنة ، ونزل شمالى البلد وشعث التربة التقوية وبعض البساتين ، وزحف من جهة الباب المغربى ، وقاتل قتالاً شديداً ثم زحف فى آخر شعبان من الباب الغربى والباب القبلى وباب العميان ، وجرى فيه قتال شديد ، وخرج الملك الظاهر بسهم فى ساقه ، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان ، فلما لم يحصل على غرض صَالَح الملك المنصور على مال يحمله إليه ، قيل إنه ثلاثون ألف دينارصورية ، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل ، فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل ، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصرى صاحب نابلس ، ومن وافقه من الأمراء الصلاحية واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الأفضل ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ، ويتسلمها الملك الأفضل ، وتسلم دمشق حينئذ إلى

الملك الظاهر صاحب حلب ، بحيث تبقى مصر للملك الأفضل ، ويصير الشام جميعه للملك الظاهر ، وكان قد تخلّف من أكابر الأمراء الصلاحية عنهما : فخر الدين جهاركس ، وزين الدين قراجا ، فأرسل الملك الأفضل وسلّم صرخد إلى زين الدين قراجا ، ونقل الملك الأفضل والدته وأهله إلى حمص عند شيركوه .

وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق ، فخرج بعساكر مصر وأقام بنابلس ، ولم يجسر على قتالهما واشتدت مضايقة الملكين الأفضل والظاهر لدمشق ، وتعلق النقابون بسورها ، فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك ، حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق وقال له : أريد أن تسلم إلى دمشق الآن ، فقال له الأفضل : إن حريمى حريمك ، وهم على الأرض ، وليس لنا موضع نقيم فيه ، وهب هذه البلد لك ، فاجعله لى إلى حين تملك مصر وتأخذه ، فامتنع الظاهر من قبول ذلك .

وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية ، إنما كان لأجل الأفضل ، فقال لهم الأفضل : إن كان قتالكم لأجلى فاتركوا القتال ، وصالحوا الملك العادل ، وإن كان قتالكم لأجل أخى الملك الظاهر وأنتم وإياه ، فقالوا : إنما قتالنا لأجلك ، وتخلوا عن القتال ، وأرسلوا وصالحوا الملك العادل ، وخرجت السنة وهم محاصرون دمشق ، وقد تفرقت العساكر ، فرحل الملك الظاهر عن دمشق فى أول المحرم سنة ثمان وتسعين ، وسار الأفضل إلى حمص .

وفى هذه السنة : أعنى سنة سبع وتسعين ، توفى عماد الدين الكاتب محمد بن عبد الله بن حامد الأصفهانى ، وكان فاضلا فى الفقه والأدب والخلاف والتاريخ ، وله النظم البديع ، والنثر الفائق ، وكتب لنور الدين ولصلاح الدين ، وله التصانيف الحسنة منها : البرق الشامى ، وخريدة القصر ، وكان مولده سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وكان عمره نيفا وسبعين سنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار الملك غياث الدين ملك الغورية بعساكره ، وأرسل استدعى أخاه شهاب الدين من غزنة ، فلحقه بعساكره أيضا وسار غياث الدين إلى خراسان ، واستولى على ما كان لخوارزم شاه بخراسان ، ولما ملك غياث الدين مرو سلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش الذى كان هرب من عمه محمد إلى غياث الدين ، ثم استولى غياث الدين على سرخس وطوس ونيسابور وغيرها ، ولما استقرت هذه البلاد لغياث الدين ، عاد إلى بلاده ، وتوجه أخوه شهاب الدين إلى بلاد الهند ، فغنم وفتح نهر والة ، وهى من أعظم بلاد الهند .

وفى هذه السنة : فى رمضان ، ملك ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان مدينة ملطية ، وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، ثم سار ركن الدين إلى أرزن الروم ، وكانت للملك محمد بن صليق ، وهو من بيت قديم ، ملكوا أرزن الروم من مدة طويلة ، فطلع صاحب أرزن الروم المذكور ليصالح ركن الدين ، فقبض عليه وأخذ البلد منه ، وكان محمد هذا آخر الملوك من أهل بيته .

وفيها : توفى سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ، صاحب آمد وحصن كيفا ، سقط من سطح جوسق كان له بحصن كيفا فمات ، وكان له أخ اسمه محمود بن محمد ، وكان سقمان يبغضه ، فأبعده إلى حصن منصور ، وكان قد جعل سقمان ولى عهده مملوكه إياس ، وكان يحبه حبًّا شديدًا ، وأوصى له بالملك بعده ، فلما مات سقمان استولى إياس على البلاد ، فلم ينتظم له حال ، وكاتبوا أخاه محموداً ، فحضر وملك بلاد أخيه سقمان .

وفيها : كان بمصر غلاء شديد بسبب نقص النيل .

وفيها : كان بالجزيرة والشام والسواحل زلزلة عظيمة ، فهدمت مدنًا كثيرة .

وفيها : فى رمضان ، توفى أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى الجنبلى ، الواعظ المشهور وتصانيفه مشهورة ، وكان كثير الوقيعة فى العلماء ، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة :

فى هذه السنة : بعد رحيل الملك الأفضل والظاهر عن دمشق كما ذكرنا ، قدم إليها الملك العادل ، وكان قد سار ميمون القصرى مع الملك الظاهر فأقطعه أعزاز .

وفيها : خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفاً من انتزاعها منه ، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب .

وفيها : أرسل قراقوش نائب عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر ، يبذل له تسليم فامية ، بشرط أن يعطى شمس الدين عبد الملك بن المقدم إقطاعاً يرضاه ، فأقطعه الملك الظاهر الراوندان وكفر طاب ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة وتسلّم فامية ، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وأبعده ، فلحق ابن المقدم بالملك العادل فأحسن إليه .

وفيها : سار الملك العادل من دمشق ووصل إلى حماة ، ونزل على تل صفرون ، وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه ، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب ، فاستعد للحصار بحلب ، وراسل عمه ولا طفه وأهدى

إليه ، ووقعت بينهما مراسلات ، ووقع الصلح ، وانتزعت منه مفردة المعرة ، واستقرت للملك المنصور صاحب حماة ، وأخذت من الملك الظاهر أيضاً قلعة نجم ، وسلمت إلى الملك الأفضل ، وكان له سروج وسميساط ، وسلم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ، وسيره إلى الشرق ، وكان بميافارقين الملك الأوحد ابن الملك العادل ، وبقلعة جعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن الملك العادل ، ولما استقر الصلح بين الملك العادل والظاهر ، رجع الملك العادل إلى دمشق وأقام بها ، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها فى سلك ملكه وخطب له على منابرها ، وضربت السكة فيها باسمه .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : عاد خوارزم شاه محمد بن تكش ، واسترجع البلاد التى أخذها الغورية من خراسان إلى ملكه .

وفيها : توفى هبة الله بن على بن مسعود بن ثابت المُنَسْتيرى بضم الميم وفتح النون وسكون السين المهملة وكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ومُنَسْتير : بليدة بأفريقية ، وكان هبة الله المذكور عالى الإسناد ، ولم يكن فى عصره من هو فى درجته ، سمع إبراهيم بن حاتم الأسدى ، وسمع جماعة من الأكابر ، وسمع الناس على هبة الله المذكور وسافروا إليه من البلاد لعلو إسناده ، وكان جده مسعود قد قدم من مُنَسْتير إلى بوصير ، فعرف هبةالله المذكور بالبوصيرى ، وكانت ولادته سنة ست وخمسمائة .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة :

والملك العادل مقيم بدمشق .

وفيها : فى المحرم ، توفى فلك الدين سلطان ، أخو الملك العادل لأمه ، وهو الذى تنسب إليه المدرسة الفلكية بدمشق .

ذكر الحوادث باليمن

كان قد تملك اليمن ، الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام بن طغتكين بن أيوب ، وكان فيه هوج وخبط ، فادعى أنه قرشى ، وأنه من بنى أمية ، ولبس الخضرة ، وخطب بنفسه ،

ولبس ثياب الخلافة فى ذلك الزمان ، وكان طول الكم نحو عشرين شبراً ، وخرج عن طاعته جماعة من مماليك أبيه ، واقتتلوا معه ، وانتصر عليهم ، ثم اتفق معهم جماعة من الأمراء الأكراد ، وقتلوا المعز إسماعيل ، وأقاموا فى مملكة اليمن أخا له صغيراً ، وسموه الناصر ، وبقى مدة ، وأقام بأتابكيته مملوك والده وهو سيف الدين سنقر ، ثم مات سنقر بعد أربع سنين وتزوج أم الناصر أمير من أمراء الدولة يقال له غازى بن جبريل ، وقام بأتابكية الناصر ، ثم سمّ الناصر فى كوز فقاع على ما قيل ، وبقى غازى متملكاً للبلاد ، ثم قتله جماعة من العرب بسبب قتله للناصر بن طغتكين ، وبقيت اليمن خالية بغير سلطان ، فتغلبت أم الناصر المذكور على زبيد ، وأحرزت عندها الأموال وكانت تنتظر وصول أحد من بنى أيوب لتتزوج به وتملكه البلاد ، وكان للملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه سعد الدين شاهنشاه ، وكان له ابن اسمه سليمان ، فخرج سليمان بن شاهنشاه بن عمر فقيراً يحمل الرّكوة على كتفه ، ويتنقل مع الفقراء من مكان إلى مكان ، وكان قد أرسلت أم الناصر بعض غلمانها إلى مكة حرسها الله تعالى فى موسم الحج ليأتيها بأخبار مصر والشام ، فوجد غلمانها سليمان المذكور ، فأحضروه إلى اليمن ، فاستحضرته أم الناصر وخلعت عليه وملكته اليمن ، فملأ اليمن ظلماً وجوراً ، واطرح زوجته التى ملكته البلاد وأعرض عنها ، وكتب إلى السلطان الملك العادل وهو عم جده كتابًا جعل فى أوله أنه من سليمان ، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم فاستغل الملك العادل عقله ، ثم كان من سليمان المذكور ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : أرسل السلطان الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف ، وأمره بحصار ماردين فحصرها وضايقها ، ثم سعى الملك الظاهر إلى الملك العادل فى الصلح ، فأجاب إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ويخطب له ببلاده ، ويضرب السكة باسمه ، ويكون بخدمته متى طلبه ، فأجيب إلى ذلك واستقر الصلح عليه .

وفيها : أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام ، فسار بوالدته وإخوته ، وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر .

وفيها : سار الملك المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطًا للفرنج وأقام بها ، وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بإنجاده فأنجداه ، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعرين واتقعوا معه فى ثالث شهر رمضان من هذه السنة ، واقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل وأسر من خيرتهم جماعة ، وكان يوماً مشهوداً ، وفى ذلك يقول بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجارى قصيدة من جملتها :

مالذة العيش إلا صوت معمعة ... ينال فيها المنى بالبيض والأسَل

يا أيها الملك المنصور نصح فتى ... لم يلوه عن وفاء كثرة العذل

اعزم ولا تترك الدنيا بلا ملك   وجد فالملك محتاج إلى رجل
يا أوحد العصر ياخير الملوك ومن   فاق البرية من حافٍ ومنتعل

ثم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاسبتار ، وانضم إليهم جموع من السواحل ، واتقعوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو نازل ببعرين فى الحادى والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوماً ، فانتصر ثانيًا ، وانهزمت الفرنج هزيمة شنيعة ، وأسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة ، ومدَحَ الملك المنصور بسبب هذه الوقعة سالم بن سعادة الحمصى بقصيدة منها :

أمرِ اللواحظ أن تفوق أسهما   ريم برامة مازَنَا حتى رمى
فتانة بالسحر بل فتّاكة   ما جار قاضيهن حين تحكما

ومنها :

أصبحت فيها مغرماً كمحمد   لمَّا غدا بالأريحية مغرما

ومنها :

وشننت منتقمًا بساحل بحرها   جيشاً حكى البحر الخضم عرمرما
أسدلت فى الآفاق من هبواته   ليلًا وأطلعت الأسنة أنجما

وفى هذه السنة : ولد الملك المظفر تقى الدين محمود ابن الملك المنصور محمد صاحب حماة من الملكة خاتون ، بنت السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وسمى عمر ، وإنما سمى محمودًا بعد ذلك ، وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان من هذه السنة .

وفى هذه السنة : أرسل الملك العادل وانتزع ما كان بيد الملك الأفضل ، وهى رأس عين وسروج وقلعة نجم ، ولم يترك بيده غير سميساط فقط ، فأرسل الملك الأفضل والدته ، فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة ، ليرسل معها من يشفع فى الملك الأفضل عند الملك العادل فى إبقاء ما كان بيده ، وتوجهت أم الملك الأفضل ، وتوجه معها من حماة القاضى زين الدين بن الهندى إلى الملك العادل ، فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة .

قال عز الدين بن الأثير مؤلف الكامل : وقد عوقب البيت الصلاحى بمثل ما فعله والدهم السلطان صلاح الدين ، لمَّا خرجت إليه نساء بيت الأتابك ، ومن جملتهن بنت نور الدين الشهيد يشفعن فى إبقاء الموصل على عز الدين مسعود فردهن ولم يجب إلى سؤالهن ، ثم ندم رحمه الله تعالى على ردهنّ ، فجرى للملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين مع عمه مثل ذلك ، ولمَّا جرى ذلك أقام الملك الأفضل بسميساط ، وقطع خطبة عمه الملك العادل ، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقى صاحب بلاد الروم .

ذكر وفاة غياث الدين ملك الغورية

وفى هذه السنة : فى جمادى الأولى ، توفى غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام بن الحسين الغورى ، صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها ، وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازمًا على قصد خوارزم ، وخلف غياث الدين من الولد ابنًا اسمه محمود ، ولقب غياث الدين بلقب والده ، ولم يحسن شهاب الدين الخلافة على ابن أخيه ، ولا على غيره من أهله ، وكان لغياث الدين زوجة يحبها ، وكانت مغنية ، فقبض عليها شهاب الدين بعد موت أخيه غياث الدين ، وضربها ضربًا مُبَرِّحًا ، وأخذ أموالها ، وكان غياث الدين مظفرًا منصورًا لم تنهزم له راية قط ، وكان له دهاء ومكر ، وكان حسن الاعتقاد كثير الصدقات ، وكان فيه فضل غزير وأدب ، مع حسن خط وبلاغة ، وكان ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها فى المدارس التى بناها ، وكان على مذهب الكرامية ، ثم تركه وصار شافعيًّا .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها ، وقتلوا أهلها ، وكانت هى وجميع أذربيجان للأمير أبى بكر بن البهلوان ، وكان مشغولا ليلًا ونهاراً بشرب الخمر ولا يلتفت إلى تدبير مملكته ، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت .

وفيها : توفيت زمرد أم الخليفة الإمام الناصر ، وكانت كثيرة المعروف .

ثم دخلت سنة ستمائة : والملك العادل بدمشق .

وفيها : كانت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج .

وفيها : نازل ابن لاوون ملك الأرمن أنطاكية ، فتحرك الملك الظاهر صاحب حلب ، ووصل إلى حارم ، فرحل ابن لاوون عن أنطاكية على عقبه .

وفيها : خطب قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار للملك العادل ببلاده ، وانتمى إليه ، فصعب على ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود ، وقصد نصيبين وهى لقطب الدين ، واستولى على مدينتها ، فاستنجد قطب الدين بالملك الأشرف بن العادل ، فسار إليه ، واجتمع معه أخوه الملك الأوحد صاحب ميافارقين ،

والتقى الفريقان بقرية يقال لها بوشرة ، فانهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل هزيمة قبيحة ، ودخل إلى الموصل وليس معه غير أربعة أنفس ، وكانت هذه الواقعة أول ما عرفت من سعادة الملك الأشرف بن العادل ، فإنه لم ينهزم له راية بعد ذلك ، واستقرت بلاد قطب الدين محمد بن زنكى عليه ، ووقع الصلح بينهم فى أول سنة إحدى وستمائة .

وفيها : اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس ، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر ونزل على الطور فى قبالة الفرنج ، ودام ذلك إلى آخر السنة .

وفيها : استولت الفرنج على قسطنطينية ، وكانت قسطنطينية بيد الروم من قديم الزمان ، فلما كانت هذه السنة ، اجتمعت الفرنج وقصدتها فى جموع عظيمة وحاصروها ، فملكوها وأزالوا يد الروم عنها ، ولم تزل بأيدى الفرنج إلى سنة ستين وستمائة ، فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج .

وفيها : توفى السلطان ركن الدين بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن يبغو أرسلان بن سلجوق سلطان بلاد الروم فى سادس ذى القعدة حسبما قدمنا ذكره فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وكان مرضه بالقولونج ، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكوريه « وهى أنقرة » ، وكان ركن الدين المذكور يميل إلى مذهب الفلاسفة ، ويحسن إلى طائفتهم ويقدمهم ، ولما مات ركن الدين ملك ولده قليج أرسلان بن سليمان وكان صغيراً ، فلم يستثبت أمره وكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : كان بين خوارزم شاه محمد بن تكش ، وبين شهاب الدين ملك الغورية قتال ، انتصر فيه ملك الغورية ، واستنجد خوارزم شاه بالخطا فساروا واتقعوا مع شهاب الدين ملك الغورية فهزموه ، وشاع ببلاده أن شهاب الدين قتل ، فاختلفت مملكته ، وكثر المفسدون ثم إنه ظهر ووصل إلى غزنة ، واستقر فى ملكه ، وتراجعت الأمور إلى ما كانت عليه .

وفيها : قتل كلجا مملوك البهلوان ، وكان قد ملك الرى وهمدان وبلاد الجبل ، قتل خشداشة أيدغمش مملوك البهلوان وتملك موضعه ، وأقام أيدغمش ابن أستاذه أزبك بن البهلوان فى الملك ، وليس لأزبك غير الاسم والحكم لأيدغمش .

وفيها : استولى إنسان اسمه محمود بن محمد الحميرى على ظفار ومرباط وغيرهما من حضر موت .

وفيها : خرج أسطول للفرنج فاستولوا على مدينة فوه من الديار المصرية فنهبوها خمسة أيام .

وفيها : كانت زلزلة عظيمة عمت مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس والعراق وغيرها وخربت سور مدينة صور .

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة :

فى هذه السنة : كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج ، وسلم إلى الفرنج يافا ، ونزل عن مناصفات لِدّ والرملة ، ولما استقرت الهدنة أعطى العساكر دستوراً ، وسار العادل إلى مصر ، وأقام بدار الوزارة .

وفيها : أغارت الفرنج على حماة ، ووصلوا إلى قرب حماة إلى قرية الرقيطا ، وامتلأت أيديهم من المكاسب ، وأسروا من أهل حماة شهاب الدين بن البلاعى ، وكان فقيهًا شجاعًا ، تولى برحماة مرة وسلمية أخرى ، وحمل إلى طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك ، ووصل إلى أهله بحماة سالما ، ثم وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج .

وفيها : بعد الهدنة ، توجه الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر ، وكان عنده استشعار من السلطان الملك العادل ، فلما وصل إليه بالقاهرة ، أحسن إليه إحساناً كثيراً ، وأقام فى خدمته شهوراً ، ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وعاد إلى حماة .

وفيها : ملك السلطان غياث الدين كَيْخَسْرُو بن قليج أرسلان بلاد الروم ، وكان لما تغلب أخوه ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان على البلاد ، هرب كَيْخَسْرُو المذكور إلى الملك الظاهر صاحب حلب ، ثم تركه وسار إلى قسطنطينية ، فأحسن إليه صاحبها ، وأقام بالقسطنطينية إلى أن مات أخوه ركن الدين سليمان ، وتولى ابنه قليج أرسلان ، فسار كَيْخِسْرُو من قسطنطينية ، وأزال أمر ابن أخيه ، وملك بلاد الروم ، واستقر أمره .

وفيها : كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسينى أمير مكة ، وبين الأمير سالم بن قاسم الحسينى أمير المدينة ، وكانت الحرب بينهما سجالاً .

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة :

والملك العادل بالديار المصرية والممالك بحالها .

ذكر قتل ملك الغورية شهاب الدين

فى هذه السنة : أول ليلة من شعبان ، قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام بن الحسين الغورى ملك غزنة وبعض خراسان ، بعد عوده من لهاوور ، بمنزل يقال له دمبل ، قبل

صلاة العشاء ، وثب عليه جماعة وهو بخركاته ، وقد تفرق الناس عنه لأماكنهم فقتلوه بالسكاكين ، قيل إنهم من الكوكير : وهم طائفة من أهل الجبال مفسدون ، كان شهاب الدين قد فتك فيهم ، وقيل إنهم من الإسماعيلية ، فإن شهاب الدين أيضاً كان كثير الفتك فيهم ، واجتمع حرس شهاب الدين ، فقتلوا أولئك الذين قتلوا شهاب الدين عن آخرهم .

وكان شهاب الدين شجاعًا ، كثير الغزو ، عادلاً فى الرعية ، وكان الإمام فخر الدين الرازى يعظه فى داره ، فحضر يومًا وعظه وقال فى آخر كلامه : يا سلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازى ، فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس ، ولمّا قتل شهاب الدين ، كان صاحب باميان بهاء الدين سام بن شمس الدين محمد بن مسعود ، عم غياث الدين وشهاب الدين المذكور ، فسار بهاء الدين سام ليتملك غزنة ، ومعه ولداه علاء الدين محمد وجلال الدين ابنا سام بن محمد بن مسعود بن الحسينى ، فأدركت بهاء الدين سام الوفاة قبل أن يصل إلى غزنة ، وعهد بالملك إلى ابنه علاء الدين محمد ، فأتم علاء الدين وأخوه جلال الدين السير إلى غزنة ودخلاها ، وتملكها علاء الدين .

وكان لغياث الدين ملك الغورية مملوك يقال له تاج الدين يلدز ، وكانت كرمان إقطاعة ، وهو كبير فى الدولة ومرجع الأتراك إليه ، فسار يلدز إلى غزنة وهزم عنها علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام وأخاه جلال الدين ، واستولى يلدز على غزنة ، ثم إن علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين سام سارا إلى باميان وجمعا العساكر وعادا إلى غزنة ، فقاتلهما يلدز فانتصرا عليه ، وانهزم يلدز إلى كرمان ، واستقر علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام ومعه بعض العسكر فى ملك غزنة ، وعاد أخوه جلال الدين فى باقى العسكر إلى باميان .

ثم إن يلدز لما بلغه مسير جلال الدين فى باقى العسكر إلى باميان ، وتأخر علاء الدين بغزنة ، جمع العساكر من كرمان وغيرها وسار إلى غزنة ، وبلغ علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام ذلك ، فأرسل إلى أخيه جلال الدين وهو بباميان يستنجده ، وسار يلدز وحصر علاء الدين بغزنة ، وسار جلال الدين فلما قارب غزنة رحل يلدز إلى طريقه واقتتلا ، فانهزم عسكر جلال الدين وأخذه يلدز أسيراً ، فأكرمه يلدز واحترمه ، وعاد إلى غزنة فحصر علاء الدين بها ، وكان عنده بغزنة هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش ، فاستنزلهما يلدز بالأمان ثم قبض على علاء الدين وعلى هندوخان وتسلم غزنة .

وأما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية ، فإنه لما قتل عمه شهاب الدين كان ببست ، فسار إلى فيروز كوه وتملكها ، وجلس فى دست أبيه غياث الدين ، وتلقب بألقابه ، وفرح به أهل فيروزكوه ، وسلك طريقة أبيه فى الإحسان والعدل ، ولما استقل يلدز

بغزنة ، وأسر جلال الدين وعلاء الدين ابنى سام ، كتب إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام بن الحسين بالفتح ، وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : توفى الأمير مجير الدين طاشتكين أمير الحج ، وكان قد ولّاه الخليفة على جميع خورستان ، وكان خيرًا صالحًا ، وكان يتشيع .

وفيها : تزوج أبو بكر بن البهلوان بابنة ملك الكرج ، وذلك لاشتغاله بالشرب عن تدبير المملكة ، فعدل إلى المصاهرة والهدنة ، فكف الكرج عنه .

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة :

فى هذه السنة : سار الملك العادل من مصر إلى الشام ، ونازل فى طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ، ثم وصل إلى دمشق ، ثم سار منها ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس ، واستدعى بالعساكر فأتته من كل جهة ، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان ، ثم سار ونازل حصن الأكراد ، وفتح برج أعناز ، وأخذ منه سلاحًا ومالًا وخمسمائة رجل ، ثم سار ونازل طرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وعاث العسكر فى بلادها وقطع قناتها ، ثم عاد فى أواخر ذى الحجة إلى بحيرة قدس بظاهر حمص .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : أرسل غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية يستميل يلدز مملوك أبيه ، المستولى على غزنة فلم يجبه يلدز إلى ذلك ، وطلب يلدز من غياث الدين أن يعتقه ، فأحضر الشهود وأعتقه ، وأرسل مع عتاقه هدية عظيمة ، وكذلك أعتق أيبك المستولى على بلاد الهندس ، وأرسل نحو ذلك ، فقبل كل منهما ذلك ، وخطب له أيبك ببلاد الهند التى تحت يده ، وأما يلدز فلم يخطب له ، وخرج بعض العساكر عن طاعة يلدز لعدم طاعته لغياث الدين .

وفيها : فى ثالث شعبان ، ملك غياث الدين كَيْخِسْرُو صاحب بلاد الروم أنطالية باللام ، وهى مدينة للروم على ساحل البحر .

وفيها : قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر ، وكان أتابك قتلغ مملوك شَاهِرْمَنّ ، فقبض عليه ابن بكتمر ، فثارت عليه أرباب الدولة وقبضوه وملكوا بلبان مملوك شَاهِرْمَنّ بن سقمان صاحب خلاط حسبما تقدم ذكره فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستمائة :

والملك العادل نازل على بحيرة قدس ، ثم وقع الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس ، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها .

ذكر استيلاء الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط

فى هذه السنة : ملك الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل خلاط ، وكان صاحب خلاط بلبان حسبما قدمنا ذكره فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فسار الملك الأوحد من ميافارقين ، وملك مدينة موش ، ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط ، فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقى ، فسار طغريل شاه ، واجتمع به بلبان ، فهزما الملك الأوحد ثم غدر طغريل شاه ببلبان ، فقتله غدرًا ليملك بلاده ، وقصد خلاط فلم يسلموها إليه ، وقصد مَنَازْكِرْد[1] فلم تسلم إليه ، فرجع طغريل شاه إلى بلاده ، فكاتب أهل خلاط الملك الأوحد فسار إليهم ،وتسلم خلاط وبلادها بعد إياسه منها ، واستقر ملكه بها .

وفى هذه السنة : لما استقر الملك العادل بدمشق ، وصل إليه التشريف من الخليفة الإمام الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردى ، فبالغ الملك العادل فى إكرام الشيخ ، والتقاه إلى القصير ، ووصل من صاحبى حلب وحماة ذهب ، لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة ، فلبسها الملك العادل ، ونثر ذلك الذهب ، وكان يومًا مشهودًا .

والخلعة : جبة أطلس أسود بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز مذهب ،وطوق ذهب مجوهر ، تطوّق به الملك العادل ،وسيف جميع قرابه ملبس ذهبًا تقلّد به ؛ وحصان أشهب بمركب ذهب ، ونشر على رأسه علم أسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ، ثم خلع رسول الخليفة

---

(١) مَنَازْكِرْد : هكذا ينطقها أهلها مَنَازْكِرْد بالكاف ، مع أن المشهور فى المعاجم أنها اسمها مَنَازْجِرْد ، بعد الألف زاى ثم جيم مكسورة وراء ساكنة ودال ، انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى ج ٥ ص ٢٠٢ .

على كل واحد من الملك الأشرف ، والملك المعظم ابنى الملك العادل عمامة سوداء وثوبًا أسود واسع الكم ، وكذلك على الوزير صفى الدين بن شكر .

وركب الملك العادل وولداه ووزيره بالخلع ودخل القلعة ، وكذلك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التى تحت حكمه ، وخوطب الملك العادل فيه « شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين » ، ثم توجه الشيخ شهاب الدين إلى مصر ، فخلع على الملك الكامل بها ،وجرى فيها نظير ما جرى فى دمشق من الاحتفال ، ثم عاد السهروردى إلى بغداد مكرمًا معظمًا .

وفى هذه السنة : اهتم الملك العادل بعمارة قلعة دمشق ، وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها .

ذكر قتل خوارزم شاه مع الخطا بما وراء النهر

فى هذه السنة : كانت ملوك ما وراء النهر مثل ملك سمرقند وملك بخارى خوارزم شاه ، يشكون ما يلقونه من الخطا ، ويبذلون له الطاعة والخطبة والسكة ببلادهم إن دفع الخطا عنهم ، فعبر علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش نهر جيحون ، واقتتل مع الخطا ، وكان بينهم عدة وقائع ، والحرب بينهم سجال ، واتفق فى بعض الوقعات أن عسكر خوارزم شاه انهزم ، وأخذ خوارزم شاه محمد أسيرًا ، وأسر معه شخص من أصحابه يقال له فلان ابن شهاب الدين مسعود ، ولم يعرفها الخطاى الذى أسرهما ، فقال ابن مسعود لخوارزم شاه : دع عنك المملكة وادّع أنك غلامى واخدمنى لعلّى أحتال فى خلاصك ، فشرع خوارزم شاه يخدم ابن مسعود ويقلعه قماشه وخفه ويلبسه ويخدمه ، فسأل الخطاى ابن مسعود : مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا فلان ، فقال له الخطاى : لولا أخاف من الخطا أطلقتك ، فقال له ابن مسعود إنى أخشى أن ينقطع خبرى عن أهلى فلا يعلمون بحياتى ، وأشتهى أن أعلمهم بحالى لئلا يظنوا موتى ،ويتقاسموا مالى ، فأجابه الخطاى إلى ذلك ،فقال ابن مسعود أشتهى أن أبعث بغلامى هذا مع رسولك ليصدقوه ، فأجابه إلى ذلك ، وراح خوارزم شاه مع ذلك الشخص ، حتى قرب من خوارزم ، فرجع الخطاى واستقر خوارزم شاه فى ملكه ، وتراجع إليه عسكره .

وكان لخوارزم شاه أخ يقال له على شاه بن تكش ، وكان نائب أخيه بخراسان ، فلما بلغه عدم أخيه فى الوقعة مع الخطا دعا إلى نفسه بالسلطنة ، واختلفت الناس بخراسان ، وجرى فيها فتن كثيرة ، فلما عاد خوارزم شاه محمد إلى ملكه ، خاف أخوه على شاه ، فسار إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية ، فأكرمه غياث الدين محمود ، وأقام على شاه عنده بفيروزكوه .

ذكر قتل غياث الدين محمود
وعلى شاه

ولما استقر خوارزم شاه فى ملكه ، وبلغه ما فعله أخوه على شاه ، أرسل عسكرًا إلى قتال غياث الدين محمود الغورى ، فسار العسكر إلى فَيْرُوزْكوه مع مقدم يقال له أمير ملك ، فسار إلى فيروزكوه ، وبلغ ذلك محمودًا ، فأرسل يبذل الطاعة ويطلب الأمان ، فأعطاه أمير ملك الأمان ، فخرج غياث الدين محمود من فيروزكوه ومعه على شاه ، فقبض عليهما أمير ملك ، وأرسل يعلم خوارزم شاه بالحال ، فأمره بقتلهما فقتلهما فى يوم واحد ، واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه محمد بن تكش ، وذلك فى سنة خمس وستمائة ، وهذا غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام بن الحسين هو آخر الملوك الغورية ، وكانت دولتهم من أحسن الدول ، وكان محمود هذا كريمًا عادلاً رحمة الله عليه .

ثم إن خوارزم شاه محمدًا – لما خلا سرّه من جهة خراسان ، عبر النهر وسار إلى الخطا ، وكان وراء الخطا فى حدود الصين التتر ، وكان ملكهم حينئذ يقال له كشلى خان ، وكان بينه وبين الخطا عداوة مستحكمة ، فأرسل كل من كشلى خان ومن الخطا يسأل خوارزم شاه أن يكون معه على خصمه ، فأجابهما خوارزم شاه بالمغالطة وانتظر ما يكون بينهما ، فاتقع كشلى خان والخطا ، فانهزمت الخطا ، فمال عليهم خوارزم شاه وفتك فيهم ، وكذلك فعل كشلى خان بهم ، فانقرضت الخطا ، ولم يبق منهم إلا من اعتصم بالجبال ، أو استسلم وصار فى عسكر خوارزم شاه .

ثم دخلت سنة خمس وستمائة :

والملك العادل بدمشق ، وعنده ولداه الملك الأشرف والمعظم .

ذكر قدوم الأشرف إلى حلب
متوجهًا إلى بلاده الشرقية

فى هذه السنة : توجه الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل من دمشق راجعًا إلى بلاده الشرقية ، ولما وصل إلى حلب تلقاه صاحبها الملك الظاهر ، وأنزله بالقلعة وبالغ فى

إكرامه ،وقام للأشرف ولجميع عسكره بجميع ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب والحلوى والعلوفات ، وكان يحمل إليه فى كل يوم خلعة كاملة وهى غِلَالَة وقَبَاء وسراويل وكمَّة وفروة وسيف وحصان ومنطقة ومنديل وسكين ودلكش ، وخمس خلع لأصحابه ، وأقام على ذلك خمسة وعشرين يومًا ، وقدم له تقدمة وهى مائة ألف درهم ومائة بقجة مع مائة مملوك ، فمنها عشر بقج فى كل واحدة منها ثلاثة أثواب أطلس وثوبان خطاى ، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير ، ومنها عشر فى كل واحدة منها عشرة أثواب عتابى خوارزمى ، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير ، ومنها عشر فى كل واحدة خمسة أثواب عتابى بغدادى وموصلى ، وعليها عشرة جلود قندس صغار ومنها عشرون فى كل واحدة خمس قطع مرسوسى وديبقى ، ومنها أربعون فى كل واحدة منها خمسة أقبية وخمس كمام .

وحمل إليه خمس حصن عربية بعدّتها ، وعشرين أكديشًا ، وأربعة قطر بغال ، وخمس بغلات فائقات بالسروج واللجم المكفتة ، وقطارين من الجمال ، وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة ، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش ، ثم سار الملك الأشرف إلى بلاده .

وفى هذه السنة : أمر الملك الظاهر صاحب حلب بإجراء القناة من حَيْلَان إلى حلب ، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة ، وبقى البلد يجرى الماء فيه .

وفى هذه السنة : وصل غياث الدين كَيْخِسْرُو بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب بلاد الروم إلى مرعش لقصد بلاد ابن لاوون الأرمنى ، وأرسل إليه الملك الظاهر نجدة ، فدخل كَيْخِسْرُو إلى بلاد ابن لاوون ، وعاث فيها ونهب وفتح حصنًا يعرف بفرقوس .

ذكر مقتل صاحب الجزيرة

فى هذه السنة : قتل معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن عماد الدين بن زنكى بن أقسنقر ، صاحب جزيرة ابن عمر ، وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة ست وسبعين وخمسمائة ، قتله ابنه غازى ، وكان سنجرشاه ظالمًا ، قبيح السيرة جدًّا ، لا يمتنع عن قبيح يفعله من القتل وقطع الألسنة والأنوف والآذان وحلق اللحى ، وتعدَّى ظلمه إلى أولاده وحريمه ، فبعث ابنيه محمودًا ومودودًا إلى قلعة فحبسهما فيها ، وحبس ابنه المذكور غازى فى دار فى المدينة وضيق عليه ، وكان بتلك الدار هوام كثيرة ، فاصطاد غازى المذكور منها حية وأرسلها إلى أبيه فى منديل لعله يرق عليه ، فلم يزده ذلك إلا قسوة ، فأعمل غازى الحيلة حتى هرب ، وكان له واحد يخدمه ، فقرر معه أن يسافر ويظهر أنه غازى بن معز الدين سنجرشاه ليأمنه أبوه ، فمضى ذلك الإنسان إلى الموصل فأعطى شيئًا وسافر منها ، واتصل ذلك بسنجرشاه

فاطمأن ، وتوصل ابنه غازى حتى دخل إلى دار أبيه ، واختفى عند بعض سرارى أبيه ، وعلم به جماعة منهم ، وكتموا ذلك على سنجرشاه لبغضهم فيه ، واتفق أن سنجرشاه شرب يومًا بظاهر البلد وشرع يقترح على المغنين الأشعار الفراقية وهو يبكى ، ودخل داره سكران إلى عند الحظية التى ابنه مخبأ عندها ، ثم قام معز الدين سنجرشاه ودخل الخلاء ، فهجم عليه ابنه غازى فضربه أربع عشرة ضربة بالسكين ، ثم ذبحه وتركه ملقى ، ودخل غازى الحمام ، وقعد يلعب مع الجوارى ، فلو أحضر الجند واستحلفهم فى ذلك الوقت لتم له الأمر وملك البلاد ، ولكنه تنكر واطمأن ، فخرج بعض الخدم وأعلم أستاذ الدار ، فجمع الناس وهجم على غازى وقتله ؛ وحلف العسكر لأخيه محمود بن سنجرشاه ، ولقب معز الدين بلقب أبيه ووصل معز الدين محمود بن سنجرشاه بن زنكى ، واستقر ملكه بالجزيرة ، وقبض على جوارى أبيه فغرقهنّ فى دجلة ، ثم قبض بعد ذلك أخاه مودودًا .

ثم دخلت سنة ست وستمائة :

فى هذه السنة : سار الملك العادل من دمشق وقطع الفرات ، وجمع العساكر والملوك من أولاده ونزل حران ، ووصل إليه بها الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقى صاحب آمد وحصن كيفا ، وسار الملك العادل من حران ، ونازل سنجار وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى فحاصرها ، وطال الأمر فى ذلك ، ثم خامرت العساكر التى صحبة الملك العادل ، ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح معه ، فرحل عن سنجار وعاد إلى حران ، واستولى الملك العادل على نصيبين ، وكانت لقطب الدين محمد المذكور ، وكذلك استولى على الخابور .

وفى هذه السنة : توفى الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين .

وفيها : توفى الإمام فخر الدين محمد بن عمر خطيب الرى بن الحسين بن الحسن بن على التميمى البكرى ، الطبرستانى الأصل ، الرازى المولد ، الفقيه الشافعى ، صاحب التصانيف المشهورة ، قال ابن الأثير : وبلغنى أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وكان فخر الدين المذكور مع فضائله يعظ ، وله فيه اليد الطولى ، وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى ، ويلحقه فى الوعظ الوجد والبكاء ، وكان أوحد زمانه فى المعقولات والأصول ، واشتغل فى أول زمانه على والده ، ثم قصد الكمال السمعانى واشتغل عليه ، ثم عاد إلى الرى واشتغل على المجد الجيلى ، وسافر إلى خوارزم وما وراء النهر ، وجرى له بفَيْرُوزْكُوه ما تقدم ذكره ، وأخرج منها بسبب الكرامية ، واتصل بشهاب الدين الغورى صاحب غزنة ، وحصل له منه مال طائل ، ثم عاد فخر الدين إلى خراسان ، واتصل بالسلطان خوارزم شاه محمد بن تكش وحظى عنده ، ولفخر الدين نظم حسن فمنه :

نهاية أقدام العقول عقال ... وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا

وكانت العلماء يقصدونه من البلاد ، وتشدّ إليه الرحال ، وقصده ابن عنين الشاعر ومدحه بقصائد .

وفيها : فى سلخ ذى الحجة ، توفى مجد الدين بن السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم ومولده سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، المعروف بابن الأثير ، أخو عز الدين على المؤرخ مؤلف الكامل فى التاريخ ، وكان مجد الدين المذكور عالمًا بالفقه والأصولين والنحو والحديث واللغة ، وله تصانيف مشهورة ، وكان كاتبًا مفلقًا .

وفيها : توفى المجد المطرز النحوى الخوارزمى ، وكان إمامًا فى النحو ، وله فيه تصانيف حسنة .

ثم دخلت سنة سبع وستمائة :

فيها : عاد السلطان الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق .

وفيها : قصدت الكرج خلاط ، وحصروا الملك الأوحد ابن الملك العادل بها ، واتفق أن ملك الكرج شرب وسكر ، فحسّنَ له السكر أنه تقدم إلى خلاط فى عشرين فارسًا ، فخرجت إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيرًا ، وحمل إلى الملك الأوحد ، فردّ على الملك الأوحد عدة قلاع ، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار ، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة ، وشرط أن يزوج ابنته بالملك الأوحد ، فتسلم ذلك منه وأقام وتحالفا وأطلق .

ذكر وفاة نور الدين
صاحب الموصل

فى هذه السنة : توفى نور الدين أرسلان شاه عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر صاحب الموصل فى آخر رجب ، وكان مرضه قد طال ، وملك الموصل سبع عشرة سنة ،وأحد عشر شهرًا ، ولما اشتد مرضه انحدر إلى العين القيارة ليستحم بها ، وعاد إلى الموصل فى سيارة ، فتوفى فى الطريق ليلًا ، وكان أسمر حسن الوجه ، قد أسرع إليه الشيب ، وكان شديد الهيبة على أصحابه ، وكان عنده قلة صبر فى أموره .

واستقر فى ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ، وكان عمر القاهر عشر سنين ، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لولو ، وكان لولو مملوك والده أرسلان شاه وأستاذ داره ، وهذا لولو هو الذى ملك الموصل على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وكان لأرسلان شاه ولد آخر أصغر من القاهر اسمه عماد الدين زنكى ملكه أبوه قلعتى العقر وشوش ، وهما بالقرب من الموصل .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كاس الفتوة ، ويلبسوا له سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه فى رمى البندق ، ويجعلوه قدوتهم .

وفيها : سار الملك العادل بعد وصوله إلى دمشق ومقامه إلى الديار المصرية ، وأقام بدار الوزارة .

وفيها : توفى فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم .

ذكر وفاة الملك الأوحد صاحب خِلاط

فى هذه السنة : توفى الملك الأوحد ايوب ابن الملك العادل ، فسار أخوه الملك الأشرف وملك خِلاط واستقل بملكها مضافًا إلى ما بيده من البلاد الشرقية ، فعظم شأنه ولقب شاهِرْمَن .

وفى هذه السنة : قتل غياث الدين كَيْخَسْرُو صاحب بلاد الروم ، قتله ملك الأشكرى وملك بعده ابنه كِيكَاوُس بن كَيْخَسْرُو بن قليج أرسلان حسبما تقدم ذكره فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة :

فى هذه السنة : قبض الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على عز الدين أسامة صاحب قلعتى كوكب وعجلون بأمر أبيه الملك العادل ، وحبسه فى الكرك إلى أن مات بها ، وحاصر القلعتين المذكورتين وتسلمها من غلمان أسامة ، وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية

أثرها ، فخربت وبقيت خرابًا وأبقى عجلون ، وانقرضت الصلاحية بهذا أسامة ، وملّك الملك المعظم بلاد جهاركس وهى بانياس وما معها لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن الملك العادل ، وأعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمى .

وفى هذه السنة : عاد الملك العادل إلى الشام ، وأعطى ولده الملك المظفر غازى الرها مع ميافارقين .

وفيها : أرسل الملك الظاهر القاضى بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل فاستعطف خاطره ، وخطب ابنته ضيفة خاتون ابنة الملك العادل فزوجها من الملك الظاهر ، وزال ما كان بينهما من الإحن .

وفيها : أظهر الكيا جلال الدين حسن صاحب الألموت ، وهو من ولد ابن الصباح شعائر الإسلام ، وكتب به إلى جميع قلاع الإسماعيلية بالعجم والشام ، فأقيمت فيها شعائر الإسلام

وفيها : توفى أبو حامد محمد بن يونس بن منعة[1] الفقيه الشافعى بمدينة الموصل ، وكان إمامًا فاضلًا ، وكان حسن الأخلاق .

وفيها : توفى القاضى السعيد المعروف بابن سنا الملك ، وهو هبة الله بن جعفر بن سنا الملك السعدى ، الشاعر المشهور المصرى ، أحد الفضلاء الرؤساء ، صاحب النظم الفائق ، وكان كثير التنعم ، وافر السعادة ، محظوظًا من الدنيا ، مدح توران شاه أخا السلطان صلاح الدين بقصيدة مطلعها :

تقنعت لكن بـالحبيب المعـمم   وفارقتُ لكن كل عيش مذمم

فهجّن بعض الفضلاء هذا المطلع وعابوه .

ومن شعره أيضًا :

لا الحسن يحكيك ولا الجودز   حسنـك ممـا كثـروا أكـثر
يـا باسمًا أهـدى لنـا ثغـره   عقـدًا ولكـن كله جـوهـر
قـال لى اللاحى أمـا تستمع   فقلت لـلاحى أمـا تبصـر

ثم دخلت سنة تسع وستمائة :

فى هذه السنة : فى المحرم ، عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل ، وكان المهر خمسين ألف دينار ، وتوجهت من دمشق فى المحرم إلى حلب ، فاحتفل الملك الظاهر لملتقاها ، وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة .

---

(١) أما فى « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير جـ ١٢ (ميعة) .

وفيها : عمر الملك العادل قلعة الطور ، وجمع لها الصناع من البلاد والعسكر حتى تمت

وفى هذه السنة : سار طغريل شاه بن قليج أرسلان ، صاحب أرزن الروم وحاصر ابن أخيه سلطان الروم كَىْ كَاوُس بسيواس ، فاستنجد كَىْ كاوُس بالأشرف ابن العادل ، فخاف عمه طغريل ورحل عنه ، وكان لكَىْ كَاوُس أخ اسمه كَىْ قَبَاذ ، فلما جرى ما ذكرناه ، ساركى قباذ واستولى على أنكورية من بلاد أخيه كَىْ كَاوُس ، فساركى كاوس وحصره ، وفتح أنكورية ، وقبض على أمرائه ، وحلق لحاهم ورؤوسهم وأركب كل واحد منهم فرسًا ، وأركب قدامه وخلفه قحبتين ، وبيد كل منها معلاق تصفعه به ، وبين يدى كل واحد منهم مناد ينادى : هذا جزاء من خانوا سلطانهم .

ثم دخلت سنة عشر وستمائة :

فى هذه السنة : ظفر عز الدين كَىْ كَاوُس بن كَيْخَسْرُو ، صاحب بلاد الروم بعمه طغريل شاه ، فأخذ بلاده وقتله ، وذبح أكثر زملائه ، وقصد قتل أخيه علاء الدين كى قباذ ، فشفع فيه بعض أصحابه فعفا عنه .

وفيها : فى رمضان ، توفى بحلب فارس الدين ميمون القصرى ، وهو آخر من بقى من كبراء الأمراء الصلاحية ، وهو منسوب إلى قصر الخلفاء بمصر ، كان قد أخذه السلطان صلاح الدين من هناك .

وفيها : ولد للملك الظاهر من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ولده الملك العزيز غياث الدين محمد .

وفى هذه السنة : قتل أيدغمش مملوك البهلوان ، وكان قد غلب على المملكة وهى هَمَذان والجبال ، قتله خشداش له من البهلوانية اسمه مَنْكِلى ، وكان أيدغمش قد هرب منه ، والتجأ إلى الخليفة فى سنة ثمان وستمائة ، ورجع أيدغمش فى هذه السنة إلى جهة همذان فقتل ، واستقل مَنْكِلى بالملك .

وفى هذه السنة : فى شعبان ، توفى ملك المغرب محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وكانت مدة مملكته نحو ست عشرة سنة ، وكان أشقر أسيل الخد دائم الإطراق ، كثير الصمت للثغة كانت فِى لسانه ، وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ولما مات محمد الناصر المذكور ، ملك بعده ولده يوسف ، وتلقب بالمستنصر أمير المؤمنين بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكنيته أبو يعقوب .

وفيها : وقيل فى السنة التى قبلها ، توفى على بن محمد بن على المعروف بابن خروف ، النحوى الأندلسى الأشبيلى ، شرح كتاب سيبويه شرحًا جيدًا ، وشرح الجمل للزجاجى .

وفيها : توفى عيسى بن عبد العزيز الجُزُولى بمراكش ، وكان إمامًا فى النحو ، صنف مقدمته الجُزولية وسماها القانون ، أتى فيها بالعجائب ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء ، وأكثر النحاة يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها ، فإنها كلها رموز وإشارات .

قدم الجُزولى المذكور إلى ديار مصر على ابن برى النحوى ، ثم عاد إلى المغرب - والجُزولى بضم الجيم ، منسوب إلى جُزولة ، وهى بطن من البربر ، ويقال لها كُزولة أيضًا ، وشرح مقدمته فى مجلد كبير ، أتى فيه بغرائب وفوائد .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة :

فى هذه السنة : توفى دلدرم بن ياروق صاحب تل باشر ، وولى تل باشر بعده ابنه فتح الدين .

وفيها : توفى الشيخ على بن أبى بكر الهروى ، وله التربة المعروفة شمالى حلب ، وكان عارفًا بأنواع الحيل والشعبذة والسيماوية ، تقدم عند الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، وله أشعار كثيرة ، وتغرب فى البلاد ، ودار غالب المعمور .

وفيها : أسرت التركمان ملك الأشكرى ، وهو قاتل غياث الدين كى خسرو ، فحمل إلى ابنه كى كاوس بن كى خسرو ، فأراد قتله ، فبذل له فى نفسه أموالاً عظيمة وسلم إلى كى كاوس قلاعًا وبلادًا لم يملكها المسلمون قط .

وفيها : عاد الملك العادل من الشام إلى مصر .

وفيها : توفى الدكز[1] عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلىّ ببغداد ، وَلِىَ عدّة ولايات ، وكان يُتهم بمذهب الفلاسفة ، اعتقل قبل موته ، وأظهرت كتبه وفيها الكفريّات ، مثل مخاطبة زُحَل وغيره بالإلهيّة وأُحْرقت ، ثم شفع فيه أبوه فأفرج عنه وعاد إلى أعماله .

وفيها : توفى فى شوال عبد العزيز بن محمود بن الأخضر ، وله سبع وثمانون سنة ، وهو من فضلاء المحدثين .

---

(١) فى كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير جـ ١٢ (الركن) وهو الأقرب إلى الصواب .

ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمائة :

ذكر استيلاء الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن

قد تقدم ذكر استيلاء سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة على اليمن ، وأنه ملأها ظلمًا وجورًا ، وأنه أطرح زوجته التى ملكته ، فلما جاءت هذه السنة ، بعث الملك الكامل ابن الملك العادل ابنه الملك المسعود يوسف المعروف بأقسيس إلى اليمن ومعه جيش ، فاستولى الملك المسعود على اليمن ، وظفر بسليمان المذكور صاحب اليمن ، وبعث به معتقلًا إلى مصر ، فأجرى له الملك الكامل ما يقوم به ، ولم يزل سليمان المذكور مقيمًا بالقاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستمائة ، فخرج إلى المنصورة غازيًا فقتل شهيدًا .

وفى هذه السنة : توفى الأمير على ابن الإمام الناصر ، وَوجِدَ عليه الخليفة وَجْدًا عظيمًا ، وأكثر الشعراء من المراثى فيه .

وفى هذه السنة : تجمعت العساكر من بغداد وغيرها ، وقصدوا مَنْكِلى صاحب هَمَذَان وأصفهان والرِّىّ وما بينها من البلاد ، فانهزم وقتل فى ساوة ، وتولى موضعه أغلمش أحد المماليك البهلوانية أيضًا .

وفيها : فى شعبان ، ملك خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش مدينة غزنة وأعمالها ، وأخذها من يلدز مملوك شهاب الدين الغورى ، فهرب يلدز إلى لهاوور من الهند واستولى عليها ، ثم سار يلدز عن لهاوور واستولى على بعض بلاد الهند الداخلة تحت حكم قطب الدين أيبك خشداش يلدز المذكور ، فجرى بينه وبين عسكر قطب الدين أيبك مصاف فقتل فيه يلدز ، وكان يلدز حسن السيرة فى الرعية كثير الإحسان إليهم .

وفيها : توفى الوجيه المبارك ابن أبى الأزهر سعيد بن الدهان النحوى الضرير ، وكان فاضلًا ، قرأ على ابن الأنبارى وغيره ، وكان حنبليًا فصار حنفيًا ثم صار شافعيًا فقال فيه أبو البركات زيد التكريتى :

ألا مبلغ عنّى الوجيه رسالةً   وإنْ كان لا تُجْدى إليه الرسائلُ

تمذهبتَ للنعمان بعد ابن حَنْبَل ... وفارقْتَهُ إذ أعوزتك المآكلُ
وما اخترتَ رأىَ الشافعىّ ـ تَدَيُّنا ... ولكنّما تهوى الذى هو حاصلُ
وعمّا قليلٍ أنتَ لا شك صائرٌ ... إلى مالكٍ فافطَنْ بما أنا قائلُ

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة :

ذكر وفاة الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحب حلب

ولما كانت صبيحة يوم السبت ، وهو الخامس والعشرون من جمادى الأولى من هذه السنة ، ابتدأ بالملك الظاهر والمذكور حمى حادة ، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر ، وكتب نسخة يمين أن يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز ،ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازى ، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين ، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك ، وجعل الحكم فى الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم ، وأعذق به جميع أمور الدولة . وفى الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظاهر خضر المعروف بالمستمر كفر سودا[1] ، وأخرج من حلب فى ليلته بالتوكيل ، وأخرج علم الدين قيصر مملوك الملك الظاهر إلى حارم نائبًا .

وفى خامس عشر جمادى الآخرة ، اشتد مرض الملك الظاهر ، ومنع الناس الدخول إليه ، وتوفى فى ليلة الثلاثاء لعشرين من جمادى الآخرة ، وكان مولده بمصر فى نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة ، فكان عمره أربعًا وأربعين سنة وشهورًا ، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة ، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ، ثم أقصر عنه ، وهو الذى جمع شمل البيت الناصرى الصلاحى ، وكان ذكيًا فطنًا ، وترتب الملك العزيز فى المملكة ، ورجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم ، فدبر الأمور وأحسن السياسة ، وكان عمر الملك العزيز لما قرر فى المملكة سنتين وأشهرًا ، وعمر أخيه الملك الصالح نحو اثنتى عشرة سنة .

---

(١) أما صاحب معجم البلدان فذكر أن اسمها كفر سُوت ، بضم السين ثم واو ، وآخره تاء مثناة ، ثم قال : وهى من أعمال حلب الآن ، انظر معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٤٦٩ ط دار صادر بيروت .

وفى هذه السنة : توفى تاج الدين زيد بن الحسين بن زيد الكندى ، وكان إمامًا فى النحو واللغة ، وله الإسناد العالى فى الحديث ، وكان ذا فنون كثيرة فى أنواع العلم ، وهو بغدادى المولد والمنشأ ، وانتقل وأقام بدمشق .

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة :

والسلطان الملك العادل بالديار المصرية ، وقد اجتمعت الفرنج من داخل البحر ، ووصلوا إلى عكا فى جمع عظيم ، ولما بلغ الملك العادل ذلك ، خرج بعساكر مصر ، وسار حتى نزل نابلس ، فسارت الفرنج إليه ، ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم إلى عَقَبة أفيق ، فأغاروا على بلاد المسلمين ، ووصلت غارتهم إلى نوى من بلد السواد ، ونهبوا ما بين بيسان ونابلس ، وبنو سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين ما يفوت الحصر ، وعادوا إلى مرج عكا ، وكان وقت هذا النهب ما بين منتصف رمضان وعيد الفطر من هذه السنة ، وأقام الملك العادل بمرج الصفر ، وسارت الفرنج وحصروا حصن الطور ، وهو الذى بناه الملك العادل على ما تقدم ذكره ، ثم رحلوا عنه ، وانقضت السنة والفرنج بجموعهم فى عكا .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاد الجبل وغيرها فملكها ، فمنها ساوة وقزوين وزنجان وأبهر وهمذان وأصفهان وقم وقاشان ، ودخل أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران فى طاعة خوارزم شاه ، وخطب له ببلاده ثم عزم خوارزم شاه على المسير إلى بغداد للاستيلاء عليها ، وقدم بعض العسكر بين يديه ، وسار خوارزم شاه فى أثرهم عن همذان يومين أو ثلاثة ، فسقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله ، فهلكت دوابهم ، وخاف من حركة التتر على بلاده ، فولى على البلاد التى استولى عليها ، وعاد إلى خراسان ، وقطع خطبة الخليفة الإمام الناصر من بلاد خراسان فى سنة خمس عشرة وستمائة ، وكذلك قطعت خطبة الخليفة من بلاد ما وراء النهر ، وبقيت خوارزم وسمرقند وهراة لم يقطع الخطبة منها ، فإن أهل هذه البلاد كانوا لا يلتزمون بمثل هذا ، بل يخطبون لمن يختارون ويفعلون نحو ذلك .

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة :

والملك العادل بمرج الصفر ، وجموع الفرنج بمرج عكا ، ثم ساروا منها إلى الديار المصرية ونزلوا على دمياط ، وسار الملك الكامل ابن الملك العادل من مصر ، ونزل قبالتهم ، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر ، وأرسل الملك العادل العساكر التى عنده إلى ابنه الملك الكامل ، فوصلت إليه أولا فأولا ، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل ، أخذ فى قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط .

ذكر وفاة الملك القاهر
صاحب الموصل

فى هذه السنة : توفى الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود ابن عماد الدين زنكى بن أقسنقر صاحب الموصل ، وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الأول ، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر ، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكى ، وخلف ولدين أكبرهما اسمه أرسلان شاه ، وكان عمره حينئذ نحو عشر سنين ، فأوصى بالملك له ، وأن يقوم بتدبير مملكته بدر الدين لولو ، فنصبه بدر الدين لولو فى المملكة ، وجعل الخطبة والسكة باسمه ، وقام لولو بتدبير المملكة أحسن قيام .

ذكر قصد كِيكَاوُسْ بن كَيْخسرو
صاحب بلاد الروم حلب

ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب ، وأجلس ابنه العزيز فى المملكة وكان طفلًا ، طمع صاحب بلاد الروم كِيكَاوُس فى الاستيلاء على حلب ، فاستدعى الملك الأفضل صاحب سُمَيْساط ، واتفق معه كيكاوس أن يفتح حلب وبلادها ويسلمها للملك الأفضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التى بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكاوس ، وتحالفا على ذلك .

وسار كيكاوس إلى جهة حلب ، ومعه الملك الأفضل ، ووصلا إلى رَعْبان ، واستولى عليها كيكاوس وسلمها إلى الملك الأفضل ، فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم سار إلى تل باشرو بها ابن دلدرم ففتحها ولم يسلمها إلى الملك الأفضل ، وأخذها كيكاوس لنفسه ، فنفر خاطر الملك الأفضل ، وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك .

ووصل الملك الأشرف ابن الملك العادل إلى حلب لدفع كيكاوس عن البلاد ، ووصل إليه بها الأمير مانع بن حديثة أمير العرب فى جمع عظيم ، وكان قد سار كيكاوس إلى منبج وتسلّمها لنفسه أيضًا ، وسار الملك الأشرف بالجموع التى معه ونزل وادى بزاعا ، واتقع بعض عسكره مع مقدمة عسكر كيكاوس ، فانهزمت مقدمة عسكر كيكاوس وأخذ من عسكر كيكاوس عدة أسرى فأرسلوا إلى حلب ، ودقت البشائر لها ، ولما بلغ ذلك كيكاوس وهو بمنبج وَلّى منهزمًا مرعوبًا ، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره ، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها ، وكذلك استرجع رَعْبان وغيرها ، وتوجه الملك الأفضل إلى سُمَيْساط ، ولم يتحرك بعدها فى طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وعاد الملك الأشرف إلى حلب وقد بلغه وفاة أبيه .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب

كان الملك العادل نازلًا بمرج الصفر ، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل بالديار المصرية ، ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين ، وهى عند عقبة أفيق ، فنزل بها ومرض ، واشتد مرضه ، ثم توفى (هناك) إلى رحمة الله تعالى ، سابع جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة خمس عشرة وستمائة ، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة ، وكان عمره خمسًا وسبعين سنة ، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثًا وعشرين سنة ، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة ، وكان الملك العادل رحمه الله تعالى حازمًا متيقظًا غزير العقل سديد الآراء ذا مكر وخديعة صبورًا حليمًا ، يسمع ما يكره ويغضى عنه ، وأتته السعادة ، واتسع ملكه ، وكثرت أولاده ، ورأى فيهم ما يحب ولم ير أحدًا من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم فى أولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل فى أولاده ، ولقد أجاد شرف الدين بن عنين فى قصيدته التى مدح بها الملك العادل التى مطلعها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى   وعليهم لو سامحونى بالكرى

ومنها :

العـادل الملك الـذى أسمـاؤه ... فى كـل نـاحية تشرف منبـرا
مـا فى أبى بكر لمعتقـد الهـدى ... شـك يريب بـأنه خـير الـورى
بـين الملوك الغـابـرين وبينـه ... فى الفضل ما بين الثريا والثرى
نسجت خـلائقه الحميـدة ما أتى ... فى الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا

ومنها فى وصف أولاده :

لا تسمعن حـديث ملك غيـره ... يروى فكل الصيد فى جوف الفرا
ولـه الملوك بكـل أرض منهم ... ملك يجر إلى الأعادى عسكـرا
من كـل وضّـاح الجبـين تخـالـه ... بدرًا ، فإن شهد الوغى فغضنفرا

وخلّف الملك العادل ستة عشر ولدًا ذكرًا غير البنات ، ولما توفى الملك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضرًا ، فحضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى ، وكان بنابلس بعد وفاته ، وكتم موته ، وأخذه ميتًا فى محفة وعاد به إلى دمشق ، واحتوى الملك المعظم على جميع ما كان مع أبيه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك ، ولمّا وصل دمشق حلف جميع الناس له ، وأظهر موت أبيه وجلس للعزاء ، وكتب إلى الملوك من إخوته وغيرهم يخبرهم بموته ، وكان فى خزانة الملك العادل لما توفى سبعمائة ألف دينار عينًا .

ولما بلغ الملك الكامل موت أبيه ، وهو فى قتال الفرنج ، عظم عليه ذلك جدًّا ، واختلفت العساكر عليه ، فتأخر عن منزلته ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض أثقال المسلمين ، وكان فى العسكر عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، وكان مقدمًا عظيمًا فى الأكراد الهكارية ، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة ، وحصل فى العسكر اختلاف كثير ، حتى عزم الملك الكامل على مفارقة البلاد واللحوق باليمن ، وبلغ الملك المعظم عيسى ابن العادل ذلك ، فرحل من الشام ، ووصل إلى أخيه الملك الكامل وأخرج عماد الدين بن المشطوب ، ونفاه من العسكر إلى الشام ، فانتظم أمر السلطان الملك الكامل ، وقوى مضايقة الفرنج لدمياط وضعف أهلها بسبب ما ذكرناه من الفتنة التى حصلت فى عسكر الملك الكامل من ابن المشطوب .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود ين مودود بن عماد الدين زنكى أقسنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل

قد تقدم فى سنة سبع وستمائة ، أن أرسلان شاه عند وفاته جعل مملكة الموصل لولده القاهر مسعود ، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكى المذكور قلعتى العقر وشوش فلما مات أخوه القاهر ، وأجلس ولده أرسلان شاه بن القاهر فى المملكة ، وكان به قروح وأمراض ، تحرك عمه عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه وقصد العمارية واستولى عليها ، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوزان ، فاستنجد بدر الدين لولو المستولى على ملك الموصل وتدبير أرسلان شاه - بالملك الأشرف ابن الملك العادل ودخل فى طاعته ، فأنجده الملك الأشرف بعسكر ، وساروا إلى زنكى بن أرسلان شاه فهزموه .

وكان زنكي المذكور مزوجًا ببنت مظفر الدين كوكبورى صاحب أربل ، وأم البنت ربيعة خاتون بنت أيوب ، أخت السلطان الملك العادل زوجة مظفر الدين ، فكان مظفر الدين لا يترك ممكنًا فى نجدة صهره زنكى المذكور ، ويبالغ فى عداوة بدر الدين لولو لأجل صهره .

وفى هذه السنة : توفى على بن نصر بن هارون النحوى الحلى الملقب بالحجة ، قرأ على ابن الخشاب وغيره .

وفيها : توفى محمد ، وقيل أحمد بن محمد بن محمد العميدى ، الفقيه الحنفى السمرقندى ، الملقب ركن الدين ، كان إمامًا فى فن الخلاف خصوصًا الحسب ، وله فيه طريقة مشهورة ، وصنف الإرشاد ، واعتنى فيه بشرح طريقته جماعة ، منهم : القاضى شمس الدين أحمد بن خليل بن سعادة الشافعى الجوينى قاضى دمشق ، وبدر الدين المراغى المعروف بالطويل ، واشتغل على العميدى خلق كثير وانتفعوا به ، منهم : نظام الدين أحمد بن محمود بن أحمد الحنفى ، المعروف بالحصيرى ، ونظام الدين الحصيرى المذكور قتله التتر بنيسابور عند أول خروجهم فى سنة ست عشرة وستمائة ، ولم يقع لنا هذه النسبة ، أعنى العميدى إلى ماذا .

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة :

والملك الأشرف مقيم بظاهر حلب ، يدبر أمر جندها وإقطاعاتها ، والملك الكامل بمصر فى

مقابلة الفرنج ، وهم محدقون محاصرون لثغر دمياط ، وكُتُبُ الملك الكامل متواصلة إلى إخوته في طلب النجدة .

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

وفي هذه السنة : توفي نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر مسعود بن أرسلان شاه ابن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر ، وكان لا يزال مريضا ، فأقام بدر الدين لولو في الملك بعده أخاه ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر ، وكان عمره يومئذ نحو ثلاث سنين ، وهو آخر من خطب له من بيت أتابك بالسلطنة ، وكان أبوه القاهر آخر من كان له استقلال بالملك منهم ، ثم إن هذا الصبي مات بعد مدة ، واستقل بدر الدين لولو بالملك ، وأتته السعادة ، وطالت مدة ملكه إلى أن توفي بالموصل بعد أخذ التتر بغداد على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة صاحب سنجار

وقد تقدم ذكر ولايته في سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

وفي هذه السنة : توفي قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر صاحب سنجار ، فملك سنجار بعده ولده عماد الدين شاهنشاه بن محمد ، وكان قطب الدين حسن السيرة في رعيته ، وبقي عماد الدين شاهنشاه في الملك شهورا ، ثم وثب عليه أخوه محمود بن محمد فذبحه وملك سنجار ، وهذا محمود هو آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكي .

ذكر تخريب القدس

وفي هذه السنة : أرسل الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق الحجارين والنقابين إلى القدس ، فخرب أسواره ، وكانت قد حصنت إلى الغاية ، فانتقل منه عالم عظيم ، وكان سبب ذلك أن الملك المعظم ، لما رأى قوة الفرنج وتغلبهم على دمياط ،خشي أن يقصدوا القدس ، فلا يقدر على منعهم ، فخربه لذلك .

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

ولم تزل الفرنج يضايقون دمياط ، حتى هجموها فى هذه السنة ، عاشر رمضان ، وقتلوا وأسروا من بها ، وجعلوا الجامع كنيسة ، واشتد طمع الفرنج فى الديار المصرية ، وحين أخذت دمياط ، ابتنى الملك الكامل مدينة وسماها المنصورة عند مفترق البحرين ، الآخذ أحدهما إلى دمياط ، والآخر إلى أشمون طناخ ، ونزل فيها بعساكره .

ذكر ظهور التتر

وفى هذه السنة : كان ظهور التتر وقتلهم فى المسلمين ، ولم تُنْكَبُ المسلمون بأعظم مما نُكِبُوا فى هذه السنة ، فمن ذلك ما كان من تمكن الفرنج بملكهم دمياط وقتلهم أهلها وأسرهم ، ومنه المصيبة الكبرى وهو ظهور التتر وتملكهم فى المدينة القريبة أكثر بلاد المسلمين وسفك دمائهم وسبى حريمهم وذراريهم ، ولم تُفْجَع المسلمون مذ ظهر دين الإسلام بمثل هذه الفجيعة .

وفى هذه السنة : خرجوا على علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش ، وعبروا نهر سيحون ، ومعهم ملكهم جنكيز خان ، لعنه الله تعالى ، فاستولوا على بخارى رابع ذى الحجة من هذه السنة بالأمان ، وعصت عليهم القلعة فحاصروها وملكوها وقتلوا كل من بها ، ثم قتلوا أهل البلد عن آخرهم .

من تاريخ ظهور التتر : تأليف محمد بن أحمد بن على المنشى النسوى ، كاتب إنشاء جلال الدين قال : إن مملكة الصين مملكة متسعة ، دورها ستة أشهر ، وقد انقسمت من قديم الزمان ستة أجزاء ، كل جزء منها مسيرة شهر ، يتولى أمره خان ، وهو الملك بلغتهم نيابة عن خانهم الأعظم ، وكان خانهم الكبير الذى عاصر خوارزم شاه محمد بن تكش يقال له الطون خان ، وقد توارث الخانية كابرًا عن كابر ، بل كافرًا عن كافر ، ومن عادة خانهم الأعظم الإقامة بطوغاج ، وهى واسطة الصين ، وكان من زمرتهم فى عصر المذكور شخص يسمى دوشى خان ، وهو أحد الخانات المتولى أحد الأجزاء الستة ، وكان مُزَوَّجًا بعمة جنكيز خان اللعين ، وقبيلة جنكيز خان اللعين هى المعروفة بقبيلة التمرجى سكان البرارى ، ومشتاهم موضع يسمى أرغون ، وهم المشهورون بين التتر بالشر والغدر ، ولم تر ملوك الصين إرخاء عنانهم لطغيانهم ، فاتفق أن دوشى خان ، زوج عمة جنكيز خان مات ، فحضر جنكيز خان إلى عمته زائرًا ومعزيًا .

وكان الخانان المجاوران لعمل دوشى خان المذكور ، يقال لأحدهما كشلوخان وللآخر فلان خان ، فكانا يليان ما يتاخم عمل دوشى خان المذكور المتوفى من الجهتين ، فأرسلت امرأة دوشى خان إلى كشلى خان والخان الآخر ، تنعى إليهما زوجها دوشى خان وأنه لم يخلف ولدًا ، وأنه كان حسن الجوار لهما ، وأن ابن أخيها جنكيز خان إن أقيم مقامه يحذو حذو المتوفى فى معاضدتهما ، فأجابها الخانان المذكوران إلى ذلك ، وتولى جنكيز خان ما كان لدوشى خان المتوفى من الأمور بمعاضدة الخانين المذكورين .

فلما أنهى الأمر إلى الخان الأعظم الطون خان ،أنكر تولية جنكيز خان واستحقره وأنكر على الخانين اللذين فعلا ذلك ، فلما جرى ذلك خلعوا طاعة الطون خان ، وانضم إليهم كل من هو من عشائرهم ، ثم اقتتلوا مع الطون خان فولّى منهزمًا ، وتمكنوا من بلاده ، ثم أرسل الطون خان وطلب منهم الصلح ، وأن يبقوه على بعض البلاد ، فأجابوه إلى ذلك ، وبقى جنكيز خان والخانان الآخران مشتركين فى الأمر ، فاتفق موت الخان الواحد ، واستقل بالأمر جنكيز خان وكشلو خان ، ثم مات كشلو خان ، وقام ابنه ولقب بكشلوخان أيضًا مقامه ، فاستضعف جنكيز خان جانب كشلو خان بن كشلو خان لصغره وحداثة سنه ، وأخل بالقواعد التى كانت مقررة بينه وبين أبيه ، فانفرد كشلو خان عن جنكيز خان وفارقه لذلك ، ووقع بينهما الحرب ، فجرد جنكيز خان جيشًا مع ولده دوشى خان بن جنكيز خان ، فسار دوشى خان واقتتل مع كشلو خان ، فانتصر دوشى خان وانهزم كشلو خان ، وتبعه دوشى خان وقتله وعاد إلى جنكيز خان برأسه ، فانفرد جنكيز خان بالمملكة .

ثم إن جنكيز خان راسل خوارزم شاه محمد بن تكش فى الصلح فلم ينتظم ، فجمع جنكيز خان عساكره ، والتقى مع خوارزم شاه محمد ، فانهزم خوارزم شاه ، فاستولى جنكيز خان على بلاد ما وراء النهر ، ثم تبع خوارزم شاه محمدًا وهو هارب بين يديه حتى دخل بحر طَبَرِسْتان ، ثم استولى جنكيز خان على البلاد ، ثم كان من خوارزم شاه ومن جنكيز خان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته

فى هذه السنة : حلّف الملك المنصور صاحب حماة الناس لولده الملك المظفر محمود ، وجعله ولى عهده ، وجرّد معه عسكرًا والطواشى مرشد المنصورى نجدة إلى الملك الكامل بديار مصر

فسار إليه ، ولما وصل إلى الملك الكامل أكرمه وأنزله فى ميمنة عسكره ، وهى منزلة أبيه وجده فى الأيام الناصرية الصلاحية ، وبعد توجه الملك المظفر ماتت والدته ملكة خاتون بنت الملك العادل .

قال القاضى جمال الدين ، مؤلف « مفرج الكروب » : وحضرتُ العزاء وعمرى اثنتا عشرة سنة ، ورأيتُ الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكورة ، وهو ثوب أزرق ، وعمامة زرقاء ، وأنشدته الشعراء المراثى ، فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين خشترين ، وهو جندى كردى مطلعها :

الطرف فى لجة والقلب فى سَعَرٍ   له دخان زفير طار بالشرر

ومنها فى لبس الملك المنصور الحداد عليها :

ما كنت أعلم أن الشمس قد غربت   حتى رأيتُ الدجى ملقى على القمر

لو كان مَنْ مات يُفْدَى قبلها لفدى   أم المظفر آلاف من البشر

ذكر وفاة كيكاوس وملك أخيه كَيْقَبَاذ

فى هذه السنة : توفى الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كَيْخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ، وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة سبع وستمائة ، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه ومات ، فملك بعده أخوه كَيْقباذ بن كَيْخسرو ، وكان كيقباذ محبوسًا ، قد حبسه أخوه كيكاوس فأخرجه الجند وملكوه .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : توفى أبو البقاء عبد الله بن الحسن بن عبد الله العكبرى الضرير النحوى ، الحاسب اللغوى ، وكان حنبليًا ، صحب ابن الخشاب النحوى وغيره .

وفيها : توفى أبو الحسن على بن القاسم بن على بن الحسن الدمشقى ، الحافظ ابن الحافظ ابن الحافظ ، المعروف بابن عساكر ، وكان قد قصد خراسان ، وسمع بها الحديث . فأكثر وعاد إلى بغداد ، وكان قد وقع على القَفَل الذى هو فيه فى الطريق حرامية ، وجرحوا ابن

عساكر المذكور ، ووصل على تلك الحال إلى بغداد ، وبقى بها حتى توفى فى هذه السنة فى جمادى الأولى رحمه الله .

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة :

والفرنج متملكون على دمياط ، والسلطان الملك الكامل مستقر فى المنصورة ، مرابط للجهاد ، والملك الأشرف فى حران ، وكان الملك الأشرف قد أقطع عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب رأس عين ، فخرج على الملك الأشرف ، وجمع ابن المشطوب المذكور جمع ، وحسن لصاحب سنجار محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف أيضًا ، فخرج بدر الدين لولو من الموصل وحصر ابن المشطوب بتل أعفر ، وأخذه بالأمان ، ثم قبض عليه ، وأعلم الملك الأشرف بذلك ، فسر به غاية السرور ، واستمر عماد الدين أحمد ابن سيف الدين بن المشطوب فى الحبس .

ثم سار الملك الأشرف من حران ، واستولى على دنيسر ، وقصد سنجار ، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ، ليسلم سنجار إلى الملك الأشرف ، فأجاب الملك الأشرف إلى ذلك ، وتسلّم سنجار فى مستهل جمادى الأولى ، وسلّم إليه الرقة ، وهذا كان من سعادة الملك الأشرف ، فإن أباه الملك العادل ، نازل سنجار فى جموع عظيمة ، وطال عليها مقامه فلم يملكها ، وملكها ابنه الملك الأشرف بأهون سعى ، وبعد أن فرغ الملك الأشرف من سنجار ، سار إلى الموصل ووصل إليها فى تاسع عشر جمادى الأولى ، وكان يوم وصوله إليها يومًا مشهودًا وكتب إلى مظفر الدين صاحب أربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى على بدر الدين لولو القلاع التى استولى عليها فأعادها جميعها ، وترك فى يده منها العمادية .

واستقر الصلح بين الملك الأشرف ، وبين مظفر الدين كوكبورى صاحب أربل ، وعماد الدين زنكى بن أرسلان شاه صاحب العقروشوش والعمارية ، وكذلك استقر الصلح بينهم وبين صاحب الموصل بدر الدين لولو ، ولما استقر ذلك ، رحل الملك الأشرف عن الموصل ثانى شهر رمضان من هذه السنة ، وعاد إلى سنجار ، و سلّم بدر الدين لولو قلعة تلعفر[1] إلى الملك الأشرف ، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل ، وحطه مقيدًا فى جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمائة ، ولقى بغيه وخروجه مرة بعد أخرى .

---

(١) هكذا ذكر العنوان فى نسخة الطبعة الحسينية – أما « الكامل فى التاريخ لابن الأثير فذكر العنوان هكذا « ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب إلخ » وهو الأقرب إلى الصواب ، انظر : ج ١٢ ص ٣٤٧ .

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

وفى هذه السنة : توفى الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب صاحب حماة ، بقلعة حماة فى ذى القعدة ، وكانت مدة مرضه إحدى وعشرين يومًا بحمى حادة وورم دماغه ، وكان شجاعًا عالمًا يحب العلماء ، ورد إليه منهم جماعة كثيرة مثل الشيخ سيف الدين على الآمدى ، وكان فى خدمة الملك المنصور قريب مائتى متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك ، وصنف الملك المنصور عدة مصنفات ، مثل المضمار فى التاريخ ، وطبقات الشعراء ، وكان معتنيا بعمارة بلده والنظر فى مصالحه ، وهو الذى بنى الجسر الذى هو بظاهر حماة ، خارج باب حمص ، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد : حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم .

ولما فتح بارين ، وكانت بيد إبراهيم بن المقدم ، ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه ، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضًا عنها ، وهما خير من بارين بكثير ، اختار ذلك لقرب بارين من بلده ، وجرت له حروب مع الفرنج ، والنصر فيها ، وكان ينظم الشعر .

ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة

ولما توفى الملك المنصور ، كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بديار مصر فى مقابلة الفرنج ، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم صاحب دمشق ، وهو فى الساحل فى الجهاد ، وقد فتح قيسارية وهدمها ، وسار إلى عثليث ونازلها ، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج ، فاتفق هو والكبراء على استدعاء الملك الناصر لعلمهم بلين عريكته ، وشدة بأس الملك المظفر ، فأرسلوا إلى الملك الناصر ، وَهو مع الملك المعظم كما ذكرنا ، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مال عليه يحمله إلى الملك المعظم فى كل سنة ، قيل إن مبلغه أربعمائة ألف درهم .

فلمَّا أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه ، أطلقه الملك المعظم ، فقدم الملك الناصر إلى حماة ، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج والجماعة الذين كاتبوه ، فاستحلفوه على ما أرادوا ، وأصعدوه إلى القلعة ، ثم ركب من القلعة بالسناجق السلطانية ، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة ، لأن مولده سنة ستمائة .

ولما استقر الملك الناصر فى ملك حماة ، وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك ، استأذن الملك الكامل فى المضى إلى حماة ظنًّا منه أنه إذا وصل إليها يسلّمونها إليه ، بحكم الأيمان التى كانت له فى أعناقهم ، فأعطاه الملك الكامل الدستور ، وسار الملك المظفر حتى وصل إلى الغور ، فوجد خاله الملك المعظم صاحب دمشق هناك ، فأخبره أن أخاه الملك الناصر قد ملك حماة ، ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله ، فسار الملك المظفر إلى دمشق ، وأقام بداره المعروفة بالزنجيلى ، وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة فى تسليمها إلى الملك المظفر ، فلم يحصل منهم إجابة ، فعاد الملك إلى مصر ، وأقام فى خدمة الملك الكامل ، وأقطعه إقطاعًا بمصر إلى أن كان ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل على خِلاط وميافارقين

كان قد استقر بيد الملك المظفر المذكور الرها وسروج ، وكانت ميافارقين وخِلاط بيد الملك الأشرف ، ولم يكن للملك الأشرف ولد ، فجعل أخاه الملك المظفر غازى ولى عهده ، وأعطاه ميافارقين وخلاط وبلادها ، وهى إقليم عظيم يضاهى ديار مصر ، وأخذ الملك الأشرف منه الرهاوسروج .

وفى هذه السنة : توفى بالموصل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه ، شيخ الشيوخ بمصر والشام ، وكان فقيهًا فاضلًا من بيت كبير بخراسان ، وخلف أربعة بنين ، عرفوا بأولاد الشيخ ، تقدموا عند السلطان الملك الكامل ، وسنذكر بعض أخبارهم فى موضعها إن شاء الله تعالى ، وكان الشيخ صدر الدين المذكور قد توجه رسولًا إلى بدر الدين لولو صاحب الموصل فمات هناك .

ذكر مسير التتر إلى خوارزم شاه وانهزامه وموته

لما ملك التتر سمرقند ، أرسل جنكيز خان لعنه الله عشرين ألف فارس فى أثر خوارزم شاه محمد بن تكش ، وهذه الطائفة يسميها التتر المغاربة ، لأنها سارت نحو غرب خراسان ،

فوصلوا إلى موضع يقال له بنج آو ، وعبروا هناك نهر جيحون ، وصاروا مع خوارزم شاه فى برواحد ، فلم يشعر خوارزم شاه وعسكره إلا والتتر معه ، فتفرق عسكره وذهبوا أيدى سبأ ، ورحل خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش لا يلوى على شىء فى نفر من خواصه ، ووصل إلى نيسابور والتتر فى أثره .

فلما قربوا منه ، رحل خوارزم شاه إلى مَازَنْدَرَان والتتر فى أثره لا يلتفتون إلى شىء من البلاد ولا إلى غير ذلك ، بل قصدهم إدراك خوارزم شاه ، وسار من مَازَنْدَرَان إلى مَرْسى من بحر طَبَرِسْتان ، يعرف بالسكون ، وله هناك قلعة فى البحر ، فعبر هو وأصحابه إليها ، فوقف التتر على ساحل البحر ، وأيسوا من اللحاق بخوارزم شاه .

ولما استقر خوارزم شاه بهذه القلعة توفى فيها ، وهو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش ابن أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوشتكين غرشه ، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً ، واتسع ملكه وعظم محله ، ملك من حد العراق إلى تركستان ، وملك بلاد غزنة وبعض الهند ، وملك سجستان وكرمان وطَبَرِسْتان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس ، وكان فاضلًا عالمًا بالفقه والأصول وغيرهما ، وكان صبورًا على التعب وإدمان السير ، وسنذكر شيئاً من أخباره عند ذكر مقتل ولده جلال الدين .

ولما أيس التتر من إدراك خوارزم شاه عادوا إلى مَازَنْدَرَان ففتحوها وقتلوا أهلها ، ثم ساروا إلى الرَّى وهمذان ، ففعلوا كذلك من الفتك والسبى ، ثم ملكوا مراغة فى صفر سنة ثمان عشرة وستمائة ، ثم ساروا إلى حران واستولوا عليها ، ونازلوا خوارزم وقاتلهم أهلها مدة أشدّ قتال ثم فتحوها ، وكان لها سد فى نهر جيحون ففتحوه ، وركب خوارزم الماء فغرّقها ، وفعلوا فى هذه البلاد جميعها من قتل أهلها وسبى ذراريهم وقتل العلماء والصلحاء والزهاد والعباد وتخريب الجوامع وتحريق المصاحف ما لم يسمع بمثله فى تاريخ قبل الإسلام ولا بعده ، فإن واقعة بختنصر مع بنى إسرائيل لا تنسب إلى بعض ما فعله هؤلاء ، فإن كل واحدة من المدن التى أخربوها أعظم من القدس بكثير ، وكل أمة قتلوهم من المسلمين ، أضعاف بنى إسرائيل الذين قتلهم بختنصر .

ولما فرغ التتر من خراسان عادوا إلى ملكهم ، فجهز جيشًا كثيفًا إلى غزنة وبها جلال الدين منكبرنى بن علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور مالكًا لها ، وقد اجتمع إليه جمع كثير من عسكر أبيه ، قيل كانوا ستين ألف مقاتل ، وكان الجيش الذى سار إليهم من التتر اثنى عشر ألفًا ، فالتقوا مع جلال الدين ، واقتتلوا قتالا شديداً ، وأنزل الله نصره على المسلمين وانهزمت التتر وتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا ، ثم أرسل جنكيز خان لعنه الله عسكرًا أكثر من أول مع بعض أولاده ، ووصلوا إلى كابل ، وتصافف معهم المسلمون ، فانهزم التتر ثانياً ، وقتل المسلمون فيهم وغنموا شيئا كثيرا .

وكان فى عسكر جلال الدين أمير كبير مقدام هو الذى كسر التتر على الحقيقة ، يقال له بغراق – وقع بينه وبين أمير كبير يقال له ملك خان ، وهو صاحب هراة ، وله نسب إلى خوارزم شاه – فتنة بسبب المكسب ، قتل فيها أخو بغراق ، فغضب بغراق وفارق جلال الدين ، وسار إلى الهند ، وتبعه ثلاثون ألف فارس ، ولحقه جلال الدين منكبرنى واستعطفه فلم يرجع ، فضعف عسكر جلال الدين بسبب ذلك ، ثم وصل جنكيز خان اللعين بنفسه فى جيوشه ، وقد ضعف جلال الدين بما نقص من جيوشه بسبب بغراق ، فلم يكن له بجنكيز خان قدرة ، فترك جلال الدين البلاد وسار إلى الهند ، وتبعه جنكيز خان حتى أدركه على ماء عظيم ، وهو نهر السند ، ولم يلحق جلال الدين ومن معه أن يعبروا النهر ، فاضطروا إلى القتال ، وجرى بينهم وبين جنكيز خان قتال عظيم لم يسمع بمثله ، وصبر الفريقان ، ثم تأخر كل منهما عن صاحبه ، فعبر جلال الدين ذلك النهر إلى جهة الهند ، وعاد جنكيز خان ، فاستولى على غزنة ، وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم ، وكان قد سار من التتر فرقة عظيمة إلى جهة القفجاق واقتتلوا معهم ، فهزمهم التتر واستولوا على مدينة القفجاق العظمى وتسمى سوادق ، وكذلك فعلوا بقوم يقال لهم اللكزى ، بلادهم قرب دَرْبَنْد شروان ثم سار التتر إلى الروس ، وانضم إلى الروس القفجاق ، وجرى بينهم وبين التتر قتال عظيم ، انتصر فيه التتر عليهم ، وشردوهم قتلا وهربًا فى البلاد .

وفيها : فى شوال ، توفى رضى الدين المؤيد بن محمد بن على الطوسى الأصل النيسابورى الدار المحدث ، وكان أعلى المتأخرين إسنادًا ، سمع كتاب مسلم من الفقيه أبى عبد الله محمد بن الفضل القراوى ، وكان القراوى فاضلًا ، قرأ الأصول على إمام الحرمين ، وسمع القراوى المذكور صحيح مسلم على عبدالغافر الفارسى ، وكان عبد الغافر إمامًا فى الحديث ، صنف شرح مسلم وغيره ، وتوفى محمد بن الفضل القراوى سنة ثلاثين وخمسمائة ، وتوفى عبد الغافر فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكانت ولادة رضى الدين المؤيد المذكور فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ظنًا .

ثم دخلت سنة ثمانى عشرة وستمائة :

ذكر عود دمياط إلى المسلمين

وفى هذه السنة : قوى طمع الفرنج المتملكين دمياط فى ملك الديار المصرية . وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر ، ووصلوا إلى المنصورة ، واشتد القتال بين الفريقين برًا وبحرًا ، وكتب

السلطان الملك الكامل متواترة إلى إخوته وأهل بيته يستحثهم على إنجاده ، فسار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف ، وهو ببلاده الشرقية واستنجده ، وطلب منه المسير إلى أخيهما الملك الكامل ، فجمع الملك الأشرف عساكره ، واستصحب عسكر حلب ، وكذلك استصحب معه الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماة ، وكان الملك الناصر خائفًا من السلطان الملك الكامل أن ينتزع حماة منه ، ويسلمها إلى أخيه الملك المظفر ، فحلف الملك الأشرف للملك الناصر صاحب حماة ، أنه ما يمكن أخاه السلطان الملك الكامل من التعرض إليه فسار معه بعسكر حماة .

وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من : صاحب بعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن شاذى ، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق ، ووصلوا إلى الملك الكامل ، وهو فى قتال الفرنج على المنصورة ، فركب والتقى بأخويه ومن فى صحبتهما من الملوك وأكرمهم ، وقويت نفوس المسلمين ، وضعفت نفس الفرنج بماشاهدوه من كثرة عساكر الإسلام وتحملهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج فى الصلح ، وبذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة ، وجميع ما فتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ، ماعدا الكرك والشوبك ، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين ، فلم يرض الفرنج بذلك ، وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضًا عن تخرب أسوار القدس ، فإن الملك المعظم عيسى خربها كما تقدم ذكره وقالوا : لابد من تسليم الكرك والشوبك .

وبينا الأمر متردد فى الصلح والفرنج ممتنعون من الصلح ، إذ عبر جماعه من عسكر المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها الفرنج من بر دمياط ، ففجّروا فجوة عظيمة من النيل ، وكان ذلك فى قوة زيادته ، والفرنج لا خبرة لهم بأمر النيل فركب الماء تلك الأرض ، وصار حائلا بين الفرنج وبين دمياط ، وانقطع عنهم الميرة والمدد ، فهلكوا جوعًا ، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ليسلموا دمياط ، ويعقدوا مده للصلح ، وكان فيهم عدة ملوك كبار ، نحو عشرين ملكاً ، فاختلفت الآراء بين يدى السلطان الملك الكامل فى أمرهم ، فبعضهم قال لا نعطيهم أمانًا ونأخذهم ونتسلم بهم ما بقى بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها ، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار وتضجر العساكر ، لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور فى القتال معهم ، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل ، فبعث ابنه الملك الصالح أيوب ، وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة ، وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ، ملك عكا

ونائب البابا صاحب رومية الكبرى ، وكندريس وغيرهم من الملوك ، وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة ، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين ، وجلس لهم مجلسًا عظيمًا ، ووقف بين يديه الملوك من إخوته وأهل بيته جميعهم ، وسلمت دمياط إلى المسلمين تاسع عشر رجب من هذه السنة ، وقد حصنها الفرنج إلى غاية ما يكون ، وولاها السلطان الملك الكامل الأمير شجاع الدين جلدك التقوى ، وهو من مماليك الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب ، وهنأت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم ، ثم سار السلطان الملك الكامل ودخل دمياط ومعه إخوته وأهل بيته ، وكان يومًا مشهودًا ، ثم توجه إلى القاهرة ، وأذن للملوك فى الرجوع إلى بلادهم ، فتوجه الملك الأشرف إلى الشرق ، وانتزع الرقة من محمود ، وقيل اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى ابن أقسنقر ، ولقى بغيه على أخيه ، فإنا ذكرنا كيف وثب على أخيه وقتله وأخذ سنجار ، ثم أقام الملك الأشرف بالرقة ، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة فأقام عنده مدة ، ثم عاد إلى بلده .

ذكر وفاة صاحب آمد

وفى هذه السنة : توفى الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود ابن سقمان بن أرتق ، صاحب آمد وحصن كيفا بالقولونج ، وقام فى الملك بعده ولده الملك المسعود ، وهو الذى انتزع منه الملك الكامل آمد ، وكان الملك الصالح المذكور قبيح السيرة ، وقد أورد ابن الأثير وفاته فى سنة تسع عشرة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، خُنِقَ قتادةُ بن إدريس العلوى الحسنى أمير مكة وعمره نحو تسعين سنة ، وكانت ولايته قد اتسعت إلى نواحى اليمن ، وكان حسن السيرة فى مبتدأ أمره ، ثم أساء السيرة وجدد المظالم والمكوس ، وصورة ما جرى له – أن قتادة كان مريضًا فأرسل عسكرًا مع أخيه ، ومع ابنه الحسن بن قتادة للاستيلاء على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذها من صاحبها ، فوثب الحسن بن قتادة فى أثناء الطريق على عمه فقتله ، وعاد إلى أبيه قتادة بمكة فخنقه ، وكان له أخ نائبا بقلعة ينبع عن أبيه ، فأرسل إليه الحسن فحضر إلى مكة فقتله أيضاً ، وارتكب الحسن أمرًا عظيماً ، قتل عمه وأباه وأخاه فى أيام يسيرة ،

واستقر فى ملك مكة ، وقيل : إن قتادة كان يقول الشعر ، وطولب أن يحضر إلى أمير الحج العراقى فامتنع وعوتب من بغداد ، فأجاب بأبيات منها :

وليِ كف ضِرغام أصول ببطشِها وأشرى بها بين الوَرَى وأبيعُ
تظلُّ ملوكُ الأرض تلثَمُ ظَهرَها وفى بَطْنها للمُجدبِينَ ربيعُ
أأجعلُها تحتَ الرِّحا ثم أبتغى خَلاصًا لها ؟ إنى إذاً لرقيعُ
وما أنا إلا المِسْكُ فى كلّ بَلدةٍ يَضوعُ ، وأمّا عندكم فيضيع

وفيها : توفى جلال الدين الحسن ، صاحب الألموت ومقدم الإسماعيلية ، وولى بعده ابنه علاء الدين محمد .

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة :

فى هذه السنة : استقل بدر الدين لولو بملك الموصل ، وتوفى الطفل الذى كان قد نصبه فى المملكة ، وهو ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن أقسنقر ، وسمى لولو نفسه الملك الرحيم ، وكان قد اعتضد بالملك الأشرف ابن الملك العادل ، فدافع عنه ونصره ، وقلع لولو البيت الأتابكى بالكلية ، واستمر مالكًا للموصل نيفًا وأربعين سنة ، سوى ما تقدم له من الاستيلاء والتحكم فى أيام أستاذه نور الدين أرسلان شاه ، وابنه الملك القاهر مسعود .

وفى هذه السنة : سار الملك الأشرف إلى خدمة أخيه الملك الكامل ، وأقام عنده بمصر متنزهاً إلى أن خرجت هذه السنة .

وفى هذه السنة : فوض الأتابك طغريل الخادم مدبر مملكة حلب إلى الملك الصالح أحمد بن الظاهر أمر الشغر وبكاس ، فسار الملك الصالح من حلب واستولى عليها ، وأضاف إليه الروج ومعرة ومصرين .

وفى هذه السنة : قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة ، لأن الملك الناصر صاحب حماة ، كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماة ، فلم يف له ، فقصد الملك المعظم حماة ، ونزل بقبرين ، وغلقت أبواب حماة ، فقصدها الملك المعظم وجرى بينهم قتال قليل ، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سَلَمْية ، فاستولى على حواصلها وولّى عليها ، ثم توجه إلى المعرة ، فاستولى عليها ، وأقام فيها واليًا من جهته ، وقرر أمورًا ، ثم عاد إلى سَلَمية فأقام بها حتى خرجت هذه السنة على قصد منازلة حماة .

وفى هذه السنة : حج من اليمن الملك المسعود يوسف ، الملقب أطسز وهو اسم تركى ،

والعامة تسميه أقسليس ، وكان قد استولى على اليمن سنة اثنتى عشرة وستمائة وقبض على سليمان شاه بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وحج فى هذه السنة ، فلما وقف الملك المسعود فى هذه السنة بعرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمام الناصر ، لترفع على الجبل ، تقدم الملك المسعود بعساكره ومنع من ذلك ، وأمر بتقديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة ، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه من ذلك ، ثم عاد الملك المسعود إلى اليمن ، وبلغ ذلك الخليفة فعظم عليه وأرسل يشكو إلى الملك الكامل فاعتذر عن ذلك فقبل عُذره ، وأقام الملك المسعود فى اليمن مدة يسيرة ، ثم عاد إلى مكة ليستولى عليها ، فقابله الحسن بن قتادة واستقرت مكة فى ملك الملك المسعود وولى عليها ، وذلك فى ربيع الأول من سنة عشرين وستمائة ثم عاد إلى اليمن .

وفيها : توفى الشيخ يونس بن يوسف بن مساعد شيخ الفقراء المعروفة باليونسية ، وكان رجلاً صالحاً وله كرامات ، وكانت وفاته بقرية القنية من أعمال دارا وقد ناهز تسعين سنة ، وقبره مشهور هناك .

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة :

والأشرف بديار مصر عند أخيه الملك الكامل ، وأخوهما الملك المعظم بسَلَمْيَةَ مستول عليها وعلى المعرة عازم على حصار حماة ، وبلغ الملك الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة ، فعظم عليه ذلك واتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على الملك المعظم وترحيله ، فأرسل إليه الملك الكامل ناصح الدين الفارسى ، فوصل إلى الملك المعظم وهو بسَلَمْيَة وقال له السلطان يأمرك بالرحيل ، فقال : السمع والطاعة . وكانت أطماعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فرحل مغضبًا على أخويه الكامل والأشرف ، ورجعت المعرة وسَلَمْيَة للناصر ، وكان الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب مقيما عند الملك الكامل بالديار المصرية كما تقدم ذكره ، وكان الملك الكامل يؤثر تمليكه حماة ، لكن الملك الأشرف غير مجيب إلى ذلك لانتماء الملك الناصر صاحب حماة إليه ، وجرى بين الكامل والأشرف فى ذلك مراجعات كثيرة ، آخرها أنهما اتفقا على نزع سَلَمْية من يد الناصر قليج أرسلان وتسليمها إلى أخيه الملك المظفر ، فتسلمها الملك المظفر وأرسل إليها وهو بمصر نائبًا من جهته حسام الدين أبا على بن محمد بن على الهذبانى ، واستقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة وبعرين ، ثم سار الأشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب وعمره يومئذ عشر سنين ، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب وأركب الملك العزيز فى دست السلطنة .

وفى هذه السنة : لما وصل الملك الأشرف بالخلعة المذكورة إلى حلب اتفق مع الملك لأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية ، فأرسلوا عسكرًا وهدموها إلى لأرض .

ذكر أحوال غياث الدين أخى جلال الدين ابنى خوارزم شاه محمد

كان لجلال الدين منكبرنى أخ يقال له غياث تيز شاه ، وكان قد ملك غياث الدين المذكور كرمان ، لما توجه جلال الدين منكبرنى إلى الهند كما تقدم ذكره فى سنة سبع عشرة ، تغلب غياث الدين على الرى وأصفهان وهمذان وغير ذلك من عراق العجم ، وهى البلاد المعروفة ببلاد الجبل ، فخرج على غياث الدين خاله يعيان طابسى وكان أكبر أمرائه وأقربهم إليه ، فاقتتل مع غياث الدين فانهزم يعيان طابسى ومن معه ، وأقام غياث الدين فى بلاده مؤيدا منصورا .

ذكر حادثة غريبة

كان أهل مملكة الكرج قد مات ملكهم ، ولم يبق من بيت الملك غير امرأة فملكوها وطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك ويكون من أهل بيت المملكة فلم يجدوا فيهم أحدًا يصلح لذلك ، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقى من بيت كبير مشهور فأرسل يخطب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصر ، فأمر ولده فتنصر ، وسار إلى الكرج وتزوج ملكتهم ، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكًا لها ويعلم ابن طغريل شاه بذلك وتكامن فدخل يوما إلى البيت فوجد المملوك نائما معها فى الفراش ، فلم يصبر المذكور على ذلك فأنكر عليها فأخذته زوجته واعتقلته فى بعض القلاع ، ثم أحضرت رجلين كانا قد وُصِفَا لها بحسن الصورة ، فتزوجت أحدهما ثم فارقته ، وأحضرت إنسانًا من كنجة مسلما وهوته وسألته أن يتنصر لتتزوج به فلم يجب إلى ذلك ، وترددت الرسل بينهما فى ذلك مدة فلم يجبها إلى التنصر .

ذكر وفاة ملك الغرب

فى هذه السنة : توفى يوسف المستنصر ملك الغرب ابن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة عشر وستمائة ، وكان يوسف المذكور منهمكا فى اللذات ، فدخل الوهن على الدولة بسبب ذلك ، ولم يخلف يوسف المذكور ولدًا ، فاجتمع كبراء الدولة وأقاموا عم أبيه لكبر سنة ، وهو عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ولقبوه المستضىء وكان عبد الواحد المذكور قد صار فقيرًا بمراكش وقاسى الدهر . فلما تولى اشتغل باللذات والتنعم فى المآكل والملابس من غير أن يشرب خمرًا ، ثم خلع عبد الواحد المذكور بعد تسعة أشهر من ولايته وقتل ، وملك بعده ابن أخيه عبد الله وتلقب بالعادل وهو عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة :

فى هذه السنة : وصل التتر إلى قرب تبريز ، وأرسلوا إلى صاحبها أزبك بن البهلوان يقولون له : إن كنت فى طاعتنا ، فأرسل من عندك من الخوارزمية إلينا ، فأوقع أزبك بمن عنده من الخوارزمية وقتل بعضهم وأسر الباقين وأرسلهم إلى التتر مع تقدمة عظيمة فكفوا عن بلاد أزبك وعادوا إلى بلاد خراسان .

وفيها : استولى غياث الدين تيز شاه أخو جلال الدين بن خوارزم شاه على غالب مملكة فارس ، وكان صاحب فارس يقال له الأتابك سعد بن دكلا ، وأقام غياث الدين بشيراز وهى كرسى مملكة فارس ، ولم يبق مع الأتابك سعد من فارس غير الحصون المنيعة ، ثم اصطلح غياث الدين مع الأتابك سعد على أن يكون لسعد بعض بلاد فارس ولغياث الدين الباقى .

ذكر عصيان المظفر غازى بن العادل على أخيه الملك الأشرف

كان الملك الأشرف قد أنعم على أخيه الملك المظفر غازى بخِلَاط ، وهى مملكة عظيمة وهى إقليم أرمينية ، وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة كما قدمنا ذكره ، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازى صاحب خِلَاط العصيان على أخيه الملك الأشرف ، فأجاب الملك المظفر إلى ذلك ،

وخالف أخاه الملك الأشرف ، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازى صاحب أربل مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كجك ، وكان بدر الدين لولو منتميًا إلى الملك الأشرف ، فسار مظفر الدين صاحب أربل وحصر الموصل عشرة أيام ، وكان نزوله على الموصل ثالث عشر جمادى الآخرة من هذه السنة ليشغل الملك الأشرف عن قصد أخيه بخلاط ، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها ، فلم يلتفت الملك الأشرف إلى محاصرة الموصل ، وسار إلى خِلَاط وحصر أخاه شهاب الدين غازى فسلمت إليه مدينة خِلَاط ، وانحسر أخوه غازى بقلعتها إلى الليل فنزل من القلعة إلى أخيه الملك الأشرف ، واعتذر إليه فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقى البلاد منه ، وكان استيلاء الملك الأشرف على خِلَاط وأخذها من أخيه فى جمادى الآخرة من هذه السنة .

ثم دخلت سنة أثنتين وعشرين وستمائة :

ذكر وصول جلال الدين من الهند إلى البلاد

قد تقدم فى سنة سبع عشرة وستمائة ذكر هروب جلال الدين من غزنة لما قصده جنكزخان ، وأنه دخل بلاد الهند ، فلما كانت هذه السنة قدم مَن الهند إلى كرمان ثم إلى أصفهان واستولى عليها وعلى باقى عراق العجم ، ثم سار إلى فارس وانتزعها من أخيه غياث الدين تيز شاه بن محمد . وأعادها إلى صاحبها أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس ، وصار أتابك سعد المذكور وغياث الدين تيزِ شاه أخو جلال الدين تحت حكم جلال الدين وفى طاعته ، ثم استولى جلال الدين على خورِسْتان وكاتب الخليفة الإمام الناصر ، ثم سار جلال الدين حتى قارب بغداد ووصل إلى يعقوبا ، وخاف أهل بغداد منه واستعدوا للحصار ، ونهبت الخوارزمية البلاد ، وامتلأت أيديهم من الغنائم وقوى أمر جلال الدين وجميع عسكره الخوارزمية ، ثم سار إلى قريب أربل فصالحه صاحبها مظفر الدين ودخل فى طاعته ، ثم سار جلال الدين إلى أذربيجان وكرسى مملكتها تبريز فاستولى على تبريز وهرب صاحب أذربيجان وهو مظفر الدين أزبك بن البهلوان بن الدّكز ، وكان أزبك المذكور قد قوى أمره لما قتل طغربل آخر الملوك السلجوقية ببلاد العجم ، فاستقل أزبك المذكور فى المملكة ، وكان أزبك المذكور لايزال مشغولا بشرب الخمر وليس له التفات إلى تدبير المملكة ، فلما استولى جلال الدين على تبريز هرب أزبك إلى كنجة وهى من بلاد أران قرب بردعه ومتاخمة لبلاد الكرج ، واستقل السلطان جلال الدين بملك أذربيجان وكثرت عساكره واستفحل أمره ، ثم جرى بين

جلال الدين وبين الكرج قتال شديد انهزم فيه الكرج وتبعهم الخوارزمية يقتلونهم كيف شاءُوا واتفق أنه ثبت على قاضى تبريز وقوع الطلاق من أزبك بن البهلوان بن الدكز على زوجته بنت السلطان طغريل آخر الملوك السلجوقية المقدم ذكره ، فتزوج جلال الدين ببنت طغريل المذكور ، وأرسل جيشا إلى مدينة كنجة ففتحوها ، فهرب مظفر الدين أزبك بن محمد البهلوان من كنجة إلى قلعة هناك ، ثم هلك وتلاشى أمره .

ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين يوسف

فى هذه السنة : توفى الملك الأفضل المذكور وليس بيده غير سُمَيْسَاط فقط ، وكان موته فجأة ، وعمره سبع وخمسون سنة ، وكان الملك الأفضل فاضلا حسن السيرة ، وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة ، وكان مع ذلك قليل الحظ ، وله الأشعار الحسنة ، فمنها يعرض إلى سوء حظه قوله :

يا من يسود شعره بخضابه لعساه من أهل الشبيبة يحصل
هاقَاخْتَضِبْ بسواد حظّى مرة ولك الأمان بأنه لا يتصل

ولمّا أخذت منه دمشق كتب إلى بعض أصحابه كتابًا منه ، أما أصحابنا بدمشق فلا علم لى بأحد منهم وسبب ذلك :

أى صديق سألت عنه ففى الذلّ وتحت الخمول فى الوطن
وأى ضد سألت حالته سمعت ما لا تحبه أذنى

ذكر وفاة الإمام الناصر

وفى أول شوال من هذه السنة : توفى الخليفة الناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافته نحو سبع وأربعين سنة ، وعمى فى آخر عمره ، وكان موته بالدوسنطاريا ، وهو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء حسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدى عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير إسحق ابن المقتدر جعفر ابن المكتفى على ابن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق ، قيل اسمه طلحة ، وقيل محمد ابن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد ابن الرشيد هرون ابن

المهدى محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان عمر الإمام الناصر نحو سبعين سنة ، وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالمًا لهم ، خرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وكان يتشيع وكان منصرف الهمة إلى رمى البندق والطيور المناسيب ويلبس سراويلات الفتوة ، ومنع رمى البندق إلا من ينسب إليه فأجابه الناس إلى ذلك إلا إنسانًا واحدًا يقال له ابن السفت ، وهرب من بغداد إلى الشام وقد نسب الإمام الناصر أنه هوالذى كاتب التتر وأطمعهم فى البلاد بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق .

ذكر خلافة ابنه الظاهر

ولما توفى الامام الناصر بويع ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد فأظهر العدل وأزال الكوس وأخرج المحبوسين وظهر للناس ، وكان الناصر ومن قبله لا يظهرون إلا نادراً ولم تطل مدته فى الخلافة غير تسعة أشهر .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة :

فيها : سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق ونازل حمص ، وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ومع مظفر الدين صاحب أربل على أن يكونوا يدًا واحدة ، وكان الملك الأشرف ببلاده الشرقية ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق بسبب كثرة مامات من خيله وخيل عسكره ، وورد عليه أخوه الملك الأشرف طلبًا للصلح وقطعا للفتن ، فبقى مكرمًا ظاهرًا وهو فى الباطن كالأسير معه ، وأقام الملك الأشرف عند أخيه المعظم إلى أن انقضت هذه السنة ، وأما الملك الكامل فإنه كان بمصر وقد تخيل من بعض عسكره فما أمكنه الخروج عنها .

وفى هذه السنة : فتح السلطان جلال الدين تفليس من الكرج وهى من المدن العظام .

وفى هذه السنة : سار جلال الدين ونازل خِلَاط وهى منازلته الأولى فطال القتال بينهم ، وكان نائب الأشرف بخلّاط الحاجب حسام الدين على الموصلى ، وكان نزوله عليها ثالث عشر ذى القعدة ، ورحل عنها لسبع بقين من ذى الحجة من هذه السنة بسبب كثرة الثلوج .

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

وفى رابع عشر رجب من هذه السنة : توفى الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله ، وكان متواضعًا محسنًا إلى الرعية جدًا ، وأبطل عدة مظالم منها أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى يتعامل بها الناس ، وكان زيادة الصنجة فى كل دينار حبة، فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك وأوله ﴿ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾[1] وعمل صنجة المخزن مثل صنجة المسلمين ، وكان مضادًا لأبيه الناصر فى كثير من أحواله منها : أن مدة خلافة أبيه كانت طويلة ومدة خلافته كانت قصيرة ، وكان أبوه متشيعًا وكان الظاهر سنيا ، وكان أبوه ظالمًا جماعا للمال ، وكان الظاهر فى غاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء .

ذكر خلافة المستنصر
وهو سادس ثلاثينهم

ولما توفى الظاهر ولى الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاجى فى غاية الشجاعة وبقى حيا حتى أخذت التتر بغداد ، وقتل مع من قتل ، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك فى العدل والإحسان مسلك أبيه الظاهر .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود الأرتكى صاحب آمد ، فنزل كيقباذ بملَطية ، وهى من بلاد كيقباذ وأرسل عسكرًا ففتحوا حصن منصور وحصن الكختا وكانا لصاحب آمد المذكور .

وفيها : فى خامس عشر ذى الحجة نازل جلال الدين مدينة خِلَاط ، وهى للملك الأشرف

---

(١) سورة المطففين الآيات ١ - ٣ .

ويها نائبة حسام الدين على الحاجب وهى منازلته الثانية ، وجرى بينهم قتال شديد وأدركه البرد فرحل عنها فى السنة المذكورة .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة :

والملك الكامل بديار مصر وجلال الدين خوارزم شاه مالك أذربيجان وأران وبعض بلاد الكرج وعراق العجم وغيرها ، وهو موافق الملك المعظم على حرب أخويه الكامل والأشرف ، والرسل لا تنقطع بين المعظم وجلال الدين والملك الأشرف مقيم كالأسير عند أخيه الملك المعظم ، ولما رأى الملك الأشرف حاله مع أخيه المعظم ، وأنه لا خلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد إجابة كالمكره إلى ماطلبه منه ، وحلف له أن يعاضده ويكون معه على أخيهما الملك الكامل ، وأن يكون معه على صاحبى حماة وحمص ، فلما حلف له على ذلك أطلقه الملك المعظم فرحل الملك الأشرف فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، فكانت مدة مقامه مع المعظم نحو عشرة أشهر ، ولما استقر الملك الأشرف ببلاده رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه الملك المعظم وتأول فى أيمانه التى حلفها أنه مكره ، ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد أخيه الملك المعظم بجلال الدين خاف من ذلك وكاتب الإمبراطور ملك الفرنج فى أن يقدم إلى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه ، ووعد الإمبراطور بأن يعطية القدس ، فسار الإمبراطور إلى عكا فبلغ المعظم ذلك ، فكاتب أخاه الأشرف واستعطفه .

وفى هذه السنة : انتزع الأتابك طغريل الشعر وبكاس من الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر وعوضه عنها بعينتاب والراوندان .

وفيها : سار الحاجب حسام الدين على نائب الملك الأشرف بِخِلَاط بعساكر الملك الأشرف إلى بلاد جلال الدين واستولى على خوى وسَلْمَاس ونقجوان .

ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق

فى هذه السنة : فى ذى القعدة ، توفى الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بقلعة دمشق بالدوسنطاريا ، وعمره تسع وأربعون سنة ، وكانت مدةملكه دمشق تسع سنين وشهوراً ، وكان شجاعًا وكان عسكره فى غاية التجمل ، وكان يجامل أخاه الملك الكامل ويخطب له ببلاده ولا يذكر اسمه معه ، وكان الملك المعظم قليل التكلف جدًا فى غالب الأوقات لا يركب بالسناجق السلطانية ، وكان يركب وعلى رأسه كلوته صفر أبلاشاش ، ويتنحرق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه ، كما جرت عادة الملوك ، ولما كثر مثل هذا منه صار

الإنسان إذا فعل أمراً لا يتكلف له يقال قد فعله بالمعظمى ، وكان عالمًا فاضلاً فى الفقه والنحو ، وكان شيخه فى النحو تاج الدين زيد بن الحسن الكندى ، وفى الفقه جمال الدين الحصيرى وكان حنفيًا متعصبًا لمذهبه ، وخالف جميع أهل بيته فإنهم كانوا شافعية .

ولما توفى الملك المعظم ترتب فى مملكته وأعمالها بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود وقام بتدبير مملكته مملوك والده واستاذ داره الأمير عز الدين أيبك المعظمى ، وكان لأيبك المذكور صرخد .

ذكر وفاة ملك المغرب وأخبار الذين تملكوا بعده

وفى هذه السنة : خلع العادل عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن وقد تقدم ذكر ولايته فى سنة عشرين وستمائة بعد خلع عبد الواحد وقتله ، وفى أيام العادل عبد الله المذكور ، كانت الوقعة بين المسلمين والفرنج بالأندلس على طليطلة انهزمت فيها المسلمون هزيمة قبيحة ، وهذه الوقعة هى التى هدت دعائم الإسلام بالأندلس ، ولما خلع عبد الله العادل المذكور حبس ثم خنق ونهب المصموديون قصره بمراكش واستباحوا حرمه .

ثم ملك بعده يحيى بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، ويحيى يومئذ ماخط عذاره ، ولما تمت بيعة يحيى وصل الخبر أنه قد قام بأشبيلية إدريس بن يعقوب المنصور وهو أخو العادل عبدالله ، وتلقب إدريس بالمأمون ، وجميعهم كانوا يتلقبون بأمير المؤمنين ، وتعقد البيعة لهم بالخلافة ، ولما استقر أمر إدريس المأمون المذكور فى أشبيلية ، ثارت جماعة من أهل مراكش وانضم إليهم العرب ، ووثبوا على يحيى بن محمد الناصر بمراكش فهرب يحيى إلى الجبل ، ثم اتصل بعرب المعقل فغدروا به وقتلوه ، وخطب للمأمون إدريس فى مراكش واستقر أمره فى الخلافة بالبرين بر الأندلس وبر العدوة ، ثم خرج على المأمون إدريس المذكور بشرقى الأندلس المتوكل بن هود ، واستولى على الأندلس ، ففارق إدريس الأندلس وسار من أشبيلية وعبر البحر ووصل إلى مراكش ، وخرجت الأندلس حينئذ عن ملك بنى عبد المؤمن . ولما استقر المأمون إدريس فى ملك مراكش تتبع الخارجين على من تقدمه من الخلفاء فقتلهم عن آخرهم وسفك دماء كثيرة حتى سموه لذلك حجاج المغرب ، وكان المأمون إدريس المذكور فصيحًا عالمًا بالأصول والفروع ناظمًا ناثراً ، أمر بإسقاط اسم مهديهم ابن تومرت من الخطبة على المنابر ، وعمل فى ذلك رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيب مهديهم المذكور وضلالة ، ثم ثار على إدريس المذكور أخوه بسبتة فسار إدريس من مراكش إليه

وحصره بسبتة ، ثم بلغ إدريس وهو محاصر سبتة أن بعض أولاد محمد الناصر بن يعقوب المنصور قد دخل إلى مراكش فرحل إدريس عن سبتة ، وسار إلى مراكش فمات فى الطريق بين سبتة ومراكش .

ولما مات المأمون إدريس ملك بعده ابنه عبد الواحد بن المأمون إدريس وتلقب المذكور بالرشيد ، ثم توفى الرشيد عبد الواحد بن المأمون إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن غريقًا فى صهريج بستان له بحضرة مراكش فى سنة أربعين وستمائة ، وكان الرشيد عبد الواحد المذكور حسن السياسة ، وكان أبوه إدريس قد أبطل اسم مهديهم من الخطبة فأعاده عبد الواحد المذكور ، وقمع العرب إلا أنه تخلى للذاته لما استقر أمره ، ولم يخطب للرشيد عبد الواحد المذكور بأفريقية ولا بالغرب الأوسط ، ولما مات الرشيد عبد الواحد المذكور ملك بعده أخوه على بن إدريس وتلقب بالمعتضد أمير المؤمنين ، وكان أسود اللون كان مدحوضًا فى حياة والده وسجنه فى بعض الأوقات ، وقدم عليه أخاه الصغير عبد الواحد المذكور ، واستمر المعتضد على بن إدريس المذكور حتى قتل وهو محاصر قلعة بالقرب من تلمسان فى صفر من سنة ست وأربعين وستمائة ، ثم ملك بعد المعتضد الأسود المذكور أبو حفص عمر بن أبى إبراهيم بن يوسف فى شهر ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وستمائة وتلقب بالمرتضى .

وفى الحادى والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة دخل الواثق أبو العلاء إدريس المعروف بأبى دبوس مراكش ، وهرب المرتضى إلى أزمور من نواحى مراكش فقبض عليه عامله بها ، وبعث إلى الواثق بذلك فأمره الواثق بقتله فقتله فى العشر الأخير من شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين وستمائة بموضع يقال له كتامة بُعده عن مراكش ثلاثة أيام ، وأقام الواثق أبو دبوس ثلاث سنين وقتل فى الحروب التى كانت بينه وبين بنى مرين ملوك تلمسان ، وانقرضت دولة بنى عبد المؤمن ، وكان قتل الواثق أبى دبوس المذكور فى المحرم سنة ثمان وستين وستمائة بموضع بينه وبين مراكش مسيرة ثلاثة أيام فى جهتها الشمالية ، واستولى بنو مرين على ملكهم ، وقد حصل الاختلاف فى نسب أبى دبوس فإنى وجدت فى بعض الكتب المؤلفة فى هذا الفن أن أبا دبوس هو ابن إدريس المأمون ، ثم وجدت نسبه فى وفيات الأعيان أنه هو نفسه اسمه إدريس بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة :

فى هذه السنة : أرسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من ابن أخيه الملك الناصر داود

ابن الملك المعظم صاحب دمشق حصن الشوبك ، فلم يعطه الملك الناصر ذلك ولا أجابه إليه ، فسار الملك الكامل من مصر فى هذه السنة فى رمضان إلى الشام ونزل على تل العجول بظاهر غزة ، وولى على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه الملك الناصر داود المذكور صاحب دمشق حينئذ ، وكان صحبة الملك الكامل الملك المظفر محمود بن السلطان الملك المنصور صاحب حماة ، وهو موعود من الملك الكامل أنه ينتزع حماة من أخيه الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور ويسلمها إليه . .

ولما قصد الملك الكامل انتزاع بلاد الملك الناصر ابن المعظم صاحب دمشق ، استنجد الناصر داود بعمه الملك الأشرف ، وأرسل إليه وهو ببلاده الشرقية ، فقدم الملك الأشرف إلى دمشق ودخل هو والناصر داود إلى قلعة دمشق راكبين .

قال القاضى جمال الدين بن واصل : كنت إذ ذاك حاضرًا بدمشق ورأيت الملك الأشرف راكبًا مع ابن أخيه وعلى رأس الملك الأشرف شاش علم كبير ووسطه مشدود بمنديل ، وكان وصول الأشرف إلى دمشق فى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، ووصل إلى خدمته بدمشق الملك المجاهد شيركوه ، فإنه كان من المنتمين إلى الملك الأشرف ، ثم وقع الاتفاق أن يسير الناصر داود وشيركوه مع الملك الأشرف إلى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس ، ويتوجه الملك الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزنة شافعًا فى ابن أخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك ، ولما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما فى الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود وتعويضه عنها بحران والرها والرقة من بلاد الملك الأشرف ، وأن تستقر دمشق للملك الأشرف ويكون له إلى عقبة أفيق ، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل ، وأن ينتزع حماة من الملك الناصر قليج أرسلان ، ويعطى الملك المظفر محمود بن الملك المنصور ، وأن ينتزع سَلَمْيَة من المظفر محمود ، وكانت إقطاعه لما كان مقيما بمصر عند الملك الكامل ، ويعطى لشيركوه صاحب حمص وخرجت السنة والأشرف عند أخيه الكامل بظاهر غزة وقد اتفقا على ذلك .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : عاود التتر إلى قصد البلاد التى بيد جلال الدين بن خوارزم شاه ، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة كان فى أكثرها الظفر .

وفيها : قدم الإمبراطور إلى عكا بجموعه ، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم ، فوصل الإمبراطور وقد مات المعظم

فنشب به الملك الكامل . ولما وصل الإمبراطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج ، وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولى عليها الإمبراطور معناه ملك الأمراء بالفرنجية ، وإنما اسم الإمبراطور المذكور فرديك وكان صاحب جزيرة صقلية ومن البر الطويل بلاد أنبولية والأنبردية .

قال القاضى جمال الدين بن واصل : لقد رأيت تلك البلاد لما توجهت رسولاً من الملك الظاهر بيبرس الصالحى إلى الإمبراطور ملك تلك البلاد ، قال : وكان الإمبراطور من بين ملوك الفرنج فاضلاً محبًا للحكمة والمنطق والطب مائلا إلى المسلمين ، لأن منشأه بجزيرة صقلية وغالب أهلها مسلمون ، وترددت الرسل بين الملك الكامل وبين الإمبراطور إلى أن خرجت هذه السنة .

وفى هذه السنة : بعد فراغ جلال الدين من التتر قصد جلال الدين المذكور بلاد خلاط ونهب القرى وقتل وخرب البلاد وفعل الأفعال القبيحة .

وفيها : خاف غياث الدين تيزشاه من أخيه جلال الدين ففارقه واستجار بالإسماعيلية .

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة :

ولما جرى بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف الاتفاق على نزع دمشق من الناصر داود ، وبلغ الناصر داود ذلك وهو بنابلس فرحل إلى دمشق ، وكان قد لحقه بالغور عمه الملك الأشرف وعرفه ما أمر به عمه الملك الكامل ، وأنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر داود إلى ذلك وسار إلى دمشق وسار الأشرف فى أثره وحصره بدمشق والملك الكامل مشتغل بمراسله الإمبراطور .

ولما طال الأمر ولم يجد الملك الكامل بدًا من المهادنة أجاب الإمبراطور إلى تسليم القدس إليه على أن تستمر أسواره خرابا ولا يعمرها الفرنج ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى ويكون الحكم فى الرساتيق إلى وإلى المسلمين ، ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ، ووقع الاتفاق على ذلك وتحالفا عليه وتسلم الإمبراطور القدس فى هذه السنة فى ربيع الآخر على هذه القاعدة التى ذكرناها ، وكان ذلك والملك الناصر محصور بدمشق وعمه الأشرف محاصره بأمر الملك الكامل ، فأخذ الناصر داود فى التشنيع على عمه بذلك ، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبى الفرج ابن الجوزى وكان واعظا وله قبول عند الناس فأمره الناصر داود يعمل مجلس وعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس وما حل بالمسلمين من تسليمه إلى الفرنج ففعل ذلك وكان مجلسا عظيما ، ومن جملة ما أنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعى وهو :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنـزل وحى مقفر العـرصات

فارتفع بكاء الناس وضجيجهم .

ذكر انتزاع دمشق

ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الإمبراطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق ووصل إليها فى جمادى الأولى من هذه السنة ، واشتد الحصار على دمشق ووصل إلى الملك الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب وخطب بنت الملك الكامل فزوجه بنته فاطمة خاتون التى هى من الست السوداء أم ولده أبى بكر العادل بن الكامل ، ثم استولى الملك الكامل على دمشق وعوض الناصر داود عنها بالكرك والبلقاء والصلت والأغوار والشوبك ، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التى كانت عينت للناصر وهى حران والرها وغيرهما التى كانت بيد الملك الأشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل فى قبولها فقبلها وتسلم دمشق الملك الأشرف وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة .

ذكر وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ابن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب

فى هذة السنة : توفى الملك المسعود يوسف الملقب أطز المعروف بأقسيس ، وكان قد مرض باليمن فكره المقام بها وعزم على مفارقة اليمن وسار إلى مكة وهى له كما تقدم ذكره ، فتوفى بمكة ودفن بالمعلى وعمره ست وعشرون سنة ، وكانت مدة ملكه اليمن أربع عشره سنة ، وكان الملك المسعود لما سار من اليمن قد استخلف على اليمن على بن رسول ، وسنذكر بقية أخباره إن شاء الله تعالى .

ووصل الخبر بوفاة الملك المسعود إلى أبيه الملك الكامل وهو على حصار دمشق فجلس للعزاء ، وخلف الملك المسعود ولدًا صغيرًا اسمه أيضًا يوسف وبقى يوسف المذكور حتى مات فى سلطنة عمه الملك الصالح أيوب صاحب مصر ، وخلف يوسف ولدًا صغيرًا اسمه موسى ولقب الملك الأشرف وهو الذى أقامه الترك فى مملكة مصر بعد قتل الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر القبْض على الحاجب نائب الملك الأشرف بخِلَاط وقتله

وفى هذه السنة : أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرفى وهو أكبر أمير عنده إلى خِلَاط فقبض على الحاجب على الموصلى وحبسه ثم قتله ، وكان حسام الدين على الحاجب المذكور من أهل الموصل ، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بخِلَاط فأحسن إلى الرعية وحفظ البلد واستولى على عدة بلاد من أذربيجان مثل نقجوان وغيرها على ما تقدم ذكره ، فقبض عليه الملك الأشرف وقتله قيل إن ذلك لذنب منه لم يطلع عليه الناس واطلع عليه الملك الكامل والملك الأشرف ، وهذا الحاجب حسام الدين المذكور كان كثير الخير والمعروف ، بنى الخان الذى بين حران ونصيبين ، وبنى الخان الذى بين حمص ودمشق ، وهو الخان المعروف بخان بريح العطش ، وهرب مملوك لحسام الدين الحاجب المذكور لما قتل أستاذه ولحق بجلال الدين، فلما ملك جلال الدين خِلَاط على ما سنذكره قبض على أيبك المذكور وسلمه إلى المذكور فقتله وأخذ بثأر أستاذه .

ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الملك الأشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج ثم نزل سَلَمْية وأرسل عسكرًا نازلوا حماة وبها صاحبها الملك الناصر قليج أرسلان وكان فيه جبن ، ولو عصى بحماة وطلب عنها عوضًا كثيرًا لأجابه الملك الكامل إليه ولكنه خاف ، وكان فى العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص فأرسل الناصر صاحب حماة يقول لشيركوه إنى أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرنى عند السلطان الملك الكامل ، وخرج الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المذكور إلى شيركوه فى العشر الأخير من رمضان هذه السنة ، وأخذه شيركوه ومضى به إلى الملك الكامل وهو نازل على سَلَمْية ، فحين رأى الملك الكامل قليج أرسلان المذكور شتمه وأمر باعتقاله ، وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الملك الكامل ، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلمها إلى عسكر السلطان الملك الكامل فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان ، وكان بقلعة حماة أخ للملك الناصر يلقب الملك المعز ابن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة ، وقالوا للملك الكامل لا نسلم حماة لغير أحد من أولاد تقى الدين ، فأرسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب

حماة اتفق مع غلمان أيبك ، وتسلم حماة وكان الملك المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكاملى فراسل الملك المظفر الحكام بحماة فحلفوا له وواعدوا الملك المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له ، فحضر الملك المظفر سحر الليلة التى عينوها ففتحوا له باب النصر ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الإكرام داخل باب المغار وهى الآن مدرسة تعرف بالخاتونية وقفتها عمة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور ، وحضر أهل حماة وهنئوا الملك المظفر بملك حماة وكان ذلك فى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، وكان مدة ملك الملك الناصر قليج أرسلان حماة تسع سنين إلا نحو شهرين ، وأقام الملك المظفر فى دار الإكرام يومين وصعد فى اليوم الثالث إلى القلعة وتسلمها ، وجاء عيد الفطر من هذه السنة والملك المظفر مالك حماة وعمره يومئذ نحو سبع وعشرين سنة ، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان أخوه الملك الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنة .

ولما ملك الملك المظفر حماة فوض تدبير أمورها صغيرها وكبيرها إلى الأمير سيف الدين على الهدبانى وكان سيف الدين على ابن أبى على المذكور قد خدم الملك المظفر بعد ابن عمه حسام الدين ابن أبى على الذى كان نائب الملك المظفر بسَلَمْية لما سلمت إليه وهو بمصر عند الملك الكامل ، ثم حصل بين الملك المظفر وبين حسام الدين ابن أبى على وحشة ففارقه حسام الدين المذكور واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل وحظى عنده وصار أستاذ داره ، وخدم ابن عمه سيف الدين على المذكور الملك المظفر وكان يقول له : أشتهى أراك صاحب حماة وأكون بعين واحدة فأصيب عين سيف الدين على على حصار حماة لما نازلها عسكر الملك الكامل وبقى بفرد عين ، فحظى عند الملك المظفر لذلك ، ولكفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره .

ولما استقر الملك المظفر فى ملك حماة انتزع الملك الكامل سَلَمْية منه وسلمها إلى شيركوه صاحب حمص على ما كان وقع عليه الاتفاق من قبل ذلك ، ثم إن الملك الكامل رسم للملك المظفر أن يعطى أخاه الملك الناصر قليج أرسلان بارين بكمالها ، فامتثل ذلك وسلم قلعة بارين إلى أخيه الملك الناصر ، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة والمعرة ، وكان بحماة تقدير أربعمائة ألف درهم للملك الناصر ، وكان قد رسم الملك الكامل للملك المظفر أن يعطى المال المذكور أخاه الملك الناصر فماطل المظفر فى ذلك ولم يحصل للملك الناصر من ذلك شىء ولما استقر الملك المظفر بحماة مدحه الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد المحسن الأنصارى الدمشقى بقصيدة من جملتها :

تناهى إليك الملك واشتد كاهله   وحل بك الراجى فحطت رواحله

ترحلت عن مصر فأمحل ربعها   ولما حللت الشام روض ما حله
وعزت حماة فى حمى أنت غاية   بصـولتـه تحمى كليب ووائـله
وقد طال ما ظلت بتدبير أهوج   يخيب مـرجيـه ويحـرم سـائله

ولما استقر الملك المظفر فى ملك حماة رحل الملك الكامل عن سَلَمْية إلى البلاد الشرقية التى أخذها من أخيه الملك الأشرف عوضا عن دمشق فنظر فى مصالحها ، ثم سافر الملك المظفر من حماة ولحق الملك الكامل وهو بالشرق ، وعقد له الملك الكامل العقد هناك على ابنته غازية خاتون بنت الملك الكامل وهى شقيقة الملك المسعود صاحب اليمن ، وهى والدة الملك المنصور صاحب حماة وأخيه الملك الأفضل نور الدين على ابنى الملك المظفر محمود ، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة وقد قضيت أمانيه بملك حماة ووصلته بخاله الملك الكامل وكان يتمنى ذلك لما كان بالديار المصرية ، وكان يصحبه وهو بمصر رجل من أهلها يقال له الزكى القومصى فاتفق وهما بمصر وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل فأنشده الزكى القومصى :

متى أراك كما أهوى وأنت ومن   تهوى كأنكما روحان فى بـدن
هنـاك أنشد والأقـدار مصغيـة   هنيت بالملك والأحباب والوطن

فقال له الملك المظفر : إن صار ذلك يازكى أعطيتك ألف دينار مصرية ، فلما ملك الملك المظفر حماة أعطى الزكى ما وعده به ، ولما فرغ الملك الكامل من تقرير أمر البلاد الشرقية وهى حران وما معها من البلاد مثل رأس عين والرها وغير ذلك عاد إلى الديار المصرية .

وفى هذه السنة : أرسل الملك الأشرف أخاه صاحب بصرى الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك وبها صاحبها الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب واستمر الحصار عليه .

وفيها : سار جلال الدين ملك الخوارزمية وحاصر خِلَاط وبها أيبك نائب الملك الأشرف إلى أن خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة :

ذكر عمارة شميميش

فى هذه السنة : شرع صاحب حمص شيركوه فى عمارة قلعة شميميش وكان لما سلم إليه الملك الكامل سَلَمْية قد استأذنه فى عمارة تل شميميش قلعة فأذن له بذلك ، ولما أراد شيركوه عمارته أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الملك الكامل .

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفى هذه السنة : سلم الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب بعلبك إلى الملك الأشرف لطول الحصار عليه ، وعوضه الملك الأشرف عنها الزيدانى وقصير دمشق الذى هو شماليها ومواضع أخر. وتوجه الملك الأمجد وأقام بداره التى داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهى التى ينزلها النواب .

ذكر مقتل الملك الأمجد

لما أخذت منه بعلبك ونزل بداره المذكورة كان قد حبس بعض مماليكه فى مرقد عنده بالدار ، وجلس الملك الأمجد قدام باب المرقد يلعب بالنرد ، ففتح المملوك المذكور الباب ومعه سيف وضرب به أستاذه الملك الأمجد فقتله ، ثم طلع المملوك إلى سطح الدار وألقى نفسه إلى وسطها فمات ، ودفن الملك الأمجد بمدرسة والده التى على الشرف ، وكانت مدة ملكه بعلبك تسعًا وأربعين سنة ، لأن عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملكه بعلبك سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما مات أبوه فرخشاه وانتزعت منه هذه السنة ، فذلك خمسون سنة إلا سنة ، وكان الملك الأمجد أشعر بنى أيوب وشعره مشهور .

ذكر ملك جلال الدين خِلَاط

فى هذه السنة : لما طال حصار جلال الدين على خِلَاط واشتد مضايقتها هجم بالسيف وفعل فى أهلها ما يفعلونه التتر من القتل والاسترقاق والنهب ، ثم قبض على نائب الملك الأشرف بها وهو مملوكه أيبك وسلمه إلى مملوك حسام الدين الحاجب على الموصل فقتله وأخذ بثأر أستاذه .

ذكر كسرة جلال الدين ابن الملك الأشرف

ولما جرى من جلال الدين ما جرى من أخذ خِلَاط اتفق صاحب الروم كيقباذ بن كيخسرو ابن قليج أرسلان والملك الأشرف ابن الملك العادل فجمع الملك الأشرف عساكر الشام وسار

إلى سيواس واجتمع فيها بملك بلاد الروم علاء الدين كيقباذ المذكور وسار إلى جهة خلاط ، والتقى الفريقان فى التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة فولى الخوارزميون وجلال الدين منهزمين ، وهلك غالب عسكره قتلا وترديا من رءوس جبال كانت فى طريقهم وضعف جلال الدين بعدها وقويت عليه التتر وارتجع الملك الأشرف خلاط وهى خراب يباب ، ثم وقعت المراسلة بين الملك الأشرف وكيقباذ وجلال الدين وتصالحوا وتحالفوا على ما بأيديهم وأن لا يتعرض أحد منهم إلى ما بيد الآخر .

وفى هذه السنة : استولى الملك المظفر غازى ابن الملك العادل على أرزن من ديار بكر وهى غير أرزن الروم ، وكان صاحب أرزن ديار بكر يقال له حسام الدين من بيت قديم فى الملك فأخذها منه الملك المظفر غازى المذكور وعوضه عن أرزن بمدينة حانى وهذا حسام الدين من بيت كبير يقال لهم بيت الأحدب وأرزن لم تزل بأيديهم من أيام السلطان ملك شاه السلجوقى إلى الآن فسبحان من لا يزول ملكه .

وفيها : جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة فخرج إليهم الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة والتقاهم عند قرية بين حماة وبارين يقال لها لفيون وكسرهم كسرة عظيمة ودخل الملك المظفر محمود حماة مؤيدًا منصورًا .

وفيها : ولد الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة :

والسلطان الملك الكامل بديار مصر وأخوه الملك الأشرف بدمشق فى ملاذه وقد تخلى عن البلاد الشرقية فإن حران وما معها صارت لأخيه الملك الكامل وخلاط صارت خرابا يبابا ولم يكن للملك الأشرف ابن ذكر فاقتنع بدمشق واشتغل باللهو والملاذ .

وفيها : سار الملك الأشرف من دمشق إلى عند أخيه الملك الكامل وأقام عنده بالديار المصرية متنزها .

ذكر قصة التتر فى بلاد الإسلام

وفى هذه السنة : عاودت التتر قصد بلاد الإسلام وسفكوا وخربوا مثل ما تقدم ذكره ، وكان قد ضعف جلال الدين لقبح سيرته وسوء تدبيره ، ولم يترك له صديقًا من ملوك الأطراف وعادى الجميع وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلف عليه لما حصل لجلال الدين من فساد عقله وسببه أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة واتفق موت ذلك المملوك فحزن عليه حزنا شديدا لم

يسمع بمثله وأمر أهل توريز بالخروج والنواح واللطم عليه ، ثم إنه لم يدفنه وبقى يستصحب ذلك المملوك الميت معه حيث سار وهو يلطم ويبكى ، وكان إذا قدم إليه الطعام يرسل منه إلى المملوك الميت ولا يتجاسر أحد أن يتفوه أنه ميت فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون إنه يقبل الأرض وهو يقول إنى الآن أصلح مما كنت فأنف أمراؤه من ذلك وخرج بعضهم عن طاعته فضعف أمر جلال الدين لذلك ولكسرته من الملك الأشرف فتمكنت التتر من البلاد واستولوا على مراغة وهو استيلاؤهم الثانى .

ذكر قتل جلال الدين

ولما تمكن التتر من بلاد أذربيجان سار جلال الدين يريد ديار بكر ليسير إلى الخليفة ويلتجىء إليه ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلا وخالطوا مخيمه فهرب جلال الدين وقتل على ما نشرحه إن شاء الله تعالى .

ولما قتل تمكن التتر من البلاد وساقوا حتى وصلوا فى هذه السنة إلى الفرات واضطرب الشام بسبب وصولهم إلى الفرات ثم شنوا الغارات فى ديار بكر والجزيرة وفعلوا من القتل والتخريب مثل ما تقدم .

ومن تاريخ ظهور التتر : تصنيف كاتب إنشاء جلال الدين النسوى المنشى المقدم الذكر فى سنة ست عشرة وستمائة ما اخترناه وأثبتناه من أخبار خوارزم شاه محمد وابنه جلال الدين لملازمة النسوى المذكور جلال الدين فى جميع سفراته وغزواته إلى أن كبس التتر جلال الدين ، والمنشى المذكور كان معه فلذلك كان أخبر بأحوال جلال الدين ووالده من غيره .

قال محمد المنشى المذكور : إن خوارزم شاه محمد بن تكش عظم شأنه واتسع ملكه وكان له أربعة أولاد قسم البلاد بينهم ، أكبرهم جلال الدين منكبرنى وفوض إليه ملك غزنة وباميان والغور وبست وتكاباد وزميز داور وما يليها من الهند ، وفوض خوارزم وخراسان ومازندران إلى ولده قطب الدين أزلاغ شاه وجعله ولى عهده ، ثم فى آخر وقت عزله عن ولاية العهد وفوضها إلى جلال الدين منكبرنى ، وفوض كرمان وكبش ومكران إلى ولده غياث الدين تيز شاه ، وقد تقدمت أخباره ، وفوض العراق إلى ولده ركن الدين غورشاه يحيى ، وكان أحسن أولاده خلقًا وخلقًا ، وقتل المذكور التتر بعد موت أبيه ، وضرب لكل واحد منهم النوب الخمس فى أوقات الصلوات على عادة الملوك السلجوقية ، وانفرد أبوهم خوارزم شاه محمد بنوبة ذى القرنين وأنها تضرب وقتى طلوع الشمس وغروبها ، وكانت دبادبه سبعًا وعشرين

دبدبة من الذهب قد رصعت بأنواع الجوهر وكذا باقى الآلات النوبتية وجعل سبعة وعشرين ملكا يضربونها فى أول يوم قرعت ، وكانوا من أكابر الملوك أولاد السلاطين منهم طغريل بن أرسلان السلجوقى ، وأولاد غياث الدين صاحب الغور ، والملك علاء الدين صاحب باميان والملك تاج الدين صاحب بلخ وولده الملك الأعظم صاحب ترمذو الملك سنجر صاحب بخارى وأشباههم وكانت أم خوارزم شاه محمد تركان خاتون من قبيلة بياووت وهى فرع من فروع يمسك ، وكانت بنت ملك من ملوكهم تزوج بها تكش بن أرسلان بن أطز بن محمد بن أنوشتكين غرشه ، فلما صار الملك إلى ولده محمد بن تكش قدم إلى والدته تركان خاتون قبائل يمسك من الترك فعظم شان ابنها السلطان محمد بهم وتحكمت أيضا بسببهم تركان خاتون فى الملك فلم يملك ابنها إقليما إلا وأفرد لخاصها منه ناحية جليلة ، وكانت ذات مهابة ورأى وكانت تنتصف للمظلوم من الظالم وكانت جسورة على القتل وعظم شأنها بحيث إذا ورد توقيعان عنها وعن السلطان ابنها تنظر إلى تاريخها فيعمل بالأخير منها وكان طغر توقيعها عصمة الدنيا والدين آلغ تركان ملكة نساء العالمين وعلامتها اعتصمت بالله وحده ، وكانت تكتبها بقلم غليظ وتجود الكتابة .

قال المؤلف المذكور : ثم إن خوارزم شاه محمد لما هرب من التتر بما وراء النهر وعبر جيحون ثم سار إلى خراسان والتتر تتبعه ثم هرب من خراسان ووصل إلى عراق العجم ونزل عند بسطان أحضر عشرة صناديق ثم قال إنها كلها جواهر لا تعلم قيمتها ثم أشار إلى صندوقين منها وقال إن فيهما من الجواهر مايساوى خراج الأرض بجملتها ، ثم أمر بحملها إلى قلعة أزدهن وهى من أحصن قلاع الأرض وأخذ خط النائب بها بوصول الصناديق المذكورة مختومة ، فلما استولى جنكز خان على تلك البلاد حملت إليه الصناديق المذكورة بختومها ، ثم إن التتر أدركوا السلطان محمد المذكور فهرب وركب فى المركب ولحقه التتر ورموه بالنشاب ونجا السلطان منهم وقد حصل له مرض ذات الجنب .

قال : ووصل إلى جزيرة فى البحر وأقام بها فريدًا طريدًا لا يملك طارقًا ولا تليدًا والمرض يزداد وكان فى أهل مازندران أناس يتقربون إليه بالمأكول وما يشتهيه فقال فى بعض الأيام إنى أشتهى يكون عندى فرس يرعى حول خيمتى وقد ضربت له خيمة صغيرة فأهدى إليه فرس أصفر وكان للسلطان محمد المذكور ثلاثون ألف جشار من الخيل وكان إذا أهدى إليه أحد شيئا وهو على تلك الحالة فى الجزيرة من مأكول وغيره يطلق لذلك الشخص شيئا ولم يكن عنده من يكتب التواقيع فيتولى ذلك الرجل كتابة توقيعه بنفسه وكان يعطى مثل السكين والمنديل علامة بإطلاق البلاد والأموال ، فلما تولى ابنه جلال الدين أمضى جميع ما أطلقه والده بالتواقيع والعلائم ، ثم أدركت السلطان محمد المنية وهو بالجزيرة على تلك الحالة فغسله شمس الدين

محمود بن بلاغ الجاويش ومقرب الدين مقدم القراشين ولم يكن عنده ما يكفن به فكفن بقميصه ودفن بالجزيرة فى سنة سبع عشرة وستمائة بعد أن كان بابه مزدحما بملوك الأرض وعظمائها يشتدرون بجنابه ويتفاخرون بلثم ترابه ، ورقى إلى درجة الملوكية جماعة من مماليكه وحاشيته فصار طشتداره وركيداره وسلحداره وجنداره وغيرهم من أرباب الوظائف كلهم ملوكًا ، وكان فى أعلامهم علامات سود يعرفون بها ، فعلامة الدوادار الدواه والسلحدار القوس وعلامة الطشتدار المسينة والجمدار النفجه وعلامة أميراخور النعل وعلامة الجاويشية قبة ذهب ، وكان يمد السماط بين يديه ويأكل الناس ويرفع من الطعام الذى فى صدر السماط إلى بين يدى الأكابر إذا قعدوا على السماط للأكل ، وكانت الزبادى كلها ذهبية وفضية ، وكان السلطان محمد المذكور يختص بأمور لا يشاركه فيها أحد منها المجتر منشورًا على رأسه إذا ركب ومنها اللكح وهى أنبوبة تتخذ من الذهب الأحمر بين أذنى مركوب السلطان يخرج منها المعرفة وتشد إلى طرف اللجام ، ومنها الأعلام السود والسروج السود والنفج السود محمولة على أكتاب الجمدارية ولا تحمل لغيره على الكتف ، ومنها أن جنائبه كانت تجر قدامه وجنائب غيره من الملوك كانت تجر وراءهم ، ومنها أن أذناب خيله تلف من أوساطها مدار شبرين ، ومنها الجلوس بين يديه على الركبتين لمن يّريد مخاطبته .

قال المؤلف المذكور : ثم سار جلال الدين بعد موت أبيه السلطان محمد من الجزيرة إلى خوارزم ثم هرب من التتر ولحق بغزنة وجرى بينه وبين التتر من القتال ، فهرب جلال الدين من غزنة إلى الهند فلحقه جنكزخان على ماء السند وتصافقا صبيحة يوم الأربعاء لثمان خلون من شوال سنة ثمانى عشرة وستمائة ، وكانت الكرة أولا على جنكز خان ثم عادت على جلال الدين وحال بينهما الليل ، وولى جلال الدين منهزما وأسر ولد جلال الدين وهو ابن سبع أو ثمان سنين وقتل بين يدى جنكز خان صَبرًا ، ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسيرًا ورأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بالله عليك اقتلنا أو خلصنا من الأسر فأمر بهن فغرفن وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب والرزايا ثم اقتحم جلال الدين وعسكره ذلك النهر العظيم فنجا منهم إلى ذلك البر تقدير أربعة آلاف رجل حفاة عراة ورمى الموج جلال الدين مع ثلاثة من خواصة إلى موضع بعيد وفقده أصحابه ثلاثة أيام وبقى أصحابه لفقده حائرين وفى تيه الفكر سائرين إلى أن اتصل بهم جلال الدين فاعتدوا بمقدمه عيدًا وظنوا أنهم أنشئوا خلقًا جديداً ، ثم جرى بين جلال الدين وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين ووصل إلى لهاوور من الهند ، ولما عزم جلال الدين على العود إلى جهة العراق استناب بهلوان أزبك على ما كان يملكه من بلاد الهند واستناب معه حسن فراق ولقبه وفا ملك وفى سنة سبع وعشرين وستمائة طرد وفا ملك بهلوان أزبك واستولى وفاملك على ما كان يليه البهلوان من بلاد الهند ، ثم إن جلال الدين عاد من الهند ووصل إلى كرمان فى سنة إحدى وعشرين

وستمائة وقاسى هو وعسكره فى البرارى القاطعة بين كرمان والهند شدائد ووصل معه أربعة آلاف رجل بعضهم ركاب أبقار وبعضهم ركاب حمير ، ثم سار جلال الدين إلى خورستان واستولى عليها ثم استولى على أذربيجان ثم استولى على كنجة وسائر بلاد أران ثم إن جلال الدين نقل أباه من الجزيرة إلى قلعة أزدهن ودفنه بها ، ولما استولى التتر على القلعة المذكورة نبشوه وأحرقوه وهذا كان فعلهم فى كل ملك عرفوا قبره فإنهم نبشوا محمود بن سبكتكين من غزنة وأحرقوا عظامه .

ثم ذكر ما تقدمت الإشارة إليه من استيلاء جلال الدين على خِلّاط وغير ذلك ، ثم ذكر نزوله على جسر قريب آمد وإرساله يستنجد الملك الأشرف ابن الملك العادل فلم ينجده ، وعزم جلال الدين على المسير إلى أصفهان ثم انثنى عزمه عنه وبات بمنزله وشرب تلك الليلة فسكر سكرًا خماره دوار الرأس وتقطع الأنفاس وأحاط التتر به وبعسكره مصبحين :

فماهم وبسطهم حرير ... وصبحهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة ... كمن فى كفه منهم خضاب

وأحاطت أطلاب التتر بحركات جلال الدين وهونائم سكران فحمل بعض عسكره وهو أرخان وكشف التتر عن الحركات ودخل بعض الخواص وأخذ بيد جلال الدين وأخرجه وعليه طاقية بيضاء فأركبه الفرس وساق أرخان مع جلال الدين وتبعه التتر فقال جلال الدين لأرخان انفرد عنى بحيث تشتغل التتر بتتبع سوادك وكان ذلك خطأ منه فإن أرخان تبعه جماعة من العسكر وصاروا تقدير أربعة آلاف فارس وقصد أصفهان واستولى عليها مدة ، ولما انفرد جلال الدين عن أرخان ساق إلى باسورة آمد فلم يمكن من الدخول إلى آمد ، فسار إلى قرية من قرى ميا فارقين طالبا شهاب الدين غازى ابن الملك العادل صاحب ميافارقين ، ثم لحقه التتر فى تلك القرية فهرب جلال الدين إلى جبل هناك وبه أكراد يتخطفون الناس فأخذوه وشلحوه وأرادوا قتله فقال جلال الدين لأحدهم إنى أنا السلطان فاستبقنى أجعلك ملكا فأخذه الكردى وأتى به إلى امرأته وجعله عندها ومضى الكردى إلى الجبل لإحضار ماله هناك فحضر شخص كردى ومعه حربة وقال للمرأة لم لا تقتلون هذا الخوارزمى فقالت المرأة لا سبيل إلى ذلك فقد أمنه زوجى ، فقال الكردى إنه السلطان وقد قتل لى أخا بخَلاط خيرًا منه وضربه بالحربة فقتله ، وكان جلال الدين أسمر قصيرا تركى السارة والعبارة وكان يتكلم بالفارسية أيضا ويكاتب الخليفة على مبدأ الأمر على ما كان يكاتبه به أبوه خوارزم شاه محمد ، فكان يكتب خادمه المطواع منكبرنى ثم بعد أخذ خِلَاط كاتبه بعبده ، وكان يكتب إلى ملك الروم وملوك مصر والشام اسمه واسم أبيه ولم يرض أن يكتب لأحد منهم خادمه أو أخوه أو غير ذلك ، وكانت علامته على تواقيعه النصرة من الله وحده وكان إذا كاتب صاحب الموصل أو أشباهه

يكتب له هذه العلامة تعظيما عن ذكر اسمه ، وكان يكتب العلامة بقلم غليظ وكان جلال الدين يخاطب بخزاوند عالم أى صاحب العالم وكان مقتله فى منتصف شوال من هذه السنة أعنى سنه ثمان وعشرين وستمائة .

وهذا ما نقلناه من تاريخ محمد المنشى وهو ممن كان فى خدمة جلال الدين إلى أن قتل ، وكان كاتب الإنشاء الذى له وكان محظيًا متقدما عنده .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : انتهى التاريخ الكامل تأليف الشيخ عزالدين على المعروف بابن الأثير الجزرى المنقول غالب هذا المختصر منه فإنه ألفه من هبوط آدم إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وتوفى عز الدين ابن الأثير المذكور فى سنة ثلاثين وستمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى بعد آخر تاريخه بسنتين .

وفيها : فى ذى القعدة توفى بالقاهرة أبو الحسن يحيى بن عبد المعطى بن عبد النور الزواوى النحوى الحنفى ، كان أحد أئمة عصره فى النحو واللغة وسكن دمشق زمانًا طويلًا وصنف تصانيف مفيدة منها منظومته الألفية المشهورة ، وكان مولده سنة أربع وستين وخمسائة ، والزواوى منسوب إلى زواوة وهى قبيلة كبيرة بظاهر بجاية من أعمال أفريقية .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة :

والسلطانان الكامل والأشرف بالديار المصرية والملك المظفر بحماة مالكها ومعها المعرة وأخوه الملك الناصر قليج أرسلان ببارين مالكها والعزيز محمد بن الظاهر غازى قد استقل بملك حلب والتتر قد استولوا على بلاد العجم كلها والخليفة المستنصر بالعراق ، ثم ارتحل فى هذه السنة الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف من ديار مصر وسارا إلى البلاد الشرقية فسار الملك الكامل إلى الشوبك واحتفل له الملك الناصر دادود ابن المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب احتفالا عظيمًا بالضيافات والإقامات والتقادم وحصل بينهما الاتحاد التام ، وكان نزول الملك الكامل باللجون قرب الكرك وهى منزلة الحجاج فى العشر الأخير من شعبان هذه السنة ، ووصل إليه باللجون صاحب حماة الملك المظفر محمود ملتقيا وسافر الناصر داود مع الملك الكامل بعسكره إلى دمشق واستصحب الملك الكامل معه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعل نائبه بمصر وولده وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، ثم سار الملك الكامل ونزل سَلَمْية واجتمع معه ملوك أهل

بيته فى جمع عظيم ، ثم سار بهم إلى آمد وحصرها وتسلمها من صاحبها الملك المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ومحمد بن قرا أرسلان المذكور هو الذى ملكه السلطان صلاح الدين آمد بعد انتزاعها من ابن نيسان ، وكان سبب انتزاع الملك الكامل آمد من الملك المسعود المذكور لسوء سيرة الملك المسعود وتعرضه لحريم الناس ، وكان له عجوز قوادة يقال لها الإزاء كانت تؤلف بينه وبين نساء الناس الأكابر ونساء الملوك ، ولما نزل الملك المسعود إلى خدمة الملك الكامل وسلم آمد وبلادها إليه ، ومن جملة معاقلها حصن كيفا وهو فى غاية الحصانة أحسن الملك الكامل إلى الملك المسعود وأعطاه أقطاعا جليلة بديار مصر ، ثم بدت منه أمور اعتقله الملك الكامل بسببها ، ولم يزل الملك المسعود معتقلا إلى أن مات الملك الكامل فخرج من الاعتقال واتصل بحماة فأحسن إليه الملك المظفر محمود صاحب حماة ، ثم سافر الملك المسعود المذكور إلى الشرق واتصل بالتتر فقتلوه .

ولما تسلم الملك الكامل آمد وبلادها رتب فيها النواب من جهته وجعل فيها ولده الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وجعل معه شمس الدين صواب العادلى وخرجت هذه السنة والملك الكامل بالشرق، ولما خرج الملك الكامل من مصر فى هذه السنة خرج صحبته وبنتاه فاطمة خاتون زوجة الملك العزيز صاحب حلب وغازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماة بنتا الملك الكامل ، وحملت كل منها إلى بعلها واحتفل لدخولها بحماة وحلب .

وفى هذه السنة : ظنا توفى على ابن رسول النائب على اليمن واستقر مكانه ولده عمر بن على .

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية بعد ترتيب أمورها وسار إلى ديار مصر ورجع كل ملك إلى بلده .

ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شُيْزَر

وكانت شيزر بيد شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين عثمان بن الداية ، وكان سابق الدين عثمان بن الداية المذكور وإخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكى ، ثم اعتقل الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهي سابق الدين عثمان ابن الداية وشمس الدين أخاه ، فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك وجعله حجة لقصد الشام وانتزاعه من

الملك الصالح إسماعيل ، فاتصل أولاد الداية بخدمة السلطان صلاح الدين ، وصاروا من أكبر أمرائه ، وكانت شيزر إقطاع سابق الدين المذكور فأقره السلطان صلاح الدين عليها وزاده أبا قبيس لما قتل صاحبها حماردكن ثم ملك شيزر بعده ولده مسعود بن عثمان حتى مات وصارت لولده شهاب الدين يوسف المذكور إلى هذه السنة ، فسار الملك العزيز صاحب حلب بأمر الملك الكامل وحاصر شيزر وقدم إليه وهو على حصارها الملك المظفر محمود صاحب حماة مساعدًا له ، فسلم شهاب الدين يوسف شيزر إلى الملك العزيز ونزل إلى خدمته فتسلمها فى هذه السنة وهنأ الملك العزيز يحيى بن خالد بن قيسرانى بقوله :

يا مالكا عم أهل الأرض نائله وخص إحسانه الدانى مع القاصى
لما رأت شيزر آيات نصرك في أرجائها ألقت العاصى إلى العاصى

ثم ولى الملك العزيز على شيزر وأحسن إلى الملك المظفر محمود صاحب حماة ورحل كل منهما إلى بلده .

وفى هذه السنة : استأذن الملك المظفر محمود صاحب حماة الملك الكامل فى انتزاع بارين من أخيه قليج أرسلان لأنه خشى أن يسلمها إلى الفرنج لضعف قليج أرسلان عن مقاومتهم فأذن الملك الكامل له فى ذلك ، فسار الملك المظفر من حماة وحاصر بارين وانتزعها من أخيه قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ولما نزل قليج أرسلان إلى أخيه الملك المظفر أحسن إليه وسأله فى الإقامة عنده بحماة ، فامتنع وسار إلى مصر ، فبذل له الملك الكامل إقطاعا جليلا وأطلق له أملاك جده بدمشق ، ثم بدا منه مالا يليق من الكلام فاعتقله الملك الكامل إلى أن مات قليج أرسلان المذكور فى الحبس سنة خمس وثلاثين وستمائة قبل موت الملك الكامل بأيام .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : توفى مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كجك وقد تقدم ذكر ملكه أربل بعد موت أخيه نور الدين يوسف بن زين الدين على فى سنة ست وثمانين وخمسمائة لما كانا فى خدمة السلطان صلاح الدين فى الجهاد بالساحل فبقى مالكها من تلك السنة إلى هذه السنة ، ولما مات مظفر الدين المذكور لم يكن له ولد فوصى بأربل وبلادها للخليفة المستنصر فتسلمها الخليفة بعد موت مظفر الدين المذكور ، وكان مظفر الدين ملكا شجاعًا وفيه عسف فى استخراج الأموال من الرعية ، وكان يحتفل بمولد النبى صلى الله عليه وسلم وينفق فيه الأموال الجليلة .

وفيها : فى شعبان توفى الشيخ عز الدين على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ولد بجزيرة ابن عمر فى رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ونشأ بها ، ثم سار إلى الموصل مع والده وإخوته وسمع بها من أبى الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسى ومن فى طبقته ، وقدم بغداد مرارًا حاجاً ورسولا من صاحب الموصل وسمع من الشيخين يعيش بن صدقة وعبد الوهاب بن على الصوفى وغيرهما ، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ، ثم عاد إلى الموصل وانقطع فى بيته للتوفير على العلم ، وكان إمامًا فى علم الحديث وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم ، صنف فى التاريخ كتابا كبيرًا سماه الكامل وهو المنقول منه غالب هذا المختصر ، ابتدأ فيه من أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة وله كتاب أخبار الصحابة فى ست مجلدات واختصر كتاب الأنساب للسمعانى وهو الموجود فى أيدى الناس دون كتاب السمعانى وورد إلى حلب فى سنة ست وعشرين وستمائة ونزل عند الطواشى طغريل الأتابك بحلب فأكرمه إكراما زائدًا ، ثم سافر إلى دمشق سنة سبع وعشرين ثم عاد إلى حلب فى سنة ثمان وعشرين ، ثم توجه إلى الموصل فتوفى بها فى التاريخ المذكور ونسبة الجزيرة إلى ابن عمر وهو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : فى المحرم توفى شهاب الدين طغريل الأتابك بحلب .

ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر إلى قتال كيقباذ ملك بلاد الروم

فى هذه السنة : وقع من كيقباذ بن كيخسرو ملك بلاد الروم التعرض إلى بلادِ خِلَاط ، فرحل الملك الكامل بعساكره من مصر واجتمعت عليه الملوك من أهل بيته ونزل شمالى سَلَمْية فى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم سار بجموعه ونزل على النهر الأزرق فى حدود بلد الروم ، وقد ضرب فى عسكره سنة عشر دهليزًا لستة عشر ملكًا فى خدمته منهم إخوته الملك الأشرف موسى صاحب دمشق والملك المظفر غازى صاحب ميافارقين والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر والصالح إسماعيل أولاد الملك العادل والملك المعظم توران شاه ابن

السلطان صلاح الدين كان قد أرسله ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب مقدما على عسكر حلب إلى خدمة السلطان الملك الكامل والملك الزاهر صاحب البيرة داود بن السلطان صلاح الدين وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب صميصات ابن السلطان صلاح الدين وكان قد ملكها بعد أخيه الملك الأفضل على والملك المظفر محمود صاحب حماة ابن الملك المنصور محمد والملك الصالح أحمد صاحب عينتاب ابن الملك الظاهر صاحب حلب ، والملك الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل ، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص بن محمد بن شيركوه ، وكان قد حفظ كيقباذ ملك بلاد الروم الدربندات بالرجال والمقاتلة ، فلم يتمكن السلطان من الدخول إلى بلاد الروم من جهة النهر الأزرق ، وأرسل بعض العسكر إلى حصن منصور وهو من بلاد كيقباذ فهدموه ، ورحل السلطان وقطع الفرات ، وسار إلى السويداوقدم جاسته تقدير ألفين وخمسمائة فارس مع الملك المظفر صاحب حماة ، فسار الملك المظفر بهم إلى خَرْتَبَرْتْ وسار كيقباذ ملك الروم إليهم واقتتلوا فانهزم العسكر الكاملي وانحصر الملك المظفر صاحب حماة فى خَرْتَبَرْتْ مع جملة مع العسكر وجد كيقباذ فى حصارهم والملك الكامل بالسويدا ، وقد أحسّ من الملوك الذين فى خدمته بالمخامرة والتقاعد ، فإن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم وقال إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقه على الملوك من أهل بيته عوض مابأيديهم من الشام ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر ، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم وعلم الملك الكامل بذلك فما أمكنه التحرك إلى قتال كيقباذ لذلك ، ودام الحصار على الملك المظفر صاحب حماة فطلب الأمان فأمنه كيقباذ ونزل إليه الملك المظفر فأكرمه كيقباذ وخلع عليه ونادمه ، وتسلم كيقباذ خَرْتَبَرْتْ وأخذها من صاحبها ، وكان من الأرتقية قرايب أصحاب ماردين ، وكان قد دخل فى طاعة الملك الكامل وصارت خَرْتَبَرْتْ من بلاد كيقباذ ، وكان نزول المظفر صاحب حماة من خَرْتَبَرْتْ يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة ، وأقام عند كيقباذ يومين ثم أطلقه وسار من عنده الخمس بقين من ذى القعدة من هذه السنة ، أعنى سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، ووصل بمن معه إلى الملك الكامل وهو بالسويدا من بلاد آمد ففرح به وقوى نفرة السلطان الملك الكامل يومئذ من الناصر داود صاحب الكرك ، فألزمه بطلاق بنته فطلقها الناصر داود وأثبت الملك الكامل طلاقها منه .

وفى هذه السنة : استتم بناء قلعة المعرة ، وكان قد أشار سيف الدين على بن أبى على الهذبانى على الملك المظفر صاحب حماة ببنائها فبناها وتمت الآن وشحنها بالرجال والسلاح ، ولم يكن ذلك مصلحة لأن الحلبيين حاصروها فيما بعد وأخذوها وقربت المعرة بسببها .

وفى هذه السنة : توفى سيف الدين الآمدى وكان فاضلا فى العلوم العقلية والأصولية

وغيرها واسمه على بن أبي على بن محمد بن سالم التغلبي ، وكان فى مبتدأ أمره حنبليا ، ثم انتقل وصار فقيها شافعيًا ، واشتغل بالأصول وصنف فى أصول الفقه وأصول الدين والمعقولات عدة مصنفات ، وأقام بمصر مدة وتصدر فى الجامع وفى المدرسة الملاصقة لتربة الشافعى ، وتحامل عليه الفقهاء الفضلاء وعملوا محضرًا ونسبوه فيه إلى انحلال العقيدة ومذهب الفلاسفة ، وحملوا المحضر إلى بعض الفقهاء الفضلاء ليكتب خطه حسبما وضعوا خطوطهم به فكتب :

حسدوا الفتى إذْ لم ينالوا سعيه　　فالقوم أعداء له وخصوم

ولما جرى ذلك استتر الآمدى المذكور وسار إلى حماة وأقام فيها مدة ، ثم عاد إلى دمشق حتى توفى بها فى هذه السنة ، وكانت ولادته فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

وفيها : توفى الصلاح الأربلى ، وكان فاضلًا شاعرًا أميرًا محظيًا عند الملكين الكامل والأشرف ابنى الملك العادل .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة :

والملك الكامل بالبلاد الشرقية وقد انثنى عزمه عن قصد بلاد الروم للتخاذل الذى حصل فى عسكره ، ثم رحل وعاد إلى مصر وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده .

وفيها : توفى الملك الزاهر داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين ، وكان قد مرض فى العسكر الكاملى فحمل إلى البيرة مريضًا وتوفى بها وملك البيرة بعده ابن أخيه الملك العزيز محمد صاحب حلب ، وكان الزاهر المذكور شقيق الظاهر صاحب حلب .

وفيها : توفى القاضى بهاء الدين بن شداد فى صفر ، وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة ، وصحب السلطان صلاح الدين وكان قاضى عسكره ، ولما توفى صلاح الدين كان عمر القاضى المذكور نحو خمسين سنة ، ونال القاضى بهاء الدين المذكور من المنزلة عند أولاد صلاح الدين وعند الأتابك طغريل ما لم ينلها أحد ، ولم يكن فى أيامه من اسمه شداد بل لعل ذلك فى نسب أمه فاشتهر به وغلب عليه ، وأصله من الموصل ، وكان فاضلًا دينًا وكان إقطاعه على الملك العزيز ما يزيد على مائة ألف درهم فى السنة .

وفيها : لما سارت الملوك إلى بلادهم من خدمة الملك الكامل ، وصل الملك المظفر صاحب حماة ودخلها لخمس بقين من ربيع الأول من هذه السنة ، واتفق مولد ولده الملك المنصور محمد بعد مقدمه بيومين فى الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول من هذه السنة ، أعنى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، فتضاعف السرور بقدوم الوالد والولد قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد قصيدة طويلة فى ذلك فمنها :

غدا الملك محروس الذرى والقواعد　　بأشرف مولود لأشرف والد

حيينا به يوم الخميس كأنه خميس بدا للناس فى شخص واحد
وسميته باسم النبى محمد وجديه فاستوفى جميع المحامد

أى باسم جديه الملك الكامل محمد والد والدته والملك المنصور محمد صاحب حماة والد والده

ومنها

كأنى به فى شدة الملك حالسًا وقد ساد فى اوصافه كل سائد
ووافاك من أبنائه وبنيهم بأنجم سعد نورها غير خامد
ألا أيها الملك المظفر دعونى ستورى بها زندى ويشتد ساعدى
هنيئًا لك الملك الذى بقدومه ترحل عنا كل هم معاود

وفيها : لما تفرقت العساكر الكاملية ، قصد كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حران والرها وحاصرهما واستولى عليهما ، وكانا للسلطان الملك الكامل .

وفيها : توفى بالقاهرة القاسم بن عمر بن على الحموى المصرى الدار المعروف بابن الفارض ، وله أشعار جيدة منها قصيدته التى عملها على طريقة الفقراء وهى مقدار ستمائة بيت .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئا إلى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الملك الكامل ، وقدّم إلى الخليفة تحفًا عظيمة وجواهر نفيسة ، فأكرمه الخليفة المستنصر وخلع عليه وعلى أصحابه ، وكان الناصر داود يظن أن الخليفة يستحضره فى ملأ من الناس كما استحضر مظفر الدين صاحب أربل فلم يحصل له ذلك وألح فى طلب ذلك من الخليفة فلم يجب فعمل الناصر المذكور قصيدة يمدح المستنصر فيها ويعرض بصاحب أربل واستحضاره ويطلب الأسوة به وهى قصيدة طويلة منها :

فأنت الإمام العدل والمفرق الذى به شرفت أنسابه ومناصبه
جمعت شتيت المجد بعد افتراقه وفرقت جمع المال فانهال كاتبه
ألا يا أمير المؤمنين ومن غدت على كاهل الجوزاء تعلو مراتبه
أيحسن فى شرع المعالى ودينها وأنت الذى تعزى اليك مذاهبه
بأنى أخوض الدو والدو مقفر مآريبه مغبرة وسباسبه
وقد رصد الأعداء لى كل مرصد فكلهم نحوى تدب عقاربه

ومنها :

وتسمح لى يالمال والجاه بغيتى ... وما الجاه إلا بعض ما أنت واهبه
ويأتيك غيرى من بلاد قريبة ... له الأمن فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنوا منك لم ألق مثله ... ويحظى وما أحظى بما أنا طالبه
وينظر من لالآء قدمك نظرة ... فيرجع والنور الإمامى صاحبه
ولو كان يعلونى بنفس ورتبة ... وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
لكنت أسلى النفس عما أرومه ... وكنت أذود العين عما يـراقبه
ولكنـه مثـلى ولـو قلت أننى ... أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه
وما أنا ممن يملأ المال عينـه ... ولا يسوى التقريب تفضى مآربه

وكان الخليفة متوقفا على استحضار الناصر داود رعاية لخاطر الملك الكامل فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلا ثم عاد الملك الناصر إلى الكرك .

وفى هذه السنة : سار السلطان الملك الكامل من مصر إلى البلاد الشرقية واسترجع حران والرها من يد كيقباذ صاحب بلاد الروم وأمسك أجناد كيقباذ ونوابه الذين كانوا بهما وقيدهم وأرسلهم إلى مصر فلم يستحسن ذلك منه ، ثم عاد الملك الكامل إلى دمشق وأقام عند أخيه الملك الأشرف حتى خرجت هذه السنة .

وفى هذه السنة : توفى شرف الدين محمد بن نصر بن عنين الزرعى الشاعر المشهور ، وكان شاعرا مفلقًا وكان يكثر هجو الناس ، عمل قصيدة خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض لم يسلم منها أحد من أهل دمشق ، ونفاه السلطان صلاح الدين إلى اليمن فمدح صاحبها طغتكين بن أيوب وحصل له منه أموال كثيرة عمل بها ابن عنين متجرًا وقدم به إلى مصر وصاحبها حينئذ العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين فلما أخذت من ابن عنين زكاة ما معه على عادة التجار قال فى العزيز :

ما كان من يتسمى بالعزيز لها ... أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون فى فعـالهما ... هذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقه

ثم سار ابن عنين المذكور إلى دمشق ولازم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبقى عنده وتوفى بدمشق فى هذه السنة وديوانه مشهور .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة :

فيها : عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية .

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب

وفى هذه السنة : كان قد خرج الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حارم للصيد ورمى البندق واغتسل بماء بارد فحم ودخل إلى حلب وقد قويت به الحمى واشتد مرضه وتوفى فى ربيع الأول من هذه السنة ، وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً ، وكان حسن السيرة فى رعيته ، ولما توفى تقرر فى الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد وعمره نحو سبع سنين ، وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرمنى وعز الدين عمر بن مجلى وجمال الدولة إقبال الخاتونى والمرجع فى الأمور إلى والدة الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل .

وفى هذه السنة : توفى علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطالمش بن أرسلان بن سلجوق .

وفى هذه السنة : قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف وكان ابتداؤها مافعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الملك الكامل بلاد الروم فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل ومع باقى الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة ، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الملك الكامل ، وكاتب الملك الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال أخيه الملك الكامل إلى أن خرج من مصر ، وأرسل الملك الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرم إنك إن وافقتنى جعلتك ولى عهدى وأوصيت لك بدمشق وزوجتك بابنتى فلم يوافقه الناصر على ذلك لسوء حظه ، ورحل إلى الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل وصار معه على ملوك الشام فسر به الملك الكامل وجدد عقده على ابنته عاشور التى طلقها منه وأركب الناصر داود بسناجق السلطنة ووعده أن ينتزع دمشق من الملك الأشرف أيه ويعطيه إياها وأمر الملك الكامل أمراء مصر وولده الملك العادل أبا بكر ابن الملك الكامل فحملوا الغاشية بين يدى الملك الناصر داود وبالغ فى إكرامه .

وفى هذه السنة : توجه عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه عم الملك العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الداويه بعد ما فتحها السلطان صلاح الدين وخربها وأشرف عسكر حلب على أخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية ، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض دربساك وهى حينئذ لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر

فيهم القتل والأسر ، وعاد عسكر حلب بالأسرى ورءوس الفرنج ، وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع .

وفى هذه السنة : استخدم الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وهو بالبلاد الشرقية وهى آمد وحصن كيفا وحران وغيرها نائبا عن أبيه الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرنى فإنهم بعد قتله ساروا إلى كيقباذ ملك بلاد الروم وخدموا عنده ، وكان فيهم عدة مقدمين مثل بركب خان وكشلو خان وصاروخان وفرخان وبردى خان .

فلما مات كيقباذ وتولى ابنه كيخسر وقبض على بركب خان وهو أكبر مقدميهم ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم فاستمالهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل واستأذن أباه فى استخدامهم فأذن له واستخدمهم .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة :

وقد استحكمت الوحشة بين الأخوين الكامل والأشرف وقد لحق الملك الأشرف الذرب وضعف بسببه وعهد بالملك إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى .

ذكر وفاة الملك الأشرف

وفى هذه السنة : توفى الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل ابى بكر ابن أيوب ، وكان قد مرض بالذرب واشتد به حتى توفى فى المحرم من هذه السنة ، وتملك دمشق أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه ، وكان مدة ملك الأشرف دمشق ثمان سنين وشهورًا وعمره نحو ستين سنة ، وكان مفرط السخاء يطلق الأموال الجليلة النفيسة ، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية وكان سعيدًا ويتفق له أشياء خارقة للعقل ، وكان حسن العقيدة وبنى بدمشق قصورًا ومتنزهات حسنة وكان منهمكا فى اللذات وسماع الأغانى فلما مرض أقلع عن ذلك وأقبل على الاستغفار إلى أن توفى ودفن فى تربته بجانب الجامع ، ولم يخلف من الأولاد إلا بنتا واحدة تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل ، وكان سبب الوحشة بينه وبين أخيه الملك الكامل بعد ما كان بينهما من المصافاة أن الملك الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها وكانت لا تفى بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق ، وأيضًا لما فتح الملك الكامل آمد وبلادها لم يزده منها شيئًا وأيضًا بلغه أن الملك الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام وينتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك ، ولما استقر الملك الصالح إسماعيل فى ملك

دمشق كتب إلى الملوك من أهله وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم فى اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماة ، وأرسل الملك المظفر رسولا إلى الملك الكامل يعرفه انتماءه إليه وأنه إنما وافق الملك الأشرف خوفًا منه فقبل الملك الكامل عذره وتحقق صدق ولائه ووعده بانتزاع سَلَمْية من صاحب حمص وتسليمها إليه .

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها ووفاته وما يتعلق بذلك

لما بلغ الملك الكامل وفاة أخيه الملك الأشرف سار إلى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وهو لايشك أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما .

وأما الملك الصالح إسماعيل فإنه استعد للحصار ووصل إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص ونازل الملك الكامل دمشق وأخرج الملك الصالح إسماعيل النفاطين فأحرق العقيبة جميعها، وما بها من خانات وأسواق ، وفى مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون على خمسين راجلا نجدة للصالح اسماعيل وظفر بهم الملك الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم ، وحال نزول الملك الكامل على دمشق أرسل توقيعا للملك المظفر صاحب حماة بسَلَمْية فتسلمها الملك المظفر واستقرت نوابه بها ، وكان نزول الملك الكامل على دمشق فى جمادى الأولى من هذه السنة فى قوة الشتاء ، ثم سلم الملك الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الملك الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافًا إلى بصرى ، وكان قد ورد من الخليفة المستنصر محيى الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين ابن الجوزى رسولا للتوفيق بين الملوك فتسلم الملك الكامل دمشق لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، وكان الملك الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصد حمص ، وأرسل إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إليها فبرز الملك المظفر من حماة ونزل على الرستن واشتد خوف شيركوه صاحب حمص وتخضع الملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخل على الملك الكامل فلم يلتفت إلى ذلك ، ثم بعد استقرار الملك الكامل فى دمشق لم يلبث غير أيام حتى مرض واشتد مرضه ، وكان سببه أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وتورمت منها وحصل له حمى ونهاه الأطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيأ فمات لوقته وعمره نحو ستين سنة ، وكانت وفاته لتسع بقين من رجب من هذه السنة أعنى سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكان بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر ، وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات أبوه عشرين سنة ؛ وكان بها نائبا قبل ذلك قريباً من عشرين سنة ، فحكم

فى مصر نائبًا وملكا نحو أربعين سنة ، وأشبه حاله حال معاوية بن أبى سفيان ، فإنه حكم فى الشام نائبا نحو عشرين وملكا نحو عشرين ، وكان الملك الكامل ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير ، أمنت الطرق فى أيامه ، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر فى أول ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدًا بعده ، وكان يخرج الملك الكامل بنفسه فينظر فى أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها فعمرت فى أيامه ديار مصر أتم العمارة ، وكان محبًا للعلماء ومجالستهم وكانت عنده مسائل غريبة فى الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا فى خدمته ، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية تقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية وبنى له دار الحديث بين القصرين فى الجانب الغربى ، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة رحمه الله تعالى .

وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه من أكابر دولته وهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ وإخوته عماد الدين وكمال الدين ومعين الدين أولاد الشيخ المذكور ، وكل من أولاد الشيخ المذكور حاز فضيلتى السيف والقلم ، فكان يباشر التدريس ويتقدم على الجيش .

ولما مات السلطان الملك الكامل بدمشق كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك فاتفق آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل وهو حينئذ نائب أبيه بمصر ، فحلف له جميع العسكر وأقاموا فى دمشق الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل ، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه إن أقام ، فرحل الملك الناصر داود إلى الكرك وتفرقت العساكر فسار أكثرهم إلى مصر ، وتأخر مع الجواد يونس بعض العسكر ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ وبقى يباشر الأمور مع الملك الجواد ، ولما بلغ شيركوه صاحب حمص وفاة الملك الكامل فرح فرحًا عظيمًا وأتاه فرج ما كان يطمع نفسه به وأظهر سرورا عظيمًا ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو فى عشر السبعين .

وأما الملك المظفر صاحب حماة فإنه حزن لذلك حزنا عظيما ورحل من الرستن وعاد إلى حماة وأقام فيها للعزاء ، وأرسل صاحب حمص ارتجع سَلَمْية من نواب الملك المظفر وقطع القناة الواصلة من سَلَمْية إلى حماة فيبست بساتينها .ثم عزم على قطع النهر العاصى عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس التى بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين وذهب ماء العاصى فى أودية بجوانب البحيرة ثم لما لم يجد له الماء مسلكا عاد فهدم ما عمله صاحب حمص وجرى كما كان أولا وكذلك كان قد حصل لصاحب حلب ولعسكرها الخوف من الملك الكامل فلما بلغهم موته أمنوا من ذلك .

ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة .

ولما بلغ الحلبيين موتُ الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ثم أخذ حماة من الملك المظفر صاحب حماة لموافقته الملك الكامل على قصدهم ووصل عسكر حلب إلى المعرة وانتزعوها من يد الملك المظفر صاحب حماة وحاصروا قلعتها وخرجت المعرة حينئذ عن ملك الملك المظفر صاحب حماة ثم سار عسكر حلب ومقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين إلى حماة بعد استيلائهم على المعرة ونازلوا حماة وبها صاحبها الملك المظفر ونهب العسكر الحلبى بلاد حماة واستمر الحصار على حماة حتى خرجت هذه السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث .

فى هذه السنة : عقد لسلطان الروم غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو العقد على غازية خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب وهى صغيرة حينئذ وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضى دوقات ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهى ملكة خاتون بنت كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان وأم ملكة خاتون المذكورة بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكان قد زوجها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بكيقباذ المذكور وخطب لغياث الدين كيخسرو بحلب .

وفيها : خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب بعد موت أبيه الملك الكامل ونهبوا البلاد .

وفيها : سار لولو صاحب الموصل وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار فأرسل الملك الصالح واسترضى الخوارزمية وبذل لهم حران والرها فعادوا إلى طاعته ، واتقع مع بدر الدين لولو صاحب الموصل فانهزم لولو وعسكره هزيمة قبيحة وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئاً كثيراً .

وفى هذه السنة : جرى بين الملك الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس المتولى على دمشق مصاف بين جينين ونابلس انتصر فيه الملك الجواد يونس وانهزم الملك الناصر داود هزيمة قبيحة ، وقوى الملك الجواد بسبب هذه الوقعة وتمكن من دمشق ونهب عسكر الملك الناصر وأثقاله .

وفى أواخر هذه السنة : ولد والدى الملك الأفضل نور الدين على بن الملك المظفر صاحب حماة .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : رحل عسكر حلب المحاصرة لحماة بعد مولد الملك الأفضل ، وكان قد طالت مدة حصارهم لحماة وضجروا فتقدمت إليهم ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها فرحلوا ، وضاق الأمر على الملك المظفر فى هذا الحصار وأنفق فيه أموالا كثيرة ، واستمرت المعرة فى يد الحلبيين وسَلَمْية فى يد صاحب حمص ، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة وبعرين ، ولما جرى ذلك خاف الملك المظفر أن تخرج بعرين بسبب قلعتها فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض فى هذه السنة .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، استولى الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل على دمشق وأعمالها بتسليم الملك الجواد يونس ، وأخذ العوض عنها سنجار والرقة وعانة ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر لما علم باستيلاء الملك الجواد على دمشق ، أرسل إليه عماد الدين ابن الشيخ لينتزع دمشق منه ، وأن يعوض عنها إقطاعًا بمصر ، فمال الجواد يونس إلى تسليمها إلى الملك الصالح حسبما ذكرناه ، وجهز على عماد الدين ابن الشيخ من وقف له بقصة ، فلما أخذها عماد الدين منه ضربه ذلك الرجل بسكين فقتله .

ولما وصل الملك الصالح أيوب إلى دمشق وصل معه الملك المظفر صاحب حماة معاضدًا له ، وكان قد لاقاه إلى أثناء الطريق ، واستقر الملك الصالح أيوب المذكور فى ملك دمشق ، وسار الجواد يونس إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلمها .

ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها وسأله الملك المظفر صاحب حماة فى منازلة حمص وأخذها من شيركوه فبرز إلى الثنية ، وكان قد نازلت الخوارزمية وصاحب حماة حمص فأرسل شيركوه مالا كثيرًا وفرقه فى الخوارزمية فرحلوا عنه إلى البلاد الشرقية ، ورحل صاحب حماة إلى حماة ثم كر الملك الصالح عائدا إلى دمشق طالبا مصر ، وسار من دمشق إلى خربة اللصوص وعيد بها عيد رمضان ووصل إليه بعض عساكر مصر مقفزين .

ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيث فتح الدين عمر ابن

الملك الصالح وشرع الملك الصالح يكاتب عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه وعمه إسماعيل المذكور تحجج ويعتذر عن الحضور ويظهر له أنه معه وهو يعمل فى الباطن على ملك دمشق وأخذها من الصالح أيوب ، وكان قد سافر الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل على قتال الملك الصالح أيوب .

ووصل أيضًا فى هذه السنة محيى الدين ابن الجوزى رسولا من الخليفة ليصلح بين الأخوين العادل صاحب مصر والصالح أيوب المستولى على دمشق ، وهذا محيى الدين هو الذى حضر ليصلح بين الكامل والأشرف فاتفق أنه مات فى حضوره فى سنة أربع وثلاثين وخمس وثلاثين أربعة من السلاطين العظماء وهم : الملك الكامل صاحب مصر ، وأخوه الأشرف صاحب دمشق ، والعزيز صاحب حلب ، وكيقباذ صاحب بلاد الروم ، فقال فى ذلك ابن المسجف أحد شعراء دمشق :

يا إمام الهدى أبا جعفر المنـ ـصور يا من له الفخار الأثيل
ماجرى من رسولك الآن محيى الـ ـدين فى هذه البلاد قليل
جاء والأرض بالسلاطين تزهى وغدًا والديار منهم طلول
أقفر الروم والشآم ومصر أفهذا مغسل أم رسول

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : فى صفر سار الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعها وهجموا دمشق وحصروا القلعة وتسلمها الصالح إسماعيل وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب ، وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر ، وكان قد بلغه سعى عمه إسماعيل فى الباطن ، وكان للصالح أيوب طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقى فأرسله الصالح أيوب إلى بعلبك ومعه قفص من حمام نابلس ليطالعه بإخبار الصالح صاحب بعلبك وحال وصول الحكيم المذكور علم به صاحب بعلبك فاستحضر . وأكرمه وسرق الحمام التى لنابلس وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب المذكور بذلك فصار الطبيب المذكور يكتب أن عمك إسماعيل قد جمع وهو فى نية قصد دمشق ويطبق فيقعد الطير بعلبك فيأخذ الصالح إسماعيل البطاقة ويزور على الحكيم أن عمك إسماعيل قد جمع ليعاضدك وهو واصل إليك ويسرجه على حمام نابلس فيعتمد الصالح أيوب على بطاقة الحكيم ويترك ما يرد إليه من غيره من الأخبار واتفق أيضًا أن الملك المظفر صاحب حماة علم بسعى الصالح إسماعيل صاحب بعلبك فى أخذ دمشق مع خلوها ممن يحفظها فجهز نائبه سيف الدين على بن أبى على ومعه جماعة من عسكر حماة وغيرهم وجهز معه من السلاح

والمال شيئاً كثيراً ليصل إلى دمشق ويحفظها لصاحبها وأظهر الملك المظفر وابن أبي على أنهما قد اختصما وأن ابن أبي على قد غضب واجتمع معه هذه الجماعة وقد قصدوا فراق صاحب حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرنج كل ذلك خوفاً من صاحب حمص شيركوه لئلا يقصد ابن أبي على ويمنعه فلم تخف عن شيركوه هذه الحيلة ، ولما وصل ابن أبي على إلى بحيرة حمص قصده شيركوه وأظهر أنه مصدقه فيما ذكر وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه وأخذ ابن أبي على معه وأرسل من استدعى باقى أصحاب ابن أبي على إلى الضيافة ، فمنهم من سمع ودخل إلى حمص ، ومنهم من هرب فسلم ، فلما حصلوا عنده بحمص قبض على ابن أبي على وعلى جميع من دخل حمص من الحمويين ، واستولى على جميع ما كان معهم من السلاح والخزانة ، وبقى يعذبهم ويطلب منهم أموالهم حتى استصفاها . ومات ابن أبي على وغيره فى حبسه بحمص والذى سلم وبقى الى بعد موت شيركوه خلص ، ولما جرى ذلك ضعف الملك المظفر صاحب حماة ضعفا كثيرًا ، وأما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قصد عمه إسماعيل دمشق رحل من نابلس إلى الغور فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق واعتقال ولده المغيث عمر ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح إسماعيل بدمشق ، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه وأستاذ داره حسام الدين ابن أبي على ، وأصبح الملك الصالح أيوب لا يدرى ما يفعل ولا له موضع يقصده فقصد نابلس ونزل بها بمن بقى معه ، وسمع الناصر داود بذلك وكان قد وصل من مصر إلى الكرك فنزل بعسكره ، وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها وأمر بالقيام فى خدمته بكل ما يختاره ، ولما اعتقل الصالح أيوب بالكرك تفرق عنه باقى أصحابه ومماليكه ولم يبق منهم معه غير عدة يسيرة ، ولما جرى ذلك أرسل أخو الصالح الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر داود فلم يسلمه الناصر داود فأرسل الملك العادل وتهدد الملك الناصر يأخذه بلاده فلم يلتفت إلى ذلك .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك قصد الناصر داود القدس ، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود أيضاً فإنه لما خربت القدس أولا لم يخرب برج داود فخربه فى هذه المرة .

وفى هذه السنة : توفى الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص بن ناصر الدين محمد بن

شيركوه بن شاذى وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة لأن صلاح الدين ملكه حمص سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بعد موت أبيه محمد بن شيركوه وكان عمره يومئذ نحو اثنتى عشرة سنة ، وكان شيركوه المذكور عسوفاً لرعيته وملك حمص بعده ولده الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه .

وفى هذه السنة : استولى بدر ا لدين لولو صاحب الموصل على سنجار وأخذها من الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل .

ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر

وفى هذه السنة : فى أواخر رمضان أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب واجتمعت عليه مماليكه وكاتبه إليها زهير وسار الناصر داود وصحبته الصالح أيوب إلى قبة الصخرة وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود ، ولما تملك الصالح أيوب لم يف للناصر بذلك وكان يتأول فى يمينه أنه كان مكرها ثم سارا إلى غزة ، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك ، وبرز بعسكر مصر ونزل على بلبيس لقصد الناصر داود والصالح أخيه ، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل المستولى على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشام وأن يستأصلهما فسار الصالح إسماعيل بعساكر دمشق ونزل الفوار ، فبينا الناصر داود والصالح أيوب فى هذه الشدة وهما بين عسكرين قد أحاطا بهما إذ ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدمهم أيبك الأسمر وأحاطوا بدهليز الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل وقبضوا عليه وجعلوه فى خيمة صغيرة وعليه من يحفظه ، وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه فأتاه فرج لم يسمع بمثله ، وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود إلى مصر وبقى فى كل يوم يتلقى الملك الصالح فوجًا بعد فوج من الأمراء والعسكر ، وكان القبض على الملك العادل ليلة الجمعة ثامن ذى القعدة من هذه السنة ، فكانت مدة ملكه نحو سنتين ، ودخل الملك الصالح أيوب إلى قلعة الجبل بكرة الأحد لست بقين من الشهر المذكور وزينت له البلاد وفرح الناس بقدمه وحصل للملك المظفر صاحب حماة من السرور والفرح بملك الملك الصالح مصر مالا يمكن شرحه فإنه ما زال على ولائه حتى إنه لما أمسك بالكرك كان يخطب له بحماة وبلادها ، ولما استقر الملك الصالح أيوب فى ملك مصر وصحبته الناصر داود حصل عند كل

ولحدمعها استشعار من صاحبه وخاف الناصر داود أن يقبض عليه فطلب دستوراً وتوجه إلى بلاد الكرك وغيرها .

ذكر وفاة صاحب ماردين

فى هذه السنة : وقيل فى سنة ست وثلاثين توفى ناصر الدين أرتق أرسلان ابن إيلغازى ابن البى بن تمرناش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، وكان يلقب الملك المنصور وملك المذكور ماردين بعد أخيه حسام الدين بولق أرسلان حسبما تقدم ذكره فى سنة ثمانين وخمسمائة ، وبقى أرتق أرسلان متغلبا عليه مملوك والده البفش حتى قتله أرتق أرسلان فى سنة إحدى وستمائة ، واستقل أرتق أرسلان يملك ماردين حتى توفى فى هذه السنة ، ولما مات الملك المنصور أرتق أرسلان ملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازى بن أرتق أرسلان المذكور ، حتى توفى فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة ظنا ، ثم ملك بعده فى السنة المذكورة ابنه الملك المظفر قرا أرسلان بن غازى بن أرتق أرسلان ، وكانت وفاة المظفر قرا أرسلان المذكور سنة إحدى وتسعين وستمائة ظنا ، ثم ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود ابن قرا أرسلان سنة وتسعة أشهر ثم توفى ، وملك بعده أخوه الملك المنصور نجم الدين غازى بن قرا أرسلان فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة ظنا ، ونقلت وفيات المذكورين حسبما هو مشروح من تقويم حل ماردين ذكر فيه تواريخ بنى أرتق ولم اتحقق صحة ذلك وسنذكر فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازى المذكور فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازى المذكور فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : قبض الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بعد استقراره فى ملك مصر على أيبك الأسمر مقدم المماليك الأشرفية وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه وأودعهم الحبوس ، وأخذ فى إنشاء مماليكه ، وشرع الملك الصالح أيوب المذكور فى هذه السنة فى بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكناً لنفسه .

وفيها : نزل الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب عن قلعة جعبر وبالس وسلمها إلى أخته ضيفة خانون صاحبة حلب ، وتسلم عوض ذلك أعزازو بلاداً معها تساوى ما نزل عنه ، وكان سبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج وخشى من أولاده وتغلبهم عليه ففعل ذلك ، لأنه كان ببلاد قريبة إلى حلب لا يمكنهم التعرض إليه .

وفى هذه السنة : كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب ، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين ، ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور واستولى الخوارزميون على ثقال الحلبيين وأسروا منهم عدة كثيرة ، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشترى غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً ، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على جبلان وكثر عبثهم وفسادهم ونهبهم فى بلاد حلب وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبوه التتر ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة ، وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ذكره ، ثم رجعوا إلى بلادهم وهى حران وما معها بعد أن خربوا بلد حلب .

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران وقطعوا الفرات من الرقة ووصلوا إلى الجبول ، ثم إلى تل أعزاز ثم إلى سرمين ثم إلى المعرة وهم ينهبون ما يجدونه ، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم .وكان قد وصل الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح إسماعيل المستولى على دمشق نجدة للحلبيين فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية ، واستمرت الخوارزمية على ماهم عليه من النهب حتى نزلوا على شَيْزَر ، ونزل عسكر حلب على تل السلطان ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها الملك المظفر إلى الملك الصالح أيوب ، ثم سارت الخوارزمية إلى سَلَمْية ثم إلى الرصافة طالبين الرقة ، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقتهم العرب فأرمت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى ووصلت الخوارزمية إلى الفرات فى أواخر شعبان فى هذه السنة ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص إبراهيم قاطع صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم إلى الليل فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها وقصدوا الخوارزمية واتقعوا قريب الرها لتسع بقين من رمضان هذه السنة ، فولى الخوارزمية منهزمين وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم ، ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها وهربت الخوارزمية إلى بلد عانة وبادر بدر الدين لولو صاحب الموصل إلى

نصيبين ودارا وكانتا للخوارزمية فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيرًا فى بلدة دارا من حين أسروه فى كسرة الحلبيين فحمله بدر الدين لولو إلى الموصل وقدم له ثيابا وتحفاً وبعث به إلى عسكر حلب ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وما مع ذلك ، واستولى صاحب حمص المنصور إبراهيم على بلد الخابور ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم ولم يزل ذلك بيده حتى توفى أبوه الملك الصالح أيوب بمصر وسار إليها المعظم المذكور على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وبقى ولد المعظم وهو الملك الموحد عبد الله ابن المعظم توران شاه ابن الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب مالكا لحصن كيفا إلى أيام التتر وطالت مدته بها .

ذكر ما كان من الملك الجواد يونس

فى هذه السنة : كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل ، وصورة ماجرى له أنه كان قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار وعانة فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه ، وسار لولو صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس المذكور غائب عنها واستولى عليها ولم يبق بيد يونس من البلاد شىء فسار على البرية إلى غزة وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله فى المصير إليه فلم يجبه إلى ذلك فسار يونس حينئذ ودخل إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح إسمعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد يونس المذكور من الفرنج واعتقله ثم خنقه .

وفى هذه السنة : ولى الملك الصالح أيوب الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام القضاء بمصر والوجه القبلى ، وكان عز الدين المذكور بدمشق فلما قوى خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر سلم الصالح إسماعيل صفد والشقيف إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب ، فعظم ذلك على المسلمين وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح إسماعيل بسبب ذلك ، وكذلك جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب ثم خافا من الصالح إسماعيل فسار عز الدين ابن عبد السلام إلى مصر وتولى بها القضاء كرهًا ، وسار جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب إلى الكرك وأقام عند الملك الناصر داود صاحب الكرك ونظم له مقدمته الكافية فى النحو ، ثم بعد ذلك سافر ابن الحاجب إلى الديار المصرية .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة :

والصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص وصاحبة حلب متفقون على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر ولم يوافقهم صاحب حماة على ذلك وأخلص فى الانتهاء إلى صاحب مصر .

وفى هذه السنة : اتقعت الخوارزمية مع الملك المظفر غازى صاحب ميافارقين ابن الملك العادل .

فيها : فى شعبان أصاب بن الملك المظفر صاحب حماة الفالج وهو جالس بين أصحابه فى قلعة حماة وبقى أياما لا يتكلم ولا يتحرك وكان ذلك فى أواخر فصل الشتاء وأرجف الناس بموته وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل ثم خف مرض الملك المظفر وفتح عينيه وصار يتكلم باللفظة واللفظتين لا يكاد يفهم وكان العاطب الجانب الأيمن منه وبعث إليه الصالح صاحب مصر طبيبا حاذقا نصرانياً يقال له النفيس ابن طليب فلم تنجع فيه المداواة واستمر على ذلك إلى أن توفى بعد سنتين وكسر على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : فى ذى الحجة توفى الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل بن أيوب بإعزاز وهى التى تعوضها عن قلعة جعبر ونقل إلى حلب فدفن فى الفردوس وتسلم ثواب الملك الناصر يوسف صاحب حلب قلعة أعزاز وأعمالها .

وفيها : فى شعبان توفى الشيخ العلامة . كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعه بن مالك الفقيه الشافعى ، كان إمام وقته فى مذهب الشافعى وغيره ، وكان يشتغل الحنفيون عليه فى مذهب أبى حنيفة ويحل الجامع الكبير فى مذهب أبى حنيفة وكان متقنا علم المنطق والطبيعى والإلهى ، وكان إماما مبرزاً فى العلم الرياضى وأتقن المجسطى وأقليدس والموسيقى والحساب بأنواعه ، وكان أهل الذمة يقرءون عليه التوراة والإنجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحا يعترفون أنهم لا يجدون من يوضح لهم مثله ، وكان إماما فى العربية والتصريف وكان يقرى كتاب سيبوية والمفصل وغيرهما ، وكذلك كان إماما فى التفسير والحديث ، وقدم الشيخ أثير الدين الأبهرى واسمه المفضل بن عمر بن المفضل إلى الموصل واشتغل على الشيخ كمال الدين المذكور ، وكان الشيخ أثير الدين الأبهرى المذكور حينئذ إماماً مبرزًا فى العلوم ومع ذلك يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه ويقرأ عليه .

قال القاضى شمس الدين ابن خلكان : ولقد شاهدت بعينى أثير الدين الأبهرى وهو يقرأ المجسطى على الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور ، واستمر سنين عديدة يشتغل عليه ، وكان الأثير إذ ذاك صاحب تصانيف يشتغل فيها الناس ، وقصد تقى الدين عثمان بن

عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح الفقيه الشافعى الشيخ كمال الدين المذكور وسأله فى أن يقرئه المنطق سراً وتردد ابن الصلاح إلى الشيخ كمال الدين مدة يقرأ عليه المنطق ولا يفهمه ، فقال له ابن يونس المذكور يا فقيه المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن ، فقال له ابن الصلاح ولم ذلك ؟ فقال لأن الناس يعتقدون فيك الخير وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد فكأنك تفسد عقائدهم فيك ولا يصح لك من هذا الفن شىء ، فقبل ابن الصلاح إشارته وترك قراءته ، وكان الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور يتهم فى دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه ، وكانت تعتريه غفلة لاستيلاء الفكرة عليه فعمل فيه بعضهم :

أجدك أن قد جاد بعد التعبس   غزال بوصل لى وأصبح مونسى
وعاطيته صهباء من فيه مزجها   كرقة شعرى أو كدين ابن يونس

وكانت ولادته فى صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بالموصل ، وبها توفى فى التاريخ المذكور رحمه الله تعالى :

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة :

وفى هذه السنة : كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازى صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص مصاف قريب الخابور عند المجدل فى يوم الخميس لثلاث بقين من صفر هذه السنة فولى المظفر غازى والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة ونهبت منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً ونهب وطاقات الخوارزمية ونساؤهم أيضا ونزل الملك المنصور إبراهيم فى خيمة الملك المظفر غازى واحتوى على خزانته ووطاقه ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب فى مستهل جمادى الأولى مؤيدين منصورين .

ذكر وفاة الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب وهى والدة الملك العزيز

وفى هذه السنة : فى ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى ، توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان مرضها قرحة فى مراق البطن وحمى ودفنت بقلعة حلب ، وكان مولدها سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب حين كانت حلب لأبيها الملك العادل قبل أن ينتزعها منه أخوه السلطان صلاح الدين ويعطيها ابنه الظاهر غازى ، فاتفق مولدها ووفاتها بقلعة حلب ، ولما ولدت كان عند أبيها الملك العادل ضيف فسماها ضيفة ، فكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة ، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد تزوج قبل ضيفة خاتون بأختها غازية وتوفيت ، فلما توفيت غازية تزوج بأختها ضيفة

خاتون المذكورة ، وكانت ضيفة خاتون قد ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز وتصرفت فى الملك تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام وكانت مدة ملكها نحو ست سنين ، ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه أنه بلغ وحكم واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف إليها والمرجع فى الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصى الخاتونى .

ذكر وفاة المستنصر بالله

وفى هذه السنة : توفى المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر محمد بن الإمام الناصر أحمد بكرة الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة ، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرًا ، وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية ، وهو الذى بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة ، وجعل لها أوقافا جليلة على أنواع البر ، ولما مات المستنصر اتفق آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابى على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وهو سابع ثلاثينهم وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور ، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأى فاستبدّ كبراء دولته بالأمر وحسنوا له قطع الأجناد وجمع المال ومداراة التتر ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة :

فى هذه السنة : قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج ارسلان السلجوقى صاحب بلاد الروم ، فأرسل واستنجد بالحلبيين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسى ، وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة ، وقتل التتر وأسروا منهم خلقًا كثيراً ، وتحكمت التتر فى البلاد واستولوا أيضا على خِلَاط وآمد وبلادهما وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعاقل ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان ودخل فى طاعتهم ، ثم توفى غياث الدين كيخسرو المذكور بعد ذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة حسبما نذكره إن شاء الله تعالى ، وخلف صغيرين وهما ركن الدين وعز الدين ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية وبقى ركن الدين فى الملك تحت حكم التتر والحاكم البراواناه معين الدين سليمان والبرواناه لقبه وهو اسم الحاجب بالعجمى ، ثم إن البراوناه قتل ركن الدين وأقام فى الملك ولدًا له صغيرًا .

وفيها : كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح إسماعيل صاحب دمشق

فى الصلح ، وأن يطلق الصالح إسماعيل المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وحسام الدين بن أبى على الهدبانى وكانا معتقلين عند الملك الصالح إسماعيل فأطلق حسام الدين بن أبى على وجهزه إلى مصر واستمر الملك المغيث ابن الصالح أيوب فى الاعتقال واتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضد بالفرنج وسلما أيضاً إلى الفرنج عسقلان وطبرية ، فعمر الفرنج قلعتيهما وسلما أيضا إليهم القدس بما فيه من المزارات .

قال القاضى جمال الدين بن واصل :

ومررت إذ ذاك بالقدس متوجهًا إلى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قنانى الخمر للقربان .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة :

ذكر المصاف الذى كان بين عسكر مصر ومعهم الخوارزمية وبين عسكر دمشق ومعهم الفرنج وصاحب حمص

فى هذه السنة : وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح إسماعيل ، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف بلاد دمشق حتى وصلوا إلى غزة ، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب ، وكان من أكبر مماليكه وهو الذى دخل معه الحبس لما حبس فى الكرك ، وأرسل الملك الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، وسار صاحب حمص جريدة ودخل عكا فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا أيضًا بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر داود ذلك ، والتقى الفريقان بظاهر غزة فولى عسكر دمشق وصاحب حمص إبراهيم والفرنج منهزمين وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقًا عظيمًا ، واستولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ووصلت الأسرى والرءوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام ، ثم أرسل الملك الصالح صاحب مصر باقى عسكر مصر مع معين الدين ابن الشيخ واجتمع إليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص وخرجت هذه السنة وهم محاصروها .

ذكر وفاة صاحب حماة

فى هذه السنة : توفى جد الملك المظفر صاحب حماة تقى الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب يوم السبت ثمان جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، وكانت مدة مملكته لحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام كان منها مريضا بالفالج سنتين وتسعة أشهر وأياما ، وكانت وفاته وهو مفلوج بحمى حادة عرضت له ، وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان شهما شجاعا فطنا ذكيا ، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم ، استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف وكان مهندسا فاضلا فى العلوم الرياضية فبنى للملك المظفر المذكور أبراجا بحماة وطاحونا على النهر العاصى ، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماة .

قال القاضى جمال الدين بن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضع دقيقة فيها ، ولما مات الملك المظفر صاحب حماة ملك بعده ولده الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود المذكور وعمره حينئذ عشر سنين وشهر واحد وثلاثة عشر يوما والقائم بتدبير المملكة سيف الدين طغريل مملوك الملك المظفر ومشاركه الشيخ شرف الدين عبدالعزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ والطواشى مرشد والوزير بهاء الدين بن التاج ومرجع الجميع إلى والدة الملك المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل .

وفيها : بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب وفاة ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر فى حبس الصالح إسماعيل صاحب دمشق فاشتد حزن الصالح أيوب عليه وحنقه على الصالح إسماعيل .

وفى هذه السنة : توفى الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب ميافارقين ، واستقر بعده فى ملكه ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن غازى .

وفيها : سير من حماة الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن نصر الله المعروف ببيته ببنى المغيرك رسولا إلى الخليفة ببغداد وصحبته تقدمة من السلطان الملك المنصور صاحب حماة .

وفيها : توفى القاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله بن عبدالمنعم بن على بن محمد الشافعى عرف بابن أبى الدم قاضى حماة ، وكان قد توجه فى الرسلية إلى بغداد فمرض فى المعرة وعاد إلى حماة مريضا فتوفى بها وهو الذى ألف التاريخ الكبير المظفرى وغيره .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة :

فيها : سير الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة الذى كان سامريا وأسلم إلى العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه فلم يجب الخليفة إلى ذلك وكان أمين الدولة غالبا على الملك الصالح إسماعيل المذكور بحيث لا يخرج عن رأيه .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفيها : تسلم عسكر الملك الصالح أيوب ومقدمهم معين الدين ابن الشيخ دمشق من الصالح إسماعيل ابن الملك العادل ، وكان محصورًا معه بدمشق إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص فتسلم دمشق على أن يستقر بيد الملك الصالح إسماعيل بعلبك وبصرى والسواد ويستقر بيد صاحب حمص وماهو مضاف إليها فأجابهما معين الدين ابن الشيخ إلى ذلك ، ووصل إلى دمشق حسام الدين ابن أبى على بمن كان معه من العسكر المصرى ، واتفق بعد تسليم دمشق أن معين الدين ابن الشيخ مرض وتوفى بها وبقى حسام الدين بن أبى على نائبا بدمشق للملك الصالح أيوب ، ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح إسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والإقطاعات ما يرضى خاطرهم ، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب وصاروا مع الملك الصالح إسماعيل ، وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك ، وساروا إلى دمشق وحصروها وغلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقام حسام الدين ابن أبى على الهدبانى فى حفظ دمشق أتم قيام وخرجت السنة والأمر على ذلك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة : قصدت التتر بغداد وخرجت عساكر بغداد للقائهم ولم يكن للتتر بهم طاقة فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل .

وفى هذه السنة : توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين بدمشق بدار العقيقى ، وكانت قد جاوزت ثمانين سنة : وبنت مدرسة للحنابلة بجبل الصالحية .

وفيها : توفى الشيخ تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن الصلاح الفقية المحدث .

وفيها : توفى علم الدين على بن محمد بن عبد الصمد السخاوى شرح قصيدة الشاطبى فى القراءات وشرح المفصل للزمخشرى وسمى شرحه المفضل فى شرح المفصل وله مجموع سماه كتاب سفر السعادة وسفير الإفادة ذكر فيه مسائل مشكلة فى النحو وعدة من أبيات المعانى ولغة غريبة .

وفى هذه السنة : لما تسلم دمشق الملك الصالح أيوب تسلمت نواب الملك المنصور صاحب حماة سَلْمية وانتزعوها من صاحب حمص ، واستقرت سَلَمْية فى هذه السنة فى ملك الملك المنصور صاحب حماة .

وفيها : توفى الشيخ موفق الدين أبو البقاء يعيش بن محمد بن على الموصلى الأصل الحلبى المولد والمنشأ النحوى ويعرف بابن الصائغ وكان ظريفا حسن المحاضرة شرح المفصل شرحًا مستوفيًا ليس فى الشروح مثله وله غير ذلك وولد فى رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحلب وتوفى بها فى التاريخ المذكور ودفن بالمقام .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة :

ذكر كسرة الخوارزمية على القصب واستيلاء الصالح أيوب على بعلبك

كنا قد ذكرنا اتفاق الخوارزمية مع الصالح إسماعيل والناصر داود ومحاصرتهم دمشق وبها حسام الدين بن أبى على ، ولما وقع ذلك اتفق الحلبيون والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وصاروا مع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وقصدوا الخوارزمية ، فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى نحو الحلبيين وصاحب حمص والتقوا على القصب فى هذه السنة ، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه إلى حلب ، ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشولخان الخوارزمى ، فلحقوا بالتتر وصاروا معهم ، وانقطع منهم جماعة وتفرقوا فى الشام وخدموا به وكفى الله الناس شرهم ، ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فرح فرحاً عظيماً ودقت البشائر بمصر وزال ما كان عنده من الغيظ على إبراهيم صاحب حمص ، وحصل بينهما التصافى بسبب ذلك ، وأما الصالح إسماعيل فإنه سار إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب واستجار به ، وأرسل

الصالح أيوب يطلبه فلم يسلمه الملك الناصر إليه ، ولما جرى ذلك رحل حسام الدين بن أبى على الهدبانى بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح إسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان وحمل أولاد الصالح إسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك ، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الملك الصالح إسماعيل وأستاذ داره ناصر الدين يغمور فاعتقلا بمصر أيضاً وزينت القاهرة ومصر ودقت البشائر بهما لفتح بعلبك ، واتفق فى هذه الأيام وفاة صاحب عجلون وهو سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضاً ، ولما جرى ماذ كرناه أرسل الملك الصالح أيوب عسكراً مع الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ وكان فخر الدين ابن الشيخ قد اعتقله الملك العادل أبو بكر بن الملك الكامل ، ثم لما ملك الملك الصالح أيوب مصر أفرج عنه وأمره بملازمة بيته فلازمه مدة ثم قدمه فى هذه السنة على العسكر وجهزه إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك فسار فخر الدين المذكور واستولى على جميع بلاد الملك الناصر وولى عليها وسار إلى الكرك وحاصرها وخرب ضياعها وضعف الملك الناصر ضعفا بالغا ولم يبق بيده غير الكرك وحدها .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : حبس الصالح أيوب مملوكه بيبرس وهو الذى كان معه لما اعتقل فى الكرك ، وسببه أن بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية وإلى الناصر داود وصار معهم على أستاذه لما جرده إلى غزة كما تقدم ذكره ، فأرسل استاذه الصالح أيوب واستماله فوصل إليه فاعتقله فى هذه السنة وكان آخر العهد به .

وفيها : أرسل الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ابن شيركوه وطلب دستورًا من الملك الصالح أيوب ليصل إلى بابه وينتظم فى سلك خدمته ، وكان قد حصل بإبراهيم المذكور السل ، وسار على تلك الحالة من حمص متوجهًا إلى الديار المصرية ، ووصل إلى دمشق فقوى به المرض وتوفى فى دمشق فنقل إلى حمص ودفن بها ، وملك بعده ولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم المذكور .

وفى هذه السنة : بعد فتوح دمشق وبعلبك استدعى الملك الصالح أيوب خدمة حسام الدين بن أبى على إلى مصر ، وأرسل موضعه نائباً بدمشق الأمير جمال الدين بن مطروح ، ولما وصل حسام الدين بن أبى على إلى مصر استنابه الملك الصالح بها ، وسار الملك الصالح أيوب إلى دمشق ثم سار منها إلى بعلبك ثم عاد إلى دمشق ، ووصل إلى خدمة الملك الصالح أيوب بدمشق الملك المنصور محمد صاحب حماة والملك الأشرف موسى صاحب حمص فأكرمهما وقربهما

ثم أعطاهما الدستور فعادا إلى بلادهما ، واستمر الملك الصالح بالشام حتى خرجت هذه السنة .

وفى هذه السنة : توفى عماد الدين داود بن موشك بالكرك وكان جامعًا لمكارم الأخلاق .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة :

وفيها : عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى الديار المصرية .

وفيها : فتح فخر الدين ابن الشيخ قلعتى عسقلان وطبرية والملك الصالح بالشام بعد محاصرتهما مدة ، وكنا قد ذكرنا تسليمهما إلى الفرنج فى سنة إحدى وأربعين وستمائة فعمروهما واستمرتا بأيدى الفرنج حتى فتحتا فى هذه السنة .

وفيها : سلم الأشرف صاحب حمص شميميس للملك الصالح أيوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للملك الصالح فى ملك باقى الشام .

وفيها : توفى الملك العادل أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل بالحبس وأمه الست السوداء تعرف ببنت الفقيه نصر ، وكان مسجوناً من حين قبض عليه ببلبيس إلى هذه الغاية ، فكان مدة مقامة بالسجن نحو ثمان سنين ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وخلف ولداً صغيرا وهو الملك المغيث فتح الدين عمر وهو الذى ملك الكرك فيما بعد ، ثم قتله الملك الظاهر بيبرس على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : توجه الطواشى مرشد المنصورى ومجاهد الدين أمير جندار من حماة إلى حلب وأحضرا بنت الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر صاحب حلب وهى عائشة خاتون زوج الملك المنصور صاحب حماة ، وحضرت معها أمها فاطمة خاتون بنت السلطان الكامل ابن الملك العادل ووصلت إلى حماة فى العشر الأوسط من رمضان من هذه السنة أعنى سنة خمس وأربعين وستمائة ، ووصلت فى تجمل عظيم واحتفل للقائها بحماة احتفالا عظيما .

وفى هذه السنة : توفى علاء الدين قرا سنقر الساقى العادلى أحد مماليك الملك العادل بن أيوب وصارت مماليكه بالولاء للملك الصالح أيوب ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحى الذى صار له ملك مصر والشام على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : توفى عمر بن محمد بن عبد الله المعروف بالشلوبينى بأشبيلية كان فاضلا إماما فى النحو شرح الجزولية وصنف فى النحو غير ذلك ، وكان فيه مع هذه الفضيلة التامة بله وغفلة ، وكنيته أبو على والشلوبينى نسبة إلى شلوبين ، وهو حصن منيع من حصون الأندلس من معاقل سواحل غرناطة على بحر الروم منه عمر الشلوبينى المذكور ، هذا ما نص عليه ابن سعيد

المغربى فى كتابه الكبير المسمى (بالمغرب فى أخبار أهل المغرب) فى المجلدة الخامسة عشرة بعد ذكر غرناطة .

قال : وقد وصف حصن شلوبين المذكور ، ومنه الشيخ أبو على عمر الشالوبينى ، قال : وقرأت عليه النحو وكان إمام نحاة أهل المغرب وكان فى طبقة أبى على الفارسى ، ومن هنا يتحقق أن الذى نقله القاضى شمس الدين بن خلكان ومن تابعه أن الشلوبين هو الأبيض الأشقر بلغة أهل الأندلس وهم محض لعدم وقوفهم على كتاب (المغرب فى حلى أهل المغرب)المذكور .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة :

وفيها : أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرا مع شمس الدين لولؤ الأرمنى فحاصروا الملك الاشرف موسى بحمص مدة شهرين فسلم إليهم حمص وتعوض عنها بتل باشر مضافا إلى ما بيده من تدمر والرحبة ، ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب ذلك شق عليه وسار إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ، وكان قد حصل له مرض وورم فى مأبطه ثم فتح وحصل منه ناصور ووصل الملك الصالح إلى دمشق وأرسل عسكرا إلى حمص مع حسام الدين ابن أبى على فخر الدين ابن الشيخ فنازلوا حمص وحصروها ونصبوا عليها منجنيقا مغربيا يرمى بحجر زنتها مائة وأربعون رطلا بالشامى مع عدة منجنيقات أخرى وكان الشتاء والبرد قويًا ، واستمر عليها الحصار واتفق حينئذ وصول الخبر إلى الملك الصالح وهو بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط وكان أيضًا قد قوى مرضه ووصل أيضا نجم الدين الباذراى رسول الخليفة وسعى فى الصلح بين الملك الصالح والحلبيين وأن تستقر حمص بيد الحلبيين فأجاب الملك الصالح إلى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حمص بعد أن أشرفوا على أخذها ثم رحل الملك الصالح عن دمشق فى محفة لقوة مرضه واستناب بدمشق جمال الدين بن يغمور وعزل ابن مطروح وأرسل حسام الدين ابن أبى على قدامه ليسبقه إلى مصر وينوب عنه بها .

وفيها : فى يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من السنة المذكورة أعنى سنة ست وأربعين وستمائة ، توفى أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين وكان والده عمر حاجبا للأمير عز الدين بن موسك الصالحى وكان كرديا واشتغل ولده أبو عمرو والمذكور بالقاهرة فى صغره بالقرآن والفقه على مذهب مالك بن أنس وبالعربية وبرع فى علومه وأتقنها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها وأكب الخلق على الاشتغال عليه ، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم انتقل إلى الإسكندرية فتوفى بها ، وكان مولد الشيخ أبى عمرو المذكور فى أواخر سنة سبعين وخمسمائة بإسنا بليدة بالصعيد ، وكان الشيخ أبو عمرو

المذكور متفننا فى علوم شتى وكان الأغلب عليه علم العربية وأصول الفقه صنف فى العربية مقدمته الكافية واختصر كتاب الأحكام للآمدى فى أصول الفقه فطبق ذكر هذين الكتابين أعنى الكافية ومختصره فى أصول الفقه جميع البلاد خصوصابلاد العجم ، وأكب الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا وله غيرهما عدة مصنفات .

وفيها : أعنى فى سنة ست وأربعين وستمائة توفى عز الدين أيبك المعظمى فى محبسه بالقاهرة ، وكان المذكور قد ملك صرخد فى سنة ثمان وستمائة حسبما تقدم ذكره فى السنة المذكورة .

وقال ابن خلكان : إنه ملك صرخد فى سنة إحدى عشرة وستمائة ، قال : لأن استاذه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب حج فى السنة المذكورة وأخذ صرخد من صاحبها ابن قراجا وأعطاها مملوكه أيبك المذكور ، والظاهر أن الأول أصح واستمرت فى يد أيبك إلى سنة أربع وأربعين وستمائة فأخذها الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل من أيبك المذكور وأمسك أيبك فى السنة المذكورة وحمله إلى القاهرة وحبسه فى دار الطواشى صواب واستمر معتقلا بها حتى توفى معتقلا فى هذه السنة فى أوائل جمادى الأولى ودفن خارج باب النصر فى تربة شمس الدولة ، ثم نقل إلى الشام ودفن فى تربة كان قد أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير رحمه الله تعالى هكذا نقلت ذلك من وفيات الأعيان .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة :

ذكر ملك الفرنج دمياط ونزول الملك الصالح أشمون طناخ

وفى هذه السنة : سار ريد إفرنس وهو من أعظم ملوك الفرنج وريد بلغتهم هو الملك أى ملك إفرنس وإفرنس أمة عظيمة من أمم الفرنج وكان جمع ريد افرنس نحو خمسين ألف لمقاتل وشتى فى جزيرة قبرس ، ثم سار ووصل فى هذه السنة إلى دمياط وكان قد شحنها الملك الصالح بآلات عظيمة وذخائر وافرة وجعل فيها بنى كنانة وهم مشهورون بالشجاعة وكان قد أرسل الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط ولما وصلت الفرنج عبر فخر الدين ابن الشيخ من البر الغربى إلى البر الشرقى ووصل الفرنج إلى البر الغربى لتسع بقين من صفر هذه السنة ، ولما جرى ذلك هربت بنو كنانة وأهل دمياط منها وأخلوا دمياط وتركوا أبوابها مفتحة فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على مابها من الذخائر والسلاحات ، وكان هذا من أعظم المصائب وعظم ذلك على الملك الصالح وأمر

بشنق بنى كنانة فشنقوا عن آخرهم ، ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر هذه السنة وقد اشتد مرضه وهو السل والقرحة التى كانت به وقد أيس منه .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على الكرك

وفى هذه السنة : سار الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب من الكرك إلى حلب لما ضاقت عليه الأمور مستجيرًا بالملك الناصر صاحب حلب ، وكان قد بقى عند الناصر داود من الجوهر مقدار كثير قال كان يساوى مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان ، فلما وصل إلى حلب سير الجوهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة المستعصم ووصل إليه خط الخليفة بتسليمه فلم تقع عينه عليه بعد ذلك ، ولما سار الناصر داود عن الكرك استناب عليها ابنه عيسى ولقبه الملك المعظم ، وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى المذكور هما الأمجد حسن والظاهر شاذى فغضب الأخوان المذكوران من تقديم أخيهما عيسى عليهما ، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيهما عيسى وتوجه الأمجد حسن إلى الملك الصالح أيوب وهو مريض على المنصورة وبذل له تسليم الكرك على إقطاع له ولأخيه بديار مصر فأحسن إليه الصالح أيوب وأعطاهما إقطاعا أرضاهما وأرسل إلى الكرك وتسلمها يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة وفرح الملك الصالح بالكرك فرحا عظيما مع ماهو فيه من المرض لما كان فى خاطره من صاحبها .

ذكر وفاة الملك الصالح أيوب

وفى هذه السنة : توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب فى ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان هذه السنة أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة ، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة ، وكان مهيبا عالى الهمة عفيفا طاهر اللسان والذيل شديد الوقار كثير الصمت ، وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وسماهم البحرية وكان لا يجسر أن يخاطبه أحد إلا جوابا ولايتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص توضع بين يديه مع الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين ، وكان لايستقل أحد من أهل

دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته بالقصص ، وكان غاويًا بالعمارة بنى قلعة الجزيرة وبنى الصالحية وهى بلدة بالسايح وبنى له بها قصورا للتصيد وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش ، وكانت أم الملك الصالح أيوب جارية سوداء تسمى ورد المنى غشيها السلطان الملك الكامل فحملت بالملك الصالح ، وكان للملك الصالح ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر توفى فى حبس الصالح إسماعيل ، وكان قد توفى ولده الآخر قبله ولم يكن قد بقى له غير المعظم توران شاه بحصن كيفا ومات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى أحد ، فلما توفى أحضرت شجر الدر وهى جارية الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسنا وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفًا من الفرنج ، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم : السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم توران شاه المقيم بحصن كيفا وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر وكتبت إلى حسام الدين بن أبى على وهو النائب بمصر بمثل ذلك فحلفت الأمراء والأجناد والكبراء بالعسكر وبمصر وبالقاهرة على ذلك فى العشر الأوسط من شعبان هذه السنة ، وكان بعد ذلك تخرج الكتب والمراسم وعليها علامة الملك الصالح ، وكان يكتبها خادم يقال له السهيلى فلايشك أحد فى أنه خط السلطان ، فأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدًا لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا ، ولما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن أرباب الدولة لايجسرون أن يتفوهوا بذلك وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين فى مستهل رمضان من هذه السنة وقعة عظيمة استشهد فيها جماعة من كبار المسلمين ونزلت الفرنج بحر مساح ثم قربوا من المسلمين ثم إن الفرنج كبسوا المسلمين على المنصورة بكرة الثلاث لخمس مضين من ذى القعدة ، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه فى الحمام بالمنصورة فركب مسرعاً وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه وكان سعيدا فى الدنيا ومات شهيدا ثم حملت المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم واستمرت بهم الهزيمة وأما الملك المعظم توران شاه فإنه سار من حصن كيفا ووصل إلى دمشق فى رمضان من هذه السنة وعيدبها عيد الفطر ووصل إلى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة ، ثم اشتد القتال بين المسلمين والفرنج برًا وبحرًا ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شوانى فضعفت الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وأن يسلموا دمياط إلى المسلمين فلم تقع الإجابة إلى ذلك .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : وقع الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لولو وبين الملك الناصر صاحب حلب ، فأرسل إليه الملك الناصر عسكراً والتقوا مع المواصلة بظاهر نصيبين فانهزمت

المواصلة هزيمة قبيحة واستولى الحلبيون على أثقال لولو صاحب الموصل وخيمه وتسلم الحلبيون نصيبين وأخذوها من صاحب الموصل ، ثم ساروا إلى دارا فنازلوها وتسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر ، ثم تسلموا قرقيسيا وعادوا إلى حلب .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة :

ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم

لما أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط ، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم متوجهين إلى دمياط ، وركب المسلمون أكتافهم ، ولما استقر صباح الأربعاء خالطهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم إلا القليل وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفا على ما قيل وانحاز ريد أفرانس ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة وقيدريد أفرنس وجعل فى الدار التى كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ، ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب بها برج خشب للملك المعظم .

ذكر مقتل الملك المعظم

وفى هذه السنة : يوم الاثنين لليلة بقيت من المحرم ، قتل الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وسبب ذلك أن المذكور أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه ، واعتمد على بطانته.الذين وصلوا معه من حصن كيفا وكانوا أطرافا أراذل ، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف ، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذى صار سلطانا فيما بعد على ما سنذكره إن شاء الله تعالى فهرب الملك المعظم منهم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور على ما تقدم ذكره ، فأطلقوا فى البرج النار فخرج الملك المعظم من البرج هاربًا طالبًا البحر ليركب

فى حراقته فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه فى البحر فأدركوه وأتموا قتله فى نهار الاثنين المذكور ، وكانت مدة إقامته فى المملكة من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما ، ولما جرى ذلك اجتمعت الأمراء واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة ، وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركمانى أتابك العسكر ، وحلفوا على ذلك وخطب لشجر الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل ، وكانت شجر الدر قد ولدت من الملك الصالح ولداً ومات صغيراً وكان اسمه خليل فسميت والدة خليل ، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل ولما استقر ذلك وقع الحديث مع ريد أفرنس فى تسليم دمياط بالإفراج عنه فتقدم ريد أفرنس إلى من بها من نوابه فى تسليمها فسلموها وصعد إليها العلم السلطانى يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وأطلق ريد أفرنس فركب فى البحر بمن سلم معه نهار السبت غد الجمعة المذكورة وأقلعوا إلى عكا ووردت البشرى بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار ، وفى واقعة ريد أفرنس المذكورة يقول جمال الدين يحيى بن مطروح أبياتا منها :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق عن فؤول نصيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم	غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باقى والطواشى صبيح

ثم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر من السنة المذكورة ، وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق فى موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه ، وكان الملك السعيد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب الصبية قد سلمها إلى الملك الصالح أيوب فلما جرى ذلك قصد قلعة الصبيبة فسلمت إليه وكان من الملك السعيد ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك الملك المغيث الكرك

كان الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب قد أرسله الملك المعظم توران شاه لما وصل إلى الديار المصرية إلى الشوبك واعتقله بها وكان النائب على الكرك والشوبك بدر الدين الصوابى الصالحى ، فلما

جرى ماذكرناه من قتل الملك المعظم ولما استقر عليه الحال بادر بدر الدين الصوابى المذكور فأفرج عن المغيث وملكه القلعتين الكرك والشوبك ، وقام فى خدمته أتم قيام .

ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق

ولما جرى ما ذكرناه ولم يجب أمراء دمشق إلى ذلك ، كاتب الأمراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين فسار إليهم وملك دمشق ودخلها فى يوم السبت لثمان مضين من ربيع الآخر من هذه السنة ، ولما استقر الناصر المذكور فى ملك دمشق خلع على جمال الدين ابن يغمور وعلى الأمراء القيمرية به وأحسن إليهم واعتقل جماعة من الأمراء مماليك الملك الصالح وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة مديدة ثم سلمت جميعها إليه ، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين .

ذكر سلطنة أيبك التركمانى

ثم إن كبراء الدولة اتفقوا على إقامة عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى فى السلطنة ، لأنه إذا استقر أمر المملكة فى امرأة على ما هو عليه الحال تفسد الأمور فأقاموا أيبك المذكور وركب بالسناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة ، ولقب الملك المعز وأبطلت السكة والخطبة التى كانت باسم شجر الدر .

ذكر عقد السلطنة للملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن المعروف بأقسيس

ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، ثم اجتمعت الأمراء واتفقوا على أنه لابد من إقامة شخص من بنى أيوب فى السلطنة ، واجتمعوا على إقامة موسى المذكور ولقبوه الملك الأشرف ، وأن يكون أيبك التركمانى أتابكه ، وأجلس الأشرف موسى المذكور فى دست السلطنة ، وحضرت الأمراء فى خدمته يوم السبت لخمس مضين من جمادى الأولى من هذه السنة ، وكان بغزة حينئذ جماعة من عسكر مصر مقدمهم خاص ترك فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة إلى الصالحية بالسايح واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك

وخطبوا له بالصالحية يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر ونادوا بالقاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم ، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأيبك التركمانى بالأتابكية ، وفى يوم الأحد لخمس مضين من رجب رحل فارس الدين أقطاى الصالحى الجمدار متوجها إلى جهة غزة ومعه تقدير ألفى فارس ، وكان أقطاى المذكور مقدم البحرية فلما وصل إلى غزة اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه .

ذكر تخريب دمياط

وفى هذه السنة : اتفق آراء أكابر الدولة وهدموا سور دمياط فى العشر الأخير من شعبان هذه السنة لما حصل للمسلمين عليها من الشدة مرة بعد أخرى ، وبنوا مدينة بالقرب منها فى البر وسموها المنشية ، وأسوار دمياط التى هدمت من عمارة المتوكل الخليفة العباسى .

ذكر القبض على الناصر داود

وفى هذه السنة : مستهل شعبان قبض الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب على الناصر داود الذى كان صاحب الكرك وبعث به إلى حمص فاعتقل بها ، وذلك لأشياء بلغت الناصر يوسف عن المذكور خاف منها .

ذكر مسير السلطان الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الديار المصرية وكسرته

وفى هذه السنة : سار الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بعساكره من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته : الصالح إسماعيل بن العادل بن أيوب ، والأشرف موسى صاحب حمص وهو حينئذ صاحب تل باشر والرحبة وتدمر ، والمعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين ، وأخو المعظم المذكور نصرة الدين ، والأمجد حسن والظاهر شاذى ابنا الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب ، وتقى الدين عباس ابن الملك العادل بن أيوب ، ومقدم الجيش شمس الدين لولو الأرمنى وإليه تدبير المملكة فرحلوا من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان من هذه السنة .

ولما بلغ المصريين ذلك اهتموا لقتاله ودفعه وبرزوا إلى السايح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل وأفرج أيبك التركمانى حينئذ عن ولدى الصالح إسماعيل وهما المنصور إبراهيم والملك السعيد عبد الملك ابنا الصالح إسماعيل وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وخلع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح إسماعيل والتقى العسكران المصرى والشامى بالقرب من العباسية فى يوم الخميس عاشر ذى القعدة من هذه السنة ، فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك التركمانى فى جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى أيبك التركمانى ، ولما انكسرت المصريون وتبعتهم العساكر الشامية ولم يشكوا فى النصر بقى الملك الناصر تحت السناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لا يتحرك من موضعه ، فجعل المعز التركمانى بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ، ثم حمل أيبك التركمانى المذكور على طلب شمس الدين لولو فهزمهم وأخذ شمس الدين لولو أسيراً فضربت عنقه بين يديه ، وكذلك أسر الأمير ضياء الدين القيمرى فضربت عنقه ، وأسر يومئذ الملك الصالح إسماعيل والأشرف صاحب حمص والمعظم توران شاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ، ووصل عسكر الملك الناصر فى أثر المنهزمين إلى العباسية وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة تمت على المصريين ، فلما بلغهم هروب الملك الناصر اختلفت آراؤهم فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها ولو فعلوه لما كان بقى مع أيبك التركمانى من يقاتلهم به وكان هرب فإن غالب المصريين المنهزمين وصلوا إلى الصعيد ، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام ، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم وهو مجروح وكانت الواقعة يوم الخميس ووصل المنهزمون من المصريين إلى القاهرة فى غد الوقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر فى ملك الملك الناصر ديار مصر وخطب له فى الجمعة المذكورة بقلعة الجبل ومصر .

وأما القاهرة فلم يقم فيها فى ذلك النهار خطبة لأحد ثم وردت إليهم البشرى بانتصار البحرية ودخل أيبك التركمانى والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة ومعه الصالح إسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وعقب ذلك أخرج أيبك التركمانى أمين الدولة و زير الصالح إسماعيل وأستاذ داره يغمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعليك فشنقهما على باب قلعة الجبل رابع عشر ذى القعدة ، وفى ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة هجم جماعة على الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب وهو يمص قصب سكر وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفن هناك وعمره قريب من خمسين سنة ، وكانت أمه رومية من حظايا الملك العادل .

وفى هذه السنة : بعد هزيمة الملك الناصر صاحب الشام سار فارس الدين أقطاى بثلاثة آلاف فارس إلى غزة فاستولى عليها ثم عاد إلى الديار المصرية .

ذكر قتل صاحب اليمن

وفى هذه السنة : وثب على الملك المنصور عمر صاحب اليمن جماعة من مماليكه فقتلوه ، وهو عمر بن على بن رسول وكان والده على بن رسول أستاذ دار الملك المسعود ابن السلطان الملك الكامل ، فلما سار الملك المسعود قاصداً الشام ومات بمكة على ما تقدم ذكره استناب أستاذ داره على بن رسول المذكور باليمن فاستقر نائبا بها لبنى أيوب ، وكان لعلى المذكور إخوة فأحضروا إلى مصر وأخذوا رهائن خوفاً من تغلب على بن رسول على اليمن ، واستمر المذكور نائبا باليمن حتى مات قبل سنة ثلاثين وستمائة ، واستولى على اليمن بعده ولده عمر بن على المذكور على ما كان عليه أبوه من النيابة فأرسل من مصر أعمامه ليعزلوه ويكونوا نوابا موضعه ، فلما وصلوا إلى اليمن قبض عمر المذكور عليهم واعتقلهم ، واستقلّ عمر المذكور بملك اليمن يومئذ وتلقب بالملك المنصور واستكثر من المماليك الترك فقتلوه فى هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستقر بعده فى ملك اليمن ابنه يوسف بن عمر وتلقب بالملك المظفر وصفا له ملك اليمن وطالت أيام مملكته على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة :

وفيها : توفى الصاحب محيى الدين بن مطروح وكان متقدما عند الملك الصالح أيوب ، كان يتولى له لما كان الصالح بالشرق نظر الجيش ثم استعمله على دمشق ثم عزله وولى ابن يغمور ، وكان ابن مطروح المذكور فاضلا فى النثر والنظم فمن شعره :

عانقته فسكرت من طيب الشذا	غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا
نشوان ما شرب المدام وإنما	أمسى بخمر رُضَابِهِ متنبذا
جاء العذول يلومنى من بعد ما	أخذ الغرام على فيه مأخذا
لا أرعوى لا أنثنى لا أنتهى	عن حبه فليهذ فيه من هذى
إن عشت عشت على الغرام وإن أمت	وَجْدًا به وصبابة يا حبذا

وفيها : جهز الملك الناصر يوسف صاحب الشام عسكراً إلى غزة ، وخرج المصريون إلى السائح وأقاموا كذلك حتى خرجت هذه السنة .

وفيها : توفى علم الدين قيصر ابن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر الفقيه الحنفى المقرى المعروف بتعاسيف ، وكان إماما فى العلوم الرياضية ، اشتغل بالديار المصرية والشام ، ثم سار إلى الموصل وقرأ على الشيخ كمال الدين موسى بن يونس علم الموسيقى ، ثم عاد إلى الشام وتوفى بدمشق فى شهر رجب من السنة المذكورة ، ومولده سنة أربع وسبعين وخمسمائة بأصفون من شرقى صعيد مصر .

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة :

ولم يقع لنا فيها ما يصلح أن يؤرخ .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة :

فيها : استقر الصلح بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن ، وللملك الناصر ما وراء ذلك ، وكان نجم الدين الباذراى رسول الخليفة هو الذى حضر من جهة الخليفة وأصلح بينهم على ذلك ورجع كل منهم إلى مقره .

وفيها : قطع أبيك التركمانى خبز حسام الدين ابن أبى على الهدبانى فطاب دستوراً فأعطيه وسار إلى الشام فاستخدمه الملك الناصر يوسف بدمشق .

ذكر أحوال الناصر صاحب الكرك

وفيها : أفرج الملك الناصر يوسف عن الملك الناصر داود بن المعظم الذى كان صاحب الكرك ، وكان قد اعتقله بقلعة حمص وذلك بشفاعة الخليفة المستعصم فيه فأفرج عنه وأمره أن لا يسكن فى بلاده فرحل الناصر داود المذكور إلى جهة بغداد فلم يمكنوه من الوصول إليها وطلب وديعته الجوهر فمنعوه إياها وكتب الملك الناصر يوسف إلى ملوك الأطراف أنهم لا يؤووه ولا يميروه فبقى الناصر داود فى جهات عانة والحديثة وضاقت به الأحوال وبمن معه وانضم إليه جماعة من غزيه فبقوا يرحلون وينزلون جميعًا ، ثم لما قوى عليهم الحرو ولم يبق بالبرية عشب قصدوا أزوار الفرات يقاسون بقية الليل وهواجر النهار ، وكان معه أولاده وكان لولده الظاهر شاذى فهد فكان يتصيد فى النهار ما يزيد على عشرة غزلان ، وكان يمضى للملك الناصر داود وأصحابه أياما لا يطعمون غير لحوم الغزلان ، واتفق أن الأشرف صاحب تل باشر وتدمر

والرحبة يومئذ أرسل إلى الناصر داود مركبين موسقين دقيقاً وشعيراً ، فأرسل صاحب دمشق وتهدده على ذلك ، ثم إن الناصر داود قصد مكانا للشرابى واستجار به فرتب له الشرابى شيئاً دون كفايته وأذن له فى النزول بالأنبار وبينها وبين بغداد ثلاثة أيام ، والناصر داود مع ذلك يتضرع إلى الخليفة المستعصم فلا يجيب ضراعته ويطلب وديعته فلا يرد لهفته ولا يجيبه إلا بالمماطلة والمطاولة ، وكانت مدة مقامه متنقلا فى الصحارى مع غزيه قريب ثلاثة أشهر ، ثم بعد ذلك أرسل الخليفة وشفع فيه عند الملك الناصر فأذن له فى العود إلى دمشق ، ورتب له مائة ألف درهم على بحيرة فامية وغيرها فلم يتحصل له من ذلك إلا دون ثلاثين ألف درهم .

وفى هذه السنة : وصلت الأخبار من مكة بأن ناراً ظهرت من عدن وبعض جبالها بحيث كانت تظهر فى الليل ويرتفع منها فى النهار دخان عظيم .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة :

ذكر دولة الحفصيين ملوك تونس

وإنما ذكرناها فى هذه السنة لأنها كالمتوسطة لمدة ملكهم وهو ما نقلناه من الشيخ الفاضل ركن الدين بن قوبع التونسى قال :

والحفصيون أولهم أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وهنتاتة بتائين مثناتين من فوقهما ، قبيلة من المصامدة ويزعمون أنهم قرشيون من بنى عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان أبو حفص المذكور من أكبر أصحاب ابن تومرت بعد عبد المؤمن ، وتولى عبد الواحد بن أبى حفص أفريقية نيابة عن بنى عبد المؤمن فى سنة ثلاث وستمائة ، ومات سلخ ذى الحجة سنة ثمانى عشرة وستمائة فتولى أبو العلاء من بنى عبد المؤمن ، ثم توفى فعادت أفريقية إلى ولاية الحفصيين وتولى منهم عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

ولما تولى ولى أخاه أبا زكريا يحيى قابس وأخاه أبا إبراهيم إسحق بلاد الجريد ، ثم خرج على عبد الله وهو على قابس أصحابه ورجموه وطردوه وولوا موضعه أخاه أبا زكريا بن عبد الواحد سنة اثنتين وستين ، فنقم بنو عبد المؤمن على أبى زكريا ذلك فأسقط أبو زكريا اسم عبد المؤمن من الخطبة ، وبقى اسم المهدى وخلع طاعة بنى عبد المؤمن وتملك أفريقية وخطب لنفسه بالأمير المرتضى واتسعت مملكته وفتح تلمسان والغرب الأوسط وبلاد الجريد والزاب وبقى كذلك حتى توفى على بونة سنة سبع وأربعين وستمائة ، وأنشأ فى تونس بنايات

عظيمة شامخة وكان عالما بالأدب وخلف أربعة بنين وهم أبو عبد الله محمد وأبو إسحق إبراهيم وأبو حفص عمر وأبو بكر وكنيته أبو يحيى وخلف أخوين وهما أبو إبراهيم إسحق ومحمد اللحياني ابني عبد الواحد بن أبي حفص وكان محمد اللحياني المذكور صالحا منقطعًا يتبرك به ، ثم تولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا ثم سعي عمه أبو إبراهيم في خلعه فخلع وبايع لأخيه محمد اللحياني الزاهد على كره منه لذلك فجمع أبو عبد الله محمد المخلوع أصحابه في يوم خلعه وشد على عميه فقهرهما وقتلهما واستقر في ملكه وتلقب وخطب لنفسه بالمستنصر بالله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين ، وفي أيامه في سنة ثمان وستين وستمائة وصل الفرنسيس إلى أفريقية بجموع الفرنج ، وأشرفت أفريقية على الذهاب فقصمه الله ومات الفرنسيس وتفرقت تلك الجموع ، وفي أيامه خافه أخوه أبو إسحق إبراهيم بن أبي زكريا فهرب ثم أقام بتلمسان ، وبقي المستنصر المذكور كذلك حتى توفي ليلة حادي عشر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة ، فملك ابنه يحيى بن محمد بن أبي زكريا وتلقب بالواثق بالله أمير المؤمنين ، وكان ضعيف الرأي فتحرك عليه عمه أبو إسحق إبراهيم الذي هرب وأقام بتلمسان وغلب على الواثق فخلع نفسه ، واستقر أبو إسحق إبراهيم في المملكة في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وخطب لنفسه بالأمير المجاهد وترك زي الحفصيين وأقام على زي زناتة ، وعكف على الشرب وفرق المملكة على أولاده فوثبت أولاده على الواثق المخلوع وذبحوه وذبحوا معه ولديه الفضل والطيب ابني يحيى الواثق المذكور ، وسلم للواثق ابن صغير تلقب أبا عصيدة لأنهم يصنعون للنفساء عصيدة فيها أدوية ويهدى منها للجيران وعملت أم الصبي ذلك فلقب ولدها بأبي عصيدة ، ثم ظهر إنسان ادعى أنه الفضل بن الواثق الذي ذبح مع ابنه واجتمعت عليه الناس وقصد أبا إسحق إبراهيم وقهره فهرب أبو إسحق إلى بجاية وبها ابنه أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم فترك أبو فارس أباه ببجاية وسار بأخويه وجمعه إلى الداعي بتونس والتقى الجمعان فانهزم عسكر بجاية وقتل أبو فارس وثلاثة من إخوته وأنجاله أخ اسمه يحيى بن إبراهيم وعمه أبو حفص عمر بن أبي زكريا ، ولما هزم الداعي عسكر بجاية وقتل المذكورين أرسل إلى بجاية من قتل أبا إسحق إبراهيم وجاء برأسه ، ثم تحدث الناس بدعوة الداعي واجتمعت العرب على عمر ابن أبي زكريا بعد هروبه من المعركة وقوى أمره ، وقصد الداعي ثانيا بتونس وقهره واستتر الداعي في دور بعض التجار بتونس ثم أحضر واعترف بنسبه وضربت عنقه فكان الداعي المذكور من أهل بجاية واسمه أحمد بن مرزوق بن أبي عمار ، وكان أبوه يتجر إلى بلاد السودان ، وكان الداعي المذكور محاربًا قصيفا وسار إلى ديار مصر ونزل بدار الحديث الكاملية ، ثم عاد إلى المغرب ، فلما مر على طرابلس كان هناك شخص أسود يسمى نصيرا كان خصيصا بالواثق المخلوع قد هرب لما جرى للواثق ما جرى ، وكان في أحمد الداعي بعض الشبه من الفضل ابن الواثق فدبر مع نصير المذكور

الأمر فشهد له أنه الفضل بن الواثق فاجتمعت عليه العرب وكان منه ما ذكرناه حتى قتل ، وكان الداعى يخطب له بالخليفة الإمام المنصور بالله القائم بحق الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبى العباس الفضل ، ولما استقر أبو حفص عمر فى المملكة وقتل الداعى تلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين وهو المستنصر الثانى .

ولما استقر فى المملكة سار ابن أخيه يحيى بن إبراهيم بن أبى زكريا الذى سلم من المعركة إلى بجاية وملكها وتلقب بالمنتخب لإحياء دين الله أمير المؤمنين ، واستمر المستنصر الثانى أبو حفص عمر بن أبى زكريا فى مملكته حتى توفى فى أوائل المحرم سنة خمس وتسعين وستمائة ، ولما اشتد مرضه بايع لابن له صغير فاجتمعت الفقهاء وقالوا له : أنت صائر إلى الله وتولية مثل هذا لا يحل ، فأبطل بيعته وأخرج ولد الواثق المخلوع الذى كان صغيرًا وسلم من الذبح الملقب بأبى عصيدة وبويع صبيحة موت أبى حفص عمر الملقب بالمستنصر ، وكان اسم أبى عصيدة المذكور أبا عبد الله محمد وتلقب أبو عصيدة بالمستنصر ايضًا وهو المستنصر الثالث ، وتوفى فى أيامه صاحب بجاية المنتخب يحيى بن إبراهيم بن أبى زكريا وملك بعده بجاية ابنه خالد بن يحيى وبقى أبوعصيدة لذلك حتى توفى سنة تسع وستمائة ، فملك بعده شخص من الحفصيين يقال له أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن أبى زكريا بن عبد الواحد بن أبى حفص صاحب ابن تومرت ، وأقام فى الملك ثمانية عشر يوما ثم وصل خالد بن المنتخب صاحب بجاية ، ودخل تونس وقتل أبا بكر المذكور فى سنة تسع وسبعمائة ، ولما جرت ذلك كان زكريا اللحياني بمصر فسار مع عسكر السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه إلى طرابلس الغرب ، وبايعه العرب وسار إلى تونس فخلع خالد بن المنتخب وحبس ثم قتل قصاصا بأبى بكر بن عبد الرحمن المقدم الذكر واستقر اللحيانى فى ملك إفريقية وهو ابن يحيى زكريا بن أحمد بن محمد الزاهد اللحيانى بن عبد الواحد بن أبى حفص صاحب ابن تومرت ثم تحرك على اللحيانى أخو خالد وهو أبو بكر بن يحيى المنتخب فهرب اللحيانى إلى ديار مصر وأقام بالإسكندرية وملك أبو بكر المذكور تونس وما معها خلا طرابلس والمهدية فإنه بعد هروب اللحيانى بايع ابنه محمد بن اللحيانى لنفسه واقتتل مع أبى بكر فهزمه أبو بكر ، واستقر محمد ابن اللحيانى بالمهدية وله معها طرابلس ، وكان استيلاء أبى بكر وهروب اللحيانى إلى ديار مصر فى سنة تسع عشرة وسبعمائة ، وأقام اللحيانى فى إسكندرية ثم وردت عليه مكاتبات من تونس فى ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة إلى الإسكندرية يذكرون فيها أن أبا بكر متملك تونس المذكور وقد هرب وترك البلاد وأن الناس قد اجتمعوا على طاعة اللحيانى وبايعوا نائبه وهو محمد بن أبى بكر من الحفصيين وهو صهر زكريا اللحيانى المذكور وهم فى انتظار وصول اللحيانى إلى مملكته أقول وقد بقيت مملكة أفريقية فهرب منها لضعفها بسبب استيلاء العرب عليها .

ذكر مقتل أقطاى

فى هذه السنة : اغتال الملك المعز أيبك التركمانى المستولى على مصر خوشداشه أقطاى الجمدار ، وأوقف له فى بعض دهاليز الدور التى بقلعة الجبل ثلاثة مماليك هم : قطز وبهادر وسنجر الغنمى ، فلمامر بهم فارس الدين أقطاى ضربوه بسيوفهم فقتلوه ، ولما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام وكان الفارس أقطاى يمنع أيبك من الاستقلال بالسلطنة ، وكان الاسم للملك الأشرف موسى بن يوسف بن يوسف ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب ، فلما قتل أقطاى استقل المعز التركمانى بالسلطنة وأبطل الأشرف موسى المذكور منها بالكلية ، وبعث به إلى عماته القطبيات ، وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى مصر وكان انقضاء دولتهم من الديار المصرية فى هذه السنة على ما شرحناه ، ووصلت البحرية إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وأطمعوه فى ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر ونزل عمقا من الغور وأرسل إلى غزة عسكرا فنزلوا بها وبرز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسية وخرجت السنة وهم على ذلك .

وفيها : قدمت ملكة خاتون بنت كيقباذ ملك بلاد الروم إلى زوجها الملك الناصر يوسف صاحب الشام .

وفيها : ولى الملك المنصور صاحب حماة قضاء حماة للقاضى شمس الدين إبراهيم بن هبة الله بن البارزى بعد عزل القاضى المحبى حمزة بن محمد .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة :

فيها : عزمت العزيزية المقيمون مع المعز أيبك على القبض عليه وعلم بذلك واستعد لهم فهربوا من مخيمهم على العباسية على حمية واحتيط على وطاقاتهم جميعها .

وفى هذه السنة : مشى نجم الدين البادراى فى الصلح بين المصريين والشاميين واتفق الحال أن يكون للملك الناصر الشام جميعه إلى العريش ويكون الحد بين القاضى ، وهو بين الورادة والعريش ، وبيد المعز أيبك الديار المصرية وانفصل الحال على ذلك ورجع كل إلى بلده .

وفى هذه السنة : أو التى قبلها تزوج المعز أيبك شجر الدر أم خليل التى خطب لها بالسلطنة فى ديار مصر .

وفيها : طلب الملك الناصر داود من الملك الناصر يوسف دستورا إلى العراق بسبب طلب

وديعته من الخليفة وهى الجوهر الذى تقدم ذكره وأن يمضى إلى الحج فأذن له الناصر يوسف فى ذلك فسار الناصر داود إلى كربلا ثم مضى منها إلى الحج ، ولما رأى قبر النبى صلى الله عليه وسلم تعلق فى أستار الحجرة الشريفة بحضور الناس وقال اشهدوا أن هذا مقامى من رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلا عليه مستشفعا به إلى ابن عمه المستعصم فى أن يرد على وديعتى فأعظم الناس ذلك وجرت عبراتهم وارتفع بكاؤهم وكتب بصورة ما جرى مشروحًا ورفع إلى أمير الحج كيخسرو وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وتوجه الناصر داود مع الحاج العراقى وأقام ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة :

فيها : مات كيخسرو ملك بلاد الروم وأقيم فى السلطنة ولداه الصغيران عز الدين كيكاووس وركن الدين قليج أرسلان .

وفيها : توجه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولا من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم وصحبته تقدمة جليلة وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه ووصل من جهة المعز أيبك صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع وهو من مماليك المظفر غازى صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة وسعى فى تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق فبقى الخليفة متحيرا ثم إنه أحضر سكينا من اليسم كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة منى فى أن له خلعة عندى فى وقت آخر ، وأما فى هذا الوقت فلا يمكنى فأخذ كمال الدين بن العديم السكين وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة .

ذكر غير ذلك

فيها : جرى للناصر داود مع الخليفة ماصورته أنه لما أقام ببغداد بعد وصوله مع الحجاج واستشفاعه بالنبى صلى الله عليه وسلم فى رده وديعته ، أرسل الخليفة المستعصم من حاسب الناصر داود المذكور على ماوصله فى ترداده إلى بغداد من المضيف مثل اللحم والخبز والحطب والعليف والتبن وغير ذلك ، وثمن عليه ذلك بأغلى الاثمان وأرسل إليه شيئا نزرا وألزمه أن يكتب خطه بقبض وديعته ، وأنه ما بقى يستحق عند الخليفة شيئًا فكتب خطه بذلك كرها وسار عن بغداد وأقام مع العرب ، ثم أرسل إليه الناصر يوسف بن العزيز ابن غازى بن يوسف صاحب الشام فطيب قلبه وحلف له فقدم الناصر داود إلى دمشق ونزل بالصالحية .

وفى هذه السنة : يوم الأحد ثالث شوال توفى سيف الدين طغريل مملوك الملك المظفر محمود صاحب حماة ، وكان قد زوجه المظفر المذكور بأخته ، وقام بتدبير مملكة حماة بعد وفاة الملك المظفر حتى توفى فى التاريخ المذكور .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة :

ذكر قتل المعز أيبك التركمانى

وفى هذه السنة : فى يوم الثلاث الثالث والعشرين من ربيع الأول قتل الملك المعز أيبك التركمانى الجاشنكير الصالحى ، قتلته امرأته شجر الدر التى كانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب ، وهى التى خطب لها بالسلطنة فى ديار مصر ، وكان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيبك المذكور قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل ويريد أن يتزوجها فقتلته فى الحمام بعد عوده من لعب الكرة فى النهار المذكور ، وكان الذى قتله سنجر الجوجرى مملوك الطواشى محسن والخدام حسبما اتفقت معهم عليه شجر الدر وأرسلت فى تلك الليلة أصبع المعز أيبك وخاتمه إلى الأمير عز الدين الحلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم بالأمر فلم يجسر على ذلك .

ولما ظهر الخبر أراد مماليك المعز أيبك قتل شجر الدر فحماها المماليك الصالحية فاتفقت الكلمة على إقامة نور الدين على ابن الملك المعز أيبك ولقبوه الملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ، ونقلت شجر الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر وصلبوا الخادم الذين اتفقوا معها على قتل المعز أيبك وهرب سنجر الجوجرى ثم ظفروا به وصلبوه واحتيط على الصاحب بهاء الدين على بن جنا لكونه وزير شجر الدر وأخذ خطه بستين ألف دينار ، وفى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر من هذه السنة اتفقت مماليك المعز أيبك مثل سيف الدين قطز وسنجر الغنمى وبهادر وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبى ، وكان قد صار أتابكا للملك المنصور نور الدين ابن الملك على المعز أيبك ورتبوا فى أتابكية المذكور أقطاى المستعرب الصالحى .

وفى سادس عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة قتلت شجر الدر وألقيت خارج البرج فحملت إلى تربة كانت قد عملتها فدفنت فيها ، وكانت تركية الجنس وقيل كانت أرمنية وكانت مع الملك الصالح فى الاعتقال بالكرك وولدت منه ولدًا اسمه خليل مات صغيرًا وبعد أيام من ذلك خنق شرف الدين الفائزى .

ذكر مفارقة البحرية الملك الناصر يوسف صاحب الشام ابن الملك العزيز

وفى هذه السنة : نقل إلى الناصر يوسف أن البحرية يريدون أن يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم وتقدم إليهم بالانتزاح عن دمشق فساروا إلى غزة وانتموا إلى الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل ، وانزعج أهل مصر لقدوم البحرية إلى غزة وبرزوا إلى العباسية ووصل من البحرية جماعة مقفزين إلى القاهرة منهم عز الدين الأثرم فأكرموهم وأفرجوا عن أملاك الأثرم ، ولما فارق البحرية الناصر صاحب الشام أرسل عسكرا فى أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه ، ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زعز ملتجئين إلى الملك المغيث صاحب الكرك ، فأنفق فيهم المغيث أموالا جليلة وأطمعوه فى ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه ، وسارت البحرية إلى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والتقى المصريون مع البحرية وعسكر المغيث بكرة السبت منتصف القعدة من هذه السنة ، فانهزم عسكر المغيث والبحرية وفيهم بيبرس البندقدارى المسمى بعد ذلك بالملك الظاهر إلى جهة الكرك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : وصل من الخليفة المستعصم الخلعة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز .

وفيها : استجار الناصر داود بنجم الدين الباذراى فى أن يتوجه صحبته إلى بغداد فأخذه صحبته ، وتوصل الناصر يوسف صاحب دمشق إلى منعه عن ذلك فلم يتهيأ له وسار الناصر داود مع الباذراى إلى قرقيسيا فأخره الباذراى ليشاور عليه فأقام الناصر داود فى قرقيسيا ينتظر الإذن بالقدوم إلى بغداد فلم يؤذن له وطال مقامه ، فسافر إلى البرية وقصد تيه بنى إسرائيل وأقام مع عرب تلك البلاد .

وفى هذه السنة : أو التى قبلها ظهرت نار بالحرة عند مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان لها بالليل ضوء عظيم يظهر من مسافة بعيدة جدًّا ولعلها النار التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة فقال : نار تظهر بالحجاز تضىء منها أعناق الإبل ببصرى ،

ثم اتفق أن الخدام بحرم النبى صلى الله عليه وسلم وقع منهم فى بعض الليالى تفريط فاشتعلت النار فى المسجد الشريف واحترقت سقوفه ومنبر النبى صلى الله عليه وسلم وتألم الناس لذلك .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة :

ذكر استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية

فى أول هذه السنة : قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها فى العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمى كان رافضيا ، وكان أهل الكرخ أيضًا روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى وكاتب التتر وأطمعهم فى ملك بغداد .

وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل إقطاعاتهم وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس وأرسل ابن العلقمى إلى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد فى جحفل عظيم وخرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدوادار والتقوا على مرحلتين من بغداد واقتتلوا قتالا شديدًا ، فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقى ونزل باجو وهو مقدم كبير فى الجانب الغربى على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمى إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال إن هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزل فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيى الدين بن الجوزى وأولاده وكذلك بقى يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة .

فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف فى بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا من كان صغيرًا فأخذ أسيرًا ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يومًا ثم نودى بالأمان .

وأما الخليفة فإنهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق فى دجلة والله أعلم بحقيقة ذلك ، وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبى جعفر منصور ابن محمد الظاهر ابن الإمام الناصر أحمد وقد

تقدم ذكر باقي نسبه عند ذكر وفاة الإمام الناصر ضعيف الرأى قد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره ، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر فى سنة أربعين وستمائة ، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريبًا وهو آخر الخلفاء العباسيين ، وكان ابتداء دولتهم فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة وهى السنة التى بويع فيها السفاح بالخلافة ، وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية ، وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة تقريبًا وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة ، حكى القاضى جمال الدين بن واصل قال : لقد أخبرنى من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ما صورته أن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض خلفاء بنى أمية عنه أنه يقول إن الخلافة تصير إلى ولده فأمر الأموى بعلى بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول إن الخلافة تكون فى ولده فكان على بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول أى والله لتكونن الخلافة فى ولدى لاتزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فوقع مصداق ذلك وهو ورد هولاكو وإزالته ملك بنى العباس .

ذكر الوقعة بين المغيث صاحب الكرك وعسكر مصر

كان قد انضمت البحرية إلى المغيث بن العادل بن الكامل ونزل من الكرك وخيم بغزة ، وجمع الجموع وسار إلى مصر فى دست السلطنة وخرجت عساكر مصر مع مماليك الملك المعز أيبك وأكبرهم سيف الدين قطز الذى صار صاحب مصر والغنمى وبهادر والتقى الفريقان ، فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهزما إلى الكرك فى أسوء حال ونهبت أثقاله ودهليزه .

ذكر وفاة الناصر داود

وفى هذه السنة : أعنى سنة ست وخمسين وستمائة فى ليلة السبت السادس والعشرين من جمادى الأولى ، توفى الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بظاهر دمشق فى قرية يقال لها البويضا ، ومولده سنة ثلاث وستمائة ، فكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة ، وكنّا قد ذكرنا أخباره فى سنة خمس وخمسين وأنه توجه إلى تيه بنى إسرائيل وصار مع عرب تلك البلاد وبلغ المغيث صاحب الكرك وصوله إلى تلك الجهة فخشى منه وأرسل إليه فقبض عليه وحمله إلى بلد الشوبك وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها ، وبقى الملك الناصر

المذكور ممسوكا والمطمورة تحفر قدّامه ليحبس فيها فبينما هو على تلك الحال إذ ورد رسول الخليفة المستعصم يطلبه من بغداد لما قصده التتر ليقدمه على بعض العساكر لملتقى التتر فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزوه إلى المغيث صاحب الكرك ووصل الرسول إلى موضع الملك الناصر قبل أن يتم المطمورة فأخذه وسار به إلى جهة دمشق فبلغ الرسول استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة فتركه الرسول ومضى لشأنه فسار الناصر داود إلى البويضا وهى قرية شرقى دمشق وأقام بها ولحق الناس فى الشام فى تلك المدة طاعون فمات منه الناصر داود المذكور فى التاريخ المذكور وخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق إلى البويضا وظهر عليه الحزن والتأسف ونقله ودفنه بالصالحية فى تربة والده المعظّم وكان الناصر داود فاضلاً ناظما ناثرًا واقرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين عبد الحميد الخسر وشاهى تلميذ الإمام فخر الدين الرازى وللناصر داود المذكور أشعار جيدة قد تقدّم ذكر بعضها ومن شعره أيضًا :

عيون عن السحر المبين تبين ... لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض وهى سودفرندها ... ذبول فتور والجفون جفون
إذا ما رأت قلبا خليا من الهوى ... تقول له كن مغرما فيكون

وله أيضا :

طرفى وقلبى قاتل وشهيد ... ودمى على خدّيك منه شهود
أما وحبّك لست أضمر سلوة ... عن صبوتى ودع الفؤاد يبيد
منّى يطيفك بعد ما منع الكرى ... عن ناظرى البعد والتسهيد
ومن العجايب أن قلبك لم يَلِنّ ... لى والحديد ألانَهُ داود

ومما كتب به فى أثناء مكاتبته إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام .

وكان قد اغارت الفرنج على نابلس فى أيام الملك الصالح أيوب صاحب مصر :

أيا ليت أمّى أيم طول عمرها ... فلم يقضها ربى لمولى ولا لبغل
ويا ليتها لما قضاها لسيّد ... لبيب أريب طيّب الفرع والأصل
قضاها من اللاتى خُلقْن عواقرا ... فما بشّرت يوما بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غَدَت بى حاملا ... أصيب بما احتوت عليه من الحمل
ويا ليتنى لما ولدت وأصبحت ... تشد إلىّ التسدقيات بالرحل
لحقت بأسلافى فكنت ضجيعهم ... ولم أرقى الإسلام ما فيه من خل

ذكر وفاة الصاحبة غازية خاتون والدة الملك المنصور صاحب حماة

وفى هذه السنة : فى ذى القعدة توفيت الصاحبة غازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بقلعة حماة رحمها الله تعالى ، وكان قدومها إلى حماة فى سنة تسع وعشرين وستمائة وولد لها من الملك المظفر محمود صاحب حماة ثلاث بنين مات احدهم صغيرا وكان اسمه عمر وبقى الملك المنصور محمد صاحب حماة . وأخوه والدى الملك الأفضل على ، وولد لها منها ثلاث بنات أيضًا فتوفيت الكبرى منهن وكان اسمها ملكة خاتون قبل وفاة والدتها بقليل ، وتوفيت الصغرى وهى دينا خاتون بعد وفاة أخيها الملك المنصور وسنذكر وفاة الباقين فى مواضعها إن شاء الله تعالى وكانت الصاحبة غازية خاتون المذكورة من أحسن النساء سيرة وزهدا وعبادة وخفظت الملك لولدها الملك المنصور حتى كبر وسلمته إليه قبل وفاتها رحمها الله تعالى .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة : قصدت التتر ميافارقين بعد استيلائهم على بغداد وكان صاحب ميا فارقين حينئذ الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكان قد ملكها بعد وفاة أبيه فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة فحاصره التتر وضايقوا ميافارقين مضايقة شديدة وصبر أهل ميافارقين مع الكامل محمد المذكور على الجوع الشديد ودام ذلك حتى كان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : اشتّد الوبا بالشام خصوصا بدمشق حتى لم يوجد مغسل للموتى .

وفيها : أرسل الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ولده الملك العزيز محمد وصحبته زين الدين محمد المعروف بالحافظى وهو من أهل قرية عقربا من بلد دمشق بتحف وتقادم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر .

وفيها : توفى صاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى المهلبى كاتب إنشاء الملك الصالح أيوب ومولداليها زهير بوادى نخلة من مكة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وفى آخر عمره انكشف حاله وباع موجوده وكتبه وأقام فى بيته فى القاهرة حتى أدركته وفاته بسبب الوباء العام فى يوم الأحد رابع ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة ست وخمسين وستمائة ،

ودفن بالقرافة الصغرى ، وكان كريم الطباع غزير المروءة فاضلا حسن النظم وشعره مشهور كثير ، فمن شعره وهو وزن مخترع ليس بخرجة العروض أبيات منها :

يا من لعبت به شمول ما ألطف هذه الشمائل
مولاى يحق لى بأنى عن حبك فى الهوى أقاتل
هاعبدك واقفا ذليلا بالباب يمد كف سائل
من وصلك بالقليل يرضى والطل من الحبيب وابل

وفى هذة السنة : توفى بمصر الشيخ ركن الدين عبد العظيم شيخ دار الحديث وكان من أئمة الحديث المشهورين .

وفيها : توفى الشيخ شمس الدين يوسف سبط جمال الدين ابن الجوزى وكان من الوعاظ الفضلاء ألف تاريخا جامعا سمّاه مرآة الزمان .

وفيها : توفى سيف الدين على بن سابق الدين قزل المعروف بابن المشدّ وكان أميرا مقدما فى دولة الملك الناصر يوسف صاحب الشام وله شعر حسن فمنه :

باكر كؤوس المدام واشرب واستجل وجه الحبيب واطرب
ولا تخف للهموم داء فهى دواء له مجرب
من يد ساق له رضاب كالشهد لكن جناه أعذب

وفيها : كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين وبين عسكر الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الأمير مجير الدين بن أبى زكرى مصافّ بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف وأسر مجير الدين المذكور وقوى امر البحرية بعد هذه الكسرة وأكثروا العبث والفساد .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة :

فيها : سار عز الدين كيكاووس وركن الدين قليج أرسلان ابنا كيخسرو بن كيقباذ إلى خدمة هولاكو وأقاما معه مدة ثم عادا إلى بلادهما .

ذكر وفاة بدر الدين صاحب الموصل

فى هذه السنة : توفى بدر الدين لولو صاحب الموصل وكان يلقب الملك الرحيم وكان عمره قد جاوز ثمانين سنة ولمامات ملك بعده الموصل ولده الملك الصالح ابن لولو وملك سنجار ولده

الآخر علاء الدين بن لولو وكان بدر الدين قد صانع هولاكو ودخل فى طاعته وحمل إليه الأموال ووصل إلى خدمة هولاكو بعد أخذ بغداد ببلاد أذربيجان وكان صحبة لولو الشريف العلوى ابن صلايا فقيل إن لولو سعى به إلى هولاكو فقتل الشريف المذكور ولما عاد لولو إلى الموصل لم يطل مقامه بها حتى مات وطالت أيام بدر الدين لولو فى ملك الموصل فإنه كان القائم بأمور أستاذه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى ابن أقسنقر وقام بتدبير ولده الملك القاهر بن أرسلان شاه ولما توفى الملك القاهر بن أرسلان شاه فى سنة خمس عشرة وستمائة انفرد لولو بتدبير المملكة وأقام ولدى القاهر الصغيرين واحدا بعد واحد واستبد بملك الموصل وبلادها ثلاثا وأربعين سنة تقريبا ولم يزل فى ملكه سعيدًا لم يطرقه آفة ولم يختل لملكه نظام .

ذكر منازلة الملك الناصر يوسف صاحب الشام الكرك

وفى هذه السنة : لما جرى من البحرية ماذكرناه من كسر عسكر الناصر يوسف سار الناصر المذكور من دمشق بنفسه وعساكره وسار فى صحبته الملك المنصور صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك وأقام على بركة زيزا محاصرًا للملك المغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية ووصل إلى الملك الناصر رسل الملك المغيث صاحب الكرك والقطبية بنت الملك المفضّل قطب الدين ابن الملك العادل يتضرعون إلى الملك الناصر ويطلبون رضاه عن الملك المغيث فلم يجب إلى ذلك إلا بشرط أن يقبض المغيث على من عنده من البحرية فأجاب المغيث إلى ذلك وعلم بالحال ركن الدين بيبرس البندقدارى فهرب فى جماعة من البحرية ووصل بهم إلى الملك الناصر يوسف فأحسن إليهم وقبض المغيث على من بقى عنده من البحرية ومن جملتهم سنقر الأشقر وسكز وبرامق وأرسلهم على الجمال إلى الملك الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها واستقر الصلح بين الملك الناصر وبين الملك المغيث صاحب الكرك وكان مدة مقام الملك الناصر بالعساكر على بركة زيزا ما يزيد على شهرين بقليل ثم عاد إلى دمشق وأعطى للملك المنصور صاحب حماة دستورا فعاد إلى بلده .

ذكر سلطنة قطز

وفى اواخر هذه السنة أعنى سنة سبع وخمسين وستمائة : فى أوائل ذى الحجة قبض سيف الدين قطز على ولد أستاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة وكان علم الدين الغنمى وسيف الدين بهادر وهما من كبار المعزية غائبين فى رمى البندق فانتهز

قطز الفرصة فى غيبتهما وفعل ذلك ولما قدم الغنمى وبهادر المذكور أن قبض عليهما قطز أيضا واستقر قطز فى ملك الديار المصرية وتلقب بالملك المظفر وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام وهو كمال الدين المعروف بابن العديم قد قدم إلى مصر فى أيام الملك المنصور على ابن أيبك مستنجدا على التتر واتفق خلع على المذكور وولاية قطز بحضرة كمال الدين ابن العديم ولما استقر قطز فى السلطنة اعاد جواب الملك الناصر يوسف أنه ينجده ولا يقعد عن نصرته وعاد ابن العديم بذلك .

ذكر مولد الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة

وفى هذه السنة : أعنى سنة سبع وخمسين وستمائة فى الساعة العاشرة من ليلة الأحد خامس عشر المحرم وثانى عشر كانون الثانى ولد محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب ولقبوه الملك المظفر يلقب جده وأم الملك المظفر محمود المذكور عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهنأ الشيخ شرف الدين عبد العزيز المعروف بشيخ الشيوخ الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة طويلة منها :

أبشر على رغم العدى والحسّد ... بأجلّ مولود وأكرم مولد
بالنعمة الغراء بل بالدولة الزهراء ... بل بالمفخر المتجدّد
وافاك بدرا كاملا فى ليلة ... طلعت عليك نجومها بالأسعد
ما بين محمود المظفر أسفرت ... عنه وما بين العزيز محمّد

ذكر قصد هولاكو الشام

وفى هذه السنة : قدم هولاكو إلى البلاد التى شرقى الفرات ونزل حرّان وملكها واستولى على البلاد الجزرية وأرسل ولده سموط بن هولاكو إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب فى العشر الأخير من ذى الحجة من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وخمسين وستمائة وكان الحاكم فى حلب الملك المعظّم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين نائبا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ولم يكن من رأيه الخروج إليهم وأكمن لهم التتر فى باب إلى المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتر قدّامهم حتى خرجوا عن

البلد ثم عادوا عليهم وحرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنقوا فى أبواب البلد جماعة من المنهزمين ثم رحل التتر إلى إعزاز فتسلموها بالأمان .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة :

ذكر ما كان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب برز من دمشق إلى بَرْزَه فى أواخر السنة الماضية وجفل الناس من بين يدى التتر وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة ونزل معه ببرزه وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقدارى من حين هرب من الكرك والتجأ إلى الناصر فاجتمع عند الملك الناصر عند برزه أمم عظيمة من العساكر والجفّال ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزه بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به فهرب الملك الناصر من الدهليز الى قلعة دمشق وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية إلى جهة غزة وكذلك سار بيبرس البندقدارى إلى جهة غزة وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الملك الظاهر غازى ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين لشهامته ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفاً من أخيه الملك الناصر وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر أمهما أم ولد تركية ووصل الملك الظاهر غازى إلى غزة واجتمع عليه من بها من العسكر وأقاموه سلطانا ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البند قدارى الملك المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الأمان ووعده الوعود الجميلة ففارق بيبرس البندقدارى الشاميين وسار إلى مصر فى جماعة من أصحابه فاقبل عليه الملك المظفر قطز وأنزله فى دار الوزارة وأقطعه قليوب وأعمالها .

ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه ومسير الملك الناصر عن دمشق ووصول عساكره إلى مصر وانفراد الملك الناصر عنهم

فى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة فى يوم الأحد تاسع صفر كان استيلاء التتر على حلب وسببه أن هولاكو عبر الفرات بجموعه ونازل حلب وأرسل هولاكو إلى الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين نائب السلطنة بحلب يقول له إنكم تضعفون عن لقاء المُغُل ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ونتوجه

نحن إلى العسكر فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيّرين فى الشحنتين إن شئتم طردتموهما وإن شئتم قتلتموهما فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك وقال : ليس لكم عندنا إلّا السيف ، وكان رسول هولاكو إليهم فى ذلك صاحب أرزن الروم فتعجّب من هذا الجواب وتألّم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك وأحاط التتر بحلب ثانى صفر وهجموا النواثر فى غد ذلك اليوم وقتل من المسلمين جماعة كثيرة وممن قُتل أسد الدين ابن الملك الزاهر ابن صلاح الدين واشتدّت مضايقة التتر للبلد وهجموا من عند حمام حمدان فى ذيل قلعة الشريف فى يوم الأحد تاسع صفر وبذلوا السيف فى المسلمين وصعد إلى القلعة خلق عظيم ودام القتل والنهب من نهار الأحد المذكور إلى الجمعة رابع عشر صفر المذكور فأمر هولاكو برفع السيف ونودى بالأمان ولم يسلم من أهل حلب إلّا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخى مرد كين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر الموصلى والخانكاه التى فيها زين الدين الصوفى وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم وقيل إنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم ومن التجأ إليها من العسكر واستمر الحصار عليها وكان من ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك من أحوال حماة وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب

كان قد تأخّر بحماة الطواشى مرشد لما سار صاحب حماة إلى دمشق ، فلما بلغ أهل حماة فتح حلب توجّه الطواشى مرشد من حماة إلى عند الملك المنصور صاحب حماة بدمشق ووصل كبراء حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة وحملوها إلى هولاكو وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم ، فأمنهم هولاكو وأرسل إلى حماة شحنة رجلا أعجميًّا كان يدّعى أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال له خسر وشاه فقدم خسر وشاه إلى حماة وتولاها وأمّن الرعية ، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيماز أمير جندار فسلّم القلعة إليه ودخل فى طاعة التتر ، ولما بلغ الملك الناصر بدمشق أخذ حلب رحل من دمشق بمن بقى معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية وفى صحبته الملك المنصور صاحب حماة وأقام بنابلس أياما ورحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبى زكرى والأمير على بن شجاع ومعهما جماعة من العسكر ، ثم سا الملك الناصر إلى غزة فانضّم إليه مماليكه الذين أرادوا قتله وكذلك اصطلح معه أخوه الملك الظاهر غازى وانضم إليه وبعد مسير الملك الناصر عن نابلس وصــل التتر إليها وكبسو العسكر الذين بها وقتلوا مجير الدين والأمير على بن شجاع وكانا أميرين جليلين فاضلين وكان البحرية قد قبضوا عليهما واعتقلوهما بالكرك وأفرج عنهما المغيث لما وقع الصلح بينه وبين

الناصر ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ما جرى من كبسة التتر لنابلس رحل من غزة إلى العريش وسير القاضى برهان الدين ابن الخضر رسولاً إلى الملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منه المعاضدة ثم سار الملك الناصر والملك المنصور صاحب حماة والعسكر ووصلوا إلى قطية فجرى بها فتنة بين التركمانى . والأكراد الشهر زورية ووقع نهب فى الجفال وخاف الملك الناصر ان يدخل مصر فيقبض عليه فتأخر فى قطية ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر وتأخر مع الملك الناصر جماعة يسيرة منهم أخوه الملك الظاهر غازى والملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص وشهاب الدين القيمرى ثم سار الملك الناصر بمن تأخر معه من قطية إلى جهة تيه بنى إسرائيل ، ولما وصلت العساكر إلى مصر التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية وطيّب قلوبهم وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقا والتقاه ملتقى حسنا وطيّب قلبه ودخل إلى القاهرة وأما التتر فإنهم استولوا على دمشق وعلى ساير الشام إلى غزة واستقرّت شحاينهم بهذه البلاد .

ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب والمتجدّدات بالشام

أما قلعة حلب فوثب جماعة من أهلها فى مدة الحصار على صفى الدين بن طرزة رئيس حلب وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن أحمد بن القاضى نجم الدين بن أبى عصرون فقتلوهما لأنهم اتهموهما بمواطأة التتر واستمرّ الحصار على القلعة واشتدّت مضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلّمت بالأمان فى يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، ولما نزل أهلها بالأمان وكان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر فمنهم سكز وبرامق وسنقر الأشقر فسلّمهم هولاكو هم وباقى الترك إلى زجل من التتر يقال له سلطان حق وهو رجل من أكابر القبجاق هرب من التتر لما غلبت على القبجاق وقدم إلى حلب فأحسن إليه الملك الناصر فلم تطب له تلك البلاد فعاد إلى التتر وأما العوام والغربا فنزلوا إلى أماكن الحمى التى قدّمنا ذكرها وأمر هولاكو أن يمضى كل من سلم إلى داره وملكه وأن لا يعارض وجعل النايب بحلب عماد الدين القزوينى ووصل إلى هولاكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم ابن شيركوه وكان قد انفرد الأشرف المذكور عن المسلمين لما توجّه الملك الناصر إلى جهة مصر ووصل إلى هولاكو بحلب فأكرمه هولاكو وأعاد عليه حمص وكان قد أخذها منه الملك الناصر صاحب حلب فى سنة ست وأربعين وستمائة وعوّضه عنها تل باشر على ماتقدم ذكره فعادت إليه فى هذه السنة واستقر ملكه بها وقدم أيضا إلى هولاكو وهو نازل على حلب محيى الدين بن الزكى من دمشق فأقبل عليه هولاكو وخلع عليه وولّاه قضاء الشام ولما عاد ابن الزكى المذكور إلى دمشق ليس خلعة هولاكو وكانت مذهّبة وجمع الفقهاء وغيرهم من

أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو واستقرّ فى القضاء ثم رحل هولاكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين وإلى قلعة حلب فأحضره هولاكو وسلّموها إليه فغضب هولاكو من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم وسبى النساء ثم رحل هولاكو بعد ذلك وعاد إلى الشرق وأمر عماد الدين القزوينى بالرحيل إلى بغداد فسار إليها وجعل مكانه بحلب رجلا أعجمياً وأمر هولاكو بخراب أسوار قلعة حلب وأسوار المدينة فخرّبت عن آخرها وأعطى هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص الدستور ففارقه ووصل إلى حماة ونزل فى الدار المبارز واخذ فى خراب سور قلعة حماة بتقدّم هولاكو إليه بذلك فخرّبت أسوارها وأحرقت رردخانتها ، وبيعت الكتب التى كانت بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان ، وأما أسوار مدينة حماة فلم تخرب لأنه كان بحماة رجل يقال له إبراهيم بن الإفرنجية ضامن الجهة المفردة بدل لخسرو شاه جملة كثيرة من المال وقال الفرنج قريب منّا بحصن الأكراد ومتى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها فاخذ منه المال ولم يتعرض لخراب أسوار المدينة وكان قد أمر هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضا فلم يخرب منها إلا شيئا قليلا لأنّها مدينته وأما دمشق فانهم لما ملكوا المدينة بالأمان لم يتعرضوا إلى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق عليهم فحاصرها التتر وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة وضايقوا القلعة وأقاموا عليها المجانيق ثم تسلّموها بالأمان فى منتصف جمادى الأولى من هذه السنة ونهبوا جميع ما فيها وجدّوا فى خراب أسوار القلعة وإعدام مابها من الزردخانات والآلات ثم توجّوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها .

ذكر استيلاء التتر على ميّافارقين وقتل الملك الكامل صاحبها

وفى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة استولى التتر على ميا فارقين وقد تقدّم ذكر نزولهم عليها ومحاصرتها فى سنة ست وخمسين واستمرّ الحصار عليهم مدة سنتين حتى فنيت أزوادهم وفنى أهلها بالوباء وبالقتل وصاحبها الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب مصابرا ثابتا وضعف من عنده عن القتال فاستولى التتر عليها وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور وحملوا رأسه على رمح وطيف به فى البلاد ومرّوا به على حلب وحماة ووصلوا به إلى دمشق فى سابع عشرين جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وطافوا به فى دمشق بالمغانى والطبول وعلق رأس المذكور فى شبكة بسور باب الفراديس إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس وفيه يقول الشيخ شهاب الدين ابن أبى شامة أبياتا منها :

ابن غازى غزى وجاهد قوما   أثخنوا فى العراق والمشرقين

طاهرا عاليا ومات شهيدًا بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه وله أسوة برأس الحسين
ثم واروا فى مشهد الرأس ذاك الرأس واستعجبوا من الحالين

ذكر اتصال الملك الناصر بالتتر واستيلاؤهم على عجلون وغيرها من قلاع الشام

أما الملك الناصر يوسف فانه لما انفرد عن العسكر من قَطْيَةَ وسار إلى تيه بنى إسرائيل بقى متحيرا إلى أين يتوجه وعزم على التوجه إلى الحجاز وكان له طبردار كردى اسمه حسين فحسن له المضى إلى التتر وقصد هولاكو فاغتر بقوله ، ونزل ببركة زيزا وسار حسين الكردى إلى كتبغا نائب هولاكو وعرفه بموضع الملك الناصر فأرسل كتبغا إليه وقبض عليه وأحضره إلى عجلون ؛ وكانت بعد عاصية فأمرهم الملك الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها ، وكنا قد ذكرنا حصار التتر لبعلبك فتسلموها قبيل تسليم عجلون وخربوا قلعتها أيضا ، وكان بالصبيبة صاحبها الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل ، فسلم الصبيبة اليهم وصار الملك السعيد المذكور معهم وأعلن بالفسق والفجور وسفك دماء المسلمين وأما الملك الناصر يوسف فإن كتبغا بعث به إلى هولاكو فوصل إلى دمشق ثم إلى حماة وبها الأشرف صاحب حمص فخرج إلى لقائه هو وخسرو شاه النايب بحماة ثم سار إلى حلب فلما عاينها الملك الناصر وما قد حل بها وبأهلها تضاعف تألمه وأنشد :

يعزّ علينا أن نرى ربعكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تتلى

ثم سار إلى الأردو فأقبل عليه هولاكو ووعده برده إلى مملكته وكان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك

وفى خامس عشر شعبان من هذه السنة أخرج التتر من الاعتقال نقيب قلعة دمشق وواليها وضربوا أعناقهما بداريا واشتهر عند أهل دمشق خروج العساكر من مصر لقتال التتر فأوقعوا بالنصارى ، وكانوا قد استطالوا على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع فنهبهم المسلمون فى سابع عشرين رمضان من هذه السنة وأخربوا كنيسة مريم وكانت كنيسة عظيمة

وكانت كنيسة مريم فى جانب دمشق الذى فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين وكانت ملاصق الجامع كنيسة وهى من الجانب الذى فتحه أبو عبيدة بالأمان فبقيت بأيدى النصارى فلما ولى الوليد بن عبدالملك الخلافة خرب الكنيسة الملاصقة للجامع وأضافها إليه ولم يعوض النصارى عنها فلما ولى عمر بن عبدالعزيز عوضهم بكنيسة مريم عن تلك الكنيسة فعمروها عمارة عظيمة وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون فى التاريخ المذكور.

ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا

وفى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة :

كانت هزيمة التتر فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان على عين جالوت وكان من حديثها انه لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر وسار من مصر بالعساكر الإسلامية وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل على وكان مسيره من الديار المصرية فى أوايل رمضان من هذه السنة ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من فى الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا وتقاربا الجمعان فى الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستوسر ابنه وتعلق من سلم من التتر بروس الجبال وتتبعهم المسلمون فأفنوهم وهرب من سلم منهم إلى الشرق وجرد قطز ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم فتبعتهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية وكان أيضا فى صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه ووصل إليه فأكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فإنه أمسك أسيرا وأحضر بين يدى الملك المظفر قطز فأمر به فضربت عنقه بسبب ما كان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق ولما انقضى أمر المصاف أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقره على حماة وبارين وأعاد إليه المعرة وكانت فى أيدى الحلبيين من حين استولوا عليها فى سنة خمس وثلاثين وستمائة وأخذ سلمية منه وأعطاها أمير العرب وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ماقصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك

المظفر قطز إلى الشام وفى يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردى طبردار الملك الناصر يوسف وهو الذى أوقع الملك الناصر فى أيدى التتر وفى هذه النصرة وقدوم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء .

هلك الكُفْر فى الشام جميعا   واستجد الإسلام بعدد حوضه
بالمليك المظفر الملك الأر   وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم   فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا   دائما مثل واجبات فروضه

ثم أعطى الملك المظفر قطز صاحب حماة الملك المنصور الدستور فقدم الملك المنصور قد امه مملوكه ونائبه مبارز الدين أقوش المنصورى إلى حماة ثم سار الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم وهنأ الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ الملك المنصور بهذا النصر العظيم وبعود المعرة بقصيدة منها :

زغت العدى فضمنت ثلّ عروشها   ولقيتها فاخذتَ ثل جيوشها
نازلتَ أملاك التتر فأنزلتَ   عن فحلها قَسْرا وعن أكديشها
فغدا بسيفك فى رقاب كماتها   حصد المناجل فى يبيس حشيشها
فُقْتَ الملوك ببذل ماتحويه . إذا   ختمت خزاينها على منقوشها

ومنها :

وطويت عن مصر فسيح مراحل   ما بين بركة زيزاء وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها   من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فرشَتْ حماة لوطء نعلك خدّها   فوطئتَ عين الشمس من مفروشها
وضربتَ سكّتها التى اخلصْتَها   عما يشوب النَّقد من مغشوشها
وكذا المعرّة إذ ملكتَ قيادها   دهشَتْ سرورًا سار فى مدهوشها
طربت برجعتها إليك كأنما   سكرت بخمره حاسها أوحيشها
لازلتَ تنعش بالنوال فقيرها   وتنال أقصى الأجْر من منعوشها

وكان خسرو شاه قد سافر من حماة إلى جهة الشرق لما بلغه كسرة التتر ثم جهّز الملك المظفر قطز عسكرا إلى حلب لحفظها ورتب أيضا شمس الدين أقوش البرلى العزيزى أميرا بالسواحل وغزة ورتب معه جماعة من العزيزية وكان البرلى المذكور من مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب وسار فى جملة العزيزية مع ولده الملك الناصر يوسف إلى قتال المصريين وخامر البرلى وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم الملك الناصر وصاروا مع أيبك التركمانى

صاحب مصر ثم انهم قصدوا اغتيال المعز أيبك التركمانى المذكور وعلم بهم فقبض على بعضهم وهرب بعضهم وكان البرلى المذكور من جملة من سلم وهرب إلى الشام فلما وصل إلى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون فلما توجه الملك الناصر بالعسكر إلى الغور مندفعا من بين يدى التتر أخرج البرلى من حبس عجلون وطيّب خاطره فلما هرب الملك الناصر من قطية دخل شمس الدين اقوش البرلى المذكور مع العساكر إلى مصر فأحسن إليه الملك المظفر قطز وولاه الآن السواحل وغزة فلما استقر بدمشق على ما ذكرناه وكان مقرّ البرلى لما تولى هذه الأعمال بنابلس تارة وبيت جبرين أخرى ثم إن الملك المظفر قطز فوّض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبى وهو الذى كان أتابكا لعلىّ بن المعزّ أيبك وفوّض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل وكان المذكور قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام ودخل مع العساكر إلى مصر وصار مع المظفر قطز ففوّض إليه نيابة السلطنة بحلب وكان سببه أن أخاه الملك الصالح ابن لولو قد صار صاحب الموصل بعد أبيه فولّاه حلب ليكاتبه أخوه بأخبار التتر ولما استقر السعيد المذكور فى نيابة حلب سار سيرة ردية وكان دأبه التحيّل على أخذ مال الرعية .

ذكر مسير الملك المظفر قطز إلى جهة الديار المصرية ومقتله

ولما قرّر الملك المظفر قطز المعزى المذكور أمر الشام على ماشرحناه سار من دمشق إلى جهة البلاد المصرية وكان قد اتفق بيبرس البندقدارى الصالحى مع انص مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صغن أغلى على قتل المظفر قطز وساروا معه يتوقعون الفرصة فلما وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية فبينا قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها وساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدّم إليه أنص وشفع عندالملك المظفر قطز فى إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى لتقبيل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقدارى الصالحى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وذلك فى سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرًا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون بعد مقتله حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية .

ذكر سلطنة بيبرس البندقدارى المذكور

ولما وصل ركن الدين بيبرس المذكور هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر قطز إلى الدهليز كما ذكرناه وكان عند الدهليز نايب السلطنة فارس الدين أقطاى المستعرب وهو الذى صار أتابكا لعلى بن المعز أيبك بعد الحلبى ، فلما تسلطن قطز أقره على نيابة السلطنة ، فلما وصل بيبرس البندقدارى مع الجماعة الذين قتلوا قطز إلى الدهليز سألهم أقطاى المستعرب المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا قال له أقطاى ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للتحليف فحلفوا له فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، واستقر بيبرس فى السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ، ثم بعد ذلك غيرّ لقبه عن الملك القاهر وتلقّب بالملك الظاهر ، لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ما تلقّب به أحد فطالت مدّته ، وكان الملك الظاهر المذكور قد سأل من قطز النيابة بحلب فلم يجبه إليها ليكون ما قدره الله تعالى ولما حلف الناس للملك الظاهر المذكور بالصالحية ساق فى جماعة من أصحابه وسبق العسكر إلى قلعة الجبل ففتحت له ودخلها واستقرّت قدمه فى المملكة وكان قد زينت مصر والقاهرة لمقدم قطز فاستمرّت الزينة بمقدم بيبرس المذكور وكان مقتل قطز وسلطنة بيبرس فى سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة .

ذكر إعادة عمارة قلعة دمشق

وفى هذه السنة : فى العشر الأخير من ذى القعدة شرع الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائب السلطنة بدمشق فى عمارة قلعة دمشق وجمع لها الصنّاع وكبراء الدولة والناس وعملوا فيها حتى النساء أيضا وكان عند الناس بذلك سرور عظيم .

ذكر سلطنة الحلبى بدمشق

كان علم الدين سنجر الحلبى وقد استنابه الملك المظفر قطز بدمشق على ما تقدّم ذكره ، فلما جرى ما ذكرناه من قتل قطز وسلطنة الملك الظاهر جمع الحلبى الناس وحلّفهم لنفسه

بالسلطنة وذلك فى العشر الأول من ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فأجابه الناس إلى ذلك وحلفوا له ولم يتأخّر عنه أحد ، ولقّب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكاتب الملك المنصور صاحب حماة فى ذلك فلم يجبه وقال صاحب حماة أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان .

ذكر قبض عسكر حلب على الملك السعيد ابن صاحب الموصل وعود التتر إلى الشام

وكان الملك السعيد قد قرّره قطز بحلب وجرّد معه جماعة من العزيزية والناصرية وكان ردىء السيرة وقد أبغضه العسكر وبلغ الملك السعيد المذكور مسير التتر إلى البيرة فجرّد إلى جهتهم جماعة قليلة من العسكر وقدّم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصرى فأشار عليه كبراء العزيزية والناصرية بأن هذا ما هو مصلحة وأن هؤلاء قليلون فيحصل الطمع بسببهم فى البلاد فلم يلتفت إلى ذلك وأصرّ على مسيرهم فسار سابق الدين أمير مجلس بمن معه حتى قاربوا البيرة فوقع عليهم التتر فهرب منهم ودخل البيرة بعد أن قتل غالب من كان معه فازداد غيظ الأمراء على الملك السعيد بسبب ذلك فاجتمعوا وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه وكان قد برز إلى باب إلى المعروف بباب الله ولما استولوا على خزانته لم يجدوا فيها مالاً طايلاً فهدّدوه بالعذاب إن لم يقر لهم بما له فنبش من تحت أشجار حايط دار ببابلى جملة من المال قيل كانت خمسين ألف دينار مصرية ففرّقت فى الأمراء وحمل الملك السعيد المذكور إلى الشغر وبكاس معتقلاً ، ثم لما اندفع العسكر من بين يدى التتر على ما سنذكره أفرجوا عنه ، ولما جرى ذلك اتفقت العزيزية والناصرية وقدّموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزى ، ثم سارت التتر إلى حلب فاندفع حسام الدين الجو كندار والعسكر الذين معه بين أيديهم إلى جهة حماة ، ووصل التتر إلى حلب فى أواخر هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا واسمها مقرّ الأنبيا فسمّاها العامّة قرنبيا ولما اجتمع المسلمون بقرنبيا بدل التتر فيهم السيف فأفنوا غالبهم وسلم القليل منهم ووصل حسام الدين الجوكندارو من معه إلى حماة فضيّفهم الملك المنصور محمد صاحب حماة وهو مستشعر خايف من غدرهم ، ثم رحلوا من حماة إلى حمص فلما قارب التتر حماة خرج منها الملك المنصور صاحبها وصحبته أخوه الملك الأفضل على والأمير مبارز الدين وباقى العسكر واجتمعوا بحمص مع باقى العساكر إلى أن خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة :

ذكر كسرة التتر على حمص

وفى يوم الجمعة خامس المحرم من هذه السنة كانت كسرة التتر على حمص ، وكان من حديثها أن التتر لما قدموا فى آخر السنة الماضية إلى الشام اندفعت العزيزية والناصرية من بين أيديهم ، وكذلك الملك المنصور صاحب حماة ووصلوا إلى حمص واجتمع بهم الملك الأشرف صاحب حمص ووقع اتفاقهم على ملتقى التتر وسارت التتر إليهم والتقوا بظاهر حمص فى نهار الجمعة المذكور وكانت التتر أكثر من المسلمين بكثير ففتح الله تعالى على المسلمين بالنصر وولى التتر منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاء ووصل الملك المنصور إلى حماة بعد هذه الوقعة وانضمّ من سلم من التتر إلى باقى جماعتهم وكانوا نازلين قرب سَلَمْيَة واجتمعوا ونزلوا على حماة وبها صاحبها الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل والعسكر وأقام التتر على حماة يومًا واحدًا ثم رحلوا عن حماة وأراد الملك المنصور بعد رحيل التتر المسير إلى دمشق فمنعه العامة من ذلك حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب فسافر هو وأخوه الملك الأفضل فى جماعة قليلة وبقى الطواشى مرشد فى باقى العسكر بحماة ووصل المنصور بمن معه إلى دمشق وكذلك توجّه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق وأما حسام الدين الجوكندار العزيزى فتوجه أيضًا بمن فى صحبته ولم يدخل دمشق ونزل بالمرج ثم سار إلى مصر وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق فى دورهما والحاكم بها يومئذ سنجر الحلبى الملقّب بالسلطان الملك المجاهد وقد اضطرب أمره ولذلك أقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق ولم يدخلا فى طاعته لضعفه وتلاشى أمره وأما التتر فساروا عن حماة إلى فامية وكان قد وصل إلى فامية سيف الدين الدنبلى الأشرفى ومعه جماعة فأقام بقلعة فامية وبقى يغير على التتر فرحلوا عن فامية وتوجّهوا إلى الشرق .

ذكر القبض على سنجر الحلبى الملقب بالملك المجاهد

وفى هذه السنة : جهّز الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر عسكرا مع علاء الدين البندقدار وهو أستاذ الملك الظاهر لقتال علم الدين سنجر الحلبى المستولى على دمشق فوصلوا إلى دمشق فى ثالث عشر صفر من هذه السنة ، ولما وصل عسكر مصر إلى دمشق خرج إليهم الحلبى

لقتالهم ، وكان صاحب حماة وصاحب حمص مقيمين بدمشق لم يخرجا مع الحلبى لقتالهم ولا أطاعاه لاضطراب أمر الحلبى واقتتل معهم بظاهر دمشق فى ثالث عشر صفر من هذه السنة ، أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة فولى الحلبى وأصحابه منهزمين ودخل إلى قلعة دمشق إلى أن جنه الليل فهرب من قلعة دمشق إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى الديار المصرية فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق فى ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحلب وحمص وغيرها واستقر أيدكين البندقدار الصالحى فى دمشق لتدبير أمورها ولما استقر الحال على ذلك رحل الملك المنصور صاحب حماة والملك والأشرف صاحب حمص وعادا إلى بلادهما واستقرا بها .

ذكر خروج البرلى عن طاعة الملك الظاهر بيبرس واستيلاؤه على حلب

وفى هذه السنة : بعد استقرار علاء الدين أيدكين البندقدار فى دمشق ورد عليه مرسوم الملك الظاهر بيبرس بالقبض على بهاء الدين بغدى الأشرفى وعلى شمس الدين أقوش البرلى وغيرهما من العزيزية والناصرية وبقى علاء الدين أيدكين متوقعا ذلك فتوجه بغدى إلى علاء الدين أيدكين فحال دخوله عليه قبض على بغدى المذكور فاجتمعت العزيزية والناصرية إلى أقوش البرلى وخرجوا من دمشق ليلا على حمية ونزلوا بالمرج ، وكان أقوش البرلى قد ولّاه المظفر قطز غزة والسواحل على ما قدّمنا ذكره ، فلما جهّز الملك الظاهر أستاذه البندقدار إلى قتال الحلبى أرسل إلى البرلى وأمره أن ينضمّ إليه فسار البرلى مع البندقدار وأقام بدمشق ، فلما قبض على بغدى خرج البرلى إلى المرج وأرسل علاء الدين أيدكين البندقدار إلى البرلى يطيب قلبه ويحلف له فلم يلتفت إلى ذلك ، وسار البرلى إلى حمص وطلب من صاحبها الأشرف موسى أن يوافقه على العصيان فلم يجبه إلى ذلك ، ثم توجه إلى حماة وأرسل يقول للملك المنصور صاحب حماة إنه لم يبق من البيت الأيوبى غيرك وقم لنصير معك ونملكك البلاد فلم يلتفت الملك المنصور إلى ذلك وردّه ردّا قبيحا ، فاغتاظ البرلى ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر وسار إلى شَيْزَرْ ثم إلى جهة حلب وكان علاء الدين أيدكين البندقدار لما استقر بدمشق قد جهّز عسكرا صحبة فخر الدين الحمصى للكشف عن البيرة فان التتر كانوا قد نازلوها فلما قدم البرلى إلى حلب كان بها فخر الدين الحمصى المذكور فقال له البرلى نحن فى طاعة الملك الظاهر فتمضى إلى السلطان وتسأله ان يتركنى ومن فى صحبتى مقيمين بهذا الطرف وتكون تحت طاعته من غير ان يكلفنى وطىء بساطة فسار الحمصى إلى جهة مصر ليؤدّى هذه الرسالة فلما سار عن حلب تمكّن البرلى واحتاط على ما فى حلب من الحواصل واستبد بالأمر وجمع العرب

والتركمان واستعدّ لقتال عسكر مصر ولما توجه فخر الدين الحمصى لذلك التقى فى الرمل جمال الدين المحمدى الصالحى متوجها بمن معه من عسكر مصر لقتال البرلى وإمساكه فأرسل الحمصى عرّف الملك الظاهر بما طلبه البرلى فأرسل الملك الظاهر ينكر على فخر الدين الحمصى المذكور ويأمره بالانضمام إلى المحمدى والمسير إلى قتال البرلى فعاد من وقته ثم رضى الملك الظاهر عن علم الدين سنجر الحلبى وجهّزه وراء المحمدى فى جمع من العسكر ثم أردفه بعزّ الدين الدمياطى فى جمع آخر وسار الجميع إلى جهة البرلى وساروا إلى حلب وطردوه عنها وانقضت السنة والأمر على ذلك .

ذكر مقتل الملك الناصر يوسف

وفى هذه السنة : ورد الخبر بمقتل الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعقد عزاه بجامع دمشق فى سابع جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وصورة الحال فى قتله أنه لما وصل إلى هولاكو على ما قدّمنا ذكره وعده بردّه إلى ملكه وأقام عند هولاكو مدة ، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانيا غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر المذكور وأخاه الملك الظاهر غازى وقال له أنت قلت إن عسكر الشام فى طاعتك فغدرت بى وقتلت المغل فقال الملك الناصر لو كنت بالشام ماضرب أحد فى وجه عسكرك بالسيف ومَنْ يكون ببلاد أوريز كيف يحكم على بلاد الشام فاستوفى هولاكو لعنه الله ناصحا وضربه به فقال الملك الناصر باخوند الصنيعة فنهاه أخوه الظاهر وقال قد حضرت ثم رماه بفردة ثانية فقتله ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا الملك العزيز ابن الملك الناصر لأنه كان صغيرا فبقى عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه ثم مات ، وكان قد تولى الملك الناصر المذكور مملكة حلب بعد موت أبيه العزيز وعُمره سبع سنين وأقامت جدته ضيفة خاتون بنت الملك العادل بتدبير مملكته واستقل بالملك بعد وفاتها فى سنة أربعين وستمائة وعمره ثلاث عشرة سنة وزاد ملكه على ملك أبيه وجدّه فإنه ملك مثل حران والرها والرقة وراس عين وما مع ذلك من البلاد وملك حمص ثم ملك دمشق وبعلبك والأغوار والسواحل إلى غزة وعظم شأنه وكسر عساكر مصر وخطب له بمصر وبقلعة الجبل على الوجه الذى تقدم ذكره ، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبّر دولته شمس الدين لولو الأرمنى ومخامرة مماليك أبيه العزيزية ، وكان يذبح فى مطبخه كل يوم أربعمائة رأس غنم ..

وكانت سماطاته وتجمله فى الغاية القصوى ، وكان حليما وتجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة ، فإنه لما أمنت قطاع الطريق فى أيام مملكته من القتل والقطع تجاوزوا الحدّ فى الفساد بالمملكة وانقطعت الطرق فى أيامه وبقى لايقدر المسافر على السفر من دمشق إلى حماة وغيرها إلا برفقة من العسكر وكثر طمع العرب والتركمان فى أيامه وكثرت الحرامية وكانوا يكبسون الدور ومع ذلك إذا احضر القاتل إلى بين يدى الملك الناصر المذكور يقول الحى خير من الميت ويطلقه فأدى ذلك إلى انقطاع الطرقات وانتشار الحرامية والمفسدين وكان على ذهن الناصر المذكور شئ كثير من الأدب والشعر ويروى له أشعار كثيرة منها :

فوالله لو قطّعت قلبى تأسّفا ... وجرّعتنى كاسات دمعى دما صرفا

لما زادنى إلا هوى ومحبّة ... ولا اتخذت روحى سواك لها إلفا

وبنى بدمشق مدرسة قريب الجامع تعرف بالناصرية ووقف عليها وقفا جليلاً وبنى بالصالحية تربة غرم عليها جملاً مستكثرة فدفن بها كرمون وهو بعض أمراء التتر وكانت منية الملك الناصر ببلاد العجم وكان مولد الناصر المذكور فى سنة سبع وعشرين وستمائة فيكون عمره اثنتين وثلاثين سنة تقريبًا .

ذكر مبايعة شخص بالخلافة وإثبات نسبه

وفى هذه السنة : فى رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلسًا حضر فيه جماعة من الأكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، والقاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن خلف المعروف بابن بنت الأعز فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد ابن الإمام الناصر فيكون عم المستعصم وأقام القاضى جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهاداتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة فأثبت القاضى تاج الدين نسب أحمد المذكور ولقب المستنصر بالله أبا القاسم أحمد ابن الظاهر بالله محمد وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة واهتمّ الملك الظاهر بأمره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة واستخدم له عسكرًا وغرم على تجهيزه جملاً طايلة قيل إن قدر ما غرمه عليه ألف ألف دينار ، وكانت العامّة تلقب الخليفة المذكور بالزرابيني وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود المذكور فى رمضان من هذه السنة وتوجها إلى دمشق وكان فى كل منزلة يمضى الملك الظاهر إلى دهليزه الخاص به ولما وصلا إلى دمشق نزل الملك الظاهر بالقلعة ونزل الخليفة فى جبل الصالحية ونزل حول الخليفة أمراؤه

وأجناده ثم جهّز الخليفة بعسكره إلى جهة بغداد طمعًا فى أن يستولى على بغداد ويجتمع عليه الناس فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق وركب الملك الظاهر وودّعه ووصاه بالتأنّى فى الأمور ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة ثم سار إلى الديار المصرية ودخلها فى سابع عشر ذى الحجة من هذه السنة ، ووصلت إليه كتب الخليفة بالديار المصرية أنه قد استولى على عانه والحديثة وولّى عليها وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثّونه على الحضور إليهم ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر وقتلوا الخليفة المذكور وقتلوا غالب أصحابه ونهبوا ما كان معهم وجاءت الأخبار بذلك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : لما سار الملك الظاهر إلى الشام أمر القاضى شمس الدين ابن خلكان فسافر فى صحبته من مصر إلى الشام فعزل عن قضاء دمشق نجم الدين ابن صدر الدين بن سنا الدولة وكان قطز قد عزل المحيى بن الزكىّ الذى ولّاه هولاكو القضاء وولى ابن سنا الدولة فعزله الملك الظاهر فى هذه السنة ، وولى القضاء شمس الدين ابن خلكان .

وفيها : قدم أولاد صاحب الموصل وهم الملك الصالح إسماعيل ثم أخوه الملك المجاهد اسحق صاحب جزيرة ابن عمر ثم أخوهما الملك المظفر على صاحب سنجار أولاد لولو فأحسن الملك الظاهر إليهم وأعطاهم الإقطاعات الجليلة بالديار المصرية واستمرّوا فى أرغد عيش فى طول مدة الملك الظاهر .

وفيها : فى ربيع الآخر وردت الأخبار منّ ناحية عكا أن سبع جزر فى البحر خسف بها وبأهلها وبقى أهل عكا لابسين السواد وهم يبكون ويستغفرون من الذنوب بزعمهم .

وفيها : جهّز الملك الظاهر بيبرس بدر الدين الأيدمرى فتسلّم الشوبك فى سلخ ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة وأخذها من الملك المغيث صاحب الكرك .

ثم دخلت سنة ستين وستمائة :

فى هذه السنة : فى نصف رجب وردت جماعة من مماليك الخليفة المستعصم البغاددة وكانوا قد تأخروا فى العراق بعد استيلاء التتر على بغداد ، وقتل الخليفة وكان مقدّمهم يقال له شمس الدين سلار فأحسن الملك الظاهر بيبرس ملتقاه وعيّن لهم الإقطاعات بالديار المصرية .

وفيها : فى رجب أيضًا وصل إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية عماد الدين

ابن مظفر الدين صاحب صهيون رسولا من أخيه سيف الدين صاحب صهيون وصحبته هدية جليلة فقبلها الملك الظاهر وأحسن إليه .

وفيها : جهّز الملك الظاهر عسكرًا إلى حلب وكان مقدّمهم شمس الدين سنقر الرومى فأمنت بلاد حلب وعادت إلى الصلاح ثم تقدّم الملك الظاهر بيبرس إلى سنقر الرومى وإلى صاحب حماة الملك المنصور وإلى صاحب حمص الملك الأشرف موسى أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها للإغارة عليها فساروا إليها ونهبوا بلادها وضايقوها ثم عادوا فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومى إلى مصر ووصلوا إليها فى تاسع عشرين رمضان من هذه السنة ومعهم ما ينوف عن ثلثمائة أسير فقابلهم الملك الظاهر بالإحسان والإنصاف .

وفيها : لما ضاقت على أقوس البرلى البلاد وأخذت منه حلب ولم يبق بيده غير البيرة دخل فى طاعة الملك الظاهر وسار إليه فكتب الملك الظاهر إلى النواب بالإحسان إليه وترتيب الإقامات له فى الطرقات حتى وصل إلى الديار المصرية فى ثانى الحجة من هذه السنة أعنى سنة ستين فتلقّاه الملك الظاهر وبالغ فى الإحسان إليه وأكثر له العطا فسأل أقوش البرلى من الملك الظاهر أن يقبل منه البيرة فلم يفعل وما زال يعاوده حتى قبلها وبقى أقوش البرلى العزيزى المذكور مع الملك الظاهر إلى أن تغيّر عليه وقبضه فى رجب سنة إحدى وستين وستمائة فكان آخر العهد به .

وفيها : فى ذى القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق وهو علاء الدين بيبرس الوزيرى وكان قد تولى دمشق بعد مسير علاء الدين أيدكين البندقدار عنها وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها فأرسل إليه عسكرا مع عز الدين الدمياطى وغيره من الأمراء فلما وصلوا إلى دمشق خرج بيبرس لتلقّيهم فقبضوا عليه وقيّدوه وأرسلوه إلى مصر فحبسه الملك الظاهر واستمرّ الحاج بيبرس فى الحبس سنة وشهرًا وكانت مدّة ولايته بدمشق سنة وشهرًا أيضًا وكان بيبرس المذكور ردىء السيرة فى أهل دمشق حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه وحكم فى دمشق بعد قبض بيبرس المذكور علاء الدين أيدى كان الحاج الركنى ثم استناب الملك الظاهر على دمشق الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى .

وفيها : فى يوم الخميس فى أواخر ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة ستين وستمائة جلس الملك الظاهر مجلسًا عامًا وأحضر شخصًا كان قد قدم إلى الديار المصرية فى سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بنى العباس يسمى أحمد بعد أن أثبت نسبه وبايعه بالخلافة ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وقد اختلف فى نسبه فالذى هو مشهور بمصر عند نسّابة مصر أنه أحمد بن حسن بن أبى بكر ابن الأمير أبى على القتى ابن الأمير حسن بن الراشد بن المسترشدا بن المستظهر ، وقد مرّ نسب المستظهر مع جملة خلفاء بنى العباس وأما عند الشراف

العباسيين السلمانيين فى درج نسبهم الثابت فقالوا هو أحمد بن أبى بكر على ابن أبى بكر أحمد بن الإمام المسترشد الفضل بن المستظهر ، ولما أثبت الملك الظاهر نسب المذكور نزله فى برج محترزا عليه وأشرك له الدعاء فى الخطبة لا غير ذلك .

وفيها : جهّز الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصارى رسولاً إلى الملك الظاهر ووصل شيخ الشيوخ المذكور فوجد السلطان الملك الظاهر عاتبًا على صاحب حماة لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو وأنكر الملك الظاهر على الشيخ شرف الدين ذلك ثم انصلح خاطره وحمله ما طيّب به قلب صاحبه الملك المنصور ثم عاد إلى حماة .

وفيها : توفى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقى الإمام فى مذهب الشافعى ، وله مصنفات جليلة فى المذهب وكانت وفاته بمصر رحمه الله تعالى .

وفيها : فى ذى الحجة توفى الصاحب كمال الدين عمر بن عبد العزيز المعروف بابن العديم انتهت إليه رياسة أصحاب أبى حنيفة وكان فاضلاً كبير القدر ألف تاريخ حلب وغيره من المصنفات وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر ثم عاد بعد خراب حلب إليها فلما نظر ما فعله التتر من خراب حلب وقتل أهلها بعد تلك العمارة قال فى ذلك قصيدة طويلة منها :

هو الدهر ما تبنيه كفّاك يهدم ... وإن رمت إنصافًا لديه فيظلم
أيا ملوك الفرس جمعا وقيصرا ... وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم ... وما منهم إلاّ مليك معظّم
وملك بنى العباس زال ولم يدع ... لهم أثرًا من بعدهم وهم هم
وأعتابهم أضحت تداس وعهدها ... تباس بأفواه الملوك وتلثم
وعن حلب ما شئت قل من عجايب ... أحل بها يا صاح إن كنت تعلم

ومنها :

فيا لك من يوم شديد لغامه ... وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهى ضخم

وهى طويلة وآخرها :

ولكنما لله فى ذا مشيئة ... فيفعل فينا ما يشاء ويحكم

ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة :

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام

فى هذه السنة : فى حادى عشر ربيع الآخر سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام فلاقته والدة الملك المغيث عمر صاحب الكرك بغزة وتوثّقت لابنها الملك المغيث من الملك الظاهر بالأمان وأحسن إليها ثم توجّهت إلى الكرك وتوجّه صحبتها شرف الدين الجاكى المهمندار يرسم حمل الإقامات إلى الطرقات برسم الملك المغيث ثم سار الملك الظاهر من غزة ووصل إلى الطور فى ثانى عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، ووصل إليه على الطور الأشرف موسى صاحب حمص فى نصف الشهر المذكور فأحسن إليه الملك الظاهر وأكرمه .

ذكر حضور الملك المغيث صاحب الكرك وقتله واستيلاء الملك الظاهر بيبرس على الكرك

فى هذه السنة : كان مقتل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب الكرك وسببه أنه كان فى قلب الملك الظاهر بيبرس منه غيظ عظيم لأمور كانت بينهما قيل إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر بيبرس لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق وهرب الملك الظاهر بيبرس المذكور وبقيت امرأته فى الكرك والله أعلم بحقيقة ذلك وكان من حديث مقتله أن الملك الظاهر بيبرس ما زال يجتهد على حضور المغيث المذكور وحلف لوالدته على غزة كما تقدّم ذكره ، وكان عند المغيث شخص يسمى الأمجد وكان يبعثه فى الرسيلة إلى الملك الظاهر فكان الظاهر يبالغ فى إكرامه وتقريبه فاغترّ الأمجد بذلك وما زال على مخدومه الملك المغيث حتى أحضره إلى الملك الظاهر حكى لى شرف الدين ابن مزهر وكان ابن مزهر المذكور ناظر خزانة المغيث قال لما عزم المغيث على التوجّه إلى خدمة الملك الظاهر لم يكن قد بقى فى خزانته شئ من المال ولا القماش وكان لوالدته حواصل فى البلاد فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم واشترينا باثنى عشر ألف درهم خلعًا من دمشق وجعلنا فى صناديق الخزانة الاثنى عشر الألف الأخرى ونزل المغيث من الكرك وأنا والأمجد وجماعة من أصحابه معه فى خدمته قال وشرعت البريدية تصل إلى الملك المغيث فى كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر ويرسل صحبتهم مثل غزلان ونحوها

والمغيث يخلع عليهم حتى نفد ما كان بالخزانة من الخلع ومن جملة ما كتب إليه فى بعض المكاتبات المملوك تنشد فى قدوم مولانا :

خليلىّ هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى يمشى إلى عبد

قال وكان الخوف فى قلب المغيث شديدًا من الملك الظاهر قال ابن مزهر المذكور ففاتحنى فى شىء من ذلك بالليل فقلت له احلف إلى أنك لا تقول للأمجد ما أقوله لك حتى أنصحك فحلف لى فقلت له اخرج الساعة من تحت الخام واركب حجرتك النجيلة ولا يصبح لك الصباح إلّا وأنت قد وصلت إلى الكرك فتعصى فيه ولا تفكر بأحد قال ابن مزهر فغافلنى وتحدّث مع الأمجد فى شىء من ذلك فقال له الأمجد هذا رأى ابن مزهر إياك من ذلك وسار المغيث حتى وصل إلى بيسان فركب الملك الظاهر بعساكره والتقاه فى يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة ، فلما شاهد المغيث الملك الظاهر ترجّل فمنعه الملك الظاهر وأركبه وساق إلى جانبه وقد تغيّر وجه الملك الظاهر فلما قارب الدهليز أفرد الملك المغيث عنه وأنزله فى خيمة وقبض عليه وأرسله معتقلاً إلى مصر فكان آخر العهد به قيل إنه حمل إلى امرأة الملك الظاهر بيبرس بقلعة الجبل فأمرت جواريها فقتلته بالقباقيب ثم قبض الملك الظاهر على جميع أصحاب المغيث ومن جملتهم ابن مزهر المذكور ثم بعد ذلك أفرج عنهم انتهى كلام ابن مزهر .

ولما التقى بالملك الظاهر بيبرس الملك المغيث المذكور وقبض عليه أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى الملك المغيث أجوبة عن ما كتب إليهم به فى أطماعهم فى ملك مصر والشام وكتب فى ذلك مشروح وأثبت على الحكّام وكان للملك المغيث المذكور ولد يقال له الملك العزيز أعطاه الملك الظاهر إقطاعًا بديار مصر وأحسن إليه ثم جهّز الملك الظاهر بدر الدين البيسرى الشمسى وعز الدين أستاذ الدار إلى الكرك فتسلماها فى يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعنى سنة إحدى وستين وستمائة ، ثم سار الملك الظاهر ووصل إلى الكرك ورتّب أمورها ثم عاد إلى الديار المصرية فوصل إليها فى سابع عشر رجب من هذه السنة .

ذكر الإغارات على عكّا وغيرها

وفى هذه السنة : لما كان الملك الظاهر نازلاً على الطور أرسل عسكرًا هدموا كنيسة الناصرة وهى من أكبر مواطن عبادات النصارى لأن منها خرج دين النصرانية وأغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا ثم ركب الملك الظاهر بنفسه وجماعة اختارهم وأغار ثانيًا على عكا وبلادها وهدم برجا كان خارج البلد وذلك عقيّب إغارة عسكره وهدم الكنيسة الناصرة .

ذكر القبض على من يذكر

وفيها : بعد وصول الملك الظاهر بيبرس إلى مصر واستقراره فى ملكه فى رجب قبض على الرشيدى ثم قبض فى ثانى يوم على الدمياطى والبرلى وقد تقدّمت أخبار البرلى المذكور .

ذكر وفاة الأشرف صاحب حمص

وفى هذه السنة : بعد عود الملك الأشرف صاحب حمص موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى من خدمة الملك الظاهر بيبرس إلى حمص مرض واشتدّ به المرض وتوفى إلى رحمة الله تعالى وأرسل الملك الظاهر وتسلّم حمص فى ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة إحدى وستين وستمائة وهذا الملك الأشرف موسى هو آخر من ملك حمص من بيت شيركوه ، وقد تقدّمت أخبار الأشرف موسى المذكور وأخذ الملك الناصر يوسف صاحب حلب منه حمص بسبب تسليمه شيميس للملك الصالح أيوب صاحب مصر وأنه يعوّض عن حمص تل باشر ثم أعاد هولاكو عليه حمص فبقيت فى يده حتى توفى فى أواخر هذه السنة وانتقلت حمص إلى مملكة الملك الظاهر بيبرس فى ذى القعدة كما تقدّم ذكره وكان جملة من ملك حمص منهم خمسة ملوك أولهم شيركوه بن شاذى ملّكه إياها نور الدين الشهيد ثم ملكها من بعده ابنه ناصر الدين محمد بن شيركوه ثم ملّكها بعده ابنه شيركوه بن محمد وتلقب بالملك المجاهد ثم ملكها بعده ابنه إبراهيم بن شيركوه وتلقب بالملك المنصور ثم ملكها بعده ابنه موسى بن إبراهيم وتلقب بالملك الأشرف حتى توفى فى هذه السنة وانقرض بموته ملك المذكورين .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة :

فى هذه السنة : قبض الأشكرى صاحب القسطنطينية على عز الدين كيكاؤس بن كيخسرو بن كيقباذ صاحب بلد الروم وسببه أن عز الدين كيكاؤس المذكور كان قد وقع بينه وبين أخيه فاستظهر أخوه عليه فهرب كيكاوس وبقى أخوه ركن الدين قليج أرسلان فى سلطنة بلاد الروم ، ثم سار كيكاؤس المذكور إلى قسطنطينية فأحسن إليه الأشكرى صاحب قسطنطينية وإلى من معه من الأمراء واستمرّوا كذلك مدة ، فعزمت الأمراء والجماعة الذين كانوا مع عز الدين المذكور على اغتيال الأشكرى وقتله والتغلّب على قسطنطينية وبلغ ذلك

الأشكرى فقبض عليهم واعتقل عز الدين كيكاوس بن كيخسرو فى بعض القلاع وكحّل الأمراء والجماعة الذين كانوا عزموا على ذلك فأعمى عيونهم وقد تقدّم ذكر كيكاوس المذكور وأخيه قليج آرسلان فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وفيها : فى ثامن شهر رمضان توفى الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى المعروف بشيخ الشيوخ بحماة وكان مولده فى جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى وكان ديّنا فاضلاً متقدّما عند الملوك وله النثر البديع والنظم الفايق وكان غزير العقل عارفًا بتدبير المملكة فمن حسن تدبيره أن الملك الأفضل على ابن الملك المظفر محمود لما ماتت والدته غازية خاتون بنت الملك الكامل رحمها الله تعالى ، حصل عند الملك الأفضل المذكور استشعار من أخيه الملك المنصور محمد صاحب حماة فعزم على أن ينتزح من حماة ويفارق أخاه الملك المنصور وأذن له أخوه الملك المنصور فى ذلك ، فاجتمع الشيخ شرف الدين المذكور بالملك الأفضل وعرّفه ما يعتمده من السلوك مع أخيه الملك المنصور ثم اجتمع بالملك المنصور وقبّح عنده مفارقة أخيه وما برح بينهما حتى أزال ما كان فى خواطرهما وصار للملك الأفضل فى خاطر أخيه الملك المنصور من المحبّة والمكانة ما يفوت الوصف وكان ذلك من بركة شرف الدين المذكور وللشيخ شرف الدين المذكور أشعار فايقة قد تقدّم ذكر بعضها وكان مرة مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام بعمان فعمل الشيخ شرف الدين :

أفدى حبيبًا منذ واجهته ... عن وجه بدر التمام أغنانى
فى وجهه خالان لولاهما ... ما بتّ مفتونًا بعمان

وأنشدها الملك الناصر فأعجبته إلى النهاية وجعل يردّد إنشادها وقال لكاتبه كمال الدين ابن العجمى هكذا تكون الفضيلة فقال ابن العجمى إن التورية لا تخدم هنا لأن عمان مجرورة فى النظم فلا تخدمه فى التورية فقال الملك الناصر للشيخ شرف الدين ما قاله .

فقال الشيخ شرف الدين إن هذا جايز وهو أن يكون المثنى فى حال الجر على صورة الرفع واستشهد شرف الدين بقول الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى ... مساغا لنباه الشجاع لصمّما

واستشهد بغير ذلك فتحقّق الملك الناصر فضيلته .

تم الجزء الثالث من تاريخ أبى الفدا
ويليه الجزء الرابع وأوله
ذكر فتوح قيسارية

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٩/٢٧٠٤
الترقيم الدولى	977-02-5742-7 ISBN

١/٩٢/٨٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

المختصر فى أخبار البشر
لأبى الفدا

ذخائر العرب
(٦٩)

المختصر فى أخبار البشر

للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل
ابن على المعروف بأبى الفدا
٦٧٢ - ٧٣٢ هـ/١٢٧٣ - ١٣٣١ م

تقديم الدكتور/ حسين مؤنس

تحقيق
الدكتور محمد زينهم محمد عزب
الأستاذ يحيى سيد حسين

الجزء الرابع



دار المعارف

المختصر فى أخبار البشر

كتاب المختصر فى أخبار البشر للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على المعروف بأبى الفدا (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣١ م) الجزء الرابع تحقيق نخبة من العاملين بدار المعارف بإشراف الدكتور / حسين مؤنس الطبعة الأولى

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر فتوح قيسارية[1]

فى هذه السنة : سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره المتوافرة إلى جهاد الفرنج بالساحل ، ونازل قيسارية التمام فى تاسع جمادى الأولى وضايقها وفتحها بعد ستة أيام من نزوله ، وذلك فى منتصف الشهر المذكور ، وأمر بها فهدمت ، ثم سار إلى أرسوف ونازلها وفتحها فى جمادى الآخرة من هذه السنة .

فى هذه السنة فى تاسع عشر ربيع الآخر مات هولاكو ملك التتار لعنه الله تعالى ، وهو هولاكو بن طلو بن جنكز خان وكانت وفاته بالقرب من كورة مراغة وكانت مدة ملكه البلاد التى سنصفها نحو عشر سنين ، وخلف خمسة عشر ولدا ذكرا ، ولما مات جلس فى الملك بعده ولده أبغابن هولاكو واستقرت له البلاد التى كانت بيد والده حال وفاته ، وهى إقليم خراسان وكرسية نيسابور،وإقليم عراق العجم ، وهو الذى يعرف ببلاد الجبل ، وكرسية أصفهان وإقليم عراق العرب وكرسية بغداد وإقليم أذربيجان وكرسية تبريز وإقليم خوزستان وكرسية تشتر[2] التى تسميها العامة تشير وإقليم فارس وكرسية[3] شيراز وإقليم ديار بكر وكرسية الموصل وإقليم الروم وكرسية قونية ، وغير ذلك من البلاد التى ليست فى الشهرة مثل هذه الأقاليم العظيمة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة : أو التى بعدها أمسك الملك الظاهر بيبرس زامل بن على أمير العرب بمكاتبة عيسى بن مهنا فى حقه .

---

(١) بالفتح ثم السكون وسين مهملة وبعد الألف راء ثم ياء مشددة : بلد على ساحل بحر الشام تعد فى أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام .

انظر . معجم البلدان ٤ / ٤٢١ - ٤٢٢ طبعة دار صادر - بيروت .

(٢) بالضم ثم السكون وفتح التاء الآخرى وراء أعظم مدينة بخوز ستان فى ذلك الوقت ، وهو تعريب شوشتر . وقال الزجاجى : سميت بذلك لأن رجلا من بنى عجل يقال له يستر بن نون افتتحها فسميت به .

انظر التفاصيل : معجم البلدان ٢ / ٢٩ - ٣٠

(٣) المقصود هنا العاصمة أو الحاضرة .

وفيها : فى رمضان استولى النائب بالرحبة على رقيسيا[١] وهى حصن الزباء التى تقدم خبرها مع جذيمة أبرش فى أوائل الكتاب وفيه خلاف .

وفيها : قبض الملك الظاهر بيبرس على سنقر الرومى .

وفيها : توفى قاضى القضاة بمصر بدر الدين يوسف بن حسن بن على السنجارى .

ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة :

ذكر فتوح صَفَد[٢] وغيرها

فى هذه السنة : خرج الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من الديار المصرية ، وسار إلى الشام وجهز عسكرا إلى ساحل طرابلس ففتحوا القليعات وحلبا وعرقا ، ونزل الملك الظاهر على صفد ثامن شعبان وضايقها بالزحف وآلات الحصار ، وقدم إليه وهو على صفد الملك المنصور صاحب حماة ، ولاصق الجند القلعة وكثر القتل والجراح فى المسلمين ، وفتحها فى تاسع عشر شعبان المذكور بالأمان ثم قتل أهلها عن آخرهم .

ذكر دخول العساكر إلى بلاد الأرمن

وفى هذه السنة : بعد فراغ الملك الظاهر من فتوح صفد سار إلى دمشق ، فلما دخلها واستقر فيها جرد عسكراً ضخماً ، وقدم عليهم الملك المنصور صاحب حماة وأمرهم بالمسير إلى بلاد الأرمن ، فسارت العساكر صحبة الملك المنصور المذكور ووصلوا إلى بلاد سيس فى ذى القعدة من هذه السنة ، وكان صاحب سيس إذ ذاك هيثوم بن قسطنطين بن باسيل قد حصن الدربندات[٣] بالرجالة و المناجيق ، وجعل عسكره مع ولديه على الدربندات لقتال

---

(١) بالفتح ثم السكون وقاف آخرى وياء ساكنة وسين مكسورة وياء آخرى وألف ممدودة . قال حمزة الأصبهانى : قرقيسيا معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لأرسال الخيل المسمى بالعربية الحلبة وكثيرا مايجيء فى الشعر مقصوراً .
وهى بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور فى الفرات ، فهى فى مثلث بين الخابور والفرات
انظر : معجم البلدان ٤ / ٣٢٨ - ٣٢٩

(٢) بالتحريك ، والصفد العطاء وكذلك الوثاق ، وصفد مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهى من جبال لبنان .
انظر : معجم البلدان ٣ / ٢ / ٤ .

(٣) الدَّرْبَانُ والدُّرْبانُ وَالدُّرْبان : البواب ، فارسية (عن كراع) والدِّرابنةُ : البوابون فارسى معرب
انظر لسان العرب مادة دربن المجلد الثانى ١٣٥١ .

العسكر الإسلامى ومنعه فداستهم العساكر الإسلامية وأفنوهم قتلًا وأسراً وقتل ابن صاحب سيس الواحد وأسر ابنه الآخر وهو ليفون بن هيثوم المذكور ، وانتشرت العساكر الإسلامية فى بلاد سيس وفتحوا قلعة العامودين وقتلوا أهلها ثم عادت العساكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، ولما وصل خبر هذا الفتح العظيم إلى الملك الظاهر بيبرس رحل من دمشق ووصل إلى حماة ثم إلى فامية[1] فالتقى عساكره وقد عادت منصورة وأمر بتسلم الأسرى وفيهم ليفون ابن صاحب سيس ، وكان المذكور لما أسر سلمه الملك المنصور إلى أخيه الملك الأفضل فاحترز عليه وحفظه حتى أحضره بين يدى السلطان ، ثم عاد إلى الديار المصرية على طريق الكرك فتقنطر بالملك الظاهر المذكور فرسه عند بركة زيزا وانكسرت فخذه وحمل فى محفة إلى قلعة الجبل .

ذكر قتل أهل قاراونهبهم

وفى هذه السنة : عند توجه الملك الظاهر من دمشق لملتقى عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس ، لما نزل على قارا بين دمشق وحمص أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم ، فنهبوا وقتل منهم جماعة لأنهم كانوا نصارى ، وكانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم بالخفية من الفرنج وأخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك فى الديار المصرية فصار منهم أجناد وأمراء .

ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة :

فيها : وصل الملك المنصور محمد صاحب حماة إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية ، ثم طلب المنصور من الملك الظاهر مرسوما بالتوجه إلى إسكندرية ليراها ويتفرج فيها ، فرسم له بذلك وأمر أهل إسكندرية باكرامه واحترامه وفرش الشقق بين يدى فرسه ، فتوجه الملك المنصور إلى الإسكندرية وعاد للديار المصرية مكرماً محترماً ثم خلع عليه الملك الظاهر وأحسن إليه على جارى عادته ورسم له بالدستور فعاد إلى بلده .

وفيها : توجه الملك الظاهر بيبرس إلى الشام فنظر فى مصالح صفد ووصل إلى دمشق وأقام بها خمسة أيام وقوى الأرجاف بوصول التتار إلى الشام ، ثم وردت الأخبار بعودهم على عقبهم فعاد الملك الظاهر إلى ديار مصر .

---

(١) بعد الألف ميم ثم ياء مثناة من تحت خفيفة مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ، وقد يقال لها أفامية بالهمزه فى أوله انظر : معجم البلدان ٤ / ٢٣٢ - ٢٣٣ .

ذكر موت ملك التتار بالبلاد الشمالية

فى هذه السنة : مات بركة بن باطوخان بن دوشى خان بن جنكز خان أعظم ملوك التتار وكرسى مملكته مدينة صراى ، وكان قد مال إلى دين الإسلام ، ولما مات جلس فى الملك بعده ابن عمه منكوتمر بن طغان بن باطو بن دوشى خان بن جنكز خان .

ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة :

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام وفتح أنطاكية وغيرها

فى هذه السنة : فى مستهل جمادى الآخرة ، توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة إلى الشام وفتح يافا فى العشر الأوسط من الشهر المذكور ، وأخذها من الفرنج . ثم سار إلى أنطاكية ونازلها مستهل رمضان ، وزحفت العساكر الإسلامية على أنطاكية فملكوها بالسيف فى يوم السبت رابع شهر رمضان من هذه السنة ، وقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منهم أموالا جليلة ، وكانت أنطاكية للبرنس بيمند بن بيمند وله معها طرابلس ، وكان مقيماً بطرابلس لما فتحت أنطاكية .

وفيها : فى ثالث عشر رمضان استولى الملك الظاهر على بغراس ، وسبب ذلك انه لما فتح أنطاكية هرب أهل بغراس منها ، وتركوا الحصن خاليًا فأرسل من استولى عليها فى التاريخ المذكور ، وشحنه بالرجال والعدد وصار من الحصون الإسلامية ، وقد تقدم ذكر فتح صلاح الدين للحصن المذكور وتخريبه ، ثم عمارة الفرنج له بعد صلاح الدين ، ثم حصار عسكر حلب له ورحيلهم عنه بعد أن أشرفوا على أخذه .

وفيها : فى شوال وقع الصلح بين الملك الظاهر وبين هيثوم صاحب سيس ، على أنه إذا أحضر صاحب سيس سنقر الأشقر من التتار وكانوا قد أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاكو كما تقدم ذكره وسلم مع ذلك بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد يطلق له ابنه ليفون فدخل صاحب سيس على ابغا ملك التتار وطلب منه سنقر الأشقر فأعطاه إياه ، ووصل سنقر الأشقر إلى خدمة الملك الظاهر ، وكذلك سلم دربساك وغيرها من المواضع المذكورة خلال بهسنا وأطلق الملك الظاهر ابن صاحب سيس ليفون بن هيثوم وتوجه إلى والده ، ثم عاد الملك الظاهر إلى الديار المصرية ووصل إليها فى ذى الحجة من هذه السنة .

وفيها : اتفق معين الدين سليمان البرواناه مع التتار المقيمين معه ببلاد الروم على قتل ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق سلطان الروم ، فخنق التتار ركن الدين المذكور بوتر وأقام البرواناه مقامه ولده غيث الدين بن ركن الدين قليج أرسلان المذكور وله من العمر أربع سنين .

ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة :

وفى هذه السنة : خرج الملك الظاهر إلى الشام وخيم فى خربة اللصوص وتوجه إلى مصر بالخفية ووصل إليها بغتة وأهل مصر والنائب بها لا يعلمون بذلك إلا بعد أن صار بينهم ثم عاد إلى الشام ،

وفيها : تسلم الملك الظاهر بلاطنس من عز الدين عثمان صاحب صهيون .

وفيها : توجه الملك الظاهر بيبرس إلى الحجاز الشريف وكان رحيله من الفوار فى الخامس والعشرين من شوال ووصل إلى الكرك وأقام به أياما وتوجه من الكرك فى سادس القعدة إلى الشوبك ورحل من الشوبك فى الحادى عشر من الشهر المذكور ووصل إلى المدينة النبوية فى خامس وعشرينه ، ووصل إلى مكة فى خامس ذى الحجة ووصل إلى الكرك فى سلخ ذى الحجة .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة :

فيها : توجه الملك الظاهر بيبرس من الكرك مستهل المحرم عند عوده من الحج ، فوصل إلى دمشق بغتة وتوجه فى يومه ووصل إلى حماه فى خامس المحرم وتوجه من ساعته إلى حلب ولم يعلم به العسكر إلا وهو فى الموكب معهم ، وعاد إلى دمشق فى ثالث عشر المحرم المذكور ثم توجه إلى القدس ثم إلى القاهرة فوصل إليها فى ثالث صفر من هذه السنة .

فيها : عاد الملك الظاهر إلى الشام وأغار على عكة وتوجه إلى دمشق ثم إلى حماه .

وفيها : جهز الملك الظاهر عسكرا إلى بلاد الإسماعيلية فتسلموا مصياف فى العشر الأوسط من رجب من هذه السنة وعاد الملك الظاهر من حماه إلى جهة دمشق فدخلها فى الثامن والعشرين من رجب ثم عاد إلى مقر ملكه بمصر .

وفيها : حصل بين منكوتمر بن طغان ملك التتار بالبلاد الشمالية وبين الاشكرى صاحب قسطنطينية وحشة ، فجهز منكوتمر إلى قسطنطينية جيشا من التتار فوصول إليها وعانوا فى بلادها ومروا بالقلعة التى فيها عز الدين كيكاوس بن كيخسر وملك بلاد الروم محبوسا كما قدمنا ذكره فى سنة اثنتين وستين وستمائة فحمله التتر بأهله إلى منكوتمر فأحسن منكوتمر إلى عز الدين المذكور وزوجه ، وأقام معه إلى أن توفى عز الدين المذكور فى سنة سبع وسبعين

وستمائة ، فسار ابنه مسعود بن عز الدين المذكور إلى بلاد الروم وسار سلطان الروم على ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : أعنى سنة ثمان وستين وستمائة قتل أبو دبوس آخر الملوك من بنى عبد المؤمن وانقرضت بموته دولتهم ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سنة أربع وعشرين وستمائة وملكت بلادهم بعدهم بنو مرين على ما سنذكره إن شاء الله تعالى فى سنة اثنتين وسبعين وستمائة .

ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة :

ذكر فتح حصن الأكراد وحصن عكار والقرين

فى هذه السنة : توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام ونازل حصن الأكراد فى تاسع شعبان هذه السنة ، وجد فى حصاره واشتد القتال عليه وملكه بالأمان فى الرابع والعشرين من شعبان المذكور ، ثم رحل إلى حصن عكارا ونازله فى سابع عشر رمضان من هذه السنة وجد فى قتاله وملكه بالأمان سلخ رمضان المذكور وعيد الملك الظاهر عليه عيد الفطر فقال محيى الدين بن عبد الظاهر مهنئا له بفتوح عكار

يامليك الأرض بشرا ك فقد نلت الإراده
إن عكار يقينا هو عكا وزياده

وفيها : فى شوال تسلم الملك الظاهر قلعة العليقة وبلادها من الإسماعيلية .

وفيها : توجه الملك الظاهر إلى دمشق وسارمنها فى العشر الأخير من شوال إلى حصن القرين ونازله فى ثانى ذى القعدة ، وزحف عليه وتسلمه بالأمان وأمر به فهدم ثم عاد إلى مصر .

وفيها : جهز الملك الظاهر ما يزيد على عشرة شوانى لغزو قبرس فتكسرت فى مرسى اليميسوس ، وأسر الفرنج من كان بتلك الشوانى من المسلمين فاهتم السلطان بعمارة شوان آخر فعمل فى المدة اليسيرة ضعف ما عدم .

وفيها : توفى هيثوم بن قسطنطين صاحب سيس وملك بعده ابنه ليفون الذى أسره المسلمون حسبماتقدم ذكره .

---

(١) انظر التفاصيل فى كتاب الحملات الصليبية للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور والظاهر بيبرس للدكتور محمد جمال الدين سرور .

وفيها : قبض الملك الظاهر على عز الدين بغان المعروف بسم الموت وعلى المحمدى وغيرهما .

وفيها : توفى القاضى شمس الدين بن البارزى قاضى القضاة بحماه .

وفيها : توفى الطواشى شجاع الدين مرشد الخادمَ المنصورى رحمه الله تعالى ، وكان كثير المعروف ، وتولى تدبير مملكة حماه مدة وكان يعتمد عليه الملك الظاهر ويستشيره .

ثم دخلت سنة سبعين وستمائة :

فيها : توجه الملك الظاهر إلى الشام وعزل جمال الدين أقوش النجمى عن نيابة السلطنةبدمشق وولى فيها علاء الدين أيدكين الفخرى الاستدار فى مستهل ربيع الأول ثم توجه الملك الظاهر إلى حمص ثم إلى حصن الأكراد ثم عاد إلى دمشق .

وفيها : والملك الظاهر بدمشق أغارت التتر على عينتاب وعلى الروج وقميطون إلى قرب فامية ثم عادوا ، واستدعى الملك الظاهر عسكرا من مصر فوصلوا اليه صحبة بدر الدين البيسرى فتوجه الملك الظاهر بهم إلى حلب ثم عاد إلى الديار المصرية فوصل إليها فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى .

وفيها : فى شوال عاد الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام فوصل إلى دمشق فى ثالث صفر .

وفيها : توفى سيف الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان بن منكبرس صاحب صهيون فسلم ولداه سابق الدين وفخر الدين صهيون إلى الملك الظاهر ، وقدما إلى خدمته وأحسن إليهما وأعطى سابق الدين إمرة طملخاناة وفيها نازل التتر البيرة ونصبوا عليها المناجيق وضايقوها وسار إليهم الملك الظاهر ، وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة فقاتله التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها فصارت للمسلمين ثم عاد الملك الظاهر فوصل إلى الديار المصرية فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفيها : أفرج عن الدمياطى[1] من الاعتقال .

وفيها : تسلمت نواب الملك الظاهر ما تأخر من حصون الاسماعيلية وهى الكهف والمينقة وقدموس .

---

(١) هو شيخ المحدثين سيف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن التوفى الشافعى ولد سنة ٦١٣ هجرية ، صنف كتاب الخيل والصلاة الواسطى ، مات سنة ٧٠٥ هـ .

وفيها : اعتقل الملك الظاهر الشيخ خضر وكان قد بلغ المذكور عند الملك الظاهر أرفع منزلة وانبسطت يده وأنفذ أمره فى الشام ومصر فاعتقله فى قاعة بقلعة الجبل مكرما حتى مات .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة :

ذكر ملك يعقوب المرينى مدينة سبتة وابتداء ملكهم[1]

وفى هذه السنة : ملك يعقوب بن عبد الحق بن محبو بن حمامة المرينى مدينة سبتة ، وبنو مرين ملوك بلاد المغرب بعد بنى عبد المؤمن ، وكان آخر من ملك من بنى عبد المؤمن أبو دبوس وقد ذكرنا ما وقع لنا من أخبار أبى دبوس المذكور مع ما فيه من الاختلاف فى سنة أربع وعشرين وستمائة ، وأن المذكور قتل فى سنة ثمان وستين وستمائة ، وانقرضت حينئذ دولة بنى عبد المؤمن ، وملك بعدهم بنومرين وهذه القبيلة أعنى بنى مرين يقال لهم حمامة من بين قبائل العرب بالمغرب وكان مقامهم بالريف القبلى من إقليم تازة وأول أمرهم أنهم خرجواعن طاعة بنى عبد المؤمن المعروفين بالموحدين لما اختل أمرهم وتابعوا الغارات عليهم حتى ملكوا مدينة فاس واقتلعوها من الموحدين فى سنة بضع وثلاثين وستمائة واستمرت فاس وغيرها فى أيديهم فى أيام الموحدين ، وأول من اشتهر من بنى مرين أبو بكر بن عبد الحق بن محبو ابن حمامة المرينى وبعد ملكه فاس سار إلى جهة مراكش وضايق بنى عبد المؤمن وبقى كذلك حتى توفى أبو بكر المذكور فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

وملك بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق بن محبو وقوى أمره وحاصر أبا دبوس فى مراكش وملكها يعقوب المرينى المذكور وأزال ملك بنى عبد المؤمن من حينئذ واستقرت قدم يعقوب المرينى المذكور فى الملك وبقى يعقوب مستمرا فى الملك حتى ملك سبتة فى هذه السنة ثم توفى ولم يقع لى تاريخ وفاته .

وملك بعده ولده يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محبو وكنيته يوسف المذكور أبو يعقوب واستمر يوسف المذكور فى الملك حتى قتل سنة ست وسبعمائة على ما سنذكر، إن شاء الله تعالى .

---

(١) وحول هذه الأحداث عن الدولة المرينية انظر الذخيرةالسنية فى تاريخ الدولة المرينية ، وتاريخ الدولتين للزركشى ، والمعجب للمراكشى .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة :

وفيها : وصل الملك الظاهر بعساكره إلى دمشق .

وفيها : عاد عمر بن مخلول أحد أمراء العربان إلى الحبس بعجلون وكان من حديثه أن الملك الظاهر حبسه بعجلون مقيداً فهرب من الحبس المذكور إلى بلاد التتر ثم أرسل يطلب الأمان فقال الملك الظاهر ما أؤمنه إلا أن يعود إلى عجلون ويضع القيد فى رجله كما كان فعاد عمر إلى عجلون وجعل القيد فى رجله فعفى عنه الملك الظاهر عند ذلك .

وفيها : قويت أخبار التتر لقصد الشام فجفل الناس .

وفيها : فى جمادى الأولى كانت ولادة العبد الفقير مؤلف هذا المختصر إسماعيل بن على ابن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بدار ابن الرنجيلى بدمشق المحروسة فإن أهلنا كانوا قد جفلوا من حماة إلى دمشق بسبب أخبار التتار .

وفيها : توفى الشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائى الحيانى النحواى وله فى النحو واللغة مصنفات كثيرة مشهورة .

وفيها : فى ذى القعدة توفى الأمير مبارز الدين أقوش المنصورى مملوك الملك المنصور صاحب حماة ونائب سلطنته وكان أميراً جليلاً عاقلاً شجاعاً وهو قبجاقى فى الجنس .

وفيها : فى يوم الاثنين ثامن عشر ذى الحجة توفى الشيخ العلامة نصير الدين الطوسى واسمه محمد بن محمد بن الحسين الإمام المشهور وكان يخدم صاحب الألموت ثم خدم هولاكو وحظى عنده وعمل لهولاكو رصداً بمراغة وزيجا وله مصنفات عديدة كلها نفيسة منها إقليدس يتضمن اختلاط الأوضاع وكذلك المجسطى وتذكرة فى الهيئة لم يصنف فى فنها مثلها وشرح الإشارات وأجاب عن غالب إيرادات فخر الدين الرازى عليها وكانت ولادته فى حادى عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وخمسمائة وكانت وفاته ببغداد ودفن فى مشهد موسى الجواد .

فيها : توجه الملك بيبرس إلى بلاد سيس فدخلها بعساكره المتوافرة وغنموا ثم عادوا إلى دمشق حتى خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة :

فيها : نازلت التتر البيرة وكان اسم مقدمهم أقطاى ، وكان الملك الظاهر بدمشق فتوجه

---

(١) له ترجمة وافية فى طبقات النحويين واللغويين لجلال الدين السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة دار الفكر العربى .

إلى جهة البيرة فرحل التتر عنها ولاقى الملك الظاهر الخبر برحيلهم وهو بالقطيفة[1] فأتم السير إلى حلب ثم عاد إلى مصر .

وفيها : بعد وصول الملك الظاهر إلى مصر جهز جيشًا مع آقسنقر الفارقانى ومعه عز الدين أيبك الأفرم إلى النوبة فساروا إليها ونهبوا وقتلوا وعادوا بالغنائم .

وفيها : كان زواج الملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس بابنة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى غازية خاتون .

وفيها : فى أواخر السنة المذكورة عاد الملك الظاهر إلى الشام .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة :

فيها : فى المحرم ، وصل الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق وكان قد خرج من مصر فى أواخر سنة أربع وسبعين وبلغه وصول الأمراء الروميين الوافدين وهم بيجار الرومى وبهادر ولده وأحمد ابن بهادر وغيرهم ، فسار الملك الظاهر إلى جهة حلب والتقاهم وأكرمهم ، ثم عاد إلى الديار المصرية .

ذكر دخول الملك الظاهر إلى بلاد الروم

وفى هذه السنة : عاد الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة إلى الشام ، وكان خروجه من مصر فى يوم الخميس لعشرين من رمضان من هذه السنة ووصل إلى حلب ثم إلى النهر الأزرق ثم سار إلى أَبْلَسْتَيْن ، فوصل إليها فى ذى القعدة والتقى بها جمعًا من التتر مقدمهم تناون وكانوا نقاوة المغل فالتقى الفريقان فى أرض أبلستين يوم الجمعة عاشر ذى القعدة من هذه السنة فانهزم التتر وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم تناون وغالب كبرائهم ، وأسر منهم جماعة كثيرة صاروا أمراء ، وكان من جملة المأسورين فى هذه الوقعة سيف الدين قبجق وسيف الدين أرسلان وسنذكر أخبارهما إن شاء الله . تعالى .

ثم سار الملك الظاهر بعد فراغه من هذه الوقعة إلى قيسارية واستولى عليها وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدين سليمان البرواناه وكان يكاتب الملك الظاهر فى الباطن وكان يظن

---

(١) تصغير القَطيفة وهو كساء له خمل يفترشه الناس وهو الذى يسمى اليوم زولية وعفورة وهى قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق فى طرف البرية من ناحية حمص .
انظر : معجم البلدان ٤ / ٣٧٨ .

الملك الظاهر أنه إذا وصل إلى قيسارية يصل إليه البرواناه على ما كان قد اتفق معه فى الباطن فلم يحضر البرواناه لما أراده الله من هلاكه على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام فى انتظار البرواناه وخطب له على منابرها ثم رحل عن قيسارية فى الثانى والعشرين من ذى القعدة وحصل للعسكر شدة عظيمة من نفاد القوت والعلف وعدمت غالب خيولهم ووصلوا إلى عمق حارم وأقاموا به شهراً ولما بلغ ابغا بن هولاكو ساق فى جموع المغل حتى وصل إلى الأبُلُسْتَيْن وشاهد عسكره صرعى ولم يشاهد أحداً من عسكر الروم مقتولا فاستشاط غضبا وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين فنهب وقتل منهم جماعة ثم سار أبغا إلى الأردو وصحبته معين الدين البرواناه فلما استقر بالأردو أمر بقتل البرواناه فقتل وقتلوا معه نيفا وثلاثين نفسا من مماليكه وخواصه واسم البرواناه المذكور سليمان والبرواناه لقب وهو الحاجب بالعجمى وكان مقتله بالأطاغ وكان البرواناه حازما بتدبير المملكة ذا مكر ودهاء .

وفى هذه السنة : توفى الشهاب محمد بن يوسف بن زائدة التلمفرى الشاعر .

وفيها : مات الشيخ خضر فى حبس الملك الظاهر .

وفيها : عاد الملك الظاهر من عمق حارم وتوجه إلى دمشق .

ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة :

فيها : فى خامس المحرم وصل الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق ونزل بالقصر الأبلق وكان قد رحل من عمق حارم فى أواخر سنة خمس وسبعين .

ذكر وفاة الملك الظاهر بيبرس

فيها : فى يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم توفى السلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس الصالحى النجمى بدمشق وقت الزوال رحمه الله تعالى عقب وصوله من بلاد الروم إلى دمشق على ما تقدم ذكره ، وقد اختلف فى سبب موته فقيل إنه انكسف القمر كسوفًا كليًا وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقال له الملك القاهر من ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ، وأحضر قمزًا مسمومًا وأمر الساقى بسقى الملك القاهر المذكور فشرب الملك الظاهر ناسيًا بذلك النهاء على أثر شرب الملك القاهر فمات الملك القاهر عقب ذلك وأما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفى فى التاريخ المذكور ، وكتم نائبه ومملوكه

بدر الدين تتليك المعروف بالخزندار موته وصبره وتركه فى قلعة دمشق إلى أن استوت تربته بدمشق قرب الجامع فدفن فيها وهى مشهورة معروفة وارتحل بدر الدين تتليك بالعساكر ومعهم المحفة مظهرا أن الملك الظاهر فيها وأنه مريض وسار إلى ديار مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس ولقبه الملك السعيد وجعله ولى عهده فوصل تتليك الخزندا بالخزائن والعسكر إلى الملك السعيد بقلعة الجبل وعند ذلك أظهر موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء واستقر فى السلطنة ، وكانت مدة مملكة الملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام ، لأنه ملك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة وتوفى فى السابع والعشرين من محرم من سنة ست وسبعين وستمائة ، وكان ملكاً جليلاً شجاعاً عاقلاً مهيباً ملك الديار المصرية والشام وأرسل جيشاً فاستولوا على النوبة وفتح الفتوحات الجليلة مثل صفد وحصن الأكراد وأنطاكية وغيرها على ما تقدم ذكره وأصله مملوك قبجاقى الجنس وسمعت أنه برجعلى وكان أسمر أزرق العينين جهورى الصوت حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى حماه فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما وكان أيدكين البندقدار الصالحى مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غض عليه الملك الصالح المذكور وكان قد توجه ايدكين إلى جهة حماه ، فأرسل الملك الصالح وقبض على أيدكين المذكور واعتقله بقلعة حماه فتركه الملك المنصور صاحب حماه فى جامع قلعة حماة واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر مع التاجر فلما لقيه الملك المنصور ولم يشتره أرسل أيدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه وبقى عنده ، ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار فسار من حماه وصحبته الملك الظاهر وبقى مع أستاذه البندقدار المذكور مدة ، ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار فانتسب إلى الملك الصالح دون أستاذه ، وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير بيبرس الصالحى ، وكان استقرار الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر فى مملكة مصر والشام فى أوائل ربيع الأول من هذه السنة ، أعنى سنة ست وسبعين وستمائة ، واستقر بدر الدين تتليك الخزندار فى نيابة السلطنة على ما كان عليه مع والده ، واستمرت الأمور على أحسن نظام فلم تطل أيام تتليك الخزندار ومات بعد ذلك فى مدة يسيرة قيل حتف أنفه وقيل بل سم والله أعلم .

وتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين الفارقانى ثم أن الملك السعيد خبط وأراد تقديم الأصاغر وأبعد الأمراء الأكابر وقبض عل سنقر الأشقر والبيسرى ثم أفرج عنهما بعد أيام يسيرة ففسدت نيات الأمراء الكبار عليه وبقى الأمر كذلك حتى خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمائة :

ذكر مسير الملك السعيد بركة إلى الشام والإغارة على سيس وخلاف عسكره عليه

فى أثناء هذه السنة : سار الملك السعيد بركة إلى الشام وصحبته العساكر ووصل إلى دمشق وجرد منها العسكر صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى ، وجرد أيضاً صاحب حماة فساروا ودخلوا إلى بلاد سيس وشنوا الإغارة عليها وغنموا ثم عادوا إلى جهة دمشق ، واتفقوا على الخلاف على الملك السعيد المذكور وخلعه من السلطنة لسوء تدبيره وعبروا على دمشق ولم يدخلوها ، فأرسل إليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا إلى ذلك وأتموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم إلى مصر وطلع إلى قلعة الجبل وسارت العساكر فى أثره وخرجت هذه السنة والأمر كذلك .

وفيها : توفى عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن كيقاذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان ابن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق عند منكو تمر ملك التتر بمدينة صراى ، وكيكاوس المذكور هو الذى كان محبوسا بقسطنطينية حسبما تقدم ذكر القبض عليه فى سنة اثنتين وستين وذكر خلاصه واتصاله بملك التتر فى سنة ثمان وستين وخلف عز الدين المذكور ولدًا اسمه مسعود وقصد منكو تمر أن يزوجه بزوجة ابنه عز الدين كيكاوس فهرب مسعود واتصل ببلاد الروم فحمل إلى أبغا فأحسن إليه أبغا وأعطاه سيواس وأرزن الروم وأرزنكان ، واستقرت هذه البلاد لمسعود المذكور ثم بعد ذلك جعلت سلطنة الروم باسم مسعود المذكور وافتقر جدا وانكشف حاله وهو آخر من سمى سلطانا من السلجوقية بالروم .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمائة :

ذكر خلع الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر

فى هذه السنة : وصلت العساكر الخارجون عن طاعة بركة المذكور إلى الديار المصرية فى ربيع الأول وحصروا الملك السعيد بركة بقلعة الجبل ، فخامر على السعيد بركة غالب من كان معه من الأمراء مثل لاجين الزينى وغيره وبقى يهرب واحدا بعد واحد من القلعة وينضم إلى

العسكر المحاصر للقلعة ، فلما رأى الملك السعيد بركة ذلك أجابهم إلى الانخلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فأجابوه إلى ذلك وأنزلوه من القلعة وخلعوه فى ربيع الأول من هذه السنة أعنى سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وسفروه من وقته إلى الكرك صحبة بيدعان الركنى وجماعة معه فوصل إليها وتسلمها بما فيهامن الأموال وكان شيئاً كثيراً .

ذكر إقامة سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس فى المملكة

وفى هذه السنة : لما جرى ماذ كرناه من خلع الملك السعيد بركة وإعطائه الكرك اتفق أكابر الأمراء الذين فعلوا ذلك مثل بدر الدين البيسرى الشمسى وايتمش السعدى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وغيرهم على إقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس فى المملكة ولقبوه الملك العادل وعمره إذ ذاك سبع سنين وشهور وخطب له وضربت السكة باسمه وذلك فى شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر ، ولما استقر ذلك جهز أتابك العسكر المذكور الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام ، وكان العسكر لما خالفوا السعيد بركة قد قبضوا على عز الدين أيدمر نائب السلطنة بدمشق وتولى تدبير دمشق بعد أيدمر أقوش الشمسى نائب السلطنة بحلب فسار وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة .

ذكر سلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحى

وفى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وسبعين وستمائة فى يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب كان جلوس السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى فى السلطنة بعد خلع الصبى سلامش وعزله ، ولما تولى السلطان الملك المنصور أقام منار العدل وأحسن سياسة الملك وقام بتدبير المملكة أحسن قيام .

ذكر خروج سنقر الأشقر عن الطاعة وسلطنته بالشام

وفى هذه السنة : فى الرابع والعشرين من ذى القعدة جلس سنقر الأشقر بدمشق فى السلطنة وحلف له الأمراء والعسكر الذين عنده بدمشق وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر .

وفى هذه السنة : توفى الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر بيبرس فى الكرك بعد وصوله إليها فى مدة يسيرة وكان سبب موته أنه لعب بالكرة فى ميدان الكرك فتقنطر به فرسه فحصل له بسبب ذلك حمى شديدة وبقى كذلك أياما يسيرة وتوفى وحمل إلى دمشق ودفن بتربة أبيه ، ولما توفى الملك السعيد اتفق من بالكرك وأقاموا موضعه أخاه نجم الدين خضر واستقر فى الكرك ولقبوه الملك المسعود .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة :

ذكر كسرة سنقر الأشقر

فى هذه السنة : فى التاسع عشر من صفر كانت كسرة سنقر الأشقر المسئول على الشام الملقب بالكامل ، وكان من حديث هذه الكسرة أن السلطان الملك المنصور قلاوون جهز عساكر ديار مصر مع علم الدين سنجر الحلبى الذى تقدم ذكر سلطنته بدمشق عقيب قتل قطزوكان أيضاً من مقدمى العسكر المصرى المذكور بدر الدين بكتاش وبدر الدين الايد مرى وعز الدين الأفرم ، فسارت العساكر المذكورة إلى الشام وبرزسنقر الأشقر بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق واكتفى الفريقان فى تاسع عشر صفر المذكور فولى الشاميون وسنقر الأشقر منهزمين ونهبت العساكر المصرية أثقالهم وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق فلما هرب سنقر الأشقر أفرج عن حسام الدين لاجين المذكور وكذلك كان سنقر الأشقر قد اعتقل بيبرس المعروف بالحالق لانه لم يحلف له فأفرج عنه أيضا وكتب الحلبى إلى السلطان الملك المنصور بالنصر واستقر الأمير لاجين المنصورى المذكور نائب السلطنة بالشام ، وأما سنقر الأشقر فإنه هرب إلى الرحبة وكاتب أبغا ابن هولاكو ملك التتار وأطمعه فى البلاد وكان عيسى بن مهنا ملك العرب مع سنقر الأشقر وقاتل معه وكتب بذلك إلى أبغا أيضا موافقة له ، ثم سار سنقر الأشقر من الرحبة إلى صهيون[1] فى جمادى الأولى من هذه السنة واستولى عليها وعلى برزنة وبلاطنس والشغر وبكاس وعكار وشيزر وفامية وصارت هذه الأماكن لسنقر الأشقر .

وفيها : توفى أقوش الشمسى نائب السلطنة بحلب وولى السلطان الملك المنصور قلاوون على حلب علم الدين سنجر الباشغردى .

---

(١) بكسر أوله ثم السكون وياء مثناة من تحت مفتوحة وواو ساكنة وآخره نون حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص .

انظر : معجم البلدان ٣ / ٤٣٦ - ٣٤٧ .

وفيها : قويت أخبار التتار وأنهم واصلون إلى البلاد الإسلامية بجموعهم .

وفيها : جعل السلطان الملك المنصور قلاوون ولده الملك الصالح علاء الدين على ولى عهده وسلطنته وركب بشعار السلطنة .

وفيها : سار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى من الديار المصرية ووصل إلى غزة وكان التتر قد وصلوا إلى حلب فعاثوا ثم عادوا فعاد السلطان إلى مصر فى جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفيها : استأذن سيف الدين بلبان الطباخى أحد مماليك الملك المنصور ، وكان نائب السلطنة بحصن الأكراد فى الإغارة على بلد المرقب لما اعتمده أهله من الفساد عند وصول التتر إلى حلب فأذن له السلطان فى ذلك فجمع بلبان الطباخى المذكور عساكر الحصون وسار إلى المرقب[1] فاتفق هروب المسلمين ونزل الفرنج من المرقب وقتلوا وأسروا من المسلمين جماعة .

وفيها : فى مستهل ذى الحجة خرج السلطان الملك المنصور قلاوون من مصر وسار عائدًا إلى الشام وخرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة :

والسلطان الملك المنصور بالروحاء وأقام هناك مدة ثم سار إلى نيسان وقبض على جماعة من الظاهرية ودخل دمشق وأعدم منهم جماعة مثل كوندك وأيدغمش الحلبى وبيبرس الرشيدى وأرسل عسكرا إلى شيزر وهى لسنقر الأشقر وجرى بينهم مناوشة ثم إنه ترددت الرسل بين السلطان وبين سنقر الأشقر واحتاج السلطان إلى مصالحته لقوة أخبار التتر ووقع بينهم الصلح على أن يسلم شيزر إلى السلطان ويتسلم سنقر الأشقر الشغر وبكاس وكانتا قد ارتجعتا منه فتسلم نواب السلطان شيزر وتسلم الشغر وبكاس سنقر الأشقر وحلفا على ذلك واستقر الصلح بينهما .

وفيها : أيضا استقر الصلح بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين الملك خضر ابن الملك الظاهر بيبرس صاحب الكرك .

---

(١) بالفتح ثم السكون والقاف وباء موحدة وهو اسم الموضع الذى يرقب فيه ، بلد وقعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس .
انظر : معجم البلدان ٥ / ١٠٨ .

ذكر الوقعة العظيمة مع التتر على حمص

فى هذه السنة : أعنى سنة ثمانين وستمائة فى شهر رجب ، كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص فنصر الله تعالى فيه المسلمين بعد ما كانوا قد أيقنوا بالبوار ، وكان من حديث هذا المصاف العظيم أن أبغا بن هولاكو حشد وجمع وسار بهذه الحشود طالبا الشام ثم انفرد أبغا المذكور عنهم وغنم وسار إلى الرحبة وسير جيوشه وجموعه إلى الشام وقدم عليهم أخاه منكو تمر بن هولاكو وسار إلى جهة حمص وسار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى بالجيوش الإسلامية من دمشق إلى جهة حمص أيضا ، وأرسل إلى سنقر يستدعيه بمن عنده من الأمراء والعسكر بحكم ما استقر بينهما من الصلح واليمين ، فسار سنقر الأشقر من صهيون فلما نزل السلطان بظاهر حمص وصل إليه الملك المنصور صاحب حماة بعسكره ثم وصل سنقر الأشقر وصحبته أيتمش السعدى والحاج ازدمر وعلم الدين الدويدارى وجماعة من الظاهرية ورتب السلطان عسكره ميمنة وميسرة ، وكان رأس الميمنة الملك المنصور محمد صاحب حماة بعسكره ثم بدر الدين البيسرى دونه ثم علاء الدين طيبرس الوزيرى ثم أيبك الأفرم ثم جماعة من العسكر المصرى ، ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام ، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر ومن معه ثم بدر الدين تتليك الأيدمرى ثم بدر الدين بكتاش أمير سلاح وكان بر الميمنة العرب وبر الميسرة التركمان وكان ساليش القلب حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة ومن أضيف إليه من الأمراء والعساكر ، والتقى الفريقان بظاهر حمص فى الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رَجب الفرد من هذه السنة أعنى سنة ثمانين وستمائة ، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة فهزموا من كان قبالتهم من التتر وركبوا قفاهم يقتلونهم وكان منكو تمر قبالة القلب فانهزم أيضا وأما ميسرة المسلمين فإنها انكشفت عن مواقفها وتم ببعضهم الهزيمة الى دمشق وساق التتار فى أثر المنهزمين حتى وصلوا إلى تحت حمص ووقعوا فى السوقية وغلمان العسكر والعوام وقتلوا منهم خلقا كثيرا ثم علموا بنصرة المسلمين وهزيمة جيشهم فولى المذكورون أيضا منهزمين على أعقابهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس منهم خمسون ألف من المغل والباقى حشور وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم .

ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى أبغا وهو على الرحبة يحاصرها رحل عنها على عقبه منهزما وكتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر البلاد الإسلامية فزينت لذلك ثم ان السلطان الملك المنصور قلاوون أعطى الدستور للعساكر الشامية ، فرجع الملك المنصور محمد صاحب حماة إلى بلده

ورجع سنقر الأشقر وجماعته إلى صهيون ، وسار عسكر حلب إليها ، وعاد السلطان إلى دمشق والأسرى والرؤوس بين يديه .

وفيها : عاد السلطان الملك المنصور قلاوون إلى الديار المصرية مؤيداً منصوراً .

وفيها : عند وصوله إلى مستقر ملكه قدمت إليه هدية صاحب اليمن المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول ، وطلب أمانا من السلطان فقبل السلطان هديته ، وكانت من طرائف اليمن مثل العود والعنبر والصينى ورماح القنا وغير ذلك ، وكتب له السلطان أمانًا : « صدره هذا أمان الله تعالى وأمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن غمر صاحب اليمن ، إننا راعون له ولأولاده مسالمون من سالمهم معادون من عادهم ونحو ذلك » ، وكان ذلك فى الشهر الأول من رمضان هذه السنة وأرسل السلطان إليه هدية من أسلاب التتر وخيولهم وعادت رسله بذلك مكرمين .

وفيها : مات منكوتمر بن هولاكو بن طلو بن جنكزخان بجزيرة ابن عمر مكمودًا عقيب كسرته على حمص ، وكان موته من جملة هذا الفتح العظيم .

وفيها : توفى علاء الدين عطاء ملك بن حمد الجوينى ، وكان صاحب الديوان ببغداد فنقب عليه ابغانسبه إلى مواطأة المسلمين وقبض عليه وأخذ أمواله ، وكان صدراً كبيراً فاضلاً له شعر حسن فمنه فى تركية :

أبادية الأعراب عنى فإننى ... بحاضرة الأتراك نيطت علائقى
وأهلك يانجل العيون فإننى ... جننت بهذا الناظر المتضايق

وكانت وفاتهَ بعراق العجم ، وولى بغداد بعده ابن أخيه هارون بن محمد الجوينى .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وستمائه :

فيها : ولى السلطان مملوكه شمس الدين قرا سنقر نيابة السلطنة بحلب فسار إليها واستقر .

ذكر موت أبغا

وفيها : فى المحرم مات أبغا بن هولاكو بن جنكز خان ملك التتر ، قيل إنه مات مسموما ، وكان موته ببلاد همدان ، وكانت مدة ملكه نحو سبعة عشر سنة وكسورًا ، وخلف من الولد ارغون وكيختو ابنا أبغا ولما مات أبغا ملك بعده أخوه أحمد بن هولاكو واسم أحمد المذكور بيكدار . فلما جلس فى الملك أظهر دين الإسلام وتسمى بأحمد سلطان .

وفيها : وصلت رسل أحمد بن هولاكو ملك التتر المذكور إلى السلطان الملك المنصور قلاوون ، وكان كبير الرسل المذكورين الشيخ المتقن قطب الدين محمود الشيرازى ، وكان إذ ذاك قاضى سيواس ، فاحترز عليهم السلطان ولم يمكن أحدًا من الاجتماع بهم ، وكان مضمون رسالتهم إعلام السلطان بإسلام أحمد المذكور وطلب الصلح بين المسلمين والتتر فلم ينتظم ذلك ، ثم عادت رسله إليه بالجواب .

وفيها : توفى منكوتمر بن طغان بن باطو بن دوشى خان بن جنكز خان ملك التتر بالبلاد الشمالية وملك بعده أخوه تدان منكو بن طغان بن باطو بن دوشى خان بن جنكز خان ، وجلس على كرسى التتر بصراى وقيل إن ذلك كان فى سنة ثمانين .

وفيها : عقد للملك الصالح علاء الدين على بن السلطان الملك المنصور قلاوون على بنت سيف الدين بكيه ، ثم تزوج أخوه الملك الأشرف بأختها الأخرى ، وكان بكيه معتقلا بالإسكندرية ، فلما عزم السلطان على ذلك أخرجه من الحبس وأحسن إليه وزوج ابنيه واحدا بعد الآخر ببنتى بكيه المذكور .

وفيها : توفى القاضى الفاضل المحقق شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان البرمكى وكان فاضلا عالما تولى القضاء بمصر والشام وله مصنفات جليلة مثل وفيات الأعيان فى التاريخ وغيره ، وكان مولده يوم الخميس بعد صلاة العصر حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة أربل بمدرسة سلطتها مظفر الدين صاحب أربل نقلت ذلك من تاريخه فى ترجمة زينب فى آخر حرف الزاى .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة :

فى أوائل هذه السنة :

قدم الملك المنصور محمد صاحب حماة وصحبته الملك الأفضل على إلى خدمة السلطان الملك المنصور قلاوون بالديار المصرية ، فبالغ السلطان فى إكرام صاحب حماة والإحسان إليه وأنزله بالكبش وأركبه بالسناجق السلطانية والجفتا والغاشية وسأله عن حوائجه فقال الملك المنصور حاجتى أن أعفى من هذا اللقب فإنه ما بقى يصلح لى أن ألقب بالملك المنصور وقد صار هذا لقب مولانا السلطان الأعظم ، فأجابه السلطان بأنى ما تلقبت بهذا الاسم إلا لمحبتى فيك ، ولو كان لقبك غير ذلك كنت تلقبت به فشىء فعلته محبة لاسمك كيف أمكن من تغييره ؟ وطلع السلطان بالعسكر المصرى لحفر الخليج الذى بجهة البحيرة ، وسار صاحب حماة فى خدمته إلى الحفير ثم أعطى بعد ذلك الدستور لصاحب حماة فعاد مكرمًا مغمورًا بالصدقات السلطانية .

وفيها : رمى السلطان الملك الصالح علاء الدين على بن السلطان بجعا بجهة العباسية

بالبندق وأرسله للملك المنصور محمد صاحب حماة فقبله وبالغ فى إظهار السرور والفرح بذلك وأرسل إليه تقدمة جليلة .

وفيها : خرج أرغون بن أبغا بخراسان على عمه بيكدار المسمى بأحمد سلطان ، وسار إليه واقتتلا فانهزم أرغون وأخذه أحمد أسيرًا وسأل الخوانين فى إطلاق أرغون وإقراره على خراسان ، فلم يجب إلى ذلك ، وكانت خواطر المغول قد تغيرت على أحمد بسبب إسلامه وإلزامه لهم بالإسلام فاتفقوا على قتله وقصدوا أرغون بالموضع الذى هو معتقل فيه وأطلقوه وكبسوا الناق نائب أحمد فقتلوه ، ثم قصدوا الأردو فأحس بهم السلطان أحمد فركب وهرب فتبعوه وقتلوه وملكوا أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكز خان وذلك فى جمادى الأولى من هذه السنة .

وفيها : قتل أرغون الصبى سلطان الروم الذى أقامه البرواناه بعد قتله أباه حسبما تقدم ذكره فى سنة ست وستين وستمائة ، وكان اسم الصبى المذكور غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو بن قليج أرسلان ، وفوض اسم سلطنة الروم إلى مسعود بن عز الدين كيكاوس ، وهذا مسعود هو الذى هرب من منكوتمر ملك التتر بصراى وأبوه عز الدين كيكاوس هو الذى جرى له مع الأشكرى صاحب قسطنطينية على ما قدمنا ذكره فى ستة اثنتين وستين وستمائة واستمرت سلطنة الروم باسم مسعود المذكور إلى سنة ثمان وسبعمائة ، وهو مسعود بن كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن قطلومش من السلجوقية ببلاد الروم ، وافتقر مسعود المذكور وانكشف حاله جدًا حتى قيل إنه تناول سمًا فمات من كثرة المطالبة من أرباب الدين والتتر .

وفيها : ولى آرغون سعد الدولة اليهودى وعظمه ومكنه ، وكان سعد الدولة المذكور في مبدأ أمره دلالا بسوق الصناعة بالموصل ، فحكم فى سائر البلاد التى بأيدى التتر .

وفيها : قرر آرغون ولديه قازان وخربنده بخراسان وجعل أتابكهما أميرًا كبيرًا من أصحابه اسمه نورود .

وفيها : مات الأشكرى صاحب قسطنطينية واسمه ميخايل وملك بعده ابنه ماندس وتلقب بالدوقس .

وفيها : كاتب الحكام بقلعة الكحنا قرا سنقر نائب السلطنة بحلب وسلموا الكحنا إلى السلطان فجهز قرا سنقر عسكرا فتسلموها وقرر السلطان فيها نوابه وحصنها وصارت من أعظم الثغور الإسلامية نفعًا .

وفيها : فى رجب قدم السلطان إلى دمشق وكان قد سار من مصر فى جمادى الآخرة .

وفيها : كان السيل العظيم بدمشق فى العشر الأول من شعبان ، والسلطان الملك المنصور قلاوون بدمشق وأخذ ما مر به من العمارات وغيرها واقتلع الأشجار وأهلك خلقًا كثيرًا وذهب للعسكر النازلين على جوانب بردى من الخيل والجمال والخيم مالا يحصى ، وتوجه السلطان عقيبه إلى الديار المصرية ، ووصل إلى قلعة الجبل فى ثامن عشر رمضان من هذه السنة .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة :

فيها : سار السلطان الملك المنصور قلاوون إلى دمشق وحضر الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمته إلى دمشق ، ثم عاد كل منهما إلى مقر ملكه .

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

فى هذه السنة : فى شوال توفى السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى أحمد بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة رحمه الله تعالى ، ابتدأ فيه المرض فى أوائل شعبان بعد عوده من خدمة السلطان من دمشق ، وكان مرضه حمى صفراوية داخل العروق ، ثم صلح مزاجه بعض الصلاح ، فأشار الأطباء بدخوله الحمام فدخلها فعاوده المرض وأحضر له الأطباء من دمشق مع من كان فى خدمته منهم ، واشتد به ذات الجنب وعالجوه بما يصلح لذلك فلم يفد شيئا ، وفى مدة مرضه عتق مماليكه وتاب توبة نصوحا وكتب إلى السلطان الملك المنصور قلاوون يسأله فى إقرار ابنه الملك المظفر محمود فى مملكته على قاعدته ، واشتد به مرضه حتى توفى بكرة حادى عشر شوال من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وكانت ولادته فى الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، فيكون عمره إحدى وخمسين سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوما ، وملك حماة يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، وهو اليوم الذى توفى فيه والده الملك المظفر محمود ، فيكون مدة ملكه إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وكان أكبر أمانيه أن يعيش إلى أن يسمع جوابه من السلطان فيما سأله من إقرار حماة على ولده الملك المظفر محمود ، فاتفق وفاته قبل وصول الجواب ، وكان قد أرسل فى ذلك على البريد مملوكه سنقر أميراخور ، فوصل بالجواب بعد موت الملك المنصور بستة أيام ، ونسخة الجواب من السلطان بعد البسملة : « المملوك قلاوون أعز الله أنصار المقام العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى الناصرى ولا عدمه الإسلام ولا فقدته السيوف والأقلام ، وحماه من أذى داء وعود عواد والمام آلام الملوك ، يجدد الخدمة التى كان يود تجديدها شفاها ويصف ما عنده من الألم لما ألم بمزاجه الكريم ، حتى أنه لم يكد

يفتح بالحديث فاها ، ولما وقفنا على الكتاب المولوى المتضمن بمرض الحد المحروس ، وما انتهى إليه الحال كادت القلوب تنشق والنفوس تذوب حزنا والرجاء من الله أن يتداركة بلطفه وأن يمن بعافيته التى رفع فى مسألتها يديه وبسط كفيه وهو يرجو من كرم الله معاجلة الشفاء ومداركه العافية الموردة بعد الكدر مورد الصفاء ، وأن الله يفسح فى أجل المولى ويهبه العمر الطويل ، وأما الإشارة الكريمة إلى ما ذكره ، من حقوق يوجبها الإقرار وعهود أمنت بدورها من السرار ، ونحن بحمد الله فعندنا تلك العهود ملحوظة ، وتلك المودات محفوظة ، فالمولى يعيش قرير العين فما ثم إلا ما يسره من إقامة ولده مقامه لا يحول ولا يزول ولا يرى على ذلك ذلة ولا ذهول ويكون المولى طيب النفس مستديم الأنس بصدق العهد القديم وبكل ما يؤثر من خير مقيم » ، ولما وصل الكتاب اجتمع لقراءته الملك الأفضل والملك المظفر وعلم الدين سنجر المعروف بأبى خرص وقرىء عليهم وتضاعف سرورهم بذلك ، وكان الملك المنصور محمد صاحب حماة المذكور ملكا ذكيا فطنا محبوب الصورة ، وكان له قبول عظيم عند ملوك الترك ، وكان حليما إلى الغاية يتجاوز عما يكره ويكتمه ولا يفضح قائله ، من ذلك أن الملك الظاهر بيبرس قدم إلى حماة ونزل بالدار المعروفة الآن بدار المبارز فرفع اليه أهل حماة عدة قصص يشكون فيها من الملك المنصور فأمر الملك الظاهر دواداره سيف الدين بلبان أن يجمع القصص ولا يقرأها ويضعها فى منديل ويحملها إلى الملك المنصور صاحب حماة فحملها الدوادار المذكور وأحضرها إلى المنصور وقال : إنه والله لم يطلع السلطان يعنى الملك الظاهر على قصة منها ، وقد حملها إليك فتضاعف دعاء الملك المنصور لصدقه الملك الظاهر وخلع على الدوادار وأخذ القصص وقال بعض الجماعة سوف نرى من تكلم بشىء لا ينبغى وتكلموا بمثل ذلك فأمر الملك المنصور بإحضار نار وحرق تلك القصص ، ولم يقف على شىء منها لئلا يتغير خاطره على رافعها وله مثل ذلك كثير رحمه الله تعالى .

ذكر ملك الملك المظفر حماه

ولما بلغ السلطان الأعظم الملك المنصور وفاة الملك المنصور صاحب حماه قرر ، ابنه الملك المظفر محمودًا ابن الملك المنصور محمد في ملك حماة على قاعدة والده ، وأرسل إليه وإلى عمه الملك الأفضل وإلى أولاده التشاريف ومكاتبة إلى الملك المظفر بذلك ووصلت التشاريف ولبسناها فى العشر الأخير من شوال من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

ونسخة الكتاب الواصل من السلطان بعد البسملة : « المملوك قلاوون أعز الله نصرة المقام العالى المولوى السلطانى الملكى المظفرى التقوى ونزع عنه لباس الباس ، وألبسه حلل السعد

المجلوة على أعين الناس ، وهو يخدم خدمة بولاء قد تبجست عيونه ، وتأسست مبانيه وتيابست ظنونه وحلت رهونه وحلت ديونه وأثمرت غصونه وزهت أفنانه وفنونه » .

ومنها : « وقد سيرنا المجلس السامى جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب وأصحبناه من الملبوس الشريف ما يغير به لباس الحزن وينجلى فى مطلعه ضياء وجه الحسن وينجلى بذلك غيوم تلك الغموم وأرسلنا أيضا صحبته ما يلبسه هو وذووه كما يبدو البدر بين النجوم » ، وآخر الكتاب : « وكتب فى عشرين شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة » . وكان قد وقع الاتفاق عند موت الملك المنصور على إرسال علم الدين سنجر أبى خرص الحموى لأجل هذا المهم ، فلاقى سنجر المذكور جمال الدين الموصلى بالخلع فى أثناء الطريق فأتم سنجر أبو خرص السير ووصل إلى الأبواب الشريفة السلطانية فتلقاه السلطان بالقبول.وأعاده بكل ما يحب ويختار وقال : نحن واصلون إلى الشام مع الملك المظفر فوق ما فى نفسه فعاد علم الدين سنجر أبو خرص إلى حماة ومعه الجواب بنحو ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمائة :

ذكر ركوب الملك المظفر صاحب حماه بشعار السلطنة

فى هذه السنة : فى صفر : كان ركوب السلطان الملك المظفر محمود صاحب حماه بشعار السلطنة بدمشق المحروسة ، وصورة ما جرى فى ذلك أن السلطان الملك المنصور قلاوون وصل فى هذه السنة فى أواخر المحرم بعساكره المتوافر إلى دمشق المحروسة وسار الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل ووصلا إليه إلى دمشق فأكرمهما السلطان إكراما كثيرًا ، وأرسل إلى الملك المظفر فى اليوم الثالث من وصوله التقليد بسلطنة حماة والمعرة وبارين والتشريف ، وهو أطلس أحمر فوقانى بطراز زركش وسنجاب ودايرة قندس وقباء أطلس أصفر تحتانى وشاش تساعى وكلوته زركش وحياصة ذهب وسيف محلى بالذهب وتلكش وعنبرينا وثوب بطرز مذهبة ولباس وأرسل شعار السلطنة وهو سنجق بعصائب سلطانية وفرس بسرج ذهب ورقبة وكبوش ، وأرسل الغاشية السلطانية فلبس الملك المظفر ذلك وركب بشعار السلطنة وحضرت أمراء السلطان ومقدمو العسكر وساروا معه من الموضع الذى كان فيه وهو داره المعروفة بالحافظية داخل باب الفراديس بدمشق المحروسة إلى أن وصل إلى قلعة دمشق ، ومشت الأمراء فى خدمته ودخل الملك المظفر إلى عند السلطان فأكرمه وأجلسه إلى جانبه على الطراحة وطيب خاطره وقال له : أنت ولدى وأعز من الملك الصالح عندى ، فتوجه إلى بلادك وتأهب

هذه الغزاة المباركة فأنتم من بيت مبارك ، ما حضرتم فى مكان إلا وكان النصر معكم ، فعاد الملك المظفر وعمه الملك الأفضل إلى حماه وعملا أشغالهما وكذلك باقى العسكر الحموى وتأهبوا للمسير إلى خدمة السلطان ثانيا .

ذكر فتوح المرقب

وفى هذه السنة : سار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بعد وصوله إلى دمشق بالعساكر المصرية والشامية ، ونازل حصن المرقب فى أوائل ربيع الأول من هذه السنة ، وهو حصن للاستبار فى غاية العلو والحصانة ، لم يطمع أحد من الملوك الماضين فى فتحه . فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجارون فيه النقوب ، ونصبت عليه عدة مجانيق كبارًا وصغارًا .
يقول العبد الفقير مؤلف هذا المختصر إننى حضرت حصار الحصن المذكور وعمرى إذ ذاك نحو اثنتى عشرة سنة وهو أول قتال رأيته ، وكنت مع والدى ، ولما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الأمان فأجابهم السلطان رغبة فى إبقاء عمارته ، فإنه لو أخذه بالسيف وهدمه كان حصل التعب فى اعادة عمارته ، فأعطى أهله الأمان على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح ، وصعدت السناجق السلطانية على حصن المرقب المذكور وتسلمه فى الساعة الثامنة من نهار الجمعة تاسع عشر ربيع الأول من هذه السنة ، أعنى سنة أربع وثمانين وستمائة ، وكان يوما مشهودًا أخذ فيه النار من بيت الاستبار ، ومحيت آية الليل بآية النهار ، فأمر السلطان فحمل أهل المرقب إلى مأمنهم ، ولما ملكه قرر أمره ورحل عنه إلى الوطاة بالساحل وأقام بمروج بالقرب من موضع يقال له برج القرفيص ، ثم سار السلطان ونزل تحت حصن الأكراد ، ثم سار ونزل على بحيرة حمص ، وفى بحيرة قدس .

ذكر مولد مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى

وفى هذه السنة : ولد مولانا السلطان الأعظم المذكور من زوجة السلطان وهى بنت سكتاى بن قراجين بن جنغان ، وسكتاى المذكور ورد إلى الديار المصرية هو وأخوه قرمشى سنة خمس وسبعين وستمائة صحبة بيجار الرومى فى الدولة الظاهرية ، فتزوج السلطان الملك المنصور قلاوون ابنة سكتاى المذكور فى سنة ثمانين وستمائة بعد موت أبيها المذكور بولاية عمها قرمشى ، ووردت البشائر بولده إلى السلطان وهو نازل على بحيرة حمص عند عوده من

فتح المرقب فتضاعف سروره وضربت البشائر فرحًا بمولده السعيد .
وفيها : عاد السلطان إلى الديار المصرية وأعطى الملك المظفر عند رحيله عن حمص الدستور فعاد إلى حماه .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة :
فيها : أرسل السلطان عسكرًا كثيفًا مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاى المنصورى وأمره بمنازلة الكرك فسار إليها وحاصرها وتسلمها بالأمان ، وأقام بها نواب السلطان وعاد وصحبته أصحاب الكرك جمال الدين خضر وبدر الدين سلامش ولدا الملك الظاهر بيبرس ، فأحسن السلطان إليهما ووفى لهما بأمانه وبقيا على ذلك مدة طويلة ثم بلغه عنهما ما كرهه فاعتقلهما فبقيا فى الحبس حتى توفى ، فنقل خضر وسلامش ولدا الملك الظاهر بيبرس إلى القسطنطينية .
وفيها : خرج السلطان من الديار المصرية إلى غزة ثم سار إلى الكرك فوصل إليها فى شعبان وقرر أمورها ثم عاد إلى جهة غابة أرسوف وأقام مدة ، ثم عاد إلى الديار المصرية .
وفيها : توفى ركن الدين أباجى الحاجب .
ثم دخلت سنة ست وثمانين وستمائة :

ذكر فتوح صهيون

كان السلطان قد جهز عسكرًا كثيفًا مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاى بمن معه من العساكر المصرية والشامية فى هذه السنة إلى قلعة صهيون ، ونصب عليها المجانيق وضايقها بالحصار فأجابه صاحبها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى تسليمها بالأمان وحلف له حسام الدين طرنطاى فنزل سنقر الأشقر إليه وسلم صهيون فى ربيع الأول من هذه السنة ، فتسلمها طرنطاى وأكرم سنقر الأشقر المذكور غاية الإكرام ثم سار حسام الدين طرنطاى إلى اللاذقية وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته فركب طريقًا إليه فى البحر بالحجارة وحاصر البرج المذكور وتسلمه بالأمان وهدمه ، ثم بعد ذلك توجه إلى الديار المصرية وصحبته سنقر الأشقر ، فلما وصلا إلى قرب قلعة الجبل ركب السلطان الملك المنصور قلاوون والتقى مملوكه حسام الدين طرنطاى وسنقر الأشقر وأكرمه ووفى له بالأمان وبقى سنقر الأشقر مكرمًا محترمًا مع السلطان إلى أن توفى السلطان وملك بعده ولده الملك الأشرف فكان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : نزل تدان منكو بن طغان بن باطو بن دوش خان بن جنكز خان عن مملكة التتر بالبلاد الشمالية ، وأظهر التزهد والانقطاع إلى الصلحاء ، وأشار إلى أن يملكوا ابن أخيه تلابغا ابن منكوتمر بن طغان المذكور ، فملك بعده تلابغا ابن المذكور .

وفيها : أرسل السلطان الملك المنصور عسكرا مع علم الدين سنجر المسروري المعروف بالخياط متولى القاهرة إلى النوبة فساروا إليها وغزوا وغنموا وعادوا .

وفيها : توفى بدر الدين تتليك الأيدمرى .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمائة :

فيها : توفى الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، وهو الذى جعله ولى عهده وسلطنه فى حياته ، فوجد عليه السلطان والده وجدا عظيما ، وكان مرضه بالدوسنطريا ، وخلف الملك الصالح المذكور ولدًا اسمه موسى بن على .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة :

ذكر فتوح طرابلس

فى هذه السنة : فى أول ربيع الآخر فتحت طرابلس الشام ، وصورة ما جرى أن السلطان الملك المنصور خرج بالعساكر المصرية فى المحرم من هذه السنة وسار إلى الشام ، ثم سار بالعساكر المصرية والشامية ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الأول من هذه السنة ، ويحيط البحر بغالب هذه المدينة وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق وهو مقدار قليل ، ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف ، ودخلها العسكر عنوة فهرب أهلها إلى المينا فنجا أقلهم فى المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة .

وحصار طرابلس هو أيضًا مما شاهدته وكنت حاضرًا فيه مع والدى الملك الأفضل وابن عمى الملك المظفر صاحب حماه ، ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم أمر السلطان فهدمت ودكت إلى الأرض وكان فى البحر قريبا من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس وبينها وبين طرابلس المينا فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التى فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء فاقتحم العسكر الإسلامى البحر وعبروا

بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا ما بها من النساء والصغار وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها فى مركب فوجدتها ملأى من القتلى بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى .

ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها عاد إلى الديار المصرية وأعطى صاحب حماه الدستور فعاد إلى بلده ، وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس فى سنة ثلاث وخمسمائة فى حادى عشر ذى الحجة فبقيت بأيديهم إلى أوائل هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وثمانين وستمائة فيكون مدة لبثها مع الفرنج نحو مائة سنة وخمس وثمانين سنة وشهور .

وفيها : مات قتلاى خان بن طلو بن جنكز خان مَلك التتر بالصين وهو أعظم الخانات والحاكم على كرسى مملكة جنكز خان ، وكان قد طالت مدته ، ولما مات قتلاى خان جلس بعده ولده شهون .

ذكر وفاة السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى

فى هذه السنة : فى سادس ذى القعدة توفى الملك المنصور المذكور وصورة وفاته أنه خرج من الديار المصرية بالعساكر المتوافرة على عزم غزو عكا وفتحها وبرز إلى مسجد ليرز فابتدأ مرضه فى العشر الأخير من شوال بعد نزوله بالدهليز فى المكان المذكور ، وأخذ مرضه يتزايد حتى توفى يوم السبت سادس ذى القعدة بالدهليز وكان جلوسه فى الملك يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة ، فيكون مدة ملكه نحو إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياما ، وخلف ولدين هما الملك الأشرف صلاح الدين خليل والسلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ، وكان السلطان الملك المنصور المشار إليه ملكا مهيبا حليما قليل سفك الدماء كثير العفو شجاعا فتح الفتوحات الجليلة مثل المرقب وطرابلس التى لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على التعرض إليهما لحصانتهما وكسر جيش التتر على حمص ، وكانوا فى جمع عظيم لم يطرق الشام قبله مثله ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله رحمة الله تعالى ورضى عنه .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة :

ذكر سلطنة ولده الملك الأشرف

ولما توفى السلطان جلس فى الملك بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون المذكور ، وكان جلوسه فى سابع ذى القعدة من هذه السنة صبيحة اليوم الذى توفى فيه والده ، ولما استقر السلطان الملك الأشرف فى المملكة قبض على حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة فى يوم الجمعة ثانى عشر ذى القعدة ، فكان آخر العهد به وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدرا والوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلعوس .

ثم دخلت سنة تسعين وستمائة :

ذكر فتوح عكا

فى هذه السنة : فى جمادى الآخرة فتحت عكا ، وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور ، وأن يحضروا صحبتهم المجانيق ، فتوجه الملك المظفر صاحب حماه وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماه صحبته إلى حصن الأكراد وتسلمنا منه منجنيقًا عظيمًا يسمى المنصورى حمل مائة عجلة ففرقت فى العسكر الحموى ، وكان المسلم إلى منه عجلة واحدة ، لأنى كنت إذ ذاك أمير عشرة ، وكان مسيرنا بالعجل فى أواخر فصل الشتاء ، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق ، فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة ، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهرًا وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة ، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها ، وكان نزول العساكر الإسلامية عليها فى أوائل جمادى الأولى من هذه السنة واشتد عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها ، وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم فكنا على جانب البحر والبحر على يميننا إذا واجهنا عكا وكان يحضر إلينا مراكب مقبية بالخشب الملبس جلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروح وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر وأحضروا بطسة فيها منجنيق يرمى علينا وعلى خيمنا من جهة البحر ، فكنا منه فى شدة حتى اتفق فى بعض الليالى هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذى فيه بحيث

إنه انحطم ولم ينصب بعد ذلك ، وخرج الفرنج فى أثناء مدة الحصار بالليل وكبسوا العسكر وهزموا اليزكية واتصلوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب ووقع منهم فارس فى جوة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك وتكاثرت عليهم العساكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد ، وقتل عسكر حماه عدة منهم ، فلما أصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب حماه عدة من رءوس الفرنج فى رقاب خيلهم التى كسبها العسكر منهم ، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة بالسيف .

ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها فى المراكب وكان فى داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئا يفوت الحصر من كثرته ، ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة ولم يتأخر منهم أحد ، فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكا .

ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم فقدر الله عز وجل فى سابق علمه أنها تفتح فى هذه السنة فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين ، فكان فتوحها مثل اليوم الذى ملكها الفرنج فيه ، وكذلك لقب السلطانين .

ذكر فتوح عدة حصون ومدن

لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب فى قلوب الفرنج الذين بساحل الشام ، فأخلوا صيدا وبيروت وتسلمها الشجاعى فى أواخر رجب ، وكذلك هرب أهل مدينة صور ، فأرسل السلطان وتسلمها ثم تسلم عثليث فى مستهل شعبان ثم تسلم انطرطوس فى خامس شعبان جميع ذلك فى هذه السنة ، أعنى سنة تسعين وستمائة ، واتفق لهذا السلطان من السعادة مالم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب ، وأمر بها فتخربت عن آخرها ، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام ، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية ، وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام ، فلله الحمد والمنة على ذلك ولما تكاملت هذه الفتوحات العظيمة رحل السلطان الملك الأشرف ودخل دمشق وأقام مدة ثم عاد إلى الديار المصرية ودخلها فى هذه السنة .

وفيها : لما كان السلطان محاصرا لعكاسعى علم الدين سنجر الحموى المعروف بأبى خرص بين السلطان وبين حسام الدين نائب السلطنة بدمشق ، فخاف حسام الدين لا جين وقصد أن يهرب وعلم به السلطان فقبض عليه وعلى أبى خرص وقيدهما وأرسلهما فحبسا .

وفيها : ولى السلطان علم الدين سنجر الشجاعى نيابة السلطنة بالشام موضع حسام الدين لاجين .

وفيها : فى ربيع الأول ، مات أرغون ملك التتر ابن ابغا بن هولاكو بن طلو بن جنكز خان وكانت مدة مملكته نحو سبع سنين ، ولما مات ملك بعده أخوه كيختو بن ابغا ، وخلف أرغون ولدين هما قازان وخربندا وكانا بخراسان ، ولما تولى كيختو فحش فى الفسق واللواط بابناء المغل فأبغضوه على ذلك وفسدت نياتهم فيه .

وفيها : قتل تلابغا بن منكو تمر بن طغان بن باطو بن دوشى خان بن جنكزخان وقد تقدم ذكر ملكه فى سنة ست وثمانين وستمائة قتله نغية وجلس بعده فى الملك طقطغا بن منكوتمر ابن طغان أخو تلابغا المذكور ورتب نغية إخوة طقطغا معه وهم برلك وصراى بغا وتدان .

وفى أوائل هذه السنة : أعنى سنة تسعين تكملت عمارة قلعة حلب وكان قد شرع قراسنقر فى عمارتها فى أيام السلطان الملك المنصور فتمت فى أيام الملك الأشرف فكتب عليها اسمه وكان قد خربها هولاكو لما استولى على حلب فى سنة ثمان وخمسين وستمائة فكان لبثها على التخريب نحو ثلاث وثلاثين سنة بالتقريب .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وستمائة :

ذكر فتوح قلعة الروم

فى هذه السنة : سار السلطان الملك الأشرف من مصر إلى الشام وجمع عساكره المصرية والشامية ، وسار الملك المظفر محمود وعمه الملك الأفضل إلى خدمته والتقياه بدمشق وسارا فى خدمته وسبقاه إلى حماة فاهتم الملك المظفر صاحب حماه ، فى أمر الضيافة والاقامة والتقدمة ووصل السلطان إلى حماه وضرب دهليزه فى شماليها عند ساقية سَلَمْيَة ومدله الملك المظفر سماطا عظيما بالميدان ونصب خيما تليق بنزول السلطان ، فنزل السلطان الملك الأشرف بالميدان وبسط بين يدى فرسه عدة كثيرة من الشقق الفاخرة ، ثم دخل السلطان إلى دار الملك المظفر بحماة فبسط الملك المظفر بين يدى فرسه بسطا ثانيا وقعد السلطان بالدار ثم دخل الحمام

وخرج وجلس على جانب العاصى ثم راح إلى الطيارة التى على سور باب النقفى المعروفة بالطيارة الحمراء فقعد فيها ثم توجه من حماة وصاحب حماة وعمه فى خدمته إلى المشهد ثم إلى الحمام والزرقا بالبرية فصاد شيئاً كثيرا من الغزلان وحمير الوحش وأما العساكر فسارت على السكة إلى حلب ثم فصل السلطان إلى حلب وتوجه منها إلى قلعة الروم ونازلها فى العشر الأول من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وهى حصن على جانب الفرات فى غاية الحصانة ونصب عليه المجانيق .

وهذا الحصار أيضاً من جملة الحصارات التى شاهدتها ، وكانت منزلة الحمويين على رأس الجبل المطل على القلعة من شرقها فكنا نشاهد أحوال أهلها فى مشيهم وسعيهم فى القتال وغير ذلك ، واشتدت مضايقتها ودام حصارها وفتحت بالسيف فى يوم السبت حادى عشر رجب من هذه السنة وقتل أهلها ونهب ذراريهم ، واعتصم كيناغيلوس خليفة الأرمن المقيم بها فى القلة ، وكذلك اجتمع بها من هرب من القلعة وكان منجنيق الحمويين على رأس الجبل المطل على القلة فتقدم مرسوم السلطان إلى صاحب حماة أن يرمى عليهم بالمنجنيق فلما وترناه لنرمى عليهم طلبوا الأمان من السلطان فلم يؤمنهم إلا على أرواحهم خاصة وأن يكونوا أسرى فأجابوا إلى ذلك ، وأخذ كيناغيلوس وجميع من كان بقلة القلعة أسرى عن آخرهم ، ورتب السلطان علم الدين سنجر الشجاعى لتحصين القلعة وإصلاح ما خرب منها وجرد معه لذلك جماعة من العسكر وأقام الشجاعى وعمرها وحصنها إلى الغاية القصوى ، ورجع السلطان إلى حلب ثم إلى حماة ، وقام الملك المظفر بوظائف خدمته ثم توجه السلطان إلى دمشق وأعطى الملك المظفر الدستور فأقام ببلده وسار السلطان إلى دمشق وصام بها رمضان وعيد بها ثم سار إلى الديار المصرية .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فيها : هرب حسام الدين لا جين الذى كان نائبا بالشام من دمشق لما وصل السلطان إلى دمشق عائدا من قلعة الروم ، وكان حسام الدين المذكور قد اعتقله السلطان وهو نازل على حصار عكا ، ثم أفرج عنه فى أوائل هذه السنة أعنى سنة إحدى وتسعين ، وسار مع السلطان إلى قلعة الروم وعاد معه إلى دمشق ، فلما وصل إليها استوحش من السلطان وهرب منه إلى جهة العرب فقبضوه وأحضروه إلى السلطان فبعث به الى قلعة الجبل بديار مصر فحبس بها .

وفيها : استناب السلطان بدمشق عز الدين أيبك الحموى وعزل علم الدين سنجر الشجاعى .

وفيها : عند عود السلطان إلى حلب من قلعة الروم عزل قرا سنقر المنصورى عن نيابة السلطنة بحلب واستصحبه معه وولى موضعه عن حلب سيف الدين بلبان المعروف بالطباخى وكان المذكور نائباً بالفتوحات وكان مقامه بحصن الأكراد فعزله وولاه موضع قرا سنقر فى نيابة السلطنة بحلب وولى الفتوحات والحصون طغريل الايغانى موضع الطباخى ثم عزله بعد مدة وولى موضعه عز الدين أيبك الخزندار المنصورى.

وفيها : بعد وصول السلطان إلى مصر قبض على شمس الدين سنقر الأشقر وجرمك وكان قد قبض على طقصو بدمشق وكان آخر العهد بهم .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وستمائة :

ذكر إحضار صاحب حماة وعمه على البريد إلى مصر ثم مسيرهما من مصر مع السلطان الملك الأشرف إلى الشام والقبض على أولاد عيسى

وفى هذه السنة : فى جمادى الأولى ، أرسل السلطان الملك الأشرف أحضر الملك المظفر محمود صاحب حماة وعمه الملك الأفضل على البريد إلى الديار المصرية ، فتوجها من حماة وعندهما الخوف بسبب طلبهما على البريد ووصلا إلى قلعة الجبل فى اليوم الثامن من خروجهما من حماة فحال وصولهما شملتهما صدقات السلطان وأمر بهما فأدخلا الحمام بقلعة الجبل وأنعم عليهما بملبوس يليق بهما وأقاما فى الخدمة أياما ، ثم خرج السلطان على الهجن إلى جهة الكرك وسارت العساكر على الطريق إلى دمشق ، وأركب صاحب حماة وعمه الهجن صحبته لأنهما حضرا إلى مصر على البريد ولم يكن معهما خيل ولا غلمان ، فرسم السلطان لهما بما يليق بهما من الهجن والغلمان ورتب لهما المأكول والمشروب وما يحتاجان إليه ، وسارا فى خدمته إلى الكرك ولاقتهما تقادمهما إلى بركة زيزا فقدماها وقبلها السلطان وأنعم عليهما ، وسار السلطان ودخل دمشق ثم سار السلطان من دمشق على البرية متصيدًا ، ووصل إلى الفرقلس وهو جفار فى طرف بلد حمص من الشرق ونزل عليه وحضر إلى الخدمة هناك مهنا بن عيسى أمير العرب وأخواه محمد وفضل وولده موسى بن مهنا فقبض السلطان على الجميع وأرسلهم إلى مصر فحبسوا فى قلعة الجبل ووصل السلطان إلى القصب وأعطى صاحب حماة الدستور فحضر إلى بلده وأما عمه الملك الأفضل فإنه كان قد حصل له تشويش لما كان السلطان بحنيجل وما حواليها فأعطاه السلطان الدستور وأرسل والدى الملك الأفضل المذكور تقدمة ثانية معى إلى

السلطان ، ولم يقدر والدى على الحضور بسبب مرضه فأحضرت التقدمة إلى السلطان الملك الأشرف وهو نازل على القصب فقبلها وارتحل وعاد إلى مصر فوصل إليها فى رجب من هذه السنة .

ذكر مسير العساكر إلى حلب

وفى هذه السنة : بعد وصول السلطان إلى مصر كان قد أخر بعض العسكر المصرى على حمص فتقدم إليهم وإلى صاحب حماة وعمه الملك الأفضل بالمسير إلى حلب والمقام بها لما فى ذلك من إرهاب العدو ، فسارت العساكر إليها وخرج الملك المظفر محمود صاحب حماة وعمه الملك الأفضل معهم من حماة يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان هذه السنة ودخلوا حلب يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شعبان الموافق لرابع شهر آب وأقاموا بها .

ذكر مسير الملك الأفضل إلى دمشق ووفاته بها

وفى هذه السنة : فى ذى القعدة سار والدى الملك الأفضل نور الدين على ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب من حلب إلى دمشق ، وتوفى بها فى أوائل ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة اثنتين وتسعين وستمائة وكان مولده فى أواخر سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكان سبب مسير الملك الأفضل إلى دمشق أنه لما كان هو والملك المظفر فى صحبة السلطان لما سار من مصر إلى الكرك فى أوائل هذه السنة حسبما ذكرناه ، صار السلطان ينفرد للصيد بفهوده ولا يستصحب معه إلا بعض من يختاره من الخاصكية ووالدى الملك الأفضل المذكور خاصة دون ابن أخيه صاحب حماة ، وأعجب السلطان حديث الملك الأفضل المذكور وخبرته بأمر الفهود والصيد ، فقال السلطان فى تلك الأيام للملك الأفضل المذكور يا علاء الدين ما تحضر إلى ديار مصر فى أيام الصيد لتكون معى فى صيودى فقد حصل الأنس بك فقبل الملك الأفضل الأرض ودعا للسلطان على تأهيله لذلك ، فلما سار الملك المظفر محمود صاحب حماة وعمه الملك الأفضل إلى حلب وأقاما بها من سلخ شعبان إلى أوائل ذى القعدة ودخل تشرين وآن وقت الصيد وصل مرسوم السلطان إلى والدى الملك الأفضل يطلبه إلى الأبواب الشريفة بالديار المصرية ، فسار الملك الأفضل من حلب فى ذى القعدة ولم يستصحب أحداً من أولاده معه وكنا ثلاثة مجردين مع ابن عمنا الملك المظفر صاحب حماة وتوجه والدنا بمفرده فمرض فى أثناء الطريق ووصل إلى دمشق وقد اشتد به

المرض وقصد فضعفت قوته واشتد المرض به حتى توفى ونقل إلى حماة ودفن بها ووصلنا الخبر ونحن بحلب فعملنا عزاء واشتمل الملك المظفر علينا وأحسن إلينا .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : أفرج السلطان الملك الأشرف عن بدر الدين البيسرى وكان له فى الاعتقال نحو ثلاث عشرة سنة .

وفيها : أفرج عن حسام الدين لاجين المنصورى الذى كان نائباً بالشام .

وفيها : أعطيت العساكر الدستور فعدنا إلى حماة أعطانى الملك المظفر ابن عمى إمرة طبلخاناه وأربعين فارسا .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة :

ذكر مقتل السلطان الملك الأشرف

وفى هذه السنة : فى أوائل المحرم ، قتل السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون ، وسبب ذلك أنه سار من قلعة الجبل إلى الصيد ووصل إلى تروجه ونصب الدهليز عليها وركب فى نفر يسير من خواصه للصيد فقصده مماليك والده وهم بيدرا نائب السلطنة ولا جين الذى كان عزله السلطان عن نيابة السلطنة بدمشق واعتقله مرة بعد أخرى وقرا سنقر الذى عزله عن نيابة السلطنة بحلب وانضم إليهم بهادر رأس النوبة وجماعة من الأمراء ، ولما قاربوا السلطان أرسل إليهم أميرا يقال له كرت أميراخور ليكشف خبرهم فحال وصوله إليهم أمسكوه ولم يمكنوه من العود إلى السلطان وقاربوا السلطان وكان بينهم مخاضة فخاضوها ووصلوا إليه فأول من ضربه بالسيف بيدرا ثم لاجين حتى فارق وتركوه مرميا على الأرض فحمله ايدمر الفخرى والى تروجه إلى القاهرة فدفن فى تربته رحمه الله تعالى ولا جرم أن الله تعالى انتقم من قاتليه المذكورين معجلا ومؤجلا على ماسنذكره .

ذكر مقتل بيدرا

ولما قتل السلطان على ماذكرناه اتفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا وتلقب بالملك القاهر وسار نحو قلعة الجبل ليملكها واجتمعت مماليك السلطان الملك الأشرف وانضموا إلى زين الدين كتبغا المنصورى وساروا فى أثر بيدرا ومن معه فلحقوهم على الطرانة فى خامس عشر المحرم من هذه السنة ، واقتتلوا وانهزم بيدرا وأصحابه وتفرقوا فى الأقطار وتبعوا بيدرا وقتلوه ورفعوا رأسه على رمح واستتر لاجين وقرا سنقر ولم يطلع لهما على خبر .

ذكر سلطنة مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر

ولما جرى ماجرى من قتل السلطان الملك الأشرف ثم قتل بيدرا ووصول زين الدين كتبغا والمماليك السلطانية إلى قلعة الجبل وبها علم الدين سنجر الشجاعى نائباً اتفقوا على سلطنة مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر ولد مولانا السلطان الملك المنصور فأجلسوه على سرير السلطنة فى باقى العشر الأوسط من المحرم من هذه السنة ، وتقرر أن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة ، وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيرا وركن الدين بيبرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار ، وتتبعوا الأمراء الذين اتفقوا مع بيدرا على ذلك فظفروا أولا ببهادر رأس النوبة وأقوش الموصلى الحاجب فضربت رقابهما وأحرقت جثتهما ثم ظفروا بطرنطاى الساقى والناق ونغية وأروس السلحدارية ومحمد خواجا والطنبغا الجمدار وآقسنقر الحسامى فاعتقلوا بخزانة البنود أياما ، ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم جزاءً بما كسبوا ثم وقع قجقار الساقى فشنق .

ذكر القبض على الوزير ابن السلعوس وقتله

وفى هذه السنة : اتفق زين الدين كتبغا والشجاعى على القبض على شمس الدين محمد بن السلعوس وزير السلطان الملك الأشرف فقبضا عليه وتولاه الشجاعى فعاقبه واستصفى ماله وقتله ، وكان ابن السلعوس المذكور قد بلغ عند السلطان منزلة عظيمة وتمكن فى الدولة ، وصارت الأمور كلها معذوقة به ، وكان لابن السلعوس المذكور أقارب وأهل بدمشق

فلما صار فى هذه المنزلة أرسل وأحضر أقاربه من دمشق إلى عنده بالديار المصرية فحضروا إلا شخصا منهم فإنه استمر مقيما بدمشق وكتب إلى ابن السلعوس :

تنبه ياوزير الأرض واعلم بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصماً فإنى أخاف عليك من نهش الشجاعى

ذكر قتل الشجاعى

وفى صفر من هذه السنة حصلت الوحشة بين الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة وبين علم الدين سنجر الشجاعى الوزير ، وصار مع كل منهما جماعة من الأمراء ، ولما جرى ذلك نزل كتبغا ومن معه من القلعة واستمر الشجاعى وأصحابه بها وحصره كتبغا وغلب عليه وقتل الشجاعى المذكور وقطع رأسه وطيف به فى البلد .

وفيها : ظهر حسام الدين لاجين وشمس الدين قرا سنقر من الاستتار وأخذ لهما خوشداشهما الأمير زين الدين كتبغا الأمان من السلطان وقرر لهما الإقطاعات الجليلة وأعز جانبهما .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة

ذكر استيلاء زين الدين كتبغا على المملكة

فى هذه السنة : فى يوم الأربعاء تاسع المحرم جلس الأمير زين الدين كتبغا المنصورى على سرير المملكة ، ولقب نفسه الملك العادل زين الدين كتبغا واستحلف الناس على ذلك وخطب له بمصر والشام ونقشت السكة باسمه وجعل مولانا السلطان الملك الناصر فى قاعة بقلعة الجبل وحجب عنه الناس ، ولما تملك زين الدين كتبغا المذكور جعل نائبه فى السلطنة حسام الدين لاجين الذى كان مستترا بسبب قتل السلطان الملك الأشرف على ما تقدم ذكره واستقر الحال على ذلك .

ذكر قتل كيختو ملك التتر وملك بيدو

فى هذه السنة : فى ربيع الآخر قتل كيختو بن ابغا بن هولاكو بن طلو بن جنكز خان ،

وسبب ذلك أنه لما أفحش كيختو المذكور بالفسق فى أبناء المغل شكوا ذلك إلى ابن عمه بيدو بن طرغية بن هولاكو ، فاتفق معهم على قتل كيختو المذكور وقصدوا كبسه وقتله ، فعلم كيختو وهرب فتبعوه ولحقوه بسلاسلار من أعمال موغان وقتلوه بها فى الشهر المذكور .

ولما قتل كيختو ملك بعده ابن عمه بيدو بن طرغية بن هولاكو المذكور وجلس على سرير الملك فى جمادى الأولى من هذه السنة وكان قازان بخراسان ، فلما بلغه ملك بيدو جمع من أطاعه من المغل وأهل تلك البلاد وسار إلى قتال بيدو ولما بلغ بيدو مسير قازان إليه جمع وسار إلى جهة قازان ، وكان مع قازان أتابكه نيروز وهو الذى جمع الناس على طاعة قازان ، فلما تقارب الجمعان علم قازان أنه لا طاقة له ببيدو فراسله واصطلحا ، وعاد قازان إلى خراسان وأمر بيدو أن يقيم نيروز عنده خوفا من أن يجمع العسكر على قازان مرة ثانية فرجع قازان إلى خراسان وأقام نيروز عند بيدو وأخذ نيروز فى استمالة المغل إلى قازان وإفسادهم على بيدو فى الباطن .

ذكر مقتل بيدو وتملك قازان

ولما استوثق نيروز من المغل فى الباطن كتب إلى قازان بخراسان وأمره بالحركة ، فتحرك قازان وبلغ بيدو ذلك فتحدث مع نيروز فى ذلك فقال نيروز لبيدو : أرسلنى إلى قازان لأفرق جمعه وأرسله إليك مربوطا ، فاستحلف بيدو نيروز على ذلك وأرسله فسار نيروز إلى قازان وأعلمه بمن معه من المغل وعمد نيروز إلى قدر فوضعها فى جولق وربطه وأرسل بذلك إلى بيدو وقال وفيت بيمينى حيث ربطت قازان وبعثته إليك ، وقازان اسم القدر بالتترى فلما بلغ بيدو ذلك جمع عساكره وسار إلى جهة قازان والتقى الجمعان بنواحى همذان فخامر أصحاب بيدو عليه وصاروا مع قازان فولى بيدو هارباً وتبعه عسكر قازان فأدركوه عن قريب بنواحى همذان وقتلوه فى ذى الحجة من هذه السنة ، فكانت مدة مملكة بيدو نحو ثمانية أشهر .

ولما قتل استقر قازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكز خان فى المملكة فى ذى الحجة من هذه السنة ، أعنى سنة أربع وتسعين وستمائة بعد مقتل بيدو ، ولما استقر قازان فى المملكة جعل نيروز نائب مملكة ورتب أخاه خربند بن أرغون بخراسان .

ذكر أخبار ملوك اليمن ووفاة صاحبها

وفى هذه السنة : توفى صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف ابن الملك المنصور عمر بن على بن رسول بقلعة تعز ، وقد تقدم ذكر ملكه اليمن بعد قتل أبيه فى سنة ثمان

وأربعين وستمائة فكانت مدة ملكه نحو سبع وأربعين سنة ، وخلف عدة من الأولاد الذكور فملك بعده ولده الأكبر الملك الأشرف عمر بن يوسف وكان أخو عمر المذكور الملك المؤيد داود بالشحر عند موت والده ، لأن أباه كان قد أعطى داود المذكور الشحر وأبعده إليها فلما مات والده وملك أخوه الملك الأشرف تحرك الملك المؤيد داود المذكور وسار إلى عدن واستولى عليها ، فأرسل أخوه الملك الأشرف عسكرا واقتتلوا مع الملك المؤيد داود المذكور فانتصروا عليه وأخذوه أسيرا وأحضروه إلى الملك الأشرف فقيده واعتقله ، وكان عمر الملك الأشرف لما تملك نحو سبعين سنة وأقام فى الملك عشرين شهرا وتوفى والملك المؤيد داود فى الاعتقال مقيدًا فاتفق كبراء الدولة فى ذلك الوقت وأخرجوه من الحبس وملكوا الملك المؤيد داود بن يوسف المذكور ، واستمر مالكا لليمن إلى يومنا هذا وهو سنة ثمانى عشرة وسبعمائة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : أرسل الملك العادل زين الدين كتبغا وقبض على خشداشه عز الدين أيبك الخزندار وعزله عن الحصون والسواحل بالشام ثم أفرج عنه واستناب موضعه عز الدين أيبك الموصلى .

وفيها : قصر النيل تقصيرا عظيما وتبعه غلاء وأعقبه وباء وفناء عظيم .

وفيها : فى أوائل هذه السنة لما جلس فى السلطنة زين الدين كتبغا أفرج عن مهنا بن عيسى وإخوته وأعادهم إلى منزلتهم .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وستمائة :

فى هذه السنة : قدم من التتر نحو عشرة آلاف انسان وافدين إلى الإسلام خوفاً من قازان ، وكان مقدمهم يقال له طرغية من أكبر أمراء المغل كان مزوجاً ببنت منكوتمر بن هولاكو الذى انكسر جيشه على حمص ، ويقال لهذه الطائفة الوافدين العويراتية وكان سبب قدومهم أن مقدمهم طرغية هو الذى اتفق مع بيدو على قتل كيختو بن أبغا فلما ملك قازان قصد الإمساك على طرغية وقتله أخذا بثأر عمه كيختو فهرب طرغية وجماعته المذكورون بسبب ذلك ولما قدموا إلى الإسلام أرسل الملك العادل كتبغا أميرا للقائهم وأكرمهم وأنزلهم بالساحل قريب قاقون وأدر عليهم الأرزاق وأحضر كبراءهم عنده الى الديار المصرية وأعطاهم الإقطاعات الجليلة وواصلهم بالخلع وقدمهم على غيرهم .

وفيها : فى شوال خرج الملك العادل كتبغا من الديار المصرية وسار إلى الشام ووصل الى

دمشق وحضر إليه بدمشق الملك المظفر محمود صاحب حماه ، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى جهة حمص وسار على البرية متصيداً ووصل إلى حمص وقدم إلى جوسيه وهى قرية على درب بعلبك من حمص وكانت خراباً فاشتراها وعمرها فوصل إليها ورآها ثم عاد إلى دمشق ، وأعطى صاحب حماه الدستور فعاد إلى بلده ، ولما استقر العادل بدمشق عزل عز الدين أيبك الحموى عن نيابة السلطنة بالشام وولى موضعه سيف الدين غرلو مملوك الملك العادل كتبغا المذكور ، وخرجت هذه السنة والملك العادل بدمشق .

ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة :

ذكر مسير العادل كتبغا من دمشق وخلعه واستيلاء لاجين على السلطنة

لما دخلت هذه السنة : سار العادل كتبغا المنصور فى أوائل المحرم من دمشق بالعساكر متوجها إلى مصر ، فلما وصل إلى نهر العوجا واستقر بدهليزه وتفرقت مماليكه وغيرهم إلى خيامهم ركب حسام الدين لاجين المنصورى نائب الملك العادل كتبغا المذكور بسنجق ونقاره وانضم إلى لاجين المذكور بدر الدين البيسرى وقرا سنقر المنصورى وسيف الدين قبجاق المنصورى والحاج بهادر الظاهرى وغيرهم من الأمراء المتفقين مع حسام الدين لاجين وقصدوا الملك العادل وبغتوه عند الظهر فى دهليزه بالمنزلة المذكورة ، فلم يلحق أن يجمع أصحابه وركب فى نفر قليل فحمل عليه نائبه لاجين المذكور وقتل بكتوت الأزرق وبتخاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى العادل كتبغا المذكور هارباً راجعاً إلى دمشق لأن فيها مملوكه غرلو ووصل إلى دمشق فركب مملوكه غرلو والتقاه ودخل إلى قلعة دمشق واهتم فى جمع العسكر والتأهب لقتال لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق على ذلك ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه عن السلطنة وقعد بقلعة دمشق ، وأرسل إلى حسام الدين لاجين يطلب منه الأمان وموضعا يأوى إليه فأعطاه صرخد فسار العادل كتبغا المذكور إليها واستقر فيها إلى أن كان منه ماسنذكره ان شاء الله تعالى .

وأما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبغا على ماذكرناه نزل بدهليزه على نهر العوجا واجتمع معه الأمراء الذين وافقوه على ذلك وشرطوا عليه شروطاً فالتزمها ، منها : أن لا ينفرد عنها برأى ولا يسلط مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبغا فأجابهم لاجين إلى ذلك وحلف لهم عليه فعند ذلك حلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين

المنصورى وذلك فى شهر المحرم من هذه السنة ، أعنى سنة ست وتسعين وستمائة ، ثم رحل بالعساكر إلى الديار المصرية ووصل إليها واستقر بقلعة الجبل ولما استقر بمصر أعطى للعادل كتبغا صرخد وأرسل إلى دمشق سيف الدين قبجق المنصورى وجعله نائب السلطنة بالشام .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : أرسل حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور مولانا السلطان الملك الناصر من القاعة التى كان فيها بقلعة الجبل إلى الكرك وسار معه سلار فأوصله إليها ثم عاد سلار إلى حسام الدين لاجين .

وفيها : أفرج الملك المنصور لاجين عن بيبرس الجاشنكير وعن عدة أمراء كان العادل كتبغا قد قبض عليهم وسجنهم فى أيام سلطنته .

وفيها : أعطى المنصور لاجين المذكور جماعة من مماليكه إمرة طبلخاناه مثل منكوتمر وأيدغدى شقير وبهادر المعزى وغيرهم .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وستمائة :

ذكر تجريد العساكر إلى حلب ودخولهم إلى بلاد سيس وعودهم إلى حلب ثم دخولهم ثانيا وما فتحوه

فى هذه السنة : جرد حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور جيشا كثيفا من الديار المصرية مع بدر الدين بكتاش الفخرى المعروف بأمير سلاح ، ومع علم الدين سنجر الدوادارى ومع شمس الدين كريته ومع حسام الدين لاجين الرومى المعروف بالحسام استاذ دار فساروا إلى الشام ورسم لاجين المذكور بمسير عساكر الشام فسار البكى الظاهرى نائب السلطنة بصفد ثم بعد مدة سار سيف الدين قبجق نائب السلطنة بالشام وأقام قبجق ببعض العسكر بحمص وسارت العساكر إلى حلب وسار الملك المظفر محمود صاحب حماه بعسكره ووصل المذكورون إلى حلب يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الآخرة وسابع نيسان ثم ساروا إلى بلاد سيس فعبر صاحب حماه والدوادارى ومن معهما من العساكر من دربندمرى وعبر باقى العساكر من جهة بغراس من باب اسكندرونه واجتمعوا على نهر جيحان وشنوا

الغارات على بلاد سيس فى العشر الأوسط من رجب وكسبوا وغنموا وعادوا فخرجوا من دربند بغراس إلى مرج انطاكية فى الحادى والعشرين من رجب من هذه السنة الموافق لرابع آيار ، وسار صاحب حماة الملك المظفر إلى جهة حماه حتى وصل إلى قصطون فورد مرسوم لاجين بعود العساكر واجتماعهم بحلب ودخولهم إلى بلاد سيس ثانيًا وهذه الغزاة من الغزوات التى حضرتها وشاهدتها من أولها إلى آخرها فعدنا إلى حلب ووصلنا إليها فى يوم الأحد الثامن والعشرين من رجب وأقمنا ثم رحلنا من حلب ثالث رمضان إلى بلاد سيس ودخلنا من باب إسكندرونه ونزلنا على حمص يوم الجمعة تاسع رمضان من هذه السنة الموافق للعشرين من حزيران ، وأقام على حمص بدر الدين بكتاش أمير سلاح والملك المظفر صاحب حماه ومن انضم إليهما من عسكر دمشق مثل ركن الدين بيبرس العجمى المعروف بالجالق ومضافيه من عسكر دمشق وحاصرنا حمص وضايقناها ، وأما باقى العسكر فإنهم نزلوا أسفل من حمص فى الوطاة واستمر الحال على ذلك وقل الماء فى حمص واشتد بهم العطش وكان قد اجتمع فيها من الأرمن عالم عظيم ليعتصموا بها وكذلك اجتمع فيها من الدواب شىء كثير فهلك غالبهم بالعطش .

ولما اشتد بهم الحال وهلكت النساء والأطفال أخرج أهل حمص فى الخامس والعشرين من رمضان وهو سابع عشر يوما من نزولنا عليها من نسائهم نحو ألف ومائتين ومن النساء والصبيان فتقاسمهم العسكر وغنموهم فكان قسمى جاريتين ومملوكا وأصابنا ونحن نازلون على حمص فى العشر الأوسط من شهر « تموز ضباب قوى ومطر وحصل للملك المظفر وهو نازل على حمص قليل مرض ولم يكن صحبته طبيبه فاقتصر على ما كنت أصفه له وأعالجه به فشفاه الله تعالى وأعاد إلى العافية وأنعم على وأحسن إلى على جارى عادته وكانت خيمته المنصوبة على حمص خيمة ظاهرها أحمر قد عملها من أكسية مغربية وداخلها منقوش بالخام الرفيع المصبغ ، وكانت الأمراء الذين لم ينازلوا حمص وهم مقيمون فى الوطاة إذا عرض لهم ما يقتضى المشاورة يطلعون إلى الجبل ويجتمعون فى خيمة الملك المظفر وبين يديه يتشاورون على ما فيه المصلحة ، واستمر الحال على ذلك إلى ان فتحت حمص وغيرها على ما سنذكره .

ذكر فتوح حمص وغيرها من قلاع بلاد الأرمن

ولما كان فتوح ذلك متوقفا على ملك دندين بن ليفون احتجنا نذكر كيفية ملكه بلاد الأرمن وتسليمه البلاد إلى المسلمين فنقول إنه تقدم فى سنة أربع وستين وستمائة أسر ليفون بن هيتوم لما دخلت العساكر صحبة الملك المنصور صاحب حماه فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى ، وتقدم كيفية خلاص ليفون وما افتداء أبوه هيتوم به حتى عاد إلى أبيه صاحب سيس

ثم إن ليفون المذكور ملك بعد موت أبيه هيتوم وبقى فى الملك مدة ثم مات ليفون المذكور وخلف عدة من الأولاد الذكور أكبرهم هيتوم ثم تروس ثم سنباط ثم دندين ثم أوشين .

فلما مات ليفون ملك بعده ابنه الأكبر هيتوم بن ليفون بن هيتوم وبقى فى الملك مدة ، فجمع أخوه سنابط جماعة ووثب على أخيه هيتوم المذكور وقبض عليه وسمله فعميت عين هيتوم الواحدة وسلمت له الأخرى ، واستمر فى الحبس ، وكذلك قبض سنابط المذكور على أخيه تروس ثم قتله وخلف تروس المذكور ولدا صغيرا واستقر سنابط المذكور فى الملك واتفق دخول العساكر إلى بلاد سيس ومنازلة حمص فى أيام مملكة سنابط فضاقت على الأرمن البلاد بما رحبت ، وهلكوا من كثرة ما قتل وغنم منهم المسلمون ، فنسبوا ذلك إلى سوء تدبير سنابط وعدم مصانعته للمسلمين فكرهوه واتفقوا على اقامة أخيه دندين بن ليفون فى المملكة والقبض على سنابط واجتمع الأرمن على دندين فأحس سنابط بذلك فهرب إلى جهة قسطنطينية وتملك دندين ويقال له كسيندين أيضا ، فلما تملك دندين المذكور أرسل إلى العساكر المقيمة فى بلاد سيس على حمص وعلى غيرها وبذل لهم الطاعة والإجابة إلى ما يرسم به سلطان الإسلام وأنه نائب السلطان بهذه البلاد فطلب منه العسكر أن يكون نهر جيحان حدًا بين المسلمين والأرمن ، وأن يسلم كل ما هو جنوبى نهر جيحون من الحصون والبلاد ، فأجاب دندين المذكور إلى ذلك وسلم جميع البلاد التى جنوبى نهر جيحان المذكور إلى المسلمين ، فمنها حمص وتل حمدون وكويرا والنفير وحجر شغلان وسر قندكار ومرعش ، وهذه جميعها حصون منيعة ما ترام ، وكذلك سلم غيرها من البلاد ، وكان تسليم حمص يوم الجمعة تاسع عشر شوال من هذه السنة أعنى سنة سبع وتسعين وستمائة ووافق ذلك ثامن شهر آب وسلمت تل حمدون بعدها ثم سلمت باقى الحصون والبلاد المذكورة وأمر حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور باستمرار عمارة هذه البلاد وكان ذلك رأيا فاسدا على ما سيظهر من عود هذه البلاد إلى الأرمن عند دخول قازان البلاد .

ولما استقرت هذه البلاد للمسلمين جعل فيها حسام الدين لاجين بعض الأمراء نائبا ثم عزله وولى عليها سيف الدين أسندمر نائباً وجرد معه عسكرا وكان مقام أسندمر المذكور بتل حمدون وبعد تسليم تل حمدون رحل الملك المظفر محمود صاحب حماة عنها مستهل ذى القعدة من هذه السنة وسارت العساكر وخرجت من الدربند وسرنا جميعاً ودخلنا حلب يوم الاثنين تاسع ذى القعدة الموافق لعاشر آب من هذه السنة أعنى سنة سبع وتسعين وستمائة .

فلما أقمنا بحلب ورد مرسوم حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور إلى سيف الدين بلبان الطباخى بالقبض على جماعة من الأمراء المجردين مع العسكر فعلموا بذلك وكان قبجق مقيماً بحمص مستشعراً خائفاً من لاجين المذكور فهرب من حلب فارس الدين البكى نائب

السلطنة بصفد وكان من جملة العسكر المجردين على حلب وكذلك هرب بكتمر السلحدار وبورلار وعزاز ووصلوا إلى حمص. واتفقوا مع سيف الدين قبجق على العصيان .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى أوائل هذه السنة : قبل تجريد العساكر إلى سيس ، قبض حسام الدين لاجين على نائبه فى السلطنة شمس الدين قرا سنقر واعتقله وولى نيابة السلطنة مملوكه منكو تمر الحسامى ، فأظهر منكو تمر المذكور من الحماقة والكبرياء ما غير به خواطر العسكر عليه وعلى أستاذه ، وكذلك قبض لاجين المذكور على بدر الدين البيسرى وعلى عز الدين أيبك الحموى وعلى الحاج بهادر أمير حاجب وغيرهم من الأمراء .

وفيها : أوقع قازان ملك التتر باتابكه نيروز وقتله لأنه نسبه إلى مكاتبة المسلمين ورتب موضع نيروز قطلو شاه .

وفيها : وفد سلامش وهو مقدم ثمان من المغل وكان ببلاد الروم وبلغه أن قازان يريد قتله فهرب وقدم على الملك المنصور حسام الدين لاجين فأكرمه فطلب سلامش نجدة من الملك المنصور لاجين ليعود إلى الروم طمعا فى اجتماع أهل الروم عليه فجرد معه من حلب عسكرا مقدمهم سيف الدين بكتمر الجلمى وساروا مع سلامش حتى تجاوزوا بلد سيس فخرجت عليهم التتر واقتتلوا معهم فقتل الجلمى وجماعة من العسكر الإسلامى وهرب الباقون وأما سلامش فهرب إلى قلعة من بلاد الروم واعتصم بها ثم أرسل إليه قازان واستنزله وحصر سلامش وقتله شر قتلة .

وفيها : اجتمع رأى حسام الدين لاجين ونائبه منكو تمر على روك الإقطاعات بالديار المصرية فريكت جميع البلاد المصرية وكتب بما استقر عليه الحال مثالات وفرقت على أربابها فقبلوها طوعا أو كرها .

وفيها : توفى عز الدين أيبك الموصلى نائب الفتوحات وغيرها وولى موضعه سيف الدين كرد أمير أخور .

وفيها : فى أواخر ذى القعدة من هذه السنة هرب قبجق والبكى وبكتمر السلحدار ومن انضم إليهم من حمص وساق خلفهم أيدغدى شقير مملوك حسام الدين لاجين من حلب مع جماعة من العسكر المجردين ليقطعوا عليهم الطريق ففاتهم قبجق ومن معه وعبروا الفرات واتصلوا بقازان ملك التتر فأحسن إليهم وأقاموا عنده حتى كان منهم ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : فى أواخر ذى القعدة وصل من حسام الدين لاجين دستور للملك المظفر صاحب حماه بالحضور من حلب إلى حماة فسار الملك المظفر ووصل إلى حماه واستمرت العساكر مقيمين بحلب إلى أن خرجت هذه السنة .

وفى الثامن والعشرين : من شوال هذه السنة ، أعنى سنة سبع وتسعين وستمائة توفى الشيخ العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضى القضاة الشافعى بحماه المحروسة وكان مولده فى سنة أربع وستمائة وكان فاضلا إماما مبرزا فى علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة وأصول الدين والفقه والهيئة والتاريخ ، وله مصنفات حسنة منها مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ومنها الأنبروزية فى المنطق صنفها للانبروز ملك الفرنج صاحب صقلية لما توجه القاضى جمال الدين المذكور رسولا إليه فى أيام الملك الظاهر بيبرس الصالحى واختصر الأغانى اختصارا حسنا وله غير ذلك من المصنفات .

ولقد ترددت إليه بحماه مرارا كثيرة وكنت أعرض عليه ما أحله من أشكال كتاب أقليدس وأستفيد منه وكذلك قرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب فى العروض ، فإن جمال الدين صنف لهذه المنظومة شرحا حسنا مطولا فقرأته عليه وصححت أسماء من له ترجمة فى كتاب الأغانى فرحمه الله ورضى عنه وكان توجه إلى الإمبراطور رسولا من جهة الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر والشام فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، ومعنى الإمبراطور بالفرنجية ملك الأمراء ومملكته جزيرة صقلية ، ومن البر الطويل بلاد أنبولية والأنبردية ، قال جمال الدين : ووالد الإمبراطور الذى رأيته كان يسمى فردريك وكان مصافيا للسلطان الملك الكامل ثم مات فردريك المذكور فى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وملك صقلية وغيرها من البر الطويل بعده ولده كرا بن فردريك ثم مات كرا وملك بعده أخوه منفريدا بن فردريك ، وكل من ملك منهم يسمى إمبراطورا وكان الإمبراطور من بين ملوك الفرنج مصافيا للمسلمين ويحب العلوم قال : فلما وصلت إلى الإمبراطور منفريدا المذكور أكرمنى وأقمت عنده فى مدينة من مدائن البر الطويل المتصل بالأندلس من مدينة أنبولية واجتمعت به مرارا ووجدته متميزا ومحبا للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب أقليدس ، قال : وبالقرب من البلد الذى كنت فيه مدينة تسمى لو حاره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الإسلام ، قال : ووجدت أكبر أصحاب الإمبراطور منفريدا المذكور مسلمين ويعلن فى معسكره بالأذان والصلاة وبين البلد الذى كنت فيه وبين رومية مسيرة خمسة أيام ، وقال : بعد توجهى من عند الإمبراطور اتفق البابا خليفة الفرنج وريد أفرنس على قصد الإمبراطور وقتاله وكان البابا قد حرمه كل ذلك بسبب ميل الإمبراطور المذكور إلى المسلمين وكذلك كان أخوه كرا ووالده فردريك محرمين من جهة البابا برومية لميلهم إلى الإسلام ، قال : ولقد حكى لى لما كنت عنده أن مرتبة الإمبراطور كانت قبل فردريك لوالده ولما مات والدفردريك المذكور كان

فردريك شابا أول ماترعرع وأنه طمع فى الإمبراطورية جماعة من ملوك الفرنج وكل منهم رجا أن يفوضها البابا إليه وكان فردريك شابا ماكرًا وجنسه من الألمانية ، فاجتمع بكل واحد من الملوك الذين قد طمعوا فى أخذ الإمبراطورية بانفراده وقال له إنى لا أصلح لهذه المرتبة وليس لى فيها غرض فإذا اجتمعنا عند البابا فقل ينبغى أن يتقلد الحديث فى هذا الأمر ابن الإمبراطور المتوفى ومن رضى بتقليده الإمبراطورية فأنا راض به ، فإن البابا إذا رد الاختيار إلى فى ذلك اخترتك ولا أختار غيرك ، وقصدى الانتماء إليك ، ولما قال هذه المقالة لكل واحد من الملوك المذكورين بانفراده وصدقه فى ذلك ووثق به واعتقد صدقه فلما اجتمعوا عند البابا بمدينة رومية ومعهم فردريك المذكور قال البابا للملوك المذكورين ما ترون فى أمر هذه المرتبة ومن هو الأحق بها ، ووضع تاج الملك بين أيديهم فكل واحد منهم قال : قد حكمت فردريك فى ذلك فإنه ولد الإمبراطور وأحق الجماعة بأن يسمع قوله فى ذلك فقام فردريك وقال أنا ابن الإمبراطور وأنا أحق بتاجه ومرتبته والجماعة كلهم قد رضوا بى ووضع التاج على رأسه فألبسوا كلهم وخرج مسرعًا والتاج على رأسه ، وكان قد حصل جماعة من أصحابه الألمانية الشجعان راكبين مستعدين وركب واجتمعت عليه أصحابه الألمانية وسار بهم على حمية إلى بلاده . قال القاضى جمال الدين : واستمر الإمبراطور منفريدا بن فردريك المذكور فى مملكته وقصده البابا وريدا فرنس بجموعهما واقتتلوا معه وهزموه وقبضوا عليه وتقدم البابا يذبحه فذبح منفريدا المذكور وملك بلاده بعده أخو ريد افرنس وذلك فى سنة ثلاث وستين وستمائة فى غالب ظنى .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمائة :

ذكر قتل الملك المنصور حسام الدين لاجين صاحب مصر والشام

فى هذه السنة : وثب على لاجين المذكور جماعة من المماليك الصبيان الذين اصطفاهم لنفسه ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر فى أوائل الليل فقتلوه وهو يلعب بالشطرنج وأول من ضربه شخص منهم يقال له سيف الدين كرجى بالسيف وضربه الباقون بعده حتى قتلوا لاجين المذكور وطلعوا ليقتلوا مملوكه ونائبه منكوتمر فاستجار بسيف الدين طغجى الأشرفى ، وكان طنجى مقدم هؤلاء المماليك الذين قتلوا لاجين فأجاره طغجى وبعث بمنكوتمر المذكور إلى الجب فحبسه فيه ، ثم بعد استقراره فى الجب توجه كرجى ومعه جماعة فأخرجوا منكوتمر وذبحوه على رأس الجب ، ولما أصبح الصباح عن ذلك جلس طغجى فى موضع النيابة وأمر ونهى

وهنالك جماعة من الأمراء أكبر منه مثل الحسام أستاذ الدار وسلار وبيبرس الجاشنكير وغيرهم فاتفق آراؤهم على الوقيعة بطغجي وإعادة الملك إلى مولانا السلطان الملك الناصر المقيم بالكرك واتفق بعد ذلك وصول بعض العسكر المجردين على حلب فوصل أمير سلاح وغيره وأشار الأمراء المذكورون على طغجي بالركوب وتلقى أمير سلاح فامتنع وعاودوه فأجاب وركب طغجي من قلعة الجبل وجعل نائبه بها كرجي الذى قتل لاجين فعند ما اجتمعت الأمراء بالأمير سلاح تحدثوا فيما فعله الصبيان من قتل السلطان وأنكرت الأمراء وقوع مثل ذلك وقالوا إن طغجي هو الذى فعل ذلك ، فحطوا عليه بالسيوف وهرب منهم فأدركوه وقتلوه وقصدوا كرجي بقلعة الجبل فهرب واتبعوه فقتلوه أيضاً وذلك فى ربيع الآخر من هذه السنة ، وكانت مدة مملكة حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور المذكور سنتين وثلاثة أشهر .

ذكر عود مولانا السلطان الملك الناصر إلى سلطنته

وفى هذه السنة : عاد مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون إلى مملكته ، فإنه لما جرى ماذكرناه من قتل لاجين ثم قتل طغجي اتفقت الأمراء على إعادة مولانا السلطان الملك الناصر إلى مملكته فتوجه سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولى إلى الكرك وأحضراه إلى الديار المصرية فصعد إلى قلعة الجبل واستقر على سرير ملكه فى يوم السبت رابع عشر جمادى الأولى من هذه السنة أعنى سنة ثمان وتسعين وستمائة وهى سلطنته الثانية ، فلما استقر السلطان الملك الناصر بالقلعة اتفق معه الأمراء على أن يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة ، ويكون بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار وأن يكون بكتمر الجوكندار أمير جاندار ، فلما استقر ذلك فوض نيابة السلطنة بالشام إلى جمال الدين أقوش الأفرم وأفرجوا عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقال وكان له فيه نحو سنة وشهرين ثم بعثوا به إلى الصبية وكتب تقليد الملك المظفر محمود صاحب حماه ببلاده على عادته وبعث به إليه فى جمادى الأولى من هذه السنة .

ذكر تجريد العسكر الحموى إلى حلب

وفى هذه السنة : فى رمضان الموافق لحيزران من شهور الروم ، جرد الملك المظفر عسكر حماه إلى حلب بسبب حركة التتر إلى جهة الشام ، فسرنا من حماه إلى المعرة وورد كتاب سيف الدين بلبان الطباخى بتراخى الأخبار فعدنا من المعرة إلى حماة فورد كتابه بطلبنا فأعادنا الملك

المظفر من حماة فى يوم وصولنا إليها وهو يوم الأربعاء سابع عشر رمضان وحزيران فسرنا ودخلنا حلب فى الثانى والعشرين من رمضان من هذه السنة ، ثم أرسل الملك المظفر وطلبنى من نائب السلطنة بمفردى فأعطانى سيف الدين بلبان الطباخى دستورا فسرت إلى حماة إلى خدمة ابن عمى الملك المظفر واستمر أخواى وغيرهما من الأمراء والعسكر مقيمين بحلب وأقمت أنا عند الملك المظفر بحماة .

ذكر وفاة الملك المظفر صاحب حماة وخروج حماة حينئذ عن البيت التقوى الأيوبى

وفى هذه السنة : أعنى سنة ثمان وتسعين وستمائة يوم الخميس الثانى والعشرين من ذى القعدة توفى صاحب حماة السلطان الملك المظفر تقى الدين محمود بن السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تعالى ، ومولده فى ليلة الأحد خامس عشر المحرم سنة سبع وخمسين وستمائة فيكون عمره إحدى وأربعين سنة وعشرة أشهر وسبعة أيام ، وملك حماة من حين توفى والده فى حادى عشر شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيكون مدة ملكه خمس عشرة سنة وشهرا ويوما واحدا ، وكان مرضه حمى محرقة وكان سبب ذلك مع فراغ العمر أنه كان غاويا برمى البندق واتفق له فيه صروعات حسنة فأراد أن يرمى النسر من طيور الواجب فقصد جبل علاروز وهو جبل مطل على قسطون وكان ذلك فى شدة الحر وقتل حمارا وتركه على موضع بذلك الجبل وعمل من أغصان الشجر كوخا وكان يجلس فى الكوخ وأنا معه ومملوك له ومن يشاهده فى رمى البندق ، وكان يدخل إلى الكوخ فى السحر ويظل فيه إلى الظهر ولا يتكلم انتظارا لنزول النسر على جيفة الحمار وكنا نشم نتن تلك الجيفة ، واتفق نزول النسر فى تلك الحالة ولم يقدر له رميه ، ثم عدنا إلى حماة فابتدأ بنا المرض وبلغت الموت ، وفى مدة مرضى مرض الملك المظفر وعادنى وهو قد ابتدأ به المرض ثم بعد بضعة عشر يوما توفى فى التاريخ المذكور وأنا منقطع عنه بسبب مرضى ، وكذلك مرض المملوك الذى كان معنا بذلك المكان ، وكان عسكر حماة بحلب على ما قد ذكرناه وكان قد اتفق حضور الأمير صارم الدين أزبك المنصورى إلى حماة بسبب تشويش زوجته فلحق الملك المظفر قبل وفاته وكان حاضرا وفاته ، وأما أخواى أسد الدين عمر وبدر الدين حسن ابنا الملك الأفضل فإنهما حضرا إلى حماة من حلب بعد وفاة الملك المظفر ، ولما اجتمع المذكورون اختلفوا فيمن يكون صاحب حماة ولم ينتظم فى ذلك حال .

ذكر وصول قرا سنقر الجو كندار إلى حماة نائبا بها

ولما توفى الملك المظفر كان قرا سنقر قد أخرج من السجن وأرسل إلى الصبية وهى مكان وخم ، فأرسل قراسنقر إلى الحكام بمصر يتضور من المقام بالصبية فاتفق عند ذلك وصول الخبر إلى مصر بموت صاحب حماة فأعطى قرا سنقر نيابة السلطنة بحماة وسار من الصبية ووصل إلى حماة واستقر فى النيابة بها فى أوائل ذى الحجة من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وتسعين وستمائة ، ونزل بدار الملك المظفر صاحب حماة وقمنا بوظائف خدمته وأخذ من تركة صاحب حماة ومنا أشياء كثيرة حتى أجحف بنا ووصلت المناشير من مصر إلى أمراء حماة وجندها باستقرارهم على ما بأيديهم من الإقطاعات فاستمر بنا على ما كان بأيدينا .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : أرسل سيف الدين بلبان الطباخى عسكرا إلى ماردين فنهبوا ربض ماردين حتى نهبوا الجامع وعملوا الأفعال الشنيعة وذلك كان حجة لقازان فى قصد البلاد على ماسنذكره .

وفيها : توفى بدر الدين البيسرى فى محبسه من حين حبسه لاجين .

وفيها : سار مولانا السلطان الملك الناصر من الديار المصرية بعساكر مصر إلى بلاد غزة وأقام بها حتى خرجت هذه السنة ، واتفق قرا سنقر وأخواى وأرسلوا معى قماشا وخيلا من خيل الملك المظفر صاحب حماه وقماشه فسرت أنا وصارم الدين أزبك المنصورى الحموى وقدمت ذلك لمولانا السلطان وهو نازل بالساحل قرب عسقلان فقبله وتصدق على بخلعة وحياصة ذهب ورسم بزيادة إقطاعى وإقطاع أخى بدر الدين حسن فزادونا نقدًا من ديوان حماه .

وفى هذه السنة : توفى شمس الدين كريته أحد المقدمين الذين دخلوا إلى بلاد سيس وفتحوا ما تقدم ذكره .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة :

ذكر المصاف العظيم الذى كان بين المسلمين والتتر وهزيمة المسلمين واستيلاء التتر على الشام

فى هذه السنة : سار قازان بن أرغون بجموع عظيمة من المغل والكرج والمزندة وغيرهم وعبر الفرات ووصل بجموعه إلى حلب ثم إلى حماه ونزل على وادى مجمع المروج وسارت العساكر الإسلامية صحبة مولانا السلطان الملك الناصر حتى وصلوا بظاهر حمص ثم ساروا إلى جهة المجمع وكان سلار والجاشنكير هما المتغلبان على المملكة ، فداخل الأمراء الطمع ولم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر ، كثيرا مع سوء التدبير ونحو ذلك من الأمور الفاسدة التى أوجبت هزيمة العسكر ثم ساروا والتقوا عند العصر من نهار الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة الموافق للثالث والعشرين من كانون الأول من شهور الروم بالقرب من مجمع المروج فى شرقى حمص على نحو نصف مرحلة من حمص فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب واحتاطت به التتر وجرى بينهم قتال عظيم وتأخر السلطان إلى جهة حمص حتى أدركه الليل فولت العساكر الإسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة إلى ديار مصر المحروسة وتبعهم التتر واستولوا على دمشق وساقوا فى أثر الجفال إلى غزة والقدس وبلاد الكرك ، وكسبوا وغنموا من المسلمين الجفال شيئاً عظيما .

ذكر المتجددات بعد الكسرة

وكان قبجق وبكتمر السلحدار والبكى مع قازان من حين هربوا من حمص على ما قدمنا ذكره فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، فلما استولى قازان على دمشق أخذ سيف الدين قبجق الأمان لأهل دمشق ولغيرهم من قازان ملك التتر واستولى قازان على مدينة دمشق وعصت عليه القلعة وأمر بحصارها فحوصرت وكان النائب بها الأمير سيف الدين أرجواش المنصورى فقام فى حفظها أتم قيام وصبر على الحصار ولم يسلمها وأحرق الدور التى حوالى القلعة والمدارس فاحترقت دار السعادة التى كانت مقر نواب السلطنة وكذلك احترق غيرها من الأماكن الجليلة ، وأما عسكر مصر فانهم لما وصلوا إلى مصر رسم لهم بالنفقة فأنفق فيهم أموالا جليلة

واصطلحوا أحوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم وأقام قازان بمرج دمشق المعروف بمرج الزنبقية ثم عاد إلى بلاده الشرقية وقرر فى دمشق قبجق وجرد صحبته عدة من المغل ، فلما بلغ العساكر المصرية مسير قازان عن الشام خرجوا من مصر فى العشر الأول من شهر رجب من هذه السنة وخرج السلطان إلى الصالحية ثم اتفق الحال على مقام السلطان بالديار المصرية ومسير سلار وبيبرس الجاشنكير بالعساكر إلى الشام فسار المذكوران بالعساكر ، وكان قبجق وبكتمر السلحدار والبكى قد كاتبوا المسلمين فى الباطن وصاروا معهم فلما خرجت العساكر من مصر هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا التتر وساروا إلى جهة ديار مصر وبلغ ذلك التتر المجردين بدمشق فخافوا وساروا من وقتهم إلى البلاد الشرقية وخلا الشام منهم ووصل قبجق والبكى وبكتمر السلحدار إلى الأبواب السلطانية فأحسن إليهم السلطان ووصل سلار وبيبرس الجاشنكير إلى دمشق وقرر أمورا الشام ورتبا فى نيابة السلطنة بدمشق الأمير جمال الدين أقوش الأفرم على عادته ، ورتبا قرا سنقر فى نيابة السلطنة بحلب بعد عزل سيف الدين بلبان الطباخى عنها وإعطائه إقطاعاً بديار مصر ، ورتبا قطلوبك فى نيابة السلطنة بالساحل والحصون عوض سيف الدين كرد فإنه استشهد فى الوقعة ورتبا فى نيابة السلطنة بحماة الأمير كتبغا زين المنصورى الذى كان سلطانا ثم خلع وأعطى صرخد واستمر بصرخد حتى استولى قازان على الشام ثم سار إلى مصر والتتر بالشام ثم سار مع بسلار والجاشنكير إلى الشام فرتباه فى نيابة السلطنة بحماة بعد قرا سنقر فسار كتبغا المذكور ووصل إلى حماة فى الرابع والعشرين من شعبان هذه السنة أعنى سنة تسع وتسعين وستمائة واستقر بحماة وأقام بدار صاحب حماة الملك المظفر وسار قرا سنقر إلى حلب ثم عاد سلار والجاشنكير بالعساكر إلى الديار المصرية .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : كان بين طقطغا بن منكوتمر وبين نغية حروب كثيرة ، قتل فيها نغية وقام مقامه ابنه جكا .

وفيها : فى مدة استيلاء التتر على الشام استولى على حماة شخص من الرجالة الذين كانوا فيها لحفظ القلعة يسمى عثمان السبيتارى وحكم فى البلد والقلعة واستباح الحريم وأموال أهل حماة وسفك دم جماعة منهم الفارس أرلندمشد حماة وبعض أهل الباب الغربى وكان يشارك عثمان المذكور فى الحكم رفيقه إسماعيل فغدر عثمان برفيقه إسماعيل وقتله وانفرد عثمان بالحكم فى حماة وقيل إنه تلقب بالملك الرحيم وبقى على تلك الحال إلى أن طلعت العساكر الإسلامية من مصر واستولوا على الشام وأرسلوا صارم الدين أزبك الحموى إلى حماة ليكون

فيها إلى أن يحضر إليها زين الدين كتبغا المنصورى النائب فعصى عثمان المذكور بالقلعة المذكورة ثم فارقه أصحابه وتخلوا عنه وأمسك عثمان المذكور واعتقل وكان المذكور من جندارية قرا سنقر * فلما وصل قرا سنقر إلى حماة متوجها إلى حلب نزل على تل صفرون وتسلم عثمان المذكور وأطلقه فحضر أهل حماة وشكوا ما فعله فيهم عثمان المذكور من نهب أموالهم وهتك الحريم وسفك الدماء فتبرطل قرا سنقر من عثمان المذكور ما أخذه من أموال أهل حماه واستصحب عثمان معه وأحسن إليه ومنع الناس حقهم ولم يمكن أحدا منه بعد أن حكم القاضى بسفك دم عثمان المذكور وبقى عثمان عند قرا سنقر مكرما إلى أن هرب قرا سنقر إلى التتر على ما سنذكره إن شاء الله تعالى فاختفى عثمان المذكور ولم يظهر وكان أصله من بلاد الشوبك فلما تصدق على السلطان بحماة تتبعت عثمان المذكور وطلبته من نائب السلطنة بالشام وهو المقر السيفى تنكيز فأمسك عثمان المذكور من بلاد عجلون وأرسله معتقلا إلى حماه فضربت عنقه فى سوق الخيل بحضرة العسكر فى يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة ست عشرة وسبعمائة .

وفيها : لما وصل قازان بجموع المغل إلى الشام طمع الأرمن فى البلاد التى افتتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها فتركها الذين بها من العسكر والرجالة وأخلوها فاستولى الأرمن عليها وارتجعوا حمص وتل حمدون وكوبر وسرفندكار والنقير وغيرها ولم يبق مع المسلمين من جميع تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان واستولى الأرمن على غيرها من الحصون والبلاد التى كانت جنوبى نهر جيحان .

وفيها : أوفى السنة التى قبلها لما ملك دندين بلاد الأرمن أفرج عن أخيه هيتوم بن ليفون وجعله الملك وصار دندين بين يديه وكان هيتوم قد بقى أعور من حين سمله أخوه سنباط على ما قدمنا ذكره واستمر هيتوم ودندين على ذلك مدة يسيرة ثم غدر هيتوم بدندين وجازاه أقبح جزاء وأراد القبض عليه فهرب دندين إلى جهة قسطنطينية واستقر هيتوم فى مملكة سيس ، ولما استقر هيتوم فى ملك سيس كان لأخيه تروس الذى قتله أخوه سنابط على ما ذكرناه ولد صغير فأقام هيتوم المذكور الصغير ذلك ابن تروس فى الملك وجعل هيتوم نفسه أتا بك لذلك الصغير وبقى كذلك حتى قتلهما برلغى مقدم المغل الذين ببلاد الروم على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبعمائة :

ذكر مسير التتر إلى الشام ومسير السلطان والعساكر الإسلامية إلى العوجا ورجوعهم

فى هذه السنة : عاودت التتر قصد الشام وعبروا الفرات فى ربيع الآخر ، وجفلت المسلمون منهم وخلت بلاد حلب وسار قرا سنقر بعسكر حلب إلى حماه وبرز زين الدين كتبغا وعساكر حماة إلى ظاهر حماة فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة وسادس كانون الأول وكذلك وصلت العساكر من دمشق واجتمعوا بحماة وأقامت التتر ببلاد سرمين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون ، وسار السلطان بالعساكر الإسلامية ووصل إلى العوجا واتفق فى تلك المدة تدارك الأمطار إلى الغاية واشتدت الوحول حتى انقطعت الطرقات وتعذرت الأقوات وعجزت العساكر عن المقام على تلك الحال فرحل السلطان والعساكر وعادوا إلى الديار المصرية فوصل إليها فى عاشر جمادى الأولى من هذه السنة .

وأما التتر فانهم أقاموا ينتقلون فى بلاد حلب نحو ثلاثة أشهر ثم إن الله تعالى تدارك المسلمين بلطفه ورد التتر على أعقابهم بقدرته فعادوا إلى بلادهم وعبروا الفرات فى أواخر جمادى الآخرة من هذه السنة الموافق لأوائل إذار من شهور الروم ورجع عسكر حلب مع قرا سنقر إلى حلب وتراجعت الجفال إلى أماكنهم .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : لما وردت الأخبار بعود التتر إلى الشام استخرج من غالب الأغنياء بمصر والشام ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة .

وفيها : لما خرجت العساكر من مصر توفى سيف الدين بلبان الطباخى الذى كان نائبا بحلب ودفن بأرض الرملة وورثه السلطان بالولاء .

وفيها : عزل كراى المنصورى الذى كان نائباً بصفد وولى موضعه بتخاص .

وفيها : عزل قطلوبك عن نيابة السلطنة بالحصون والسواحل ونقل إلى دمشق ، فصار من أكبر الأمراء بها ، وولى موضعه على الحصون والسواحل سيف الدين اسندمر الكرجى .

وفيها : التزمت الذمة بلبس الغيار فلبس اليهود عمائم صفر أو النصارى عمائم زرق والسمرة عمائم حمر .

وفيها : وصلت رسل قازان ملك التتر وكان مضمون رسالتهم التهديد والوعيد فأعيد جوابه على مقتضى ذلك .

وفيها : ولى البكى الظاهرى الذى قفز إلى التتر وعاد على ماذكرناه نيابة السلطنة بحمص وكذلك أعطى قبجق الشوبك إنطاعاً وأرسل إليها فأقام بها .

وفيها : قتل جكا بن نغية أخاه تكا .

وفيها : جرى بين جكا ونائبه طنغوز قتال فانتصر فيه طنغوز على جكاثم انتصر جكا ثم استنجد طنغوز بطقطغا فلم يكن لجكا به قبل ، فهرب إلى الأولاق وهم قوم بتلك البلاد لصهر كان بينه وبين الأولاق فغدر به ملك الأولاق وأمسك جكا واعتقله بقلعة طرفو ثم قتله وبعث برأسه إلى القرم وصارت مملكة نغية لطقطغا .

ثم دخلت سنة احدى وسبعمائة :

ذكر وفاة الخليفة

فى هذه السنة : توفى أبو العباس أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله المنصوب فى الخلافة ، وقد تقدم ذكر ولايته ونسبه فى سنة ستين وستمائة والخلاف فى ذلك ، ولما توفى الحاكم المذكور قرر فى الخلافة بعده ولده سليمان بن أحمد وكنيته أبو الربيع ولقب بالمستكفى بالله .

ذكر الإغارة على بلاد سيس

وفى هذه السنة : جرد من مصر بدر الدين بكتاش أمير سلاح وأيبك الخزندار معهما العساكر فساروا إلى حماة وورد الأمر إلى زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماة أن يسير بالعساكر إلى بلاد سيس فخرج كتبغا المذكور من حماة وخرجنا صحبته فى يوم السبت الخامس والعشرين من شوال فى هذه السنة الموافق للثالث والعشرين من حزيران من شهور الروم وسار العسكر صحبة زين الدين المذكور ودخلنا حلب يوم الخميس مستهل ذى القعدة ورحلنا من حلب ثالث ذى القعدة ودخلنا دربند بغراس سابع القعدة من الشهر المذكور وانتشرت العساكر فى بلاد سيس فحرقت الزروع ونهبت ما وجدت ونزلنا على سيس وزحفنا عليها

وأخذنا من سفح قلعتها شيئاً كثيرا من جفال الأرمن ، وعدنا فخرجنا من الدربند إلى مرج أنطاكية ووصلنا إلى حلب يوم الاثنين تاسع عشر ذى القعدة من هذه السنة وسرنا إلى حماة ودخلناها يوم الثلاث السابع والعشرين من الشهر المذكور الموافق للرابع والعشرين من تموز من شهور الروم ودخل زين الدين كتبغا المذكور حماة وقد ابتدأ به المرض .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : مات قبجى بن أردنو بن دوشى خان بن جنكز خان صاحب غزنة وباميان وغيرهما من تلك النواحى وخلف من الأولاد بيان وكلك وطقطمر وبغاتمر ومنغطاى وصاصى فاختلفوا بعده واقتتلوا ثم انتصر فيها بعد بيان بن قبجى واستقر فى ملك غزنة على ماسنذكره .

وفيها : توفى صاحب مكة الشريف أبو نمى محمد بن أبى سعد بن على بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن الحسن بن على رضى الله عنهم ، واختلفت أولاده وهم رميثة وحميضة وأبو الغيث وعطيفة وتغلب ورميثة وحميضة على مكة شرفها الله تعالى ثم قبض بيبرس الجاشنكير على رميثة وحميضة فى هذه السنة وكان قد حج وتولى أبو الغيث على مكة ثم بعد سنين أطلق حميضة ورميثة فغلبا على مكة وهرب عنها أبو الغيث ، ثم اقتتل حميضة ورميثة فانتصر حميضة واستقر فى مكة حرسها الله تعالى ثم كان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعمائة :

ذكر فتح جزيرة أرواد

وفى محرم من هذه السنة : فتحت جزيرة أرواد وهى جزيرة فى بحر الروم قبالة أنطرطوس قريباً من الساحل ، اجتمع فيها جمع كثير من الفرنج وبنوا فيها سورا وتحصنوا فى هذه الجزيرة ، وكانوا يطلعون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين فى ذلك الساحل وكان النائب على الساحل إذ ذاك سيف الدين أسندمر الكرجى فسأل إرسال أسطول إليها فعمرت الشوانى وسارت إليها من الديار المصرية فى بحر الروم ووصلت إليها فى المحرم من هذه السنة وجرى بينهم قتال شديد ونصر الله المسلمين وملكوا الجزيرة المذكورة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها وعادوا إلى الديار المصرية بالأسرى والغنائم .

ذكر دخول التتر إلى الشام وكسرتهم مرة بعد أخرى

وفى هذه السنة : عاودت التتر قصد الشام وساروا إلى الفرات وأقاموا عليها مدة فى أزوارها وسارت منهم طائفة تقدير عشرة آلاف فارس وأغاروا على القريتين وتلك النواحى ، وكانت العساكر قد اجتمعت بحماة عند زين الدين كتبغا النائب بحماة الملقب بالملك العادل وكان مريضاً من حين عاد من بلاد سيس كما تقدم ذكره واسترخت أعضاؤه ، فلما اجتمعت العساكر عنده وقع الاتفاق على إرسال جماعة من العسكر إلى التتر الذين أغاروا على القريتين فجردوا أسندمر الكرجى نائب السلطنة بالساحل وجردوا صحبته جماعة من عسكر حلب وجماعة من عسكر حماة وجردونى أيضاً من جملتهم فسرنا من حماة سابع شعبان من هذه السنة واتقعنا مع التتر على موضع يقال له الكوم قريباً من عرض واقتتلنا معهم يوم السبت عاشر شعبان من هذه السنة الموافق لسلخ آذار وصبر الفريقان ثم نصر الله المسلمين وولى التتر منهزمين وترجل منهم جماعة كثيرة عن خيلهم وأحاط المسلمون بهم بعد فراغهم من الوقعة وبذلوا لهم الأمان فلم يقبلوا وقاتلوا بالنشاب وعملوا سروج الخيل ستائر لهم وناوشهم العسكر القتال من الضحى إلى انفراج الظهر ، ثم حملوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم ، وكان هذا النصر عنوان النصر الثانى على ما نذكره ثم عدنا مؤيدين منصورين ووصلنا إلى حماة يوم الثلاث ثالث عشر شعبان المذكور الموافق لثانى نيسان ..

ذكر المصاف الثانى والنصرة العظيمة

وفى هذه السنة : سار التتر بجموعهم العظيمة صحبة قطلو شاه نائب قازان بعد كسرتهم على الكوم ووصلوا إلى حماة فاندفعت العساكر الذين كانوا بها بين أيديهم وسار زين الدين كتبغا فى محفة وأخرنى بحماة لكشف التتر فوصل التتر إلى حماة فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان من هذه السنة فلما شاهدت جموعهم ونزولهم بظاهر حماة وكنت واقفاً على العليليات سرت من وقتى ولحقت زين الدين كتبغا بالقطيفة وأعلمته بالحال وسارت العساكر الإسلامية إلى دمشق ووصلت أوائل العساكر الإسلامية من ديار مصر صحبة بيبرس الجاشنكير واجتمعوا بمرج الزنبقية بظاهر دمشق ثم ساروا إلى مرج الصفر لما قاربهم التتر وبقى العسكر منتظرين -

وصول السلطان الأعظم الملك الناصر وسارت التتر وعبروا على دمشق طالبين العسكر ووصلوا إليهم عند شقحب بطرف مرج الصفر واتفق أن ساعة وصول التتر إلى الجيش وصل مولانا السلطان بباقى العساكر الإسلامية والتقى الفريقان بعد العصر من نهار السبت ثانى رمضان من هذه السنة أعنى سنة اثنتين وسبعمائة وكان ذلك فى العشرين من نيسان واشتد القتال بينهم وتكردست للتتر على الميمنة فاستشهد من المسلمين خلق كثير منهم الحسام أستاذ الدار وكان رأس الميمنة وكان برأس الميمنة أيضا سيف الدين قبجق فاندفع هو وباق الميمنة بين أيدى التتر وأنزل الله نصره على القلب والميسرة فهزمت التتر وأكثر القتل فيهم فولى بعض التتر مع توليه منهزمين لا يلوون وتأخر بعضهم مع جوبان وحال الليل بين الفريقين فنزل التتر على جبل هناك بطرف مرج الصفر وأشعلوا النيران وأحاطت المسلمون بهم وأصبح الصباح وشاهد التتر كثرة المسلمين فانحدروا من الجبل يبتدرون الهرب وتبعهم المسلمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان فى طريقهم أرض متوحلة فتوحل فيها عالم كثير من التتر فأخذ بعضهم أسرى وقتل بعضهم وجرد من العسكر الإسلامى جمعاً كثيراً مع سلار وساقوا فى أثر التتر المنهزمين إلى القريتين ووصل التتر إلى الفرات وهى فى قوة زيادتها فلم يقدروا على العبور ، والذى عبر فيها هلك فساروا على جانبها إلى جهة بغداد فانقطع أكثرهم على شاطىء الفرات وهلك من الجوع وأخذ منهم العرب جماعة كثيرة وأخلف الله تعالى بهذه الوقعة ما جرى على المسلمين فى المصاف الذى كان ببلد حمص قرب مجمع المروج فى سنة تسع وتسعين .

ولما حصل هذا النصر العظيم واجتمعت العساكر بدمشق أعطاهم السلطان الدستور فسارت العساكر الحلبية والحموية والساحلية إلى بلادهم فدخلنا حماة مؤيدين منصورين فى يوم السبت سادس عشر رمضان من هذه السنة الموافق لرابع أيار من شهور الروم .

ذكر وفاة زين الدين كتبغا وولاية قبجق حماة

وفى هذه السنة : أعنى سنة اثنتين وسبعمائة فى ليلة الجمعة عاشر ذى الحجة ، توفى زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة بحماة ، والمذكور كان من مماليك السلطان الملك المنصور سيف الدين الملك قلاوون الصالحى فترقى حتى تسلطن وتلقب بالملك العادل ، وملك ديار مصر والشام فى سنة أربع وتسعين وستمائة ، ثم خلعه نائبه لاجين وأعطاه صرخد على ما تقدم ذكره فى سنة ست وتسعين وستمائة ، واستمر مقيما بصرخد من السنة المذكورة إلى أن اندفع المسلمون من التتر على حمص فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، فوصل كتبغا المذكور من صرخد إلى مصر وخرج مع سلار والجاشنكير إلى الشام فقرره نائبا بحماة على ما تقدم ذكره فى سنة

تسع وتسعين وستمائة ثم أغار على بلاد سيس فلما عاد إلى حماه مرض قبل دخوله إلى حماة وطال مرضه ، ثم حصل له استرخاء وبقى لا يستطيع أن يحرك يديه ولا رجليه وبقى كذلك مدة وسار من حماة إلى قريب مصر جافلا بين يدى التتر لما كان المصاف على مرج الصفر ، ثم عاد إلى حماة وأقام بها مدة ، يسيرة وتوفى فى التاريخ المذكور من هذه السنة .

ولما توفى أرسلت أعرض على الآراء الشريفة السلطانية إقامتى فى حماة على قاعدة أصحابها من أهلى فوجد قاصدى الأمر قد فات وقررت حماة لسيف الدين قبجق المقيم بالشوبك وكتب تقليده بها فى هذه السنة وحصل إلى من الصدقات السلطانية الوعود الجميلة الصادقة بحماة وتطييب الخاطر والاعتذار بأن كتابى وصل بعد خروج حماه لقبجق ووصل قبجق إلى حماة فى السنة القابلة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : توفى فارس الدين البلى الظاهرى نائب السلطنة بحمص .

وفيها : توفى القاضى تقى الدين محمد بن دقيق العيد قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية وكان إماما فاضلا وولى موضعه القاضى بدر الدين محمد الحموى المعروف بابن جماعة .

وفيها : كانت زلزلة عظيمة هدمت بعض أسوار قلعة حماة وغيرها من الأماكن بالبلاد وهدمت بالديار المصرية أماكن كثيرة وهلك خلق كثير ، تحت الهدم وخربت من أسوار الإسكندرية ستا وأربعين بدنة .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعمائة :

ذكر وفاة قازان ملك التتر

فى هذه السنة : توفى قازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكز خان بنواحى الرى فى أواخر هذه السنة ، وكان قد ملك فى أواخر سنة أربع وتسعين وستمائة ، فيكون مدة مملكته ثمانى سنين وعشرة أشهر ، وكان قد أشتد همه بسبب هزيمة عسكره وكسرتهم على السفر فلحقه حمى حادة ومات مكمودا ، ولما مات قازان ملك أخوه خربندا بن أرغون وكان جلوبا فى الملك فى الثالث والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة وتلقب الجنبو سلطان .

ذكر قدوم قبجق إلى حماة

قد تقدم فى سنة اثنتين وسبعمائة ذكر وفاة زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماة وأنه رتب موضعه سيف الدين قبجق ، وكانت الشوبك إقطاع قبجق وكان مقيما بها ، فلما أعطى نيابة السلطنة بحماة وارتجعت منه الشوبك أقام بها حتى جهز أشغاله وسار من الشوبك فى ثالث صفر من هذه السنة أعنى سنة ثلاث وسبعمائة - ولما قارب حماه خرجنا لملتقاه إلى العنثر فى صبيحة يوم السبت وهو الثالث والعشرون من صفر من هذه السنة ، الموافق السادس تشرين الأول من شهور الروم ونزل بدار الملك المظفر صاحب حماة واستقر قدمه بحماة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : بعد العصر من نهار الأحد خامس جمادى الأولى وخامس عشر كانون الأول توفيت عمتى مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وأمها غازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل وكان مولد مؤنسة خاتون المذكورة فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وكانت كثيرة الصدقات والمعروف ، عملت مدرسة بمدينة حماة تعرف بالخاتونية ووقفت عليها وقفا جليلا رحمها الله تعالى ورضى عنها ، وهى آخر من كان قد بقى من أولاد الملك المظفر صاحب حماة .

وفيها : كثر الموت فى الخيل فهلك منها مالا يحصى حتى خلت غالب أسطبلات الأمراء والجند .

وفيها : توفى عز الدين أيبك الحموى نائب حمص .

وفيها : توجهت إلى الحجاز الشريف لقضاء حجة الفرض ، ووجدت سلار قد حج من جهة مصر وصحبته عدة كثيرة من الأمراء ووقفنا الاثنين والثلاث للشك فى أول الشهر وعدنا إلى البلاد وخرجت هذه السنة ونحن قد برزنا من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفى أواخر هذه السنة : جردت العساكر من مصر وسيف الدين قبجق بعسكر حماة وقرا سنقر بعسكر حلب ودخلوا إلى بلاد سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالأمان وارتجعوها من الأرمن وهدموها إلى الأرض ، ولم أحضر هذه الغزاة لأنى كنت بالحجاز الشريف حسبما ذكر .

ثم دخلت سنة أربع وسبعمائة :

وفي هذه السنة: وصل من المغرب ركب كبير وصحبتهم رسول من أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني ملك المغرب ، ووصل صحبته إلى ديار مصر هدية عظيمة من الخيول والبغال ما يقارب خمسمائة رأس من الخيل العربية بالسروج واللجم والركب المكفتة بالذهب المصرى .

وفيها : وصل إلى مصر صاحب دنقلة وهو عبد أسود اسمه أياى ووصل صحبته هدية كثيرة من الرقيق والهجن والأبقار والتمور والشب والسنباذج وطلب نجدة من السلطان ، فجرد معه جماعة من العسكر وقدم عليهم طقصبا نائب السلطنة بقوص .

وفيها : أعيد رميثة وحميضة ابنا أبي نمى لما ملك مكة حرسها الله تعالى .

وفيها : توفى جماز بن شيحة صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وملك بعده ابنه منصور بن جماز .

وفيها : وصلت إلى حماة في يوم السبت عاشر صفر عائدا من الحجاز الشريف بعد زيارة القدس الشريف والخليل صلوات الله عليه وسلامه .

ثم دخلت سنة خمس وسبعمائة :

ذكر إغارة عسكر حلب على بلاد سيس

في أوائل المحرم من هذه السنة : الموافق للعشر الأخير من تموز ، أرسل قرا سنقر نائب السلطنة بحلب مع قشتمر مملوكه عسكر حلب للإغارة على بلاد سيس فدخلوها في أول الشهر المذكور ، وكان قشتمر المذكور ضعيف العقل قليل التدبير مشتغلا بالخمر ففرط في حفظ العسكر ولم يكشف أخبار العدو واستهان بهم فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتر وانضمت إليهم الأرمن والفرنج ووصلوا على غرة إلى قشتمر المذكور ومن معه من الأمراء وعسكر حلب والتقوا بالقرب من إياس ، فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبدرون الطريق وتمكنت التتر والأرمن منهم فقتلوا وأسروا غالبهم واختفى من سلم في تلك الجبال ولم يصل إلى حلب منهم إلا القليل عرايا بغير خيل وكان صاحب سيس في هذه السنة هيتوم بن ليفون بن هيتوم وهو الذى أمسكه أخوه سنابط وسمله فذهبت عينه الواحدة وبقى أعور حسبما تقدم ذكره في سنة تسع وتسعين وستمائة .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : قطع خبر بدر الدين بكتاش أمير سلاح لكبره وعجزه عن الحركة .

وفيها : أفرج عن الحاج بهادر الظاهرى وكان قد اعتقله حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور .

وفيها : هلك قطلو شاه نائب خربندا قتله أهل كيلان لأنهم عصوا وسار قطلو شاه لقتالهم فكبسوه وقتلوه وقتل معه جماعة من المغل .

وفيها : سار جمال الدين أقوش الأفرم بعسكر دمشق وغيره من عساكر الشام إلى جبال الظنينين وكانوا عصاة مارقين من الدين فأحاطت العساكر الإسلامية بتلك الجبال المتبعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا فى تلك الجبال من كل الجبهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنينين وغيرهم من المراقين وطهرت تلك الجبال منهم وهى جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطرق بعد ذلك فإنهم كانوا يقطعون الطريق ويتخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار .

وفيها : استدعى تقى الدين أحمد بن تيمية من دمشق إلى مصر وعقد له مجلس وأمسك وأودع الاعتقال بسبب عقيدته فإنه كان يقول بالتجسيم على ما هو منسوب إلى ابن حنبل ،

ثم دخلت سنة ست وسبعمائة :

ذكر من ملك فى هذه السنة بلاد المغرب من بنى مرين

قد تقدم ذكر بنى مرين فى سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وأنه استقر فى الملك منهم يعقوب ثم ابنه يوسف ، ولما كان فى هذه السنة قتل أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن حمامة المرينى ملك المغرب وهو محاصر تلمسان ، وكان قد أقام على حصارها سنين كثيرة ، ونفدت أقوات أهل تلمسان ولم يبق عندهم ما يكفيهم شهرا ، وأيقنوا بالعطب ففرج الله عنهم بقتل المرينى المذكور ، وسبب قتله أنه اتهم وزيره بتعرضه إلى حرمه واتهم زمام داره وكان اسمه عنبر بمواطأة الوزير على ذلك ، وأمر بحبس الوزير وأمر بقتل زمام داره عنبر ولما أخرج عنبر ليقتل مر بالخدام فقالوا ماالخبر فقال أمر بقتلى وسيقتلكم كلكم بعدى ، فهجم

بعض الخدام بسكين على أبي يعقوب المذكور وقد خضب أبو يعقوب لحيته بحناء وهو نائم على قفاه فضربه الخادم بالسكين فى جوفه وهرب عنه وأغلق الباب عليه ، وكان هناك امرأة لخدمة أبي يعقوب فصاحت فدخل أصحابه عليه وبه بعض الرمق فأوصى إلى ابنه أبي سالم بن أبي يعقوب ومات .

ولما مات أبو يعقوب المذكور جلس فى الملك بعده ولده أبو سالم بن يوسف المذكور ، ولما ملك أبو سالم قصده ابن عمه أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق وقيل إن أبا ثابت هو عامر بن عبد الله بن يوسف بن أبي يعقوب ، فيكون ابن أخى أبي سالم لا ابن عمه ، وانضم مع أبي ثابت يحيى بن يعقوب عم أبي سالم ، فلما قارباه هرب أبو سالم بن يوسف منهما فأرسلا فى أثره من تبعه وقتله وحمل رأس أبي سالم المذكور إلى أبي ثابت عامر المذكور .

ولما قتل أبو سالم استقر أبو ثابت عامر فى المملكة وكان جلوسه فى الملك فى منتصف هذه السنة ، أعنى سنة ست وسبعمائة .

ولما استقر أمر بقتل الخادم الذى قتل عمه يوسف فقتل ، ثم أمر بقتل الخدام عن آخرهم فقتلوا وأضرمت لهم النيران وألقوا فيها ، ولم يترك أبو ثابت بمملكته خادمًا خصيًا حتى أباده ثم إن أبا ثابت المذكور وثب على عمه يحيى فقتله فى ثانى يوم استقراره فى الملك ثم سار أبو ثابت إلى فاس وأرسل مستحفظا من بنى عمه اسمه يوسف بن أبي عباد إلى مراكش ، ثم إن يوسف المذكور بعد استقراره فى مراكش خلع طاعة أبي ثابت عامر المذكور وكان منه ماسنذكره .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : توفى الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى المعروف بأمير سلاح ، وكان بين قطع خبره ووفاته دون أربعة أشهر .

ثم دخلت سنة سبع وسبعمائة :

ذكر وفاة عامر ملك المغرب وذكر من تملك بعده

فى أواخر هذه السنة : توفى أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف أبي يعقوب بن يعقوب ابن عبد الحق بن محيو بن حمامة ملك المغرب وكانت مدة ملكه سنة وثلاثة أشهر وأياما وقيل

سنة ونصفا ، وتوفى بطنجة فإنه لما عصى عليه ابن عمه يوسف بن أبى عباد بمراكش سار إليه أبو ثابت المذكور فاقتتل معه يوسف ، فانتصر أبو ثابت وولى يوسف منهزما فأخذ أسيرا وقتل من أصحابه جماعة كثيرة واستقامت مراكش لأبى ثابت ، ثم عاد أبو ثابت المذكور إلى طنجة لقتال قوم بها من الأعراب فأدركته منيته بها .

ولما مات أبو ثابت جلس فى الملك بعده ابن عمه على بن يوسف ثم خلعه الوزير وجماعة من العسكر بعد يومين من جلوسه وأقاموا فى الملك سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو وبايعوه فاستمال الناس وأنفق فيهم الأموال وزاد فى عطيات بنى مرين وأطلق المكوس وأحسن إلى الرعية ، وقبض على على بن يوسف المخلوع واعتقله بطنجة ، واستقرت قدم سليمان فى الملك واستقامت له الأمور .

ذكر قتل صاحب سيس وقتل ابن أخيه

وفى هذه السنة : قتل برلغى وهو مقدم المغل المقيمين ببلاد الروم صاحب سيس هيتوم بن ليفون بن هيتوم المقدم ذكره بعد أن ذبح ابن أخيه تروس الصغير على صدره ، واستقر فى ملك سيس وبلاد أوشين بن ليفون أخو هيتوم المذكور ، ولما قتله برلغى مضى أخو هيتوم المذكور الناق ابن ليفون صحبة برلغى وشكى إلى خربندا فأمر خربندا ببرلغى فقتل بالسيف .

وفيها : عزم سلام على المسير إلى اليمن والاستيلاء عليه وعينت العساكر للمسير صحبته وجهزت الآلات فى المراكب من عيذاب ثم أنهى عزمه عن ذلك .

وفيها : نزل سيف الدين كراى المنصورى عن أقطاعه بديار مصر واستقال من الأمرة فأقبل وبقى بطالا حتى أنعم عليه مولانا السلطان فيما بعد بإقطاع وأعطاء نيابة السلطنة بدمشق على ما سنذكره .

وفيها : توفى ركن الدين بيبرس العجمى الصالحى المعروف بالجالق أحد البحرية وكان آخر البحرية وكان قد أسن .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعمائة :

ذكر مسير السلطان إلى الكرك واستيلاء بيبرس الجاشنكير على المملكة

وفى هذه السنة : فى يوم السبت الخامس والعشرين من شهر رمضان خرج مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون الصالحى من الديار المصرية متوجها إلى

الحجاز الشريف ، وسار فى خدمته جماعة من الأمراء منهم الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى والأمير حسام الدين قرا لاجين والأمير سيف الدين آل ملك وغيرهم ، ووصل إلى الصالحية وعيد بها عيد الفطر ثم سار إلى الكرك فوصل إليها فى عاشر شوال وكان النائب بها جمال الدين أقوش الأشرفى فعمل سماطا واحتفل به وعبر السلطان إلى المدينة ثم إلى القلعة ، ولما عبر السلطان على الجسر إلى القلعة والأمراء ماشون بين يديه والمماليك حول فرسه وخلفه سقط بهم جسر قلعة الكرك ، وقد حَصَرَت يد فرس مولانا السلطان وهو راكبه داخل عتبة الباب فلما أحس الفرس بسقوط الجسر أسرع حتى كاد أن يدوس الأمراء الماشين بين يديه وسقط من مماليك مولنا السلطان خمس وثلاثون إلى الخندق ، وسقط غيرهم من أهل الكرك ولم يهلك من المماليك غير شخص واحد لم يكن من الخواص ، ونزل فى الوقت مولانا السلطان خلد الله تعالى ملكه عند الباب وأحضر الجنوبات والحبال ورفع الذين وقعوا عن آخرهم وأمر بمداواتهم فصلحوا وعادوا إلى ما كانوا عليه فى مدة يسيرة ، وكان ذلك من عنوان سعادة مولانا جعلها الله تعالى خارقة للعوائد ، فإن ارتفاع الجسر الذى سقطوا منه إلى الخندق يقارب خمسين ذراعا ، ولما استقر مولانا السلطان بقلعة الكرك أمر جمال الدين أقوش نائب السلطنة بها والأمراء الذين حضروا فى خدمته بالمسير إلى الديار المصرية ، وأعلمهم أنه جعل السفر إلى الحجاز وسيلة إلى المقام بالكرك ، وكان سبب ذلك استيلاء سلار وبيبرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالأمور وتجاوز الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى ، ولم يتركا لمولانا السلطان غير الاسم مع ما كان منهما من محاصرة مولانا السلطان فى القلعة وغير ذلك مما لا تنكمش النفس منه فأنف مولانا السلطان خلد الله ملكه من ذلك وترك الديار المصرية وأقام بالكرك . ولما وصلت الأمراء إلى الديار المصرية وأعلموا من بها بإقامة السلطان بالكرك وفراقه الديار المصرية اشتوروا فيما بينهم واتفقوا على أن تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير ، وأن يكون سلار مستمرا على نيابة السلطنة كما كان عليه وحلفوا على ذلك ، وركب بيبرس الجاشنكير من داره بشعار السلطنة إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل وجلس على سرير الملك فى يوم السبت الثالث والعشرين من شوال هذه السنة أعنى سنة ثمان وسبعمائة وتلقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى وأرسل إلى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له عن آخرهم وكتب تقليدا لمولانا السلطان بالكرك ومنشورا بما عينه له من الإقطاع بزعمه وأرسلهما إليه واستقر الحال على ذلك حتى خرجت هذه السنة .

وفيها : ملك الفرنج الاستبتار جزيرة ردوس وأخذتها من الأشكرى صاحب قسطنطينية ، وصعب بسبب ذلك على التجار الوصول فى البحر إلى هذه الديار لمنع الاستبتار من يصل إلى بلاد الإسلام .

وفيها : أرسل صاحب تونس أبو حفص عمر أسطولا وعسكرا إلى جزيرة جربة وهى

جزيرة فى البحر الرومى ومسيرتها من قابس يوم واحد ، ولهذه الجزيرة مخاضة إلى البر ودور هذه الجزيرة ستة وسبعون يوما وكانت بأيدى المسلمين فتغلب عليها الفرنج وملكوها فى سنة ثمانين وستمائة ، فلما كانت هذه السنة أرسل إليهم صاحب تونس عسكرا وقاتلهم فاستنجد أهل هذه الجزيرة بفرنج صقلية فلما وصل أسطول صقلية إليهم عاد أسطول صاحب تونس إليه ولم يتمكنوا من فتحها .

وفيها : مات الأمير خضر ابن الملك الظاهر بيبرس بباب القنطرة ، وكان المذكور قد جهزه السلطان الملك الأشرف خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون إلى القسطنطينية فبقى فيها هو وأخوه وأهله مدة وتوفى سلامش أخوه هناك ثم عاد خضر المذكور إلى القاهرة وأقام عند باب القنطرة وتوفى فى هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وسبعمائة :

ذكر تجريد العساكر إلى حلب وما ترتب على ذلك

وفى هذه السنة : وصل من مصر الأمير جمال الدين أقوش الموصلى المعروف بقتال السبع ، وأصله من مماليك بدر الدين لولو صاحب الموصل ، وكذلك وصل لاجين الجاشنكير المعروف بالزير تاج وصحبتهما تقدير ألفى فارس من عسكر مصر ، وجردنى الأمير سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحماة وجرد معى جماعة من عسكر حماة فسرنا ودخلنا حلب يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر من هذه السنة الموافق للخامس والعشرين من أيلول ، وكان نائب السلطنة بحلب قراسنقر المنصورى ووصل أيضا جماعة من عسكر دمشق مع الحاج بهادر الظاهري فأخذ قراسنقر فى الباطن يستميل الناس إلى طاعة مولانا السلطان ويقبح عندهم طاعة بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر .

ذكر مسير مولانا السلطان من الكرك وعوده إليها

وفى هذه السنة : سار جماعة من المماليك على حمية من الديار المصرية مفارقين طاعة بيبرس الجاشنكير الملقب المظفر ووصلوا إلى السلطان بالكرك وأعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبته فأعاد السلطان خطبته بالكرك ووصلت إليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته ، وكذلك وصلت إليه من حلب المكاتبات فسار السلطان بمن معه من

الكرك فى جمادى الآخرة من هذه السنة ووصل إلى حِمَّان وهى قرية قريب من رأس الماء فعمل جمال الدين أقوش عليه الحيلة وأرسل إليه قرابغا مملوك قرا سنقر برسالة كذبها على قرا سنقر ، وكان قرابغا قد سار إلى الأفرم بمكاتبة تتعلق به بمفرده فأرسله الأفرم إلى السلطان فسار من دمشق ولاقى السلطان بحمان فانهى قرابغا المذكور ما حمله الأفرم من الكذب مما يقتضى رجوع مولانا السلطان ، فلما سمع مولانا السلطان قرابغا ظنه حقا ورجع إلى الكرك ، واستمرت العساكر على طاعة مولانا السلطان واستدعائه ثانيا وانحلت دولة بيبرس الجاشنكير وجاهره الناس بالخلاف ولما جرى ذلك وبلغ العساكر المقيمين بحلب ساروا من حلب من غير دستور وسرت أنا بمن معى من عسكر حماة ودخلت حماة يوم الثلاث التاسع عشر من رجب والثالث والعشرين من كانون الأول .

ذكر مسير مولانا السلطان إلى دمشق واستقرار ملكه بها

ولما تحقق مولانا السلطان الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية وبقاؤهم على طاعته ومحبته ، عاود المسير إلى دمشق وخرج من الكرك وخرجت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه ، وأما أقوش الأفرم نائب السلطنة بدمشق فإنه هرب ووصل السلطان إلى دمشق فى يوم الثلاث ثالث عشر شعبان من هذه السنة الموافق لعشرين من كانون الثانى وهيئت له قلعة دمشق فلم ينزل بها ونزل بالقصر الأبلق وأرسل الأفرم وطلب الأمان من السلطان فأمنه فقدم إلى طاعته إلى دمشق وسار قبجق من حماة وسار العسكر الحموى صحبته وكذلك سار أسندمر بعسكر الساحل ووصل قبجق واسندمر من معهما من العساكر إلى خدمة السلطان بدمشق فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان من هذه السنة .

وقدمت تقدمتى ومن جملتها مملوكى طقرتمر فى يوم الأربعاء السادس والعشرين من شعبان المذكور فحصل من مولانا السلطان القبول والصدقة والمواعيد الصادقة بالتصدق على بحماة على عادة أهلى وأقاربى ، ثم وصل قُرَّاسُنْقر إلى دمشق بعسكر حلب يوم الجمعة الثامن والعشرين من شعبان وكان وصل قبل ذلك سيف الدين بكتمر المعروف بأمير جاندار من صفد ولما تكاملت للسلطان عساكر الشام أمرهم بالتجهيز للمسير إلى ديار مصر .

ذكر مسير مولانا السلطان إلى ديار مصر واستقراره فى سلطنته

وفى هذه السنة : لما تكاملت العساكر الشامية عند السلطان بدمشق أرسل إلى الكرك وأحضر ما كان بها من الحواصل وأنفق فى العسكر وسار بهم من دمشق فى يوم الثلاث تاسع

رمضان من هذه السنة الموافق لعاشر شباط ، ولما بلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه ذلك جردا عسكرا ضخما مع برلغى وغيره من المقدمين فساروا إلى الصالحية وأقاموا بها وكان برلغى من أكبر أصحاب الجاشنكير وكان الشاعر أراده بقوله .

فكان الذى استنصحت أول خائن وكان الذى استصفيت من أعظم العدا

وسارت العساكر فى خدمة السلطان وكان الفصل شتاء والخوف شديدا من الأمطار وتوحل الأرض وقدر الله تعالى لنا بالصحو والدفاء وعدم الأمطار واستمر ذلك حتى وصلنا فى خدمته إلى غزة فى يوم الجمعة تاسع عشر رمضان من هذه السنة ، ولما وصل السلطان إلى غزة قدم إلى طاعته عسكر مصر أولا فأولا وكان ممن قدم أيضا برلغى وغيره من المقدمين ومعهم عدة كثيرة من العسكر ثم تتابعت الاطلاب وكان يلتقى مولانا السلطان فى كل يوم وهو سائر طلبًا بعد طلب من الأمراء والمماليك والأجناد ويقبلون الأرض ويسيرون صحبة الركاب الشريف ، ولما تحقق بيبرس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنة وأرسل مع ركن الدين بيبرس الدوادارى ومع بهادر أن يطلب الأمان من مولانا السلطان وأن يتصدق عليه ويعطيه إما الكرك أو حماة أو صهيون وأن يكون معه ثلثمائة مملوك من مماليكه ، فوقعت إجابة السلطان إلى مائة مملوك وأن يعطيه صهيون وأتم مولانا السير وهرب الجاشنكير من قلعة الجبل إلى جهة الصعيد وخرج سلار إلى طاعة مولانا السلطان والتقاه يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان قاطع بركة الحجاج وقبل الأرض وضرب لمولانا السلطان الدهليز بالبركة فى النهار المذكور ، وأقام بها يوم الثلاث سلخ رمضان وعيد يوم الأربعاء بالبركة ورحل السلطان فى نهاره والعساكر الشامية والمصرية سائرون فى خدمته وعلى رأسه الجتر ووصل إلى قلعة الجبل وصعد إليها واستقر على سرير ملكه بعد العصر من نهار الأربعاء مستهل شوال من هذه السنة أعنى سنة تسع وسبعمائة الموافق لرابع أذار من شهور الروم وهى سلطنته الثالثة وفى يوم الجمعة ثالث شوال وهو اليوم الثالث من وصول مولانا السلطان سار سلار من قلعة الجبل إلى الشوبك بحكم أن السلطان أنعم بها عليه وقطع خبره من الديار المصرية وأعطى السلطان نيابة السلطنة بحلب سيف الدين قبجق وارتجع منه حماة وسار قبجق من مصر يوم الخميس تاسع شوال ورسم لعسكر حماة بالمسير معه وتصدق على وطيب خاطرى بأنه لابد من إنجاز ما وعدنى به من ملك حماة ، وإنما أخر ذلك لما بين يديه من المهمات والأشغال المعوقة عن ذلك فسرنا مع قبجق من مصر متوجهين إلى الشام فى التاريخ المذكور ووصلنا إلى حماة يوم الخميس خامس عشر ذى القعدة من هذه السنة ثم رسم السلطان للأمير جمال الدين أقوش الأفرم بصرخد فسار إليها وقرر نيابة السلطنة بالشام لشمس الدين قرا سنقر وقرر حماة للحاج بهادر الظاهرى ثم ارتجعها منه وقرره فى نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل أسندمر عنها وكان قد حصلت بينى وبين أسندمر عداوة مستحكمة بسبب ميله إلى أخيه فقصد أن يعدل بحماة عنى إليه فلم يوافقه

السلطان إلى ذلك فلما رأى أن السلطان يتصدق بحماة على طلبها أسندمر لنفسه فما أمكن السلطان منعه منها فرسم السلطان بحماة لأسندمر وتأخر حضوره لأمور اقتضت ذلك وقرر السلطان الأمير سيف الدين بكتمر الجوكاندار فى نيابة السلطنة بديار مصر .

ذكر القبض على بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر

كان المذكور قد هرب من قلعة الجبل عند وصول مولانا السلطان إلى الصالحية وأخذ منها جملا كثيرةً من الأموال والخيول وتوجه إلى جهة الصعيد ، فلما استقر مولانا السلطان بقلعة الجبل أرسل إليه وارتجع منه ما أخذه من الخزائن بغير حق ، ثم إن بيبرس المذكور قصد المسير إلى صهيون حسبما كان قد سأله فبرز من أطفيح إلى السويس وسار إلى الصالحية ثم سار منها حتى وصل إلى موضع بأطراف بلاد غزة يسمى العنصر قريب الداروم وكان قرا سنقر متوجها إلى دمشق نائبا بها على ما استقر عليه الحال ، فوصل إليه المرسوم بالقبض على بيبرس الجاشنكير فركب قرا سنقر وكبسه بالمكان المذكور وقبض عليه به ، وسار به إلى جهة مصر حتى وصل إلى الخطارة فوصل من الأبواب الشريفة السلطانية أسندمر الكرجي وتسلم بيبرس الجاشنكير من قرا سنقر وأمر قرا سنقر بالعود فعاد إلى الشام فوصل أسندمر بيبرس الجاشنكير فحال وصوله إلى قلعة الجبل اعتقل يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة من هذه السنة فكان آخر العهد به وكانت مدة سلطنة بيبرس المذكور الملقب بالملك المظفر أحد عشر شهرا .

تفانى الرجال على حبها وما يحصلون على طائل

وفيها : غلب بيان بن قيجي على مملكة أخيه فاستنجد وطرده عنها ، واتفق موت كبلك عقيبَ ذلك وخلف ولدا اسمه قشتمر بن كبلك ، فاستنجد قشتمر وطرد عمه بيان واستقر فى ملك أبيه كبلك ، وقيل إن الذى طرده بيان هو أخو منغطاى بن قبجي .

وفيها : وردت الأخبار بأن الفرنج قصدت ملك غرناطة بالأندلس وهو نصر بن محمد بن الأحمر ، فاستنجد بسليمان المرينى صاحب مراكش واتقع ابن الأحمر مع الفرنج .

وفيها : تزوج خربندا ملك التتر ببنت صاحب ماردين الملك المنصور غازى بن قرا أرسلان وحملت إليه إلى الأردو .

وفيها : فى يوم الأربعاء خامس ذى الحجة حضر مهنا بن عيسى إلى حماة وطلب توفيق الحال بينى وبين أخي بسبب حماة فلم يتفق حال .

وفيها : فى ثامن عشر ذى الحجة حضر بدر الدين تتليك السديدى إلى حماة وحكم فيها

نيابة عن أسند وحضر صحبته من السلطان أسندمر وبقى الانتظار حاصلا لقدوم أسندمر إلى حماة .

وفيها : فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى الحجة خرجت من حماة مظهرا أنى متوجه إلى دمشق لملتقى أسندمر فأرسلت فى الباطن أسأل من صدقات مولانا السلطان أن يمكنى من المقام بدمشق ومفارقة حماة فإنه قد كان استحكم فى خاطر أسندمر من عداوتى فخشيت من المقام بحماة تحت حكم المذكور فتركتها وسرت إلى دمشق ودخلتها فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، ووصل أسنبغا مملوكى من الأبواب الشريفة يوم الأربعاء رابع المحرم من سنة عشر وسبعمائة بمقامى بدمشق وتصدق على السلطان بخلعة كرودحش وكلوته رزكش ورسم لى بغلة من حواصل دمشق وأن أقيم بدمشق ويكون خبرى بحماة مستقرا على وكذلك أجنادى وأمرنى فاستقريت بدمشق ونزحت عن حماة .

ثم دخلت سنة عشر وسبعمائة :

ذكر وصول أسندمر إلى دمشق متوجها إلى حماة

فى هذه السنة : فى يوم الثلاث العاشر من المحرم وصل أسندمر من الأبواب الشريفة متوجها إلى حماة نائبا بها وكنت حينئذ مقيما بدمشق كما ذكرنا فخرجت إلى الكسوة والتقيته ووجدت عنده لمقامى بدمشق وخروجى عن حكمه أمرًا عظيما وأخذ يخدعنى ويستميلنى ويطيب خاطرى ، ويسألنى المسير معه إلى حماة ، فلم أجبه إلى ذلك ، فدخل إلى قرًسنقر وسأله فى إرسالى صحبته طوعًا أو كرهًا فأجابه : إن السلطان رسم بمقامه بدمشق ، فلا يمكن خلاف ذلك ، فأقام أسندمر بدمشق أيامًا قلائل ، وتوجه إلى حماة ، ودخلها فى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من المحرم من هذه السنة .

ذكر القبض على سلار

كان سلار بالشوبك وقد عزم على الهروب منها فأرسل السلطان إليه واستدعاه بعد أن عرض عليه المسير إلى حماة ويكون نائبا بها ورسم لأسندمر فسار من حماة إلى دمشق وأخلى حماة لأجل سلار وترددت المراسلات إليه فحضر سلار إلى الأبواب الشريفة بديار مصر فى سلخ ربيع الآخر من هذه السنة وقبض على سلار المذكور فكان آخر العهد به واحتيط على غالب موجوده لبيت المال وكان شيئًا كثيرًا .

ذكر استقرارى بحماة وعودها إلى البيت التقوى وما يتعلق بذلك

وفى هذه السنة : توفى الحاج بهادر النائب بالسواحل الشامية فى يوم الثلاث لعشرين من ربيع الآخر ووصل مهنا بن عيسى إلى دمشق وتوجه منها إلى مصر فى يوم السبت مستهل جمادى الأولى وكان السلطان حريصا إلى إنجاز ما وعده بأن يقيمنى بحماة وتأخر ذلك بسبب مداراته لأسندمر وغيره ، فلما اتفق موت الحاج بهادر ووصول مهنا بن عيسى إلى الأبواب الشريفة أعطى مولانا السلطان نيابة السلطنة بالسواحل والفتوحات لأسندمر وتصدق على بحماة والمعرة وبارين وأرسل تقليد أسندمر بالسواحل مع منكوتمر الطباخى فوصل إلى دمشق فى يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الأولى وسار إلى حماة فلم يجب أسندمر إلى المسير إلى الساحل وامتنع من قبول التقليد والخلعة ورد التقليد صحبة منكوتمر المذكور فعاد به إلى دمشق واتفق عند ذلك موت سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحلب فى يوم السبت سلخ جمادى الأولى ، فلما وصل خبر موته إلى الأبواب الشريفة أنعم السلطان بنيابة السلطنة بحلب على أسندمر موضع سيف الدين قبجق وأنعم على جمال الدين أقوش الأفرم بنيابة السلطنة بالفتوحات ونقله من صرخد إليها واستقرت حماة للعبد الفقير إلى الله تعالى إسماعيل بن على مؤلف هذا الكتاب ووصل إلى بدمشق التقليد الشريف بحماة صحبة الأمير سيف الدين قبجق الناصرى السلحدار وأعطيت حماة فى هذه المرة على قاعدة النواب ، وكان تاريخ التقليد فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة حسب المرسوم الشريف وخرجت من دمشق متوجها إلى حماة وصحبتى الأمير سيف الدين قبجق المذكور فى يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الآخرة وأسندمر مقيم بحماة وهو فى أشد ما يكون من الغضب بسبب فراق حماة وكونى قد شملتنى بها الصدقات الشريفة السلطانية حتى إنه عزم أنه يقاتلنى ويدفعنى عنها وكان قد طلع جميع العسكر الحموى إلى لقائى والتقونى قاطع حمص ووصل إلى أسندمر مملوكه سنقر من الأبواب الشريفة وخوفه من عاقبة فعله فتوجه أسندمر من حماة ضحى يوم الاثنين المذكور ودخلت إلى حماة عقيب خروجه منها فى النهار المذكور وكان استقرارى فى دار ابن عمى الملك المظفر بحماة بعد الظهر من نهار الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة عشر وسبعمائة الموافق لسادس عشر كانون الثانى ، وكان خروج حماة عن البيت التقوى الأيوبى عند موت السلطان الملك المظفر صاحب حماة فى يوم الخميس الثانى والعشرين من ذى القعدة من سنة ثمان وتسعين وستمائة وعودها فى تاريخ التقليد وهو ثامن عشر جمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة فيكون مدة خروجها من البيت التقوى إلى أن عادت إليه إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوما .

ولنذكر جملة من أخبار حماة وقد ذكرت فى أخبار داود وسليمان فى الكتب الأربعة والعشرين التى مع اليهود ، ثم صارت بلدة صغيرة حتى صارت من الأعمال ثم إن أسطيتينوس ملك الروم بنى أسوار حماة فى أول سنة من ملكه وفرغ منها فى سنتين وبقيت مع الروم حتى فتحها أبو عبيدة بن الجراح بالأمان بعد فتوح حمص وبقيت مضافة إلى حمص وتواردت عمال الخلفاء الراشدين على حمص حتى ملكت بنو أمية وأقاموا بدمشق فتواردت عمالهم عليها ، ثم لما صارت الدولة لبنى العباس تواردت عمالهم على حمص أيضًا وعلى حماة وغيرهما ثم استولت القرامطة على حماة وقتلوا فيها مقتلة كبيرة من أهلها ، ثم صارت لصالح بن مرداس الكلابى صاحب حلب ثم صارت للأمير سهم الدولة خليفة بن جيهان الكردى ثم صارت لشجاع الدولة جعفر بن كلند والى حمص ، وفى سنة سبع وسبعين وأربعمائة تقدم خلف بن ملاعب صاحب حمص قلعة حماة ثم أقطع السلطان ملكشاه حماة لأقسنقر مضافة إلى حلب وبقيت له إلى أن قتله تُتش ثم صارت حماة لمحمود بن على بن فراجا وكان ظالما ثم صارت حماة لطغتكين صاحب دمشق ثم صارت للبرسقى ثم لولده عز الدين مسعود بن أقستقر البرسقى ، ثم صارت لبهاء الدين سونج بن بورى بن طغتكين ثم صارت لعماد الدين زنكى بن أقسنقر ، ثم ارتجعها منه شمس الملوك إسماعيل بن بورى بن طغتكين ثم استولى عليها عماد الدين زنكى ثم صارت حماة لنور الدين محمود بن زنكى ثم صارت لولده الملك الصالح إسماعيل بن محمود ، ثم صارت لصلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أعطاها لخاله شهاب الدين محمود الحارمى بن تكش ثم صارت للملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ثم صارت لولده الملك المنصور محمد بن عمر ثم صارت لولده الملك الناصر قليج أرسلان بن محمد ثم صارت لأخيه الملك المظفر محمود بن محمد ثم صارت لولده الملك المنصور محمد بن محمود ثم صارت لولده الملك المظفر محمود ثم خرجت عنهم فتولى فيها قراسنقر ثم زين الدين كتبغا ثم سيف الدين قبجق ثم سيف الدين أسندمر ثم صارت لمؤلف هذا الكتاب إسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

ولنرجع إلى بقية حوادث هذه السنة أعنى سنة عشر وسبعمائة ولما قاربت حماة ونزلت الرستن ألبسنى الأمير سيف الدين قبجق التشريف السلطانى وهو أطلس أحمر بطراز زركش فوقانى وتحته أطلس أصفر وكلوته زركش وشاش رقم ومنطقة ذهب مصرى وسيف محلى بذهب مصرى وأركبنى حصانا برقيًا بسرجه ولجامه ودخلت حماة بذلك وقرئ التقليد الشريف بحضور الناس ، وأعطيت الأمير سيف الدين المذكور أربعين ألف درهم وأوصلته بالخلع والخيول وتوجه من حماة فى يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة واتفق لى شىء عجيب وهو أن مولدى بدمشق فى جمادى ووصلنى تقليد حماة بدمشق فى جمادى وأقمت بحماة وحصلت التقدمة على جارى عادة أهلى وأرسلت سألت من صدقات السلطان دستورًا بالتوجه

إلى الأبواب الشريفة فرسم لى بذلك فخرجت من حماة فى مستهل شوال من شهور هذه السنة ودخلت مصر وحضرت بين يدى المواقف الشريفة يوم الثلاث مستهل ذى القعدة من هذه السنة وقدمت التقدمة فى غد ذلك اليوم فشملتنى الصدقات بقبول ذلك ثم أفاض على وعلى جميع من كان فى صحبتى الخلع وتصدق على بالمركوب والنفقة وأعادنى إلى بلدى بحبور الحبور فوصلت إلى حماة فى يوم الثلاث ثالث ذى الحجة من هذه السنة الموافق للسابع والعشرين من نيسان .

ذكر ملوك الغرب

توفى أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن أبى يعقوب يوسف فى منتصف هذه السنة وجلس فى الملك بعده عم أبيه أبو سعيد عثمان بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق فى شهر رجب من هذه السنة واستقرت قدمه فى الملك .

ذكر القبض على أسندمر نائب السلطنة بحلب

كان السلطان قد جرد عسكرا مع كراى المنصورى وشمس الدين سنقر الكمالى فساروا وأقاموا بحمص ، ولما وصلت إلى حماة عائدا من الأبواب الشريفة ركبوا من حمص وساقوا ليكبسوا أسندمر بحلب ويبغتوه بها فانه كان مستشعرا لماكان قد فعله من الجرائم وأرسل كراى المذكور إلى يعلمنى بمسيرهم وأن أسير بالعسكر الحموى واجتمع بهم لهذا المهم فخرجت من حماة يوم الخميس تاسع ذى الحجة من هذه السنة وهو ثالث يوم من وصولى من الأبواب الشريفة ونزلت بالعبادى وسقنا نهار الجمعة وبعض الليل ووصلنا إلى حلب بعد مضى ثلثى الليلة المسفرة عن نهار السبت حادى عشر ذى الحجة واحتطنا بدار النيابة التى فيها أسندمر تحت قلعة حلب وأمسكناه بكرة السبت واعتقل بقلعة حلب وجهز إلى مصر مقيدا فى يوم الأحد ثانى عشر ذى الحجة من هذه السنة ووصل إلى مصر فاعتقل بها ثم نقل إلى الكرك وكان آخر العهد به واحتيط على موجوده من الخيل والقماش والسلاح وكان شيئا كثيرا وحمل جميع ذلك إلى بيت المال واستمر كراى والكمالى ومن معهما من العساكر والعبد الفقير إسماعيل بن على مقيمين بحلب حتى خرجت هذه السنة .

وفيها : توفى نجم الدين أحمد بن الرفعة بديار مصر ، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية وشرح التنبيه فى نحو عشرين مجلدا ونقل عليه شرح الوجيز الذى للرافعى .

وفيها : فى يوم الأحد سابع عشر رمضان توفى بتبريز القاضى قطب الدين محمود

ابن مسعود ، كان مولده بمدينة شيزر فى صفر سنة أربع وثلاثين وستمائة ، فيكون مدة عمره ستاً وسبعين سنة وسبعة أشهر وكان إماماً مبرزا فى عدة علوم مثل العلم الرياضى والمنطق وفنون الحكمة والطب والأصولين وله عدة مصنفات منها نهاية الإدراك فى الهيئة وتحفة السامى فى الهيئة أيضاً وشرح مختصر ابن الحاجب فى الفقه ومصنفاته وفضائله مشهورة .

ثم دخلت سنة احدى عشرة وسبعمائة :

ذكر وفاة طقطغا وملك أزبك

فى هذه السنة : ظنا أعنى سنة عشر أو سنة إحدى عشرة وسبعمائة توفى طقطغا ابن منكو تمر ابن طغان بن باطو بن دوشى خان بن جنكز خان ملك التتر بالبلاد الشمالية التى كرسى ملكها سراى وقد تقدم ذكر ملكه فى سنة تسعين وستمائة ، ولما مات طقطغا المذكور ملك بعده أزبك بن طغر يشاه بن منكو تمر بن طغان بن باطوخان بن دوشى خان بن جنكز خان ، واستقر أزبك المذكور ملكا بتلك الجهات .

ذكر نقل قراسنقر من نيابة السلطنة بدمشق إلى حلب وولاية كراى المنصورى دمشق وإعطاء العساكر الذين بحلب الدستور

فى هذه السنة : لما قبض على أسندمر سأل قرا سنقر نائب السلطنة بدمشق من مولانا السلطان أن ينقله إلى نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية لأنه كان قد طال مقامه بها وألف سكنى حلب ، فرسم له بذلك وحضر تقليده بولاية حلب مع الأمير سيف الدين أرغون الدوادار الناصرى وسار فى صحبته من دمشق متوجها إلى حلب وحصل عند قرا سنقر استشعار من العسكر المقيمين بحلب لئلا يقبضوا عليه وبقى المقر السيفى أرغون الدوادار الناصرى المذكور يطيب خاطر قرا سنقر ويحلف له على عدم توهمه ويسكنه ويثبت جأشه حتى وصل إلى حلب وركبت العساكر المقيمون بحلب لملتقاه فالتقيناه ودخل حلب فى يوم الاثنين ثامن عشر المحرم من هذه السنة واستقر فى نيابة السلطنة بحلب وأعطى المقر السيفى أرغون الناصرى عطاء جزيلا وسفره وسار المقر السيفى أرغون المذكور من حلب يوم الأربعاء لعشرين من المحرم وتوجه إلى الديار المصرية فأقمنا بعد ذلك مدة ثم ورد الدستور إلى العساكر المقيمة بحلب فسرنا منها فى يوم الجمعة الحادى والعشرين من صفر عائدين إلى أوطاننا ودخلت حماة فى يوم

الاثنين الرابع والعشرين من صفر من هذه السنة الموافق لثانى عشر تموز وأتمت العساكر المصرية والدمشقية المسير إلى بلادهم ، ولما انتقل قراسنقر من دمشق إلى حلب أنعم السلطان بنيابة السلطنة بالشام على سيف الدين كراى المنصورى ووصل إليه التقليد بذلك فاستقر فيها ثم بعد مدة قبض على كراى المنصورى ورتب فى نيابة السلطنة بالشام أقوش الذى كان نائبا بالكرك .

ذكر مسير قراسنقر إلى الحجاز وعوده من أثناء الطريق وهربه

وفيها : سأل قراسنقر دستورا إلى الحجاز الشريف لقضاء حجة الفرض فرسم له السلطان بذلك فعمل شغله وسار من حلب فى أوائل شوال من هذه السنة ولم يسر على الطريق وسار على طرف البلاد من شرقيها حتى وصل إلى بركة زيزا فحصل عنده التخيل والخوف من الركب المصرى لئلا يقبضوا عليه فى الحجاز فعاد من بركة زيزا على البرية وسار على البر إلى أركة والسخنة ثم إلى بر حلب واجتمع مع مهنا بن عيسى أمير العرب واتفقا على المشاققة والعصيان وقصد قرا سنقر حلب ليستولى عليها فاجتمع العسكر والأمراء الذين بها ومنعوه من الدخول إليه ووصل من صدقات السلطان إلى قرا سنقر ومنها ما يطيب خاطرهما فلم يرجعا عن ضلالهما وأصرا على ذلك فجرد السلطان عسكرا مع المقر السيفى أرغون الدوادار الناصرى ومع الأمير حسام الدين قرالاجين بسبب قرا سنقر المذكور بحيث إن رجع عن الشقاق والنفاق يقرر أمره فى مكان يختاره وإن لم يرجع عن ذلك يقصده العسكر حيث كان ووصل العسكر المذكور إلى حماة فى يوم السبت سادس ذى الحجة من هذه السنة الموافق لنصف نيسان وسرت بصحبتهم فى عسكر حماة وتوجهنا إلى البرية ونزلنا بالخام بالقرب من الزرقا فى يوم الخميس الحادى عشر من ذى الحجة من هذه السنة فاندفع قرا سنقر إلى الفرات وأقام هناك وافترقت مماليكه فبعضهم سار إلى التتر وبعضهم قدم إلى الطاعة ثم توجه قرا سنقر إلى جهة مهنا فعادت العساكر من الخام إلى حلب وكان دخولنا إلى حلب فى يوم الأحد رابع عشر ذى الحجة من هذه السنة ثم كان ما سنذكره إن شاء الله تعالى وفى جمادى الأولى من هذه السنة قبض على سيف الدين بكتو الجوكندار نائب السلطنة وأقام مولانا السلطان مقامه فى نيابة السلطنة الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصورى .

وفيها : حضرت رسل سيس بالأرزاق المقدرة عليهم فى كل سنة وأحضروا لنواب الشام التقادم على جارى العادة وأحضروا لى بغلا وقماشا وخرجت هذه السنة والحكام فيها على ما وصفه مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن السلطان الملك

المنصور قلاوون الصالحى سلطان الإسلام بمصر والشام وما هو مضاف إليهما والحجاز ونائب السلطنة ركن الدين بيبرس الدوادار صاحب التاريخ المسمى بزبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة والنائب بالشام جمال الدين أقوش الذى كان نائباً بالكرك وقرا سنقر قد أظهر الشقاق وانضم إلى مهنا بن عيسى أمير العرب وهو متردد فى البرارى على شاطئ الفرات والحكم بحلب إلى المشدين والنظار وليس بها نائب وقطلوبك بصفد فإن النائب بصفد كان بكتمر الجوكندا انتقل إلى مصر على ما تقدم ذكره فولى السلطان صفد سيف الدين قطلوبك وإسماعيل مؤلف هذا الكتاب بحماة وما هو مضاف إليها وهو المعرة وبارين وباقى الأطراف مثل البيرة والرحبة وغزة وحمص وقلعة الروم وغيرها من مواطن النيابة جميعها فيها مماليك السلطان أو مماليك والده أو مماليك مماليك والده وجميعهم مرتبون من الأبواب الشريفة على ما تقضيه آراؤه وأما الأطراف البعيدة فصاحب ماردين الملك المنصور نجم الدين غازى ابن الملك المظفر قرا أرسلان ابن الملك السعيد نجم الدين غازى ابن الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن قطب الدين إيلغازى بن ألبى بن حسام الدين تمرتاش بن نجم الدين إيلغازى بن أرتق ، وقد تقدم أخبار ملوك ماردين مساقة إلى سنة ثمانين وخمسمائة ، ثم ذكرنا أخبارهم فى سنة سبع وثلاثين وستمائة وصاحب اليمن الملك المؤيد شرف الدين داود بن يوسف بن عمر بن على بن رسول وملك التتر بالعراقين وكرمان وخراسان وديار بكر والروم وأذربيجان وغيرها خربندا ابن أرغون بن أبغا ابن هولاكو بن طلوبن جنكز خان ، وسار قبجى ملك تركستان بما وراء النهر وصاحب التخت بالصين القائم مقام جنكز خان سرقين بن منغلاى بن قبلاى بن طلو ابن جنكز خان وملك التتر ببلاد الشمالى التى كرسى ملكها صراى أزبك بن طغر يشاه ابن منكو تمر بن طغان وملك التتر بغزنة وباميان منطغاى بن قبجى بن أردنو بن دوشى خان ابن جنكز خان وملك المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى وملك غرناطة بالأندلس أبو الجيوش نصر بن محمد بن الأحمر وصاحب تونس أبو البقاء خالد بن زكريا ابن يحيى ابن أبى حفص والأشكرى ملك قسطنطينية اندر ونقوس وملك سيس أوشين ابن ليفون ابن هيتوم .

ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة :

ذكر هروب الأفرم واجتماعه بقراسنقر ثم مسيرهما إلى خربندا

وفى هذه السنة : قصد أقوش الأفرم نائب السلطنة بالفتوحات أن يحدث خلاف وأن يجمع الناس عليه فهرب إليه حموه أيدمر الزمر الزردكاش من دمشق وانضم إليه من لقيه به وسار من

دمشق واجتمع بالأفرم بالساحل وقصدوا من عسكر الساحل ومن غيرهم الموافقة لهم على ضلالهم فلم يوافقهم أحد فلما رأى الأفرم ذلك هرب من الساحل وخرج على حمية وعبر على الغزلة بين دمشق وحمص وسار فى البرية واجتمع بقراسنقر فى شهر المحرم من هذه السنة وكان بعض العساكر مع الأمير سيف الدين بكتمر على حمص فساق خلف الأفرم فلم يلحقه وكان على حلب العسكر المقدم ذكره فى السنة الماضية صحبة الأمير سيف الدين أرغون الدوادار فلما بلغنا هروب الأفرم واجتماعه بقرا سنقر وهم قريب سلمية وقع آراء الأمراء على الرحيل من حلب والمسير إلى جهة حمص وسلمية فرحل الأمير سيف الدين أرغون الناصرى والأمير حسام الدين قرا لاجين ومؤلف هذا المختصر بعسكر حماة من حلب وسرنا ووصلنا إلى حماة فى ثانى عشر المحرم من هذه السنة ووصلت باقى العساكر وسرنا من حماة فى يوم الثلاث خامس عشر المحرم الموافق للثامن والعشرين من آيار ونزلنا بظاهر سلمية وقصد قرا سنقر والأفرم كبس العسكر بالليل لظنهما أن فيهم مخامرين وأنهم يوافقونهم على ذلك فلم يوافقهم أحد على ذلك فرجعوا عن ذلك وسار قراسنقر والأفرم ومن معهما إلى جهة الرحبة فاتفق آراء الأمراء على تجريد عسكر فى أثرهم فجردوا العبد الفقير إسماعيل بن على بعسكر حماة وكذلك جردوا من المصريين الأمير سيف الدين قلى بمقدمته وغيره من المتقدمين المصريين والمقدمين الدماشقة فسرنا من سلمية فى يوم الخميس سابع عشر المحرم من هذه السنة إلى القسطل ثم إلى قديم ثم إلى عرض ثم إلى قباقب ثم إلى الرحبة ووصلنا إليها فى يوم الأحد الثامن والعشرين من المحرم فلما وصلنا إلى الرحبة اندفع قرا سُنقر ومن معه إلى جهة رومان قريب عانة والحديثة فما أمكنا المضى خلفه إلى تلك البلاد بغير مرسوم فأقمنا بالرحبة ثم رحلنا منها عائدين فى مستهل صفر الموافق لثامن حزيران من هذه السنة وسرنا إلى المقر السيفى أرغون الدوادار وكان قد سار من سلمية إلى حمص فوصلنا إلى حمص فى يوم الخميس ثامن صفر من هذه السنة ثم إن المقر السيفى رأى أن حماة قريبة وليس بمقامى بعسكر حماة على حمص فائدة فاقتضى رأيه سيرى إلى حماة فسرنا إلى حماة ودخلتها يوم الاثنين ثانى عشر صفر واستمر العسكر مقيمين بحمص ثم إن قرا سنقر والأفرم طال عليهما الحال وكثر ترداد الرسل إليهما فى إطابة خواطر هما وهما لا يزدادان إلا عتوا ونفورا حتى سار إلى التتر واتصلا بخربندا فى ربيع الأول من هذه السنة وكذلك أيدمر الزردكاش ومن انضم إليهم .

ذكر وصول الدستور إلى العسكر

ولما اتصل بالعلوم الشريفة السلطانية ما اتفق من الأمر تقدم مرسومه إلى العساكر بالمسير إلى أماكنهم فسارت من حمص فى يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر من هذه السنة الموافق لثالث تموز وعادوا إلى أوطانهم .

ذكر وفاة صاحب ماردين

فى هذه السنة : يوم الأحد ثامن ربيع الآخر توفى صاحب ماردين ومن عقيب مسير قراسنقر من عنده إلى الأردو وهو الملك المنصور نجم الدين غازى ابن الملكِ المظفر قرا أرسلان ابن السعيد نجم الدين غازى بن المنصور بن أرتق أرسلان ابن قطب الدين أيلغازى ابن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين وملك ماردين بعده ابنه الألبى الملك العادل عماد الدين على بن غازى نحو ثلاثة عشر يوما ثم ملك أخوه شمس الدين صالح وتلقب بالملك الصالح ابن غازى المذكور .

ذكر وصول النائب إلى حلب

وفيها : قرر السلطان سيف الدين سودى الجمدار الأشرفى ثم الناصرى فى نيابة السلطنة بحلب المحروسة موضع اسنقر فوصل سودى المذكور إلى حلب فى ثامن أو تاسع ربيع الأول من هذه السنة واستقر فى نيابة السلطنة بحلب .

ذكر مسيرى إلى مصر

وفى هذه السنة : توجهت إلى الأبواب الشريفة وخرجت من حماة يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول من هذه السنة الموافق للرابع والعشرين من تموز وسقت من أثناء الطريق على البريد ووصلت إلى قلعة الجبل ، وحضرت بين يدى المواقف الشريفة السلطانية فى يوم الاثنين العاشر من ربيع الآخر الموافق للرابع عشر من آب ، ثم وصلت صبيانى وقدمت التقدمة فى يوم الجمعة خامس عشر ربيع الآخر ، وكان قبل وصولى قد قبض على بيبرس الدوادار نائب السلطنة وعلى جماعة من الأمراء مثل الكمالى فحال حضورى بين يديه أفاض على التشريف السلطانى الأطلس المزركش على عوائد صدقاته وأمر بنزولى فى الكبش ، فأقمت به فاتفق بعد أيام يسيرة أن النيل وفى ، ونشر الخلع فى يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة الموافق للسابع والعشرين من آب من شهور الروم ، ورابع أيام النسىء بعد مسرى من شهور القبط وإتفق فى أيام حضورى بين أيدى المواقف الشريفة إقامة المقر السيفى أرغون الدوادار فى نيابة السلطنة وقلده وأعطاه السيف وألبسه الخلعة ولما لم يبق لى شغل تصدق

السلطان وأفاض على وعلى أصحابى الخلع وشرفنى بمركوب بسرجه ولجامه ، ثم تصدق على بثلاثين ألف درهم وخمسين قطعة من القماش ورسم أن يكتب لى التقليد بمملكة حماة والمعرة وبارين تمليكا ولولا خوف التطويل لأوردنا التقليد عن آخره لكن نذكر منه فصولا يحصل بها الغرض طلبا للاختصار فمنه بعد البسملة الحمد لله ألذى عضد الملك الشريف بعماده * وأورث الجد السعيد سعادة أجداده * وبلغ ولينامن تباهى ببابه ملوك بنى الأيام غاية مراده * ومنه فأصبح جامع شملها * وأرفع لواء فضلها * وناشر جناح عدلها * ومنه يحمد على أنه صان بنا الملك وحماة * وكف بكف بأسنا المتطاول على استباحة حماة * ومنه ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أما بعد فان أول من عقد له لواء الولاء وتشرفت باسمه أسرة الملوك وذوى المنابر * وتصرفت أحكامه فى ما يشاء من نواه وأوامر * وتجلى فى سماء السلطنة شمسه فقام فى دستها مقام من سلف * وأخلف فى أيامنا الزاهرة من درج من أسلافه إذهو ببقائنا إن شاء الله خير خلف * من ورث السلطنةلا عن كلالة * واستحقها بالأصالة والأثالة والجلالة * وأشرقت الأيام بغرة وجهه المنير * وتشرفت به صدور المحافل وتشوق إليه بطن السرير * ومن أصبح لسماء المملكة الحموية وهو زين أملاكها * ومطلع أفلاكها * وهو المقام العالى العمادى ابن الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان الملك المظفر تقى الدين ولد السلطان الملك المنصور ولد السلطان الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وهو الذى ما برحت عيون مملكته إليه متشوفة ولسان الحال يتلو ضمن الغيب قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء إلى أن أظهر الله ما فى غيبه المكنون * وأنجز له فى أيامنا الوعود وصدق الظنون * وشيد الله منه الملك بأرفع عماد * ووصل ملكه بملك أسلافه وسيبقى فى عقبه إن شاء الله إلى يوم التناد * فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الناصرى الباهرى لازالت المماليك مغمورة من عطائه * والملوك تسرى من ظل كنفه تحت مسبول غطائه * أن يستقر فى يد المقام العالى العمادى المشار إليه جميع المملكة الحموية وبلادها وأعمالها وما هو منسوب إليها ومبشارها التى يعرضها قلمه وقسمه * ومنابرها التى يذكر فيها اسم الله تعالى واسمه * وكثيرها وقليلها * وحقيرها وجليلها * على عادة الشهيد الملك المظفر تقى الدين محمود إلى حين وفاته ومنه وقلدناه ذلك تقليدا * يضمن للنعمة تخليدا * وللسعادة تجديدا * ومنه فى آخره والله تعالى يؤهل بالنصر مغناه * ويجمل ببقائه صورة دهر هو معناه * والاعتماد على الخط الشريف أعلاه * وكتب فى الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة حسب المرسوم الشريف والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وصحبه وسلم ثم رسم لى بالعود إلى بلدى فخرجت من القاهرة يوم الثلاث الثانى من جمادى الأولى من هذه السنة وسرت إلى دمشق وكان قد وصل إليها الأمير سيف الدين تنكز الناصرى نائباً واستقر فى نيابة السلطنة بها بعد جمال الدين أقوش الذى كان نائباً بالكرك

وأحسن الأمير المذكور إلىّ وتلقانى بالإكرام ، ووصلت إلى حماة واجتمع الناس وقرأ التقليد الشريف عليهم فى يوم الاثنين الثانى والعشرين من جمادى الأولى الموافق للخامس والعشرين من أيلول ولما وصلت إلى حماة كان قد سافر الأمراء الغرباء منها إلى حلب فإنى لما كنت بالأبواب الشريفة استخبرنى مولانا السلطان عن أحوالى وما أشكو منه فلم أفصح له بشىء فاطلع بعلمه الشريف وحده ذهنه وقوة فراسته على تقلقى من الأمراء المماليك السلطانية المقيمين بحماة فإنهم استجدوا بحماة لما خرجت من البيت التقوى الأيوبى فاطلع السلطان على تعبى معهم وأنهم ربما لا يكونون وفق غرضى فاقتضى مرسومه الشريف نقلهم إلى حلب واستمرار إقطاعاتهم التى كانت لهم بحماة عليهم إلى أن يتجلى ما يعوضهم به فتقدم مرسومه إليهم بذلك ووصل إليهم المرسوم على البريد بتوجههم إلى حلب قبل وصولى إلى حماة بأيام يسيرة فحال وصول المرسوم خرجوا من حماة عن آخرهم ولم يبيتوا بها وانتقلوا بأهلهم وجندهم وكانوا نحو أربعة عشر أميراً بعضهم بطلبخاناه وبعضهم أمراء عشرات ووصلت إلى حماة ولم يبق بها غير من اخترت مقامه عندى وكان هذا من أعظم الشفقة والصدقة .

ذكر تجريد العسكر إلى حلب ووصول العدو ومنازله الرحبة

وفى هذه السنة : فى يوم السبت سابع عشر رجب خرجت من حماة بعساكر حماة ودخلت حلب فى يوم السبت الآخر الرابع والعشرين من رجب المذكور وأقمت بها وكان النائب بها الأمير سيف الدين سودى ، ثم وصل بعض عسكر دمشق مع سيف الدين بهادراص وقويت أخبار التتر ، وجفل أهل حلب وبلادها ثم وصلت التتر إلى بلاد سيس وكذلك وصلوا إلى الفرات فعندها رحل الأمير سيف الدين سودى وجميع العساكر المجردة من حلب فى يوم الخميس ثامن رمضان فى هذه السنة ووصلنا إلى حماة فى يوم السبت سابع عشر رمضان المذكور وكان خربندا نازل الرحبة بجموع المغل فى آخر شعبان من هذه السنة الموافق لأواخر كانون الأول وأقام سيف الدين سودى بعسكر حلب وغيره من العساكر المجردة بظاهر حلب ونزل بعضهم فى الخانات وكان البرد شديدا والجفال قدملئوا المدينة واستمرينا مقيمين بحماة وكشافتنا تصل إلى عرض والسحنة وتعود إلينا بأخبار المخذول ، واستمر خربندا محاصرا للرحبة وأقام عليها المجانيق وأخذ فيها النقوب ومعه قرا سنقر والأفرم ومن معهما وكانا قد أطمعا خربندا أنه ربما يسلم إليه النائب بالرحبة قلعة الرحبة وهو بدر الدين بن أركشى الكردى لأن الأفرم هو الذى كان قد سعى للمذكور فى نيابة السلطنة بالرحبة وأخذ لها امرأة الطبلخاناه فطمع الأفرم بسبب تقدم إحسانه إلى المذكور أن يسلم إليه الرحبة وحفظ المذكور دينه وما فى عنقه من الإيمان للسلطان وقام بحفظ القلعة أحسن قيام وصبر على الحصار وقاتل أشد قتال ولما طال

مقام خربندا على الرحبة بجموعه وقع فى عسكره الغلاء والفناء وتعذرت عليه الأقوات وكثرت منه المقفزون إلى الطاعة الشريفة وضجروا من الحصار ، ولم ينالوا شيئا ولا وجد خربندا لما أطعمه به قرا سنقر والأفرم صحة فرحل خربندا عن الرحبة راجعا على عقبه فى السادس والعشرين من رمضان من هذه السنة بعد حصار نحو شهر وتركوا المجانيق وآلات الحصار على حالها فنزلت أهل الرحبة واستولوا عليها ونقلوها إلى الرحبة * ولما جرى ذلك رحل سودى وعسكر حلب من حماة وعادوا إلى حلب واستمر بها دراص ومن معه من عسكر دمشق مقيما بحماة مدة ثم ورد لهم الدستور فساروا إلى دمشق .

ذكر مسير السلطان بالعساكر الإسلامية إلى الشام ثم توجهه إلى الحجاز

وفى هذه السنة : سار مولانا السلطان بالعساكر الإسلامية من ديار مصر وكان مسيره بسبب نزول التتر على الرحبة حسبما ذكرناه ووصل إلى دمشق يوم الثلاث الثالث والعشرين من شوال من هذه السنة أعنى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة بعد رحيل العدو عن الرحبة وعودهم على أعقابهم فلما لم يبق فى البلاد عدو عزم على الحجاز الشريف لأداء حجة الفرض فرتب العساكر بالشام وأمر بعضهم بالمقام باللجون وسواحل عكا وقاقون وجرد بعضهم على حمى حمص وترك نائب السلطنة المقر السيفى أرغون ونائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تنكز مقيمين بدمشق وعندهما باقى العساكر واستجار السلطان بالله تعالى وخرج من دمشق متوجها إلى الحجاز الشريف فى يوم الخميس الثانى من ذى القعدة الموافق لأول آذار وأتم المسير ووصل إلى عرفات وأكمل مناسك الحج وعاد مسرعا ، فوصل إلى الكرك سلخ هذه السنة ثم كان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : ولد ولدى محمد بن إسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب وكانت ولادته فى إقامة الساعة الثانية من نهار الخميس مستهل رجب الفرد من هذه السنة أعنى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة الموافق الثانى يوم من تشرين الثانى من شهور الروم .

وفيها : انخسف القمر مرتين مرة فى صفر ومرة فى شعبان .

وفيها : كانت الأمطار قليلة حتى خرج فصل الشتاء ثم تداركت الأمطار فى فصل الربيع إلى أن زادت الأنهر زيادة عظيمة فى آخر نيسان على خلاف ما عهد .

وفيها : قوى استيحاش الأمير مهنا بن عيسى أمير العرب لما اعتمد من مساعدة قراسنقر ولغير ذلك من الأمور وكاتب خربندا ثم أخذ منه إقطاعا بالعراق وهو مدينة الحلة وغيرها

واستمر إقطاعه من السلطان بالشام وهو مدينة سرمين وغيرها على حاله وعامله السلطان بالتجاوز ولم يؤاخذه بما بدئ منه وحلف على ذلك مرارا فلم يرجع عما هو عليه وجعل مهنا ولده سليمان بن مهنا متقطعا إلى خدمة خربندا ومترددا إليه واستمر ابنه موسى بن مهنا فى صدقة السلطان ومترددا إلى الخدمة واستمر مهنا على ذلك يأخذ الإقطاعين بالشام والعراق ويصل إليه الرسل من الفريقين وخلعهما وإنعامهما وهو مقيم بالبرية ينتقل إلى شط الفرات من منازله لا يروح إلى أحد الفئتين وهذا أمر لم يعهد مثله ولا جرى نظيره فإن كلا الطائفتين لو اطلعوا على أحد منهم أنه يكتب إلى الطائفة الآخرى سطرا قتلوه لساعته ولا يمهلونه ساعة ووافق مهنا فى ذلك سعادة خارقة .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة :

ذكر وصول السلطان من الحجاز الشريف

وفى هذه السنة : وصل مولانا السلطان إلى دمشق فى يوم الثلاث حادى عشر المحرم عائدا من الحجاز الشريف بعد أن أقام بالكرك أياماً وجمع الله له بذلك سعادة الدنيا والآخرة وتوجهت إلى خدمته من حماة وحضرت بين يديه بدمشق المحروسة فى يوم الخميس الثالث عشر من المحرم من هذه السنة الموافق لعاشر آيار وهنأته بقدومه إلى مملكته وعبيده وقدمت ما أحضرته من الخيول والقماش والمصاغ فقابله بالقبول وشملنى إحسانه بالخلع والإكرام على جارى عوائد صدقاته وأرسل إلى هدية الحجاز حجرا أشقر وطاقات طائفى مع الأمير طاشتمر الخاصكى .

ذكر خروج المعرة عن حماة

وفى هذه السنة : فى المحرم خرجت المعرة عن حماة وأضيفت إلى حلب واستقر بيدى حماة وبارين وسبب ذلك أن الأمراء الذين كانوا بحماة ثم انتقلوا إلى حلب حسبما ذكرناه فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة استقرت إقطاعاتهم بحماة لعدم إقطاعات محلولة تفى بجملة ما لهم فصعب عليهم نقلهم إلى حلب جدا فأخذوا فى التعنت والشكوى على بسبب إقطاعاتهم ونفوذهم المرتبة بحماة وانضم إلى ذلك أنه صار يتغير بعض إقطاعاتهم ويدخل فيها شىء من بلاد حلب بحكم تنقل أو زيادة تردد المناشير الشريفة بذلك وتخلط بلاد المملكة الحموية ببلاد

المملكة الحلبية وغيرها من الممالك السلطانية وصارت أطماعهم معلقة بالعود إلى حماة وهم مجتهدون على ذلك تارة بالتثقيل على السلطان بالشفائع وتارة بالسعى فى ذهاب حماة منى فلم أجد لذلك ما يحسمه إلا بتعيين المعرة وبلادها للأمراء المذكورين وإضافتها إلى حلب وانفرادى بحماة وبارين منفصلة عن الممالك الشريفة السلطانية وسألت صدقات السلطان فى ذلك وقال لى ياعماد الدين ما أرضى لك بدون ما كان فى يد عمك وابن عمك وجدك وكيف أنقصك عنهم المعرة فعاودت السؤال وأبديت التضرر الزائد فأجابنى على كره لذلك صدقة على وإجابة إلى سؤالى وكتب بصورة ما استقر عليه الحال مرسومًا شريفًا ذكرنا بعضه طالبًا للاختصار فمنه فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الناصرى أن يستقر بيده حماة وبارين بجميع حدودها وما هو منسوب إليها من بلاد وضياع وقراى وجهات وأموال ومعاملات وغير ذلك من كل ما ينسب إلى هذين الإقليمين ويدخل فى حكمهما يتصرف فى الجميع كيف شاء من تولية وإقطاع إقطاعات الأمراء والجند وغيرهم من المستخدمين من أرباب الوظائف وترتيب القضاة والخطباء وغيرهما ويكتب بذلك مناشير وتواقيع من جهته ويجرى ذلك على عادة الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة ويقيم على هاتين الجهتين خمسمائة فارس بالعدة الكاملة من غير نقص ويبطل حكم ما عليهما من المناشير والتواقيع الشريفة والمسامحات والمحسوب وكل ما هو مرتب عليهما للأمراء والجند العرب والتركمان وغيرهم بحكم الإنعام بهما على المشار إليه على قاعدة الملك المظفر صاحب حماة وتعويض الجميع عن ذلك بالمعرة وإفرادها عن حماة وبارين فليستقر جميع ما ذكر بيده العالية استقرار الدرر فى أسلاكها * والدرارى فى أفلاكها يتصرف فى أحوالها بين العالمين بنهيه وأمره * ويجرى أموالها بين المستوجبين بإنعامه وبره * ولا يمضى فيها أمر بغير منشوره الكريم * ولا يجرى معلوم ولا رسم إلا بمرسومه الجارى على سنن سلفه القديم * وليفعل فى ذلك بجميع ما أراد كيف أراد * ويتصرف على ما يختار فيها تحت حكمه الكريم وبحكمه من مصالح العباد والبلاد * والله تعالى يعلى بمفاخر عماده * ويجعل التأييد والنصر قرين إصداره وإيراده * والخط الشريف حجة بمضمونه إن شاء الله تعالى كتب فى تاسع عشر المحرم سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ثم تصدق بخلعة ثانية وأنعم على بسنجق بعصائب سلطانية يحمل على رأسى فى المواكب وغيرها وهذا مما يختص به السلطان ولا يسوغ لأحد غيره حمله ثم رسم بالدستور فسرت من دمشق فى يوم الثلاث الخامس والعشرين من المحرم وكذلك توجه السلطان عائداً إلى الديار المصرية فوصل إليها واستقر فى مقر ملكه ودخلت أنا حماة فى يوم الاثنين مستهل صفر من هذه السنة الموافق للثامن والعشرين من آيار من شهور الروم .

ذكر مسيرى إلى الحجاز الشريف

وفى هذه السنة : أرسلت وطلبت دستورًا من مولانا السلطان بالتوجه إلى الحجاز الشريف فرسم لى بالدستور وجهزت شغلى وقدمت الهجن إلى الكرك وجهزت ولدى والثقل مع الركب التامى ووصلنى من صدقات السلطان ألف دينار عيناً برسم النفقة ووصلنى منه مراسم شريفة بإخراج السوقية من سائر البلاد إلى الركب الحموى وأن تسير جمالى حيث شئت قدام المحمل السلطانى أو بعدة على ما أراه فقابلت هذه الصدقات بمزيد الدعاء وخرجت من حماة فى يوم الجمعة رابع عشر شوال من هذه السنة الموافق لأول شباط وسرت بالخيل إلى الكرك وركبت الهجن من هناك ورجعت الخيل والبغال إلى حماة واستصحبت معى ستة أروس من الخيل جنائب وسار فى صحبتى عدة مماليك بالقسى والنشاب وسبقت الركب إلى مدينة النبى ﷺ ووصلت إليها فى يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة وتمكنت من الزيارة خلوة وأقمت حتى لحقنى الركب ثم سبقتهم ووصلت إلى مكة فى يوم السبت خامس ذى الحجة وأقمت بها ثم خرجنا إلى عرفات ووقفنا يوم الأربعاء ثم عدنا إلى منى وقضينا مناسك الحج ثم اعتمرت لأنى حججت هذه الحجة مفرداً على ما هوالمختار عند الشافعى وكنت فى الحجة الأولى قارنًا ثم عدنا إلى البلاد وسبقت الحجاج من بطن مروسرت منه يوم الثلاث خامس عشر ذى الحجة الموافق لثامن نيسان وسرت حتى خرجت هذه السنة واستهل المحرم سنة أربع عشرة وسبعمائة وإنى قد عديت تبوك ووصلت إلى حماة حادى عشر المحرم سنة أربع عشرة وكان مسيرى من مكة إلى حماة نحو خمسة وعشرين يوما أقمت من ذلك فى المدينة وفى المعلا وفى بركة زيزا ودمشق ما يزيد على ثلاثة أيام وكان خالص مسيرى من مكة إلى حماة دون اثنين وعشرين يوما وكان مسيرى على الهجن وكان صحبتى فرس وبغل ولم يقف عنى شىء منها وهذه هى حجتى الثانية وحججت الحجة الأولى فى سنة ثلاث وسبعمائة .

وفيها : جرد السلطان من مصر إلى مكة عسكراً وأمراء من عسكر دمشق وأرسل معهم أبا الغيث بن أبى نمى ليقروه فى مكة ويقبضوا أو يطردوا أخاه حميضة بن أبى نمى لأنه كان قد ملك مكة وأساء السيرة فيها وكان مقدم العسكر المجرد على ذلك سيف الدين طقصبا الحسامى فلما اجتمعت به فى مكة أوصلنى مثالا من مولانا السلطان يتضمن أنى أساعدهم على إمساك حميضة بالرجال والرأى فلما قربنا من مكة حرسها الله تعالى تركهاحميضة وهرب إلى البرية فقررنا أبا الغيث بمكة واستغلها وأخذ ما يصل مع الركبان من اليمن وغيره إلى صاحبها وكذلك استهدى الضرائب من التجار واستقرت قدمه فيها ثم كان منه ما سنذكره إن شاء الله

تعالى وأقام العسكر المجرد عند أبي الغيث بمكة خوفاً من معاداة حميضة ثم إن أبا الغيث أعطى العسكر دستورابعد إقامتهم بنحو شهرين فعادوا إلى الديار المصرية .

وفيها : اجتمع جماعة من بنى لام من عربان الحجاز وقصدوا قطع الطريق على سوقة الركب الذين يلاقونهم من البلاد إلى تبوك عند عود الحاج وساروا إلى ذات حج واتقموا مع السوقة فقتل من السوقية تقدير عشرين نفساً . وأكثر ثم انتصروا على بنى لام وهزموهم وأخذوا منهم تقدير ثمانين هجيناً وعادت بنو لام بخفى حنين .

ثم دخلت سنة أربع عشرة وسبعمائة :

وفيها : وصلت إلى حماة عائداً من الحجاز الشريف فى حادى عشر المحرم .

وفيها : فى أواخر جمادى الآخرة حصل لى مرض حاد أيقنت منه بالموت ووصيت وتأهبت كذلك ثم إن الله تعالى تصدق على بالعافية .

وفيها : جردت العساكر إلى حلب فجردت جميع عسكر حماة وأقمت بسبب التشويش .

وفيها : فى رجب توفى الأمير سيف الدين سودى نائب السلطنة بحلب فولى السلطان نيابة السلطنة بحلب الأمير علاء الدين الطنبغا الحاجب ووصل إلى حلب واستقر بهانائباً بوضع سودى فى أوائل شعبان من هذه السنة :

وفيها : فى ذى الحجة جمع حميضة بن أبى نمى وقصد أخاه أبا الغيث بن أبي نمى صاحب مكة وكان أبو الغيث منتظرا وصول الحجاج ليعتضد بهم فابتدره حميضة قبل وصول الحجاج واقتتل معه فانتصر حميضة وأمسك أخاه أبا الغيث وذبحه ثم هرب حميضة لقرب الحجاج منه فلما قضى الحجاج مناسكهم وعادوا إلى البلاد عاد حميضة إلى مكة واستولى عليها .

ثم دخلت سنة خمس عشرة وسبعمائة :

ذكر فتوح ملطية

فى هذه السنة : فى يوم الأحد الثانى والعشرين من المحرم فتحت ملطية وسبب ذلك أن المسلمين الذين كانوا بها اختلطوا بالنصارى حتى أنهم زوجوا الرجل النصرانى بالمسلمة وكانوا يعدون الإقامة بالتتر ويعرفونهم بأخبار المسلمين وكانت الأجناد والرجالة الذين بالحصون مثل قلعة الروم وبهنا وكختا وكركر وغيرها لا ينقطعون عن الإغارة على بلاد العدو مثل بلاد الروم وغيرها وكانت طريقهم فى غالب الأوقات تكون قريب ملطية فاتفق أن أهل ملطية ظفروا ببعض الغيارة المذكورين فأسروهم وقتلوا جماعة من المسلمين فلما جرى ذلك أرسل السلطان عسكرا ضخماً من الديار المصرية مع الأمير سيف الدين بكتمر الأبو بكرى ومع سيف الدين

قلى وسيف الدين أوول تمر فساروا إلى دمشق ورسم السلطان لجميع عساكر الشام بالمسير معهم وجعل مقدماً على الكل الأمير سيف الدين تنكز الناصرى نائب السلطنة بدمشق وتقدمت مراسيم السلطان إلىَّ أولا بأن أجهز عسكر حماة صحبتهم وأن أقيم أنا بمفردى بحماة ثم رأى المصلحة بتوجهى بعسكر حماة فتوجهت أنا والعساكر المذكورة ودخلنا إلى حلب فى يوم الخميس والجمعة ثالث عشر المحرم لكثرة العساكر فأنجزت فى يومين ثم سرنا من حلب إلى عين ناب ثم إلى نهر مرزبان ثم إلى رعبان ثم إلى النهر الأزرق وعبرنا على قنطرة عليه رومية معمولة بالحجر النحيت لم أشاهد مثلها فى سعتها وسرنا وجعلنا حصن منصور يميننا وصار منا فى جهة الشمال ووصلنا إلى ذيل الجبل ونزلنا عند خان هناك يقال له خان قمر الدين وعبرنا الدربند ويسمى ذلك الدربند بلغة أهل تلك البلاد بند طجق دار بضم الطاء المهملة والجيم وسكون القاف وفتح الدال والراء المهملين ثم ألف وبقى العسكر ينجر فى الدربند يومين وليلتين لضيقه وحرجه ثم سرنا إلى زبطرة وهى مدينة صغيرة خراب ثم نزلنا على ملطية بكرة الأحد المذكور أعنى الثانى والعشرين من المحرم الموافق للسابع والعشرين من نيسان وطلبت العساكر ميمنة وميسرة وأحد قنابها وفى حال الوقت خرج منها الحاكم فيها ويسمى جمال الدين الخضر وهو من بيت بعض أمراء الروم وكان والده وجده حاكما فى ملطية أيضا ويعرف خضر المذكور بزامير ومعناه الأمير الكبير بلغة نصارى تلك البلاد وفتح باب ملطية القبلى وخرج معه قاضيها وغيرهما من أكابرها وطلبوا منا الأمان فأمنهم الأمير سيف الدين تنكز مقدم العسكر واتفق أن الباب القبلى الذى فتح كان قبالة موقفى بعسكر حماة فأرسلت الأمير صارم الدين أزبك الحموى وجماعة معه وأمرته بحفظ الباب فإننى خفت من طمع العسكر لئلا ينهبوا ملطية وليس معنا أمر بذلك وحفظ الباب حتى حضر الأمير سيف الدين تنكز وكان موقفه فى الجانب الآخر فلما حضر أقام جماعة من الأمراء بحفظ باب المدينة ثم إن العسكر والطماعة هجموا مدينة ملطية من الباب المذكو وكذلك هجمها جماعة من العسكر من الجانب الآخر وأراد سيف الدين تنكز منعهم عن ذلك فخرج الأمر عن الضبط لكثرة العساكر الطماعة فنهبوا جميع ما فيها من أموال المسلمين والنصارى حتى لم يدعوا فيها إلا ما كان مطمورا ولم يعلموا به وكذلك استرقوا جميع أهلها من المسلمين والنصارى ثم بعد ذلك حصل الإنكار التام على من يسترق مسلماً أو مسلمة وعرضوا الجميع فأطلق جميع المسلمين من الرجال والنساء وأما أموالهم فإنها ذهبت واستمر النصارى فى الرق عن آخرهم وأسر منها ابن كربغا شحنة التتر بتلك البلاد وكذلك أسر منها الشيخ مندو وهو صاحب حصن أركنى وكان مندو المذكور قعيدًا لقصاد التتر وكان يتبع قصاد المسلمين ويمسكهم وكان من أضر الناس على المسلمين ولما أمسك سلم إلى الأمير سيف الدين قلى وسلمه المذكور إلى بعض مماليكه التتر فهرب مندو المذكو وهرب معه المملوك الذى كان مرسما عليه ثم لما كان من نهب ملطية ما ذكرناه ألقى العسكر فيها النار فاحترق

غالبها وكذلك خربنا ما أمكننا من أسوارها أن نخربه وأقمنا عليها نهارا واحدا وليلة ثم ارتحلنا عائدين إلى البلاد حتى وصلنا إلى مرج دابق فى يوم الخميس ثالث صفر من هذه السنة وأقمنا به مدة وكان ببلاد الروم جوبان وهو نائب خربندا ومعه جمع كثير وكنا مستعدين فلم يقدم علينا ولا جاء إلى ملطية إلا بعد رحيلنا عنها بمدة فاستمرينا مقيمين بمرج دابق وترددت الرسل إلى أوشين بن ليفون صاحب بلاد سيس فى إعادة البلاد التى جنوبى جيحان وزيادة القطيعة التى هى الإتاوة فزاد القطيعة حتى جعلها نحو ألف ألف درهم وبعد ذلك ورد الدستور فسرنا من مرج دابق فى يوم الخميس ثانى ربيع الأول ووصلنا إلى حماة فى يوم الخميس تاسع ربيع الأول وبعد يومين من وصولى وصل الأمير سيف الدين تنكز بباقى العساكر وعملت له ضيافة بدارى التى بمدينة حماة فمضى هو والأمراء فى يوم الأحد ثانى عشر ربيع الأول ثم سافر فى النهار المذكور إلى دمشق .

وفيها : فى مدة مقامى بمرج دابق قبض بمصر على أيدغدى شقير الحسامى وكان من شرار الناس وعلى بكتمر الحاجب وعلى بهادر الحسامى المغربى .

وفيها : جهزت خيل التقدمة إلى الأبواب الشريفة صحبة مملوكى أسنبغا فحصل قبولها والإحسان على أولا بحصان برقى بسرجه ولجامه ثم بخلعة أطلس أحمر بطرز زركش وكلوته زركش وشاش تساعى وهو شاش منسوج جميعه بالحرير والذهب وقباء أطلس أصفر تحتانى وحياصة ذهب بجامة مجوهرة بفصوص بلخش ولؤلؤ وثلاثين ألف درهم وخمسين قطعة من القماش السكندرانى وسيف ودلكش أطلس أصفر فلبست التشريف السلطانى المذكور وركبت فى الموكب به فى يوم الخميس ثانى رجب الفرد الموافق لثانى تشرين الأول أيضاً وشملتنى الصدقات السلطانية بتوقيع شريف أن لا تكون بحماة وبلادهم حماية للدعوة الإسماعيلية أهل مصياف بل يتساوون مع رعية حماة فى أداء الحقوق والضرائب الديوانية وغير ذلك .

وفيها : قبض على تمر الساقى نائب السلطنة بالفتوحات وعلى بهادراص .

وفيها : سار الملك الصالح واسمه صالح ابن الملك المنصور غازى ابن الملك المظفر قراأرسلان صاحب ماردين إلى خدمة خربندا ملك التتر بالتقدام على عادة والده فأحسن إليه خربندا ثم عاد الملك الصالح المذكور إلى ماردين فى جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفى أثناء هذه السنة : ورد إلى الأبواب الشريفة رميثة ابن أبى نمى من مكة وهو أخو حميضة الأكبر مستنجدا على أخيه حميضة صاحب مكة حينئذ فجهز السلطان مع رميثة عسكرا من العساكر المصرية وجهزهم بمايحتاجون إليه فسار بهم رميثة إلى مكة وكان مقدم العسكر تمرخان بن قرمان أمير طبلخاناه وأمير آخر يقال له طيدمر وكان العسكر مائتى فارس من نقاوة عسكر مصر فجمع حميضة ما يقارب اثنى عشر ألف مقاتل وتعبى العسكر المصرى وكان رميثه

فى القلب وابن قرمان ميمنة وطيدمر ميسرة والتقوا واقتتلوا فى عيد الفطر من هذه السنة وراء مكة إلى جهة اليمن بمراحل ورمى العسكر بالنشاب فولى جماعة حميضة منهزمين لا يلوون وكان لحميضة حصن إلى جهة اليمن فهرب إليه وانحصر به فأحاط به العسكر وحاصروه فنزل حميضة برقبته مع ثلاثة أو أربعة أنفس وهرب خفية واحتاط العسكر على ماله وحريمه وغنموا من ذلك شيئاً كثيرا قيل إنه حصل للفارس من عسكر مصر ما يقارب عشرة آلاف درهم وكان فى الغنيمة من العنبر الخام وأمثاله ما يفوت الحصر فأطلق السلطان ذلك جميعه للعسكر واستقر رميثه صاحب مكة .

وفيها : افرج السلطان عن جمال الدين أقوش الذى كان نائبًا بالكرك ثم صار نائباً بدمشق وأحسن إليه وعلا منزلته .

وفيها : وصل قرا سنقر إلى بغداد فى رمضان هذه السنة وتقدم مرسوم إلى التتر الذين ببغداد وديار بكر وتلك الأطراف بالركوب مع قرا سنقر إذ قصد الإغارة على بلاد الشام وكان خربندا مقيما بجهة موغان وأقام قرا سنقر وقدم عليه بها فدوى وسلم قرا سنقر * ولما دخلت سنة ست عشرة توجه قرا سنقر فى مستهل المحرم من بغداد إلى جهة خربندا .

وفيها : فى ذى القعدة ولد للسلطان ولد ذكر ودقت البشائر لمولده فى ديار مصر والشام ثم توفى المولود المذكور بعد مدة يسيرة وجهزت تقدمة لطيفة بسبب المولود المذكور صحبة طيدمر فقدمها وحصل قبولها .

وفيها : فى جمادى الأولى وصل إلىَّ من صدقات السلطان حصان برقى أحمر بسرجه ولجامه صحبة عز الدين أيبك أميراخور فأعطيته خلعة طردوحشن تكلوته زركش وفرساً بسرجه ولجامه وخمسة آلاف درهم .

وفيها : فى أواخر ذى القعدة أغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجماعة من التتر والعرب على التراكمين والعرب النازلين قريب تدمر ونهبهم وأخذ لهم أغناماً كثيرة ووصل فى إغارته إلى قرب البيضاء بين القريتين وتدمر وعاد بما غنمه إلى الشرق

وفى هذه السنة أعنى سنةخمس عشرة وسبعمائة توفى نجاد بن أحمد بن حجى بن يزيد ابن شبل أمير آل مراد وكانت وفاته فى أواخر هذه السنة واستقر بعده فى إمرة آل مراد ثابت ابن عساف بن أحمد بن حجى المذكور وبقى ثابت المذكور وتوبة بن سليمان بن أحمد يتنازعان فى الإمرة .

وفيها : توفى بدمشق ابن الأركشى الذى كان نائباً بالرحبة لما حصرها خربندا وكان قد عزل فى تلك السنة وأعطى إمرة بدمشق وتولى الرحبة مكانه بكتوت القرمانى ثم عزل وولى على الرحبة بعده طغربك الأنصارى .

ذكر أخبار أبي سعيد ملك المغرب

وفى هذه السنة ؛ أعنى سنة خمس عشرة وسبعمائة اجتمع العسكر على عمر ولد أبي سعيد عثمان ملك المغرب وبقى والده خائفاً من العسكر واقتتل عمر المذكور مع والده أبي سعيد عثمان وانتصر عمر وهرب أبوه أبو سعيد إلى تازه فسار ولده عمر وحصره بها ثم وقع الاتفاق بينهما على أن يسلم أبو سعيد الأمر إلى ولده عمر المذكور وأشهد عليه بذلك وبقى أبو سعيد فى تازة وسار عمر بالجيوش إلى جهة فاس فلحق عمر بعد أيام يسيرة مرض شديد فكاتب عسكره أباه بمدينة فاس وعنده بيوت الأموال والسلاح فحصره أبوه أبو سعيد نحو تسعة أشهر ثم وقع الاتفاق بينهما على جانب طائل من المال يتسلمه عمر المذكور وأن تكون له سجلماسة فتسلم عمر ذلك وسار من فاس إلى سجلماسة وتسلمها واستقر أبوه أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق فى المملكة على ما كان عليه وكان لعمر المذكور حينئذ من العمر نحو عشرين سنة .

وفيها : توفى السيد ركن الدين وكان إماما مبرزًا فى العلوم المعقولات والمنقولات وشرح الحاوى الصغير ومختصر ابن الحاجب فى الفقه وفضائله مشهورة .

ثم دخلت سنة ست عشرة وسبعمائة :

فيها : فى العشر الأخير من المحرم الموافق لأواخر العشر الأوسط من نيسان ترادفت الأمطار فحصل سيول عظيمة فى بلاد حلب وحماة وحمص وغرق أهل ضيعة من بلاد حمص مما يلى جهة جوسية .

وفيها : فى الثانى والعشرين من ربيع الأول الموافق لرابع عشر حزيران وصل إلى حماة من ديار مصر الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادارى وأوقع الوصية على أخبار آل عيسى ثم استقرت الوصية على خبر مهنا ومحمد ابنى عيسى وأحمد وقياض ابنى مهنا المذكور وركب الأمير بهاء الدين المذكور من عندى للجنا وسار عليها إلى مهنا واجتمع به على مربعة وهى منزلة تكون يوميا تقريباً من السخنة يوم الاثنين سلخ ربيع الأول من السنة المذكورة وتحدث معه فى انقطاعه عن التتر ولم ينتظم حال فعاد الأمير بهاء الدين المذكور إلى دمشق ثم عاد إلى موسى بن مهنا بالقرب من سلمية ثم عاد إلى دمشق وتوجه هو وفضل بن عيسى إلى الأبواب الشريفة واستقر فضل أميرا موضع أخيه مهنا ووصل إلى بيوته بتل أعد فى أوائل جمادى الأولى من هذه السنة .

ذكر مسيرى إلى مصر وعود المعرة

فى هذه السنة : حصلت تقدمتى على جارى العادة من الخيول والقماش والمصاغ وسألت دستورا لأتوجه بنفسى إلى الأبواب الشريفة فورد الدستور الشريف وسرت من حماة آخر نهار الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الآخر الموافق لسادس عشر تموز وكان خيلى قد تقدمتنى فلحقتهم على خيل البريد بدمشق وخرجت من دمشق فى نهار وصولى إليها وهو يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الآخر المذكور ووصلت إلى القاهرة عشية نهار الأحد ثامن عشر جمادى الأولى وأنزلت فى الكبش وحضرت بين يدى المواقف الشريفة السلطانية بكرة الاثنين تاسع عشر جمادى المذكورة وشملنى من الصدقات السلطانية ما يفوت الحصر من ترتيب الإقامات فى الطرقات من حماة إلى مصر ومن كثرة الرواتب مدة مقامى بالكبش ومن الخلع لى ولكل من فى صحبتى ووصلنى بحصانين بسروجهما ولجمهما أحدهما كان سرجه محلى ذهبا مصريا واتفق عند وصولى زيادة النيل على خلاف العادة ووفى ماء السلطان وكثر بحضورى فى نهار الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى الموافق لثانى عشر آب وتاسع عشر مسرى وهذا شىء لم يعهد فى جيلنا وأقمت فى الصدقات السلطانية ووصلنى بثلاث خلع أحدها أطلس تحتانى أصفر وفوقانى أحمر بطرز زركش وكلوته زركش وشاش تساعى والأخرى قباء منسوج بالذهب وطراز زركش يزيد عن مائة مثقال من الذهب المصرى بفروقاقم والخلعة الثالثة عند مسيرى قباء ثالث بالشرج وتصدق على بمدينة المعرة وقصبتها زيادة على ما بيدى وكتب لى بها تقليدا يشبه ما كتب لى بحماة ومدحنى شهاب الدين محمود كاتب الإنشاء الحلبى بقصيدة ذكر فيها صدقات السلطان وعود المعرة أضربنا عن غالبها خوف التطويل فمنها .

بك تزهى مواكب وأسره ··· ولك الشمس والقواضب أسره

وبأيامك التى هى روض ··· للأمانى تجنى ثمار المسره

بك كل الدنيا تهنى ويضحى ··· قدرها عاليا وكيف المعره

وتوجهت من الأبواب الشريفة وأنا مضمور محبور بأنواع الصدقات السلطانية وسرت من الكبش بعد العشاء الآخرة من الليلة المسفرة عن نهار الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة وقدمت مملوكى طيدمر الدوادار مبشرا على البريد لأهلى بحماة ثم لحقنى إلى سرياقوس الأمير سيف الدين كجرى أمير شكار بسنقور وكذلك وصلنى أحمال من الحلاوة والسكر والشمع زائداً عن الإقامات المرتبة فى الطرقات وكذلك وصلنى سيف محلى بالذهب المصرى وأتممت السير وتوجهت عن غزة للزيارة فزرت الخليل ثم القدس وسرت من القدس يوم الثلاث

الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ودخلت دمشق يوم الأحد مستهل رجب * ولما أصبحت سرت منها ودخلت حماة نصف الليلة المسفرة عن نهار الخميس خامس رجب الموافق للثالث والعشرين من أيلول فإنى قصدت فى ذلك عدم التثقيل على الناس فإنهم كانوا قد زينوا حماة واحتفلوا بالبسط لقدومى فدخلت بغتة ليلا لذلك ولم يكن عسكر حماة فيها فإنى جردتهم إلى حلب حسب المرسوم الشريف وساروا من حماة إلى حلب يوم خروجى من حماة إلى الديار المصرية فأقاموا بحلب ثم جردهم نائب حلب إلى عين تاب إلى الكختا ثم عادوا إلى حماة فى أول شعبان بعد قدومى قريب شهر .

وفيها : مرض الأمير سيف الدين كستاى نائب السلطنة بطرابلس والقلاع فى يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الآخرة الموافق لثامن أيلول فولى السلطان موضعه الأمير شهاب الدين قرطاى الذى كان نائبا بحمص وأقام فى النيابة بحمص الأمير سيف الدين أرقطاى أحد أمراء دمشق حينئذ .

وفيها : فى جمادى الآخرة سارمهنا بن عيسى وكان نازلاً بالقرب من عانة إلى خربندا واجتمع به بالقرب من قنغرلان ثم عاد إلى بيوته .

وفيها : فى ثانى عيد الفطر الموافق لتاسع عشر كانون الأول وقع بحماة والبلاد التى حواليها ثلوج عظيمة ودامت أياما وبقى على الأرض نصف ذراع ودام على الأرض أياما وانقطعت الطرق بسببه وكان ثلجاً لم أعهد مثله وكان البرد والجليد شديدا عاما فى البلاد حتى جلد الماء فى الديار المصرية ووقعت الثلوج باللاذقية والسواحل .

وفيها : جهزت صحبة لاجين المشد تقدمه لطيفة ومملوكا يسمى يلدز إلى المواقف الشريفة فوصل بذلك وقدمه فقبله وشملتنى صدقات السلطان صحبة لاجين المذكور بمسامحات ماعلى بضائع أجهزها من كافة التجار فى جميع البلاد وكذلك زادنى على المعرة بجملة غلال بلادها وضاعف على صدقاته وكان وصول لاجين بذلك إلى حماة السابع والعشرين من شوال من هذه السنة أعنى سنة ست عشرة وسبعمائة .

وفيها : قصد حميضة بن أبى نمى خربندا مستنصرًا فى إعادته إلى ملك مكة ودفع أخيه رميثة فجرد خربندا مع حميضة الدرفندى وهو النائب على البصرة وجرد معه جماعة من التتر وعرب خفاجة .

وفيها : فى ذى القعدة خرجت المعرة عنى وسبب ذلك أن محمد بن عيسى طلبها ليحضر إلى الطاعة فأجيب إلى ذلك وتسلمها نواب المذكور وكتب إلى السلطان بما طيب خاطرى من جهتها .

وفيها : بلغ السلطان أن حميضة قد جهز خربندا بعسكر وخزانة صحبة الدرفندى ليملكه

مكة فجهز السلطان نائبه فى السلطنة وهو المقر الأشرف السيفى أرغون الدوادار فحج وحج العسكر صحبته وعادوا سالمين * وأما حميضة والدرفندى فكان من أمرهما ما سنذكره .

وفيها : لما قدم عسكر مصر إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كان مقدمهم المقر السيفى أرغون فحضر إليه منصور بن حماد الحسينى صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فطلع معه يودعه إلى عيون حمزة فخلع نائب السلطنة على منصور المذكور وعلى ولده كبيش بن منصور وأعادهما إلى المدينة فلماحضر المحمل المصرى وصحبته العسكر خرج إليهم منصور فقبضوا عليه وأحضر معتقلا إلى بين يدى السلطان إلى ديار مصر فتصدق عليه السلطان وأفرج عنه وأمره بالعود إلى بلده .

وفى هذه السنة : أعنى سنة ست عشرة وسبعمائة فى السابع والعشرين من رمضان مات خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلوبن جنكز خان وكان جلوسه فى الملك فى أواخر ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة ومات بالمدينة الجديدة التى سماها السلطانية وكان اسم بقعتها قنغرلان فلما مات خطب بالسلطنة لولده أبى سعيد بن خربندا وكان عمره نحو عشر سنين واستولى على الأمر جوبان ابن الملك ابن تناون .

ذكر ما جرى لحميضة والدرفندى

وكان خربندا قد جهز حميضة وجهز معه الدرفندى نائب السلطنة بالبصرة وجهز معه عسكرا وخزانة ليسير الدرفندى بالعسكر مع حميضة ويقاتل عسكر المسلمين الواصلين إلى الحج ويملك حميضة بدل أخيه رميثة فسار الدرفندى وحميضة ومن معهم من عسكر التتر والعرب حتى جاوزوا البصرة فبلغهم موت خربندا فتفرقت تلك الجموع ولم يبق مع الدرفندى غير ثلثمائة من التتر وأربعمائة من عقيل عرب البصرة وكان قد استولى على البصرة ابن السوايكى فأرسل استوحى محمد بن عيسى على الدرفندى فجمع محمد بن عيسى عربًا من خفاجة وعرب إخوته وأولاده إخوته وسار إلى الدرفندى فأحرز له بالقرب من البصرة واتقع معه فى العشر الأخير من ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة ست عشرة وسبعمائة فانهزم الدرفندى فى بضع وثلاثين نفسا من إلزامه وانهزم حميضة برقبته وأخذ حريم حميضة وما كان معه من الأموال وكذلك الخيم والأثقال والجمال وكان ذلك شيئا عظيما وفيها هرب التراكمين الكنجاوية إلى طاعة السلطان وفارقوا التتر فسارت التتر فى طلبهم فأنجد الكنجاويين عسكر البيرة واتقعوا مع التتر فانهزم التتر هزيمة قبيحة وأسر منهم نحو خمسين من المغل وقتل منهم جماعة ووصل الكنجاوية سالمين بذواتهم وحريمهم إلى البلاد الإسلامية .

ثم دخلت سنة سبع عشرة وسبعمائة :

ولما دخلت هذه السنة كان الصبى ابن خرابندا واسمه أبو سعيد قد حضر من خراسان صحبة سونج وغيره من الأمراء إلى ظاهر السلطانية واجتمعوا مع جوبان ونزلوا جميعهم بظاهر السلطانية مع ذيل الجبل ومضى من أول هذه السنة عدة أشهر ولم يجلس هذا الصبى على سرير الملك بل اسم السلطنة للصبى والحاكم جوبان وفى الباطن بينه وبين سونج الوحشة كل من سونج وجوبان يختار أن يكون هوالذى يجلس الصبى ويكون نائبه فتأخر جلوسه لذلك ثم إنهم اتفقوا وأخرجوا استقطلو عنهم وجهزوه إلى خراسان وكان قد تحرك على خراسان التتر الذين بخوارزم وما وراء النهر وقيل إن ملكهم باشور .

وفيها : فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر الموافق لعاشر آيار من شهور الروم كان السيل الذى خرب بعلبك فإنه جاء من شرقيها بين الظهر والعصر فكسروا السور وقوى السيل وقلع برجا وبعض النتتين اللتين على يمين البرج وشماله وسار بالبرج صحيحا يخرب بالبلد ويخرب مايمر به من الدور مسافة بعيدة قيل إنها خمسمائة ذراع ودخل السيل الجامع وغرق به جماعة ورمى المنبر وخرب بعض حيطان الجامع وبلغ السيل إلى رءوس العمد وكذلك دخل السيل المذكور الحمامات وغرق فيها جماعة وذهب للناس بذلك أموال عظيمة وخرب دورا كثيرة وأسواقا وغرق عدة كثيرة من الرجال والنساء والأطفال وأتلف كتب الحديث والمصاحف وكانت مضرته عظيمة .

وفيها : فى ربيع الآخر كانت الإغارة على آمد وسبب ذلك أن نائب السلطنة بحلب جهز عدة كثيرة من عسكر حلب وغيرهم من التراكمين والعربان والطماعة وقدم عليهم شخصا تركمانيا من أمراء حلب يقال له ابن جاجا وكان عدة المجتمعين المذكورين ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا إلى آمد وبغتوها ودخلوها ونهبوا أهلها المسلمين والنصارى ثم بعد ذلك أمر بإطلاق من كان مسلما فأطلقوا بعد أن ذهبت أموالهم وبالغ المجتمعون المذكورون فى النهب حتى نهبوا الجامع وأخذوا بسطه وقناديله وفعلوا بالمسلمين كل فعل قبيح وعادوا سالمين وقد امتلأت أيديهم من الكسوبات الحرام التى لا تحل ولا تجوز شرعا وخلت آمد من أهلها وصارت كأنها لم تغن بالأمس

وفيها : فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر وصلنى من صدقات السلطان حصان برقى بسرجه ولجامه صحبة موسى أحد أمراء أخورية فوصلته بالخلع والدراهم وقابلت الصدقات بمزيد الدعاء .

وفيها : خرج السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه من الديار المصرية فى رابع

جمادى الأولى الموافق لرابع عشر تموز إلى حسبان من البلقاء ووصل إليها فى سادس عشر جمادى الأولى ووصل إليه فى حسبان المقر السيفى تنكز نائب السلطنة بالشام ووصل إليه صحبته جماعة من الأمراء وكنت طلبت دستورا بالحضور فرسم بتجهيز خيل التقدمة ومقامى بحماة فجهزتها وأقمت وقدمت خيلى يوم نزوله على حسبان يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الأولى وكنت قد جهزتها صحبة طيدمر الدوادار فقبلت وتصدق السلطان وأرسل إلى صحبة طيدمر تشريفًا كاملا على جارى العادة من الأطلس الأحمر والأصفر والكلوتة الزركش والطراز الزركش بالذهب المصرى وكذلك تصدق بثلاثين ألف درهم وخمسين قطعة قماش وركبت بالتشريف المذكور الموكب بحماة نهار الاثنين سادس جمادى الثانية من هذه السنة أعنى سنة سبع عشرة وسبعمائة ثم عاد السلطان إلى الديار المصرية من الشوبك ولم يصل فى خرجته هذه إلى دمشق بل رجع من بلاد البلقاء .

وفيها : وصل مثال السلطان بالبشارة بالنيل وأن الخليج كسر فى رابع جمادى الأول وسلخ أبيب قبل دخول مسرى وهذا مما لا يعهد فإنه تقدم عن عادته شهرا .

وفيها : بعد رحيل السلطان عن الكرك أفرج عن الأمير سيف الدين بهادراص ووصل بهادراص إلى دمشق وأتم السلطان السير ودخل مصر يوم الأربعاء منتصف جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفيها : فى أثناء ذى الحجة ظهر فى جبال بلاطنس إنسان من بعض النصيرية وادعى أنه محمد بن الحسن العسكرى ثانى عشر الأئمة عند الإمامية الذى دخل السرداب المقدم ذكره فاتبع هذا الخارجى الملعون من النصيرية جماعة كثيرة تقدير ثلاثة آلاف نفر وهجم مدينة جبلة فى يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة والناس فى صلاة الجمعة ونهبت أموال أهل جبلة وسلبهم ما عليهم وجرد إليه عسكرًا من طرابلس فلما قاربوه تفرق جمعه وهرب واختفى فى تلك الجبال فتتبع وقتل لعنه الله وباد جمعه وتفرقوا ولم يعد لهم ذكر .

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وسبعمائة :

فى أوائل هذه السنة سار فضل بن عيسى إلى ابن خربندا وجوبان إلى بغداد واجتمع بهما وأحضر لهما تقدمة من الخيول العربية فأقبل جوبان عليه وأعطى فضل المذكور البصرة واستمرت له إقطاعاته التى كانت له بالشام بيده مع البصرة وأقام فضل عندهما مدة واجتمع بقراسنقر هناك ثم عاد إلى بيوته وبعد مسير فضل عنهما سار جوبان وابن خربندا عن بغداد إلى قنغرلان وهى المدينة الجديدة المسماة بالسلطانية .

وفى هذه السنة : توجهت من حماة إلى الديار المصرية وخرجت الخيل قدامى من حماة فى

نهار السبت منتصف جمادى الأولى الموافق لنصف تموز أيضا وتأخرت أنا بحماة ثم خرجت من حماة وركبت الخيل خيل البريد فى نهار الاثنين الرابع والعشرين من جمادى الأولى والرابع والعشرين من تموز ولحقت خيلى وثقلى بغزة نهار الأحد غرة جمادى الآخرة وهو اليوم الثلاثون من تموز وسرت بهم جميعا ووصلت إلى قلعة الجبل وحضرت بين يدى مولانا السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه بها فى نهار الخميس ثانى عشر جمادى الآخرة الموافق لعاشر آب الرومى وشملتنى صدقاته بالتنزيل فى الكبش وترتيب الرواتب الكثيرة بعد ما كان رتب لى فى جميع المنازل من حماة إلى الديار المصرية الرواتب الزائدة عن كفايتى وكفاية كل من هو فى صحبتى من الأغنام والخبز والسكر وحوائج الطعام والشعير وألبسنى تشريفا فى حال قدومى من الأطلس بطرز الزركش والكلوتة على العادة وأركبنى حصانا بسرج محلى بالذهب وأقمت تحت صدقاته فى الكبش على أجمل حال ثم أنه عن لى أن أرى مدينة الإسكندرية فسألت ذلك وحصلت الصدقات السلطانية بإجابتى لذلك وتقدمت المراسيم أننى أسير إليها فى المراكب وأعود فى البر على الخيل فسرت أنا ومن فى صحبتى فى حراقتين وتوجهت من الكبش فى يوم الاثنين لثالث والعشرين من جمادى الآخرة وهو الموافق للحادى والعشرين من آب وسرت فى النيل إلى أن وصلت إلى فوة وسرنا منها فى الخليج الناصرى ووصلت الإسكندرية فى بكرة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ووصلنى بها من صدقات السلطان مائة قطعة قماش من عمل إسكندرية وأقمت بها حتى صليت الجمعة وخرجت من إسكندرية وركبت الخيل وبت فى تروجة ووصلت إلى الكبش بكرة الاثنين الثلاثين من جمادى الآخرة وأقمت به وكسر الخليج بحضورى فى يوم الأربعاء ثانى رجب الموافق للثلاثين من آب وأول يوم من توت من شهور القبط ثم شملتنى الصدقات السلطانية بزيادة عدة قرايا من بلد المعرة على ما هو مستقر بيدى وأفاض على وعلى من هو فى صحبتى بالتشاريف وأمرنى بالعود إلى بلدى فخرجت من بين يديه من الميدان فى نهار السبت ثانى عشر رجب من هذه السنة الموافق لثامن أيلول ووصلت إلى حماة نهار الخميس مستهل شعبان الموافق للثامن والعشرين من أيلول واستقريت فيها .

وفى هذه السنة : أعنى سنة ثمان عشرة عند توجه الحاج من مصر أرسل السلطان الأمير بدر الدين بن التركمانى وكان المذكور مشد الدواوين بديار مصر فأرسله السلطان مع الحجاج إلى مكة بعسكر وسار المذكور حتى وصل ووقف الوقفة وفى أيام التشريف أرسل رميثه صاحب مكة حسبما أمر به مولانا السلطان بحكم تقصيره ومواطأته فى الباطن لأخيه حميضة وأرسله معتقلا إلى ديار مصر واستقر بدر الدين بن التركمانى المذكور نائبا وحاكما فى مكة ولما دخلت سنة تسع عشرة وسبعمائة أرسل السلطان عطيفة وهو من إخوة حميضة وكان عطيفة المذكور مقيما بمصر فأرسله السلطان ليقيم بها مع بدر الدين بن التركمانى المذكور (وفى أواخر هذه السنة) أعنى سنة ثمانى عشرة وسبعمائة حالفت عقيل عرب الأحساء والقطيف على مهنا بن

عيسى وطردوا أخاه فضلاً عن البصرة فجمع مهنا العرب وقصد عقيل والتقى الجمعان وافترقا على غير قتال ولا طيبة بعد أن أخذت عقيل أباعر كثيرة تزيد على عشرة آلاف من عرب مهنا المذكور وعاد كل من الجمعين إلى أماكنها وكانت هذه البرية وغالب بلاد الإسلام مجدبة لقلة الأمطار وهلك العرب وضرب دواب تفوت الحصر .

(وفيها) قريبا من منتصف هذه السنة خرج اللحيانى وهو أبو زكريا يحيى الحفصى من ملك تونس وكان اللحيانى المذكور قد ملك أفريقية حسبما سقنا وقدمنا ذكره مع جملة الحفصيين فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة فلما كانت هذه السنة جمع أخو خالد الذى مات فى حبس اللحيانى فقصد اللحيانى فهرب منه إلى طرابلس وتملك أخو خالد تونس ولم يقع لى اسم أخى خالد المذكور وكان اللحيانى ولداتها وكان اللحيانى المذكور يخاف منه فاعتقل ولده المذكور فلما استولى أخو خالد المذكور على تونس وطرد اللحيانى عن المملكة أخرج اللحيانى ولده من الاعتقال وجمع إليه الجموع والتقى مع أخى خالد فانتصر أخو خالد وقتل ابن اللحيانى واستقر اللحيانى بطرابلس الغرب كالمحصور بها ثم إن اللحيانى آيس من البلاد وهرب بأهله ومن تبعه وقدم بهم إلى الديار المصرية فى سنة تسع عشرة وقصد الحج وتوجه مع الحجاج فمرض ورجع من أثناء الطريق ثم إنه قصد الإقامة بالإسكندرية فسار إليها وأقام بها .

ثم دخلت سنة تسع عشرة وسبعمائة

فى هذه السنة : فى أواخر ربيع الآخر هرب رميثة بن ابى نمى الذى كان صاحب مكة وكان المذكور أفرج عنه وأكرم غاية الإكرام فسولت له نفسه الهروب إلى الحجاز فهرب وأركب السلطان خلفه جماعة وتبعوه وأمسكوه بالقرب من عقبة أيلة على طريق حاج مصر وأحضروه فاعتقل بقلعة الجبل .

ذكر الوقعة العظيمة التى كانت بالأندلس

وفى هذه السنة : اجتمعت الفرنج فى جمع عظيم واجتمعت فيه عدة من ملوكهم وكان أكبرهم ملك قشتيلية واسمه جوان وقصد ابن الأحمر ملك غرناطة فبذل له قطيعة فى كل يوم مائة دينار وفى كل أسبوع ألف دينار فأبى الفرنج أن يقبلوا ذلك فخرج المسلمون من غرناطة بعد أن تعاهدوا على الموت واقتتلوا معهم فأعطاهم الله النصر وركبوا قفاء الفرنج يقتلون ويأسرون كيف شاءوا وقتل جوان المذكور وأسرت امرأته وحصل للمسلمين من الغنائم ما يفوت الحصر حتى قيل كان فيها مائة وأربعون قنطارًا من الذهب والفضة وأما الأسرى فتفوت الحصر .

ذكر مسيرى إلى مصر ثم الحجاز الشريف

وفى هذه السنة : حج السلطان من الديار المصرية ولما قرب أوان الحج أرسل جمال الدين عبد الله البريدى ورسم إلىّ أن أحضر إلى الأبواب الشريفة فركبت خيل البريد وأخذت فى صحبتى أربعة من مماليكى وخرجت من حماة يوم الجمعة سادس عشر شوال الموافق لسلخ تشرين الثانى وسرت حتى وصلت إلى مصر وحضرت بين يدى السلطان بقلعة الجبل نهار السبت الرابع والعشرين من شوال الموافق لثمان كانون الأول ونزلت بالقاهرة بدار القاضى كريم الدين وأقمت حتى خرجت صحبة الركاب السلطانى .

ذكر خروج السلطان وتوجهه إلى الحجاز

وفى هذه السنة : فى يوم السبت ثانى ذى القعدة خرج السلطان إلى الدهليز المنصوب وكان قد نصب له قرب العش وخرج من قلعة الجبل بكرة السبت المذكور وتصيد فى طريقه الكراكى وكنت بين يديه فانفرج على الصيد وصاد عدة من الكراكى من السقاقر وغيرها ونزل بالدهليز المنصوب وأقام به يتصيد فى كل نهار ببلاد الحوف ورحل من المنزلة المذكورة بكرة الخميس سابع ذى القعدة الموافق لعشرين من كانون الأول وسار على درب الحاج المصرى على السويس وأيلة وسرت فى صدقاته حتى وصلنا رابغ فى يوم الاثنين ثانى الحجة الموافق لرابع عشر كانون الثانى وأحرم من رابغ وسار منها فى يوم الثلاث غد النهار المذكور واتفق من جملة سعادته وتأييده طيب الوقت فإنه كان فى وسط الأربعينيات ولم نجد بردا نشكو منه مدة الإحرام وصار حتى دخل مكة بكرة السبت سابع ذى الحجة ثم سار إلى منى ثم إلى مسجد إبراهيم وأقام هناك حتى صلى به الظهر وجمع إليها العصر ووقف بعرفات راكبا تجاه الصخرات فى يوم الاثنين ثم أفاض وقدم إلى منى وكمل مناسك حجه وكان فى خدمته القاضى بدر الدين بن جماعة قاضى قضاة ديار مصر الشافعى وواظب السلطان فى جميع أوقات المناسك بحيث أن السلطان حافظ على الأركان والواجبات والسنن محافظة لم أرها من أحد ولما كمل مناسك حجه سار عائدا إلى مقر ملكه بالديار المصرية وخرجت هذه السنة أعنى سنة تسع عشرة وهو بين ينبع وأيلة بمنزلة يقال لها القصب وهى إلى أيلة أقرب ولقد شاهدت من جزيل صدقاته وإنعامه فى هذه الحجة مالم أقدر أن أحصره وإنما أذكر نبذة منه وهو أنه سار فى خدمته ما يزيد على ستين أميراً أصحاب طبلخانات وكان لكل منهم فى كل يوم فى الذهاب والإياب ما يكفيه من عليف الخيل والماء

والحلوى والسكر والبقسماط وكذلك لجميع العسكر الذين ساروا فى خدمته وكان يفرق فيهم فى كل يوم فى تلك المفاوز وغيرها ما يقارب أربعة آلاف عليقة شعير ومن البقسماط والحلوى والسكر ما يناسب ذلك وكان فى جملة ما كان فى الصحبة الشريفة أربعون جملا تحمل محاير الخضراوات مزروعة وكان فى كل منزلة يحصد من تلك الخضروات ما يقدم صحبة الطعام بين يديه وفرق فى منزلة رابغ على جميع من فى الصحبة من الأمراء والأجناد وغيرهم جملا عظيمة من الدراهم بحيث كان أقل نصيب فرق فى الأجناد ثلثمائة درهم وما فوق ذلك إلى خمسمائة درهم ونصيب أمراء العشرات ثلاثة آلاف درهم * وأما الأمراء أصحاب الطبلخانات فوصل بعضهم بعشرين ألف درهم وبعضهم بأقل من ذلك فكان شيئا كثيراً وأما التشاريف فأكثر من أن تحصر ثم كان ما سنذكره فى سنة عشرين وسبعمائة إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة عشرين وسبعمائة :

ذكر قدوم السلطان إلى مقر ملكه

استهل السلطان غرة المحرم من هذه السنة فى القصب وهى منزلة عن أيلة عن تقدير أربع مراحل وسار السلطان منها ونزل بأيلة وأقام بها ثلاثة أيام ينتظر وصول خيل وخزانة كانت له بالكرك وبعد وصول ذلك رحل السلطان وسار حتى دخل قلعة الجبل بكرة نهار السبت ثانى عشر المحرم من هذه السنة الموافق للثالث والعشرين من شباط وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا ركب جميع الجيش وقبلوا الأرض بين يديه * ولما صار على تقدير أربعة آلاف ذراع من القلعة أخذت الأمراء فى بسط الشقق الفاخرة بين يدى فرسه فبسطوا واستمر البسط إلى أن دخل القلعة المنصورة فى أسعد وقت من ضحى يوم السبت المذكور .

ذكر ما أولانى من عميم الصدقات وجزيل التطولات

سرت من حماة على البريد ولم يصحبنى مركوب لى ولاشىء من أدوات المسافر فتصدق على وأنزلنى عند القاضى كريم الدين فكان يبالغ فى الإحسان إلىّ بأنواع الأمور من الملابس والمراكيب والأكل وكان ينصب لى خيما مختصا بى يكفى بجميع ما أحتاجه من الفرش للنوم والمأكل والغلمان المختصة بى وكان من ذلك لم تنقطع التشاريف على اختلاف أنواعها لا خلعها على من اختار وكان السلطان فى طول الطريق فى الرواح والعود يتصيد الغزلان بالصقور وأنا فى

صدقاته أتفرج ويرسل إلىّ من الغزلان التى يصيدها وتقدم مرسومه إلى ونحن نسير اننى اذا وصلت إلى ديار مصر أسلطنك وتتوجه إلى بلدك وأنت سلطان واستعفيت عن ذلك واستقلته وتألمت منه استصغارا لنفسى وتعظيماً لاسمه الشريف أن يشارك فيه وبقى الأمر فى ذلك كالمتردد إلى أن وصل إلى مقر ملكه حسبما ذكرناه ونزلت أنا عند القاضى كريم الدين بداره داخل باب زويلة بالقرب إلى بين القصرين وأقمت هناك وتقدم مرسوم السلطان بإرسال شعار السلطنة إلىّ فحضرت الموالى والأمراء وهم سيف الدين الماس أمير حاجب وسيف الدين قبجق والأمير علاء الدين أيدغمش أميراخور والأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى والأمير سيف الدين طيبال أمير حاجب أيضاً وحضر من الأمراء الخاصكية تقدير عشرين أميرا وحضر صحبتهم التشريف الأطلس الكامل المزركش والنمجا الشريفة السلطانية والغاشية المنسوجة بالذهب المصرى وعليها القبة والطير وثلاثة سناجق وعصائب وتقليد يتضمن السلطنة والجمدارية السلطانية وسلحدار بسيفين معلقين على كتفه والشاويشية وحضر جميع ذلك إلى المدرسة المنصورية بين القصرين وقدم لى حصان كامل العدة فركبته بكرة الخميس سابع عشر المحرم الموافق للثامن والعشرين من شباط بالشعار المذكور ومشت الأمراء إلى أثناء الطريق وركبوا ولما قاربت قلعة الجبل نزلوا جميعهم واستمريت حتى وصلت إلى قرب باب القلعة ونزلت وقبلت الأرض للسلطان إلى جهة القلعة وقبلت التقليد الشريف ثم أعدت تقبيل الأرض مراراً ثم طلعت صحبة النائب وهو المقر السيفى أرغون الدوادار إلى القلعة وحضرت بين يدى السلطان فى ضحوة النهار المذكور فقبلت الأرض فأولانى من الصدقة مالا يفعله الوالد مع ولده وعند ذلك أمرنى بالمسير إلى حماة وقال يا فلان لك مدة غائب فتوجه إلى بلدك فقبلت الأرض وودعته وركبت خيل البريد عند العصر من نهار الخميس المذكور وشعار السلطنة صحبتى على فرس بريد وسرت حتى قاربت حماة وخرج من بها من الأمراء والقضاة وتلقونى وركبت بالشعار المذكور ودخلت حماة ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من المحرم من هذه السنة الموافق لثامن آذار بعد أن قرئ تقليد السلطنة بنقيرين فى خام كان قد نصب هناك ولولا مخافة التطويل كنا ذكرنا نسخته .

ذكر الإغارة على سيس وبلادها

وفى هذه السنة : تقدمت مراسيم السلطان بإغارة العساكر على بلاد سيس ورسم لمن عينه من العساكر الإسلامية الشامية فسار من دمشق تقدير ألفى فارس وسار الأمير شهاب الدين قرطاى بعساكر الساحل وجردت من حماة أمراء الطبلخانات الذين بها وسارت العساكر المذكورة من حماة فى العشر الأول من ربيع الأول من هذه السنة ووصلوا إلى حلب ثم خرجت

عساكر حلب صحبة المقر العلاى الطنبغا نائب السلطنة بحلب وسارت العساكر المذكورة عن آخرهم ونزلوا بعمق حارم وأقاموا به مدة ثم رحلوا ودخلوا إلى بلاد سيس فى منتصف ربيع الآخر من هذه السنة الموافق للرابع والعشرين من آيار وساروا حتى وصلوا إلى نهر جيحان وكان زائدا فاقتحموه ودخلوا فيه فغرق من العساكر جماعة كثيرة وكان غالب من غرق التراكمين الذين من عسكر الساحل وبعد أن قطعوا جيحان المذكور ساروا ونازلوا قلعة سيس وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور وغنموا منها وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشى وكانت شيئا كثيراً وأقاموا ينهبون ويخربون ثم عادوا وقطعوا جيحان وكان قد انحط فلم ينضر أحد به ووصلوا إلى بغراس فى نهار السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر المذكور ثم ساروا إلى حلب وأقاموا بها مدة يسيرة حتى وصل إليهم الدستور فسار كل عسكر إلى بلده .

وفى هذه السنة : فى أثناء ربيع الأول وصلت الجهة فى البحر إلى الديار المصرية وكان فى خدمتها ما يقارب ثلاثة آلاف نفر من رجال ونساء واحتفل بهم إلى غاية ما يكون وأدرت عليهم الإنعامات والصلات .

ذكر قطع أخبار آل عيسى وطردهم عن الشام

وفى هذه السنة : تقدمت مراسيم السلطان بقطع أخبار المذكورين وطردهم بسبب سوء صنيعهم فقطعت أخبارهم ورحلوا عن بلاد سلمية فى يوم الاثنين ثانى جمادى الأولى من هذه السنة الموافق لعاشر حزيران وساروا إلى جهات عانة والحديثة على شاطىء الفرات .

وفيها : عند رحيل المذكورين وصل الأمير سيف الدين قبجق وسار بجمع عظيم من العساكر الشامية والعرب فى أثر المذكورين حتى وصل إلى الرحبة ثم سار منها حتى وصل إلى عانة ولما وصل المذكور هناك هرب آل عيسى إلى وراء الكبيسات وعيسى المذكور هو عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عصبة بن فضل بن ربيعة وأقام السلطان موضع مهنا محمد بن أبى بكر بن على بن حديثة بن عصبة المذكور ولما جرى ذلك عاد الأمير سيف الدين المذكور وأقام بالرحبة حتى نجزت مغلاتها وحملت إلى القلعة ثم سار منها ونزل على سلمية فى يوم الخميس منتصف رجب من السنة المذكورة الموافق للحادى والعشرين من آب واستمر مقيما على سلمية حتى وصل إليه الدستور فسار منها إلى الديار المصرية فى يوم الاثنين تاسع شهر رمضان من السنة المذكورة الموافق لثالث عشر تشرين الأول وأتم سيره حتى وصل إلى مصر .

ذكر هلاك صاحب سيس

وفى هذه السنة : مات صاحب سيس أوشين بن ليفون عقيب الإغارة على بلده وكان المذكور مريضاً لما دخلت العساكر إلى بلاده وشاهد حريق بلاده وخراب أماكنه وقتل رعيته وسوق دوابهم فتضاعفت آلامه وهلك فى جمادى الأولى من هذه السنة وخلف ولدا صغيراً دون البلوغ فأقيم مكانه وتولى تدبير أمره جماعة من كبار الأرمن .

ذكر مقتل حميضة

ولما جرى من حميضة ما تقدم ذكره واستمر وصول العساكر من الديار المصرية إلى مكة لحفظها من المذكور رأى المذكور عجزه وضاقت عليه الأرض بما رحبت فعزم على الحضور إلى مقدم العسكر المقيم بمكة وهو الأمير ركن الدين بيبرس أميراخور ودخوله فى الطاعة وكان قد هرب من بعض المماليك السلطانية من منى لما حج السلطان ثلاثة مماليك يقال لاحدهم أيدغدى والتجئوا إلى حميضة فى برية الحجاز فآواهم وأكرم مثواهم فلما عزم حميضة على الحضور إلى الطاعة اتفقوا على قتله واغتياله وكان حميضة قد نزل على القرب من وادى نخلة فلما كان وقت القيلولة ذهب إلى تحت شجرة ونام فقتله أيدغدى المذكور بالسيف وقطع رأس حميضة وأحضره إلى مقدم العسكر بمكة فحمل إلى بين يدى السلطان بالديار المصرية وكفى الله شر حميضة المذكور ولقاء عاقبة بغيه وكان حميضة المذكور قد ذبح أخاه أبا الغيث فاقتص الله منه وكان مقتله فى يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى من هذه السنة الموافق للرابع والعشرين من تموز بالقرب من وادى نخلة .

وفيها : تصدق السلطان على ولده محمد وأرسل له تشريفاً أطلس أحمر بطرز زركش وقندس وتحتانى أطلس أصفر وشربوش مزركش ومكلل باللؤلؤ وأمر له بأمرية وستين فارساً لخدمته طبلخاناه فركب محمد بالتشريف المذكور بحماة يوم الاثنين الخامس من رجب الموافق الحادى عشر آب وكان عمره حينئذ تسع سنين .

وفيها : حج المقر السيفى أرغون الدوادار وكان السلطان قد عفا عن رميثة وأفرج عنه وأرسله صحبة المقر السيفى إلى مكة ورسم لرميثة المذكور بنصف متحصل مكة ويكون النصف الآخر لعطفية أخيه فسافر المقر السيفى وقرر رميثة بمكة حسبما رسم به السلطان .

وفيها : فى يوم الاثنين تاسع ذى الحجة وصل المجد إسماعيل السلامى رسولا من جهة أبى

سعيد ملك التتر ومن جهة جوبان وعلى شاه بهدايا جليلة وتحف ومماليك وجوارى مما يقارب قيمته خمسين تمانا والتمان هو البدرة وهى عشرة آلاف درهم وسار بذلك إلى السلطان .

وفيها : فى شوال الموافق لتشرين الثانى شرعت فى عمارة القبة وعمل المربع والحمام على ساقيه نخيلة بظاهر حماة وفرغت العمارة فى المحرم من سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وجاء ذلك من أنزه الاماكن .

وفيها : أو فى أواخر سنة تسع عشرة وسبعمائة جرى بين الفرنج الجنوبيين قتال شديد وذلك بين قبيلتين منهم يقال لإحدى القبيلتين أسبينيا وللأخرى دوريا حتى قتل منهم ما ينيف عن خمسين ألف نفر وكان إحدى القبيلتين أصحاب داخل جنوة والأخرى أصحاب خارج البلد اسبينيا بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وكسر الباء الموحدة من تحتها وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر النون وفتح ياء مثناة من تحتها وفى آخرها ألف مقصورة ودوريار بضم الدال المهملة وسكون الواو وكسر الراء المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها وفى آخرها ألف والله أعلم .

تم دخلت سنة إحدى وعشرين وسبعمائة :

فيها : فى مستهل جمادى الأولى توفيت بحماة فاطمة خاتون بنت الملك المنصور صاحب حماة وكانت كثيرة الإحسان .

وفيها : عبر مهنا بن عيسى الفرات وتوجه إلى أبى سعيد ملك التتر مستنصرا به على المسلمين وأخذ معه تقدمة برسم التتر سبعمائة بعير وسبعين فرساً وعدة من الفهود .

وفيها : حضر رسول تمرتاش بن جوبان المستولى على بلاد الروم بتقدمة إلى الأبواب الشريفة بديار مصر .

وفيها : ورد مرسوم السلطان على مؤلف الأصل يأمره بالحضور ليسير معه فى صيوده قال فسرت من حماة على البريد وسبقت تقدمتى وحضرت لدى المواقف الشريفة وهو نازل بالقرب من قليوب فبالغ فى إدرار الصدقات على .

(وفيها) رحل السلطان من الأهرام وسار فى البرية متصيداً حتى وصل إلى الحمامات وهى غربى الإسكندرية على مقدار يومين ثم عاد إلى القاهرة .

وفيها : دخل تمرتاش المذكور بعسكره إلى بلاد سيس وأغار وقتل فهرب صاحب سيس الى قلعة إياس التى فى البحر وأقام تمرتاش ينهب ويخرب نحو شهر ثم عاد إلى بلاد الروم .

وفيها : عاد مؤلف الأصل من الخدمة الشريفة إلى حماة .

وفيها : توجه نائب الشام تنكز إلى الحجاز الشريف وكان قد توجه من الديار المصرية الأدر السلطانية إلى الحج بتجمل وعظمة لم يعهد مثلها .

ذكر وفاة صاحب اليمن

وفيها : ليلة الثلاثاء فى ذى الحجة توفى بمرض ذات الجنب بتعز الملك المؤيد عزيز الدين داود بن المظفر يوسف بن عمر بن على بن رسول فاتفق أرباب الدولة وأقاموا ولده على ولقب الملك المجاهد سيف الإسلام بن داود المذكور وهو إذ ذاك أول ماقد بلغ ثم خرج عليه عمه الملك المنصور أيوب ولقبه زين الدين أخو داود فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة فملك اليمن واعتقل ابن أخيه سيف الإسلام وقعد المنصور فى مملكة اليمن دون ثلاثة أشهر ثم هجم من العسكر وأخرجوا سيف الإسلام وأعادوه إلى ملك اليمن واعتقلوا عمه المنصور أيوب وبقى أمر مملكة اليمن مضطرباً غير منتظم الأحوال .

ثم دخلت سنة أثنتين وعشرين وسبعمائة

فيها وصل الأمير فضل بن عيسى صحبة الأدر السلطانية من الحجاز داخلا عليهم مستشفعا بهم فرضى عنه السلطان وأقره على إمرة العرب موضع محمد بن أبى بكر أمير آل عيسى .

ذكر فتوح إياس

فيها : وصل بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية وسار صحبتهم غالب عسكر حماة إلى حلب المحروسة وانضم إليهم عسكرها وتقدم عليهم نائب حلب الطنبغا وأتوا السير حتى نزلوا إياس من بلاد سيس وحاصروها وملكوها بالسيف وعصت عليهم القلعة التى فى البحر فأقاموا عليها منجنيقاً عظيما وركب المسلمون إليها طريقين فى البحر إلى أن قاربوا القلعة فهربت الأرمن منها وأخلوها وألقوا فى القلعة نارا وملك المسلمون القلعة نهار الأحد الحادى والعشرين من ربيع الآخر وهدموا ما قدروا على هدمه وعاد كل عسكر إلى بلده .

وفيها : توجه أتامش الناصرى رسولاً إلى أبى سعيد ملك التتر وعاد إلى القاهرة بانتظام الأمر واتفاق الكلمة .

وفيها : وصل مؤلف الأصل تغمده الله برحمته إلى خدمة السلطان قال وسرت فى خدمة السلطان إلى الأهرام وحضر هناك رسول صاحب برشونة وهو أحد ملوك الفرنج بجهات الأندلس فقبل السلطان هديتهم وأنعم عليهم أضعاف ذلك ثم رحل من الأهرام وتوجه إلى الصعيد الأعلى وأنا معه إلى أن وصلنا دندرة وهى عن قوص مسيرة يوم وعدنا إلى القاهرة .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة :
فيها : عاد الملك المؤيد إلى حماة من خدمة السلطان بعد أن غمره بالإنعام والعطايا .

ذكر السنة الحمرا

فيها جدبت الأرض بالشام من دمشق إلى حلب وانحبس القطر ولم ينبت شيء من الزراعات إلا القليل النادر واستسقى الناس فى هذه البلاد فلم يسقوا وأما السواحل التى من طرابلس إلى اللاذقية وجبل اللكام فإن الأمطار مازالت تقع فى هذه النواحى فاستوت زراعاتهم .

وفيها : مات قاضى القضاة الشافعى بدمشق المعروف بابن صقرى وهو نجم الدين أحمد وولى مكانه جمال الدين المعروف بالزرعى .

وفيها : عزل السلطان كريم الدين بن عبد الكريم عن منصبه واستعاد منه ما كان عنده من الأموال وأرسله إلى الشوبك فأقام بها وولى مكانه أمين الملك عبد الله .

وفيها : رسم السلطان لمؤلف الأصل أن لا يرسل وفوده نظرا فى حاله بسبب محل البلاد ، فأرسلت عدة يسيرة من الخيل التى كنت حصلتها فتصدق على بتشريف كامل على عادتى وستين قطعة إسكندرى وخمسين ألف درهم وألف مكوك حنطة .

وفيها : حضرت رسل أبى سعيد ملك التتر ورسل نائبه جوبان وتوجهوا إلى الأبواب الشريفة بالقاهرة ثم عادوا إلى بلادهم .

وفيها : وصلت الملكة بنت أبغا واسمها قطلوا وفى خدمتها عدة كثيرة من التتر وتوجهت إلى الحج ورسم السلطان ورتب لها فى الطرقات الإقامات الوافرة .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة :

فيها : تقدم السلطان بإبطال المكوس والضرائب عن سائر أصناف الغلة بجميع الشام فأبطل وكان ذلك جملة تخرج عن الإحصاء .

ذكر المتجددات فى بلاد الروم

كان ببلاد الروم تمرتاش بن جوبان فاستولى عليها واستكثر من المماليك وقطع ما كان يحمل منها إلى الأردو والخواتين وصار كلما جاءه رسول لطلب المال يهينه ويعيده بغير زبدة فلما كثر ذلك منه سار إليه أبوه جوبان فعزم تمرتاش على قتال أبيه وأنفق فى عسكره ومماليكه فلما قرب جوبان منه فارقه عسكره وصاروا مع جوبان * فلما رأى تمرتاش ذلك حضر مستسلما إلى أبيه جوبان فتقدم جوبان بإمساكه وأخذه معه معتقلا إلى الأردو وذلك بعد أن أقام ببلاد الروم شخصاً من التتر موضع تمرتاش .

ذكر المتجددات باليمن

وفى هذه السنة : لم يبق فى يد الملك المجاهد على بن داود غير حصن تعز وخرج باقى ملك اليمن عنه وسار بيد ابن عمه صاحب الدملوء وتلقب بالملك الظاهر .

وفيها : نزل الأمير مهنا بن عيسى بظاهر سلمية من بلاد حمص عند تل أعدا وكان له ما يزيد عن عشر سنين لم ينزل بأهله هناك وكان الأمر والنهى إليه فى العرب وخبز الإمرة لأخيه فضل بن عيسى .

وفيها : ورد مرسوم السلطان إلى صاحب حماة بالمسير إلى خدمته فسار وأخذ معه ولده محمدا وأهله قال وحضرت بين يدى السلطان بقلعة الجبل مستهل الحجة فبالغ فى أنواع الصدقات على وعلى من كان معى وعلى والدى ووصل وأنا هناك رسل أبى سعيد ملك التتر ويقال لكبيرهم طوغان وهو من جهة أبى سعيد والذى من بعده حمزة وهو من جهة جوبان وصحبتها الطواشى ريحان خزندار أبى سعيد وكان مسلما ما كان صحبتهم من الهدايا وحضر المذكورون بين يدى السلطان بقلعة الجبل وكان يومًا مشهودا لبس فيه جميع الأمراء والمقدمون والمماليك السلطانية وغيرهم الكلوتات المزركشات والطرز الذهب ولم يبق من لم يلبس ذلك غير الملك الناصر وأحضر المذكورون التقدمة وأنا حاضر وهى ثلاثة أكاديش بثلاثة سروج ذهب مصرى مرصعة بأنواع الجواهر وثلاث حوايص ذهب مجوهرة وسيف غلاقه ملبس ذهباً مرصع جوهرا وعدة أقبية من نسيج وغيره مستنجبة وجميعها بطرز زركش ذهب وشاشا فيها قبضات عدة زركش ذهب وإحدى عشر بختيا مزينة أحمالها صناديق ملؤها قماش من معمول تلك البلاد وعدتها سبعمائة شقة قد نقش عليها ألقاب السلطان فقبل ذلك منهم وغمر الرسل

بأنواع التشاريف والإنعام وكان عيد الأضحى بعد ذلك بيومين واحتفل السلطان للعيد احتفالا عظيما يطول شرحه وأقام رسل التتر ينظرون إلى ذلك ثم أحضرهم وخلع عليهم ثانيا وأوصلهم مناطق من الذهب ومبلغا تزيد على مائة ألف درهم وأمرهم بالعود إلى بلادهم ثم بعد ذلك عبر السلطان النيل ونزل بالجيزة ثالث عشر الحجة وكان قد طلع النيل وزاد على ثمانية عشر ذراعا ووصل إلى قريب الذراع التاسع عشر وطال مكثه على البلاد فقام بالجيزة حتى جفت البلاد لأجل الصيد ثم رحل وسار إلى الصيد وأنا بين يديه الشريفتين .

وفيها : مات على شاه وزير ملك التتر وكان المذكور قد بلغ منزلاً عظيما من أبى سعيد وغيره وأنشأ بتبزير الجامع الذى لم يعهد مثله ومات قبل إتمامه وهو الذى نسج المودة بين الإسلام والتتر رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة :

فيها : عاد الملك الناصر إلى القاهرة وأعطى لصاحب حماة الدستور بعد ما غمره بالصدقات ورسم له بألفى مثقال ذهب وثلاثين ألف درهم ومائة شقة من أفخر القماش الإسكندرى ووصل إلى حماة شاكرا ناشرًا !

ذكر عمارة القصور بقرية سرياقوس والخانقاه

وفى هذه السنة : تكملت القصور والبساتين بسرياقوس وهى قرية فى جهة الشمال عن القاهرة على مرحلة خفيفة وعمر السلطان على طريق الجادة الآخذة إلى الشام بالقرب من العش خانقاه وأنزل جماعة من الصوفية بها ورتب لهم الرواتب الجليلة وأرسل صاحب حماة هدية تليق بالخانقاه المذكورة مثل كتب وبسط وغير ذلك .

ذكر إرسال السلطان العسكر إلى اليمن

وفيها : بلغ السلطان اضطراب حال اليمن وفساد أحوال الرعية فأرسل إليها جيشا وقدم على الجيش الأمير ركن الدين بيبرس الذى كان أمير اخور ثم أمير حاجب والأمير سيف الدين طينال الحاجب حينئذ وكان توجه العسكر المذكور من الديار المصرية فى شهر ربيع الأول من هذه السنة ووصلوا إلى اليمن وخرج إليهم الملك المجاهد بن الملك المؤيد صاحب اليمن

وهو إذ ذاك شاب جاهل ليس له معرفة بما يجب عليه فقصر فى حق العسكر ثم أنه لتقصيره فى حقهم استوحش منهم ودخل قلعة تعز وعصى بها ولم يكن مع العسكر مرسوم بملك اليمن بل بمساعدة المذكور وتقرير أمر ولايته ووجدوا فى طريقهم مشقة عظيمة من العطش والجوع ووصلوا إلى مصر فى شوال من هذه السنة فلم يعجب السلطان ما صدر منهم وأنكر عليهم واعتقل المقدم بيبرس المذكور .

وفى هذه السنة : حضر علاء الدين الطنبغا بحلب إلى حماة متوجها إلى خدمة السلطان وتوجه من حماة ثالث ذى القعدة من هذه السنة الموافق لثانى عشر تشرين الأول ثم عاد وعبر على حماة وتوجه إلى حلب تاسع وعشرين ذى القعدة المذكورة .

ثم دخلت سنة ست وعشرين وسبعمائة :

وكان أول المحرم يوم الأحد وهو الموافق لثامن كانون الأول .

وفيها : فى منتصف ربيع الآخر الموافق لحادى وعشرين آذار خرجت بعسكر حماة ووصلت إلى القناة الواصلة من سلمية إلى حماة وقسمتها على الأمراء والعسكر لينظفوها فإنها كانت قد آلت إلى التلف بسبب ما اجتمع فيها من الطين فحرروها فى نحو أسبوع ثم عدت إلى حماة .

وفيها : وصل الأمير سيف الدين أتامش متوجها رسولا إلى أبى سعيد وجوبان وكان صحبته تقدمة جليلة للمذكورين وكان عبوره على حماة وتوجهه إلى البلاد الشرقية منها فى سادس جمادى الأولى وتاسع آيار .

وفيها : فى أوائل جمادى الآخرة عزل السلطان الأمير شهاب الدين قرطاى من نيابة السلطنة بالسواحل وولى مكانه الأمير سيف الدين طينال الحاجب وكان وصول طينال إلى تلك الجهة فى سادس وعشرين الشهر المذكور .

وفيها : يوم الاثنين سادس عشر جمادى الآخرة وتاسع عشر آيار كانت وفاة مملوكى طيدمر وكان المذكور قد صار أميرا كبيرا عندى وكان مريضا بالسل مدة طويلة وجرى على لفقده أمر عظيم رحمه الله تعالى .

وفيها : وصل رسول جوبان وصحبته طاى بضا قرابة السلطان وكان عبوره على حماة فى منتصف جمادى الآخرة .

وفيها : فى ثامن عشر شعبان عاد سيف الدين من الأردو وعبر على حماة وتوجه إلى الأبواب الشريفة .

وفيها : فى شعبان حضر نجم الدين صاحب حصن كيفا متوجها إلى الحجاز ثم أبطل المسير إلى الحجاز وسار إلى عند السلطان إلى مصر فأنعم عليه السلطان وأعاده فعبر على حماة وتوجه إلى حصن كيفا .

وفيها : حال وصوله إليها قتله أخوه وكان أخوه مقيما هناك وملك أخوه الحصن والمذكوران من ولد تورانشاه ابن الملك الصالح أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب .

وفيها : أمر السلطان بطرد مهنا وعربه وأمرنى بإرسال عسكر إلى الرحبة لحفظ زرعها من المذكورين فجردت إليها أخى بدر الدين ومحمودا ابن أخى واسنبغا مملوكى فساروا إليها بمن فى صحبتهم فى مستهل شهر رمضان ووصلوا وأقاموا بها وعادوا إلى حماة فى حادى وعشرين ذى القعدة من السنة المذكورة الموافق لتاسع عشر تشرين الأول .

ذكر وفاة أخى بدر الدين حسن رحمه الله تعالى

فى هذه السنة : مرض أخى حسن عند وصوله من الرحبة واشتد مرضه وكان مرضه حمى بلغمية وتوفى نهار الثلاثاء مستهل الحجة وكان عمره يوم وفاته سبعا وخمسين سنة وكان أكبر منى بثلاث سنين وخلف ابنين طفلين وبنتين وأعطيت أمريته لابنه الطفل وعمره نحو ثلاث سنين وأقمت لهم نواباً يباشرون أمورهم ثم مرض محمود ابن أخى أسد الدين عمر وابتدأ مرضه يوم موت أخى حسن وقوى مرضه حتى توفى محمود المذكور يوم الأحد ثالث عشر الحجة من السنة المذكورة وكان بينه وبين وفاة عمه بدر الدين حسن المذكور ثلاثة عشر يوما وكان عمر محمود عند وفاته نحو ست وثلاثين سنة .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وسبعمائة :

فيها : عزل السلطان نائبه المقر السيفى أرغون من نيابة السلطنة بمصر وأرسله إلى حلب نائباً بها بعد عزل الطنبغا منها وكان عبور المقر السيفى أرغون المذكور على حماة يوم الثلاثاء سادس وعشرين المحرم الموافق لثامن وعشرين كانون الأول وكانت الأمطار فى هذه السنة مفرطة إلى الغاية .

وفيها : تصدق السلطان وأرسل لى حصانين من خيل برقه أحدهما بسرج ذهب لى والآخر بسرج فضة لابنى محمد ووصل بها أمير أخور دقماق وركبناهما يوم الخميس ثالث عشر رجب الفرد الموافق لرابع حزيران .

وفيها : فى يوم السبت ثالث عشر شعبان حضر من الأبواب الشريفة الأمير علاء الدين قطلوبغا المعروف بالمغربى وصحبته رسولا جوبان وهما اسندمر وحمزة وتوجه بهما وأوصلهما البيرة مكرمين ثم عاد قطلوبغا المغربى المذكور إلى حماة وتوجه إلى الأبواب الشريفة وتوفى عند وصوله .

وفيها : بعد وصول المقر السيفى أرغون إلى حلب توفى ابنه الكبير ناصر الدين محمد بن أرغون وكان أميراً كبيراً فى الدولة وكان وفاته يوم الأربعاء سابع عشر شعبان المذكور .

ذكر اخبار أبى سعيد وجوبان

وكان أبو سعيد ملك التتر صبيا عند موت أبيه خربندا فقام بتدبير المملكة جوبان ولم يكن لأبى سعيد معه من الأمر شىء حسبما تقدم ذكره ولما كبر أبو سعيد ووجد أن الأمر مستبد به جوبان وليس له معه حكم أضمر لجوبان السوء وكان جوبان قد سلم الأردو لابنه خواجا دمشق فحكم خواجا دمشق على أبى سعيد فاتفق فى هذه السنة أن جوبان سار بالعساكر إلى خراسان واستمر ابنه خواجا دمشق حاكمًا فى الأردو وكان الأردو إذ ذاك بظاهر السلطانية وكان خواجا دمشق يروح سرا بالليل إلى بعض خواتين خربندا * فلما خرج شهر رمضان من هذه السنة ودخل شوال توجه خواجا دمشق فى الليل ودخل القلعة ونام عند تلك الخاتون وكان هناك امرأة أخرى عينا لأبى سعيد عليها فأرسلت تلك المرأة وأخبرت أبا سعيد بالخبر واسم المرأة التى هى عين حجل ولقلعة السلطانية بابان فأرسل أبو سعيد عسكرا ووقفوا على الباب وأحس دمشق خواجا بذلك فحمل وخرج من الباب الواحد فضربوه وأمسكوه وقصدوا إحضاره ممسوكا بين يدى أبى سعيد فأرسل أبو سعيد وقال لهم اقطعوا رأسه وأحضروه فقطعوا رأس دمشق خواجا المذكور وأحضروه الى بين يدى أبى سعيد وبقى المغل يرفسون رأسه وجمع أبو سعيد كل من قدر عليه وخاف من جوبان وأرسل إلى العسكر الذى مع جوبان وخبرهم بأنه قد عادى جوبان * ولما بلغ جوبان ذلك سار من خراسان بمن معه من العسكر طالباً أبا سعيد وسار أبو سعيد إلى جهته حتى تقارب الجمعان عند مكان يسمى صارى قماش أى القصب الأصفر وذلك على مراحل يسيرة من الرى * ولما تقارب الجمعان فارقت العساكر عن آخرها جوبان ورحلوا عنه إلى طاعة أبى سعيد وذلك فى ذى الحجة من هذه السنة فلم يبق مع جوبان غير عدة يسيرة فابتدر جوبان الهرب وقصد نواحى هرارة واختفى خبره ثم ظهر فى السنة الأخرى ثم عدم قيل إنه قتل بهراة قتله صاحبها وقيل غير ذلك وتتبع أبو سعيد كل من كان من أولاده وألزامه فأعدمهم واستقرت قدم أبى سعيد فى المملكة وكان أبو سعيد يهوى بنت جوبان واسمها بغداد وكانت مزوجة للأمير حسن بن أقبغا وهو من أكبر أمراء المغلة فطلقها أبو سعيد منه وتزوجها أبو سعيد وبقيت عند أبى سعيد فى منزلة عظيمة جدا .

ذكر سفرى إلى الأبواب الشريفة

فى هذه السنة : رسم السلطان لى بالحضور إلى أبوابه الشريفة لأكون فى خدمته فى صيوده فخرجت من حماة يوم الاثنين رابع ذى القعدة الموافق للحادى والعشرين من أيلول وأتممت السير أنا وابنى محمد حتى وصلنا إلى بلبيس ونزلنا على عيثة وهى قرية خارج بلبيس من جهتها الجنوبية فمرض ابنى محمد المذكور مرضاً شديدا وأرسل السلطان إلى خيلاً بسروجها لى ولابنى ووصلنى ذلك إلى بير البيضا وأنا فى شدة عظيمة من الخوف على والدى واستمر مرضه يتزايد والتقيت بالسلطان وقبلت الأرض بين يديه يوم السبت مستهل الحجة بظاهر سرياقوس ونزلنا بسرياقوس والسلطان يبالغ فى الصدقة بأنواع التشاريف والخيول والمأكل وأنا مشغول الخاطر وأقمنا بسرياقوس بالعمائر التى أنشأها السلطان هناك وأرسل السلطان أحضر رئيس الأطباء إذ ذاك وهو جمال الدين إبراهيم بن أبى الربيع المغربى فحضر إلى سرياقوس وبقى يساعدنى على العلاج ثم رحل السلطان من سرياقوس ودخل القلعة وأرسل إلى حراقة فركبت أنا وابنى محمد فيها وكان إذ ذاك يوم بحرانه يعنى سابع أيام المرض وهو يوم الخميس سادس ذى الحجة ونزلت بدار طقزتمر على بركة الفيل وأصبح يوم الجمعة المرض منحطا ولله الحمد فإنه أفسح بالبحر أن المذكور وأقمت تحت ظل صدقات السلطان وبقى يحصل لى عوائق عن ملازمة خدمة السلطان بسبب مرض الوليد فإن الحمى بقيت تعاوده بعد كل قليل والسلطان يتصدق ويعذرنى فى انقطاعى ويرسم لى بذلك رحمة منه وشفقة على وبقى عنده من مرض ابنى أمر عظيم وبقيت أتردد مع السلطان فى هذه النوبة فى الصيف فى أراضى الجيزة . وأراضى المنوفية حتى خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة :

وكان أول المحرم من هذه السنة يوم الاثنين وكنا بالقاهرة كما تقدم وخلع على السلطان فى هذا اليوم قباء مذهبا بطرز ذهب مصرى لم يعمل مثله فى كبره وحسنه .

ذكر خروج السلطان إلى عند الأهرام واستحضار رسل أبى سعيد

ثم عدى السلطان إلى الجيزة ونزل عند الأهرام واستحضر هناك رسل أبى سعيد ووصلوا مبشرين بهروب جوبان ونصرة أبى سعيد عليه واستقراره فى الملك وأنه مقيم على الصلح والمحبة وقصدوا من السلطان استمرار الصلح فاستحضر فى الدهليز الشريف وكان الدهليز جميعه جتره

وشقته من أطلس معدنى ونخ مذهب دام وكان ذلك يوم الأحد ثامن وعشرين المحرم وثالث عشر كانون الأول وكان الرسل ثلاثة نفر كبيرهم شيخ كأنه كردى الأصل يسمى أرش بغا والثانى أياحى والثالث برجا قرابة الأمير بدر الدين جنكى وكان يومًا مشهودا ونزل السلطان لرسل فى خيمة أعدها السلطان لهم وأدرّ السلطان عليهم الإنعاماتُ الوافرة وبالغ فى الإحسان إليهم ثم إنه سفرهم وأنعم على كل من فى صحبتهم من أتباعهم وكانوا نحو مائة نفر وسافر الرسل المذكورون من تحت الأهرام يوم الأربعاء مستهل صفر ودخلوا القاهرة وتوجهوا منها عائدين إلى أبى سعيد وهم مغمورون بصدقات السلطان ثم ان السلطان دخل إلى القلعة يوم الأحد ثانى عشر صفر وكانت غيبته نحو خمسة وثلاثين يومًا ثم خرجنا إلى سرياقوس يوم الخميس سلخ صفر وفى يوم الجمعة غد النهار المذكور خلع على وعلى ابنى محمد تشاريف حسنة فوق العادة وكذلك أوصلنا بالخوائص الذهب المجوهرة وبالقماش الفاخر مما يعمل للخاص الشريف بدار الطراز بالإسكندرية ووصلنى من الصناقر والصقور والشواهين عدة كثيرة ثم وصلنى بعد ذلك كله بثلاثة آلاف دينار مصرية ورسم إلى بالدستور والعود إلى بلادى فودعته عند بحر ابن منجا يوم السبت ثانى ربيع الأول وسرت حتى دخلت حماة يوم الجمعة بعد الصلاة ثانى وعشرين ربيع الأول من هذه السنة الموافق لخامس شباط .

وفيها : قبل دخولى حماة توفيت والدتى رحمها الله تعالى يوم الخميس حادى وعشرين ربيع الأول ورابع شباط وكنت إذ ذاك قريب حمص فلم يقدر الله لى ان أراها ولا حضرت وفاتها وكانت من العبادة على قدم كبير .

وفيها : بعد وصولى إلى حماة بمدة يسيرة أرسلت وطلبت من السلطان دستورا لزيارة القدس الشريف فرسم لى بالتوجه إليه فخرجت من حماة يوم الثلاث سلخ جمادى الأولى الموافق لثانى عشر نيسان وتوجهت على بلد بارين إلى بعلبك إلى كرك نوح وانحدرت منها إلى الساحل ونزلت ببيروت وسرت منها إلى صيدا وصور ثم إلى عكا ثم إلى القدس وسرت إلى الخليل صلوات الله عليه ثم عدت إلى حماة ودخلتها يوم السبت خامس وعشرين جمادى الآخرة .

وفيها : بعد وصولى من القدس وصلنى من صدقات السلطان على العادة فى كل سنة من الخيل البرقية اثنان بالعدة الكاملة لى ولابنى صحبة علاء الدين أيدغدى أمير أخور وركبناهما بالعسكر على العادة يوم ثانى عشر رجب من هذه السنة .

وفيها : أرسلت التقدمة من الخيل وغيرها على عادتى فى إرسال ذلك كل سنة صحبة لاجين وكان خروجه بها من حماة يوم السبت ثانى شعبان .

وفيها : عبر على حماة سيف الدين أروج رسولا من السلطان وتوجه إلى أبى سعيد وكان

ذلك فى أواخر ربيع الأول ثم عاد بعد أن أدى الرسالة وعبر على حماة فى سادس عشر شعبان من هذه السنة متوجها إلى الأبواب الشريفة .

ذكر أخبار تمرتاش بن جوبان

كان تمرتاش المذكور فى حياة أبيه جوبان قد صار صاحب بلاد الروم واستولى على جميع بلادها من قونية إلى قيسارية وغيرهما من البلاد المذكورة * فلما انقهر أبوه وهرب كما ذكرناه ضاقت بتمرتاش المذكور الأرض ففارق بلاده وسار فى جمع يسير نحو مائتى فارس أو أقل أو أكثر إلى الشام ثم سار منها إلى مصر إلى صدقات السلطان وكانت نفس المذكور كبيرة جدا بسبب كبر أصله فى المغل وكبر منصبه ولم يكن له عقل يرشده إلى أن يجعل نفسه حيث جعله الله تعالى ووصل المذكور إلى صدقات السلطان بالديار المصرية فى العشر الأول من ربيع الأول فتصدق عليه السلطان وأنعم عليه الإنعامات الجليلة وعرض عليه إمرية كبيرة وإقطاعا جليلا فأبى أن يقبل ذلك وأن يسلك ما ينبغى واتفق أن الصلح قد انتظم بين السلطان وبين أبى سعيد وكان أبو سعيد يكاتب ويطلب تمرتاش المذكور بحكم الصلح وما استقر عليه القواعد فرأى السلطان من المصلحة إمساك تمرتاش المذكور وانضم إلى ذلك ما بلغ السلطان عنه أنه أخذ أموال أهل بلاد الروم وظلمهم الظلم الفاحش فأمسكه السلطان واعتقله فى أواخر شعبان من هذه السنة ثم حضر أباجى رسول أبى سعيد فبالغ فى طلب تمرتاش المذكور فاقتضت المصلحة إعدامه فأعدم تمرتاش المذكور فى رابع شوال من هذه السنة بحضرة أباجى رسول أبى سعيد .

وفيها : وصل أباجى رسول أبى سعيد وعبر على حماة فى أواخر شعبان وصحبته أرلان قرائب والدة السلطان بسبب تمرتاش وكان من أمره ماشرح وعاد أباجى رسول المذكور من الأبواب الشريفة وتوجه إلى الأبواب الشريفة وعبر على حماة فى التاسع عشر من شوال وتوجه إلى جهة أبى سعيد .

وفيها : يوم الأحد تاسع عشر ذى القعدة توفى مملوكى اسنبغا وكان قد بقى من أكبر أمراء عسكر حماة رحمه الله .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وسبعمائة :

وكانت غرة المحرم من هذه السنة يوم الجمعة رابع تشرين الثانى ولم يبلغنى فى أوائلها مايليق أن يؤرخ والله أعلم .

ذكر أخبار الصبى صاحب سيس

فى هذه السنة اشتد الصبى صاحب سيس وهو ليفون بن أوشين وكان الحاكم عليه صاحب الكرك بكافين الأولى مفتوحة وبينهما راء مهملة ساكنة وهى قليعة قريب البحر فى أطراف بلد سيس من جهة الغرب والشمال وهى تتاخم بلاد ابن قرمان وكان صاحب الكرك المذكور قد استولى على مملكة صاحب سيس بحكم صغر الصبى المذكور فلما كانت هذه السنة قوى الصبى وقتل صاحب الكرك وأخاه بعده وأرسل رأس صاحب الكرك إلى السلطان فأرسل السلطان تشريفا وسيفا وفرسا بسرجه ولجامه مع الأمير شهاب الدين أحمد المهمندار بالأبواب الشريفة فتوجه شهاب الدين المهمندار بذلك إلى الصبى صاحب سيس فلبس صاحب سيس الخلعة وشد السيف وقبل الأرض وركب الفرس المتصدق به عليه وقويت نفسه بذلك وأوصل شهاب الدين المهمندار المذكور أنعاما كثيرة وعاد شهاب الدين إلى الأبواب الشريفة وعبر على حماة متوجها إلى الأبواب الشريفة يوم الخميس ثانى عشر جمادى الآخرة .

وفى هذه السنة : وصلنى من صدقات السلطان من الحصن البرقية اثنان بالعدة الكاملة صحبة علاء الدين أيدغدى أمير أخور لى ولابنى محمد وركبنا الموكب بها نهار الاثنين سابع رجب وفى هذه السنة أرسل السلطان إلى المقر السيفى أرغون النائب بحلب وأمره بالحضور إلى الأبواب الشريفة فسار المذكور من حلب وتوجه إلى الديار المصرية وحضر بين يدى السلطان وشمله بأنواع الصدقات والتشاريف وبقى مقيما فى الخدمة الشريفة نحو نصف شهر ومايزيد على ذلك ثم أمره بالعود إلى النيابة بالمملكة الحلبية فعاد إليها وعبر على حماة يوم الخميس حادى عشر رجب وكنت قد خرجت إلى تلقيه ولقيته بين حمص والرستن وبت عنده يوم الخميس بالرستن ودخل حماة يوم الجمعة وصلى وسافر إلى حلب .

وفى هذه السنة : فى الليلة المسفرة عن نهار الاثنين الثالث والعشرين من رجب وتاسع عشر أيار ولد لولدى محمد ولد ذكر وكان ذلك وقت المسبح من الليلة المذكورة وسميته عمر بن محمد .

وفى هذه السنة : كان قد توجه على الرحبة رسول أبى سعيد وهو رسول كبير يسمى تمربغا وحضر بين يدى السلطان وكان حضوره بسبب أن أبا سعيد سأل الاتصال بالسلطان وأن يشرفه السلطان بأن يزوجه بعض بناته ووصل مع الرسول المذكور ذهبًا كثيرًا لعمل مأكول وغيره يوم العقد فأجابه السلطان بجواب حسن وأن اللاتى عنده صغار ومتى كبرن يحصل المقصود وعاد تمربغا الرسول بذلك وعبر على حماة يوم الجمعة عاشر شعبان من هذه السنة .

وفيها : توفى بدمشق قاضى قضاتها وهو علاء الدين القزوينى وكان فاضلاً فى العلوم العقلية والنقلية وعلم التصوف وله مصنفات مفيدة رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثلاثين وسبعمائة :

فيها فى المحرم توفى القاضى علاء الدين على بن الأثير كان كاتب السر بمصر ثم فلج وانقطع فولى مكانه القاضى محيى الدين ابن فضل الله .

وفيه : مات الشيخ فتح الدين بن قرناص الحموى ولى نظر جامع حماة وله نظم .

وفيه : قدم قاضى القضاة علم الدين محمد بن أبى بكر الأخنائى صحبة نائب الشام عوضا عن القونوى .

وفيه : توفى الوزير الزاهد العالم أبو القاسم محمد بن الوزير الأزدى الغرناطى بالقاهرة قافلا من الحج بلغ من الجاه ببلده إلى أنه كان يولى فى الملك ويعزل وكان ورعا شريف النفس عاقلا أوصى أن تباع ثيابه وكتبه ويتصدق بها .

وفيها : فى صفر مات بدمشق سيف الدين بهادر المنصورى بداره وشيعه النائب والأعيان .

وفيه : مات مسند العصر شهاب الدين أحمد بن أبى طالب الصالحى الحجازى ابن شحنة الصالحية توفى بعد السماع عليه بنحو من ساعتين كان ذا دين وهمة وعقل وإليه المنتهى فى الثبات وعدم النعاس وحصلت له للرواية خلع ودراهم وذهب وإكران وشيعه الخلق والقضاة ونزل الناس بموته درجة .

وفيه : توفى قاضى القضاة فخر الدين عثمان بن كمال الدين محمد بن البارزى الحموى الجهنى قاضى حلب فجأة بعد أن توضأ وجلس بمجلس الحكم ينتظر إقامة العصر حج غير مرة وكان يعرف الحاوى فى الفقه وشرحه فى ست مجلدات وكان يعرف الحاجبية والتصريف وكان فيه دين وصداقة رحمه الله تعالى .

وفيه : فى ربيع الآخر تولى القضاء قضاة بحلب القاضى شمس الدين محمد بن النقيب نقل من طرابلس وولى طرابلس بعده شمس الدين محمد بن المجد عيسى البعلى سار من دمشق إليها .

وفيها : فى جمادى الأولى أنشأ الأمير سيف الدين مغلطاى الناصرى مدرسة حنفية بالقاهرة ومكتب أيتام .

وفيها : فى جمادى الآخرة مات الأمير العالم سيف الدين أبو بكر محمد بن صلاح الدين ابن صاحب الكرك بالجبل وكان فاضلاً شاعرًا .

وفيه : وصل الخبر بعافية السلطان من كسر يده فزينت دمشق وخلع على الأمراء والأطباء .

وفيه : مات بمكة قاضيها الإمام نجم الدين أبو حامد .

وفيه : مات الشيخ إبراهيم الهدمة وله كرامات وشهرة .

وفيه : حضرت رسل الفرنج يطلبون بعض البلاد فقال السلطان لولا أن الرسل لا يقتلون لضربت أعناقهم ثم سفروا .

وفيها : فى رجب ماتت زوجة تنكز وعمل لها تربة حسنة قرب باب الخواصين ورباط .

وفيها : فى رمضان مات قاضى طرابلس شمس الدين محمد بن مجد الدين عيسى الشافعى البعلى وكان صاحب فنون (قلت) .

لقد عاش دهرًا يخدم العلم جهده　　وكان قليل المثل فى العلم والود

فلما تولى الحكم ما عاش طائـلا　　فما هنئ ابن المجد والله بـالمجد

وفيه : أنشأ الأمير سيف الدين قوصون الناصرى جامعا عند جامع طولون عند دار قتال السبع فخطب به أول يوم قاضى القضاة جلال الدين بحضور السلطان وقرر لخطابته القاضى فخر الدين محمد بن شكر .

وفيها : فى شوال مات رئيس الكحالين نور الدين على بمصر .

وفيه : احترقت الكنيسة المعلقة بمصر وبقيت كوما .

وفيه : قدم رسول صاحب اليمن بهدية فقيد وسجن لأن صاحب الهند بعث إلى السلطان بهدايا فأخذها صاحب اليمن وقتل بعض من كان معها وحبس بعضهم .

وفيها : فى ذى القعدة مات الأمير علاء الدين قلبرس ابن الأمير علاء الدين طبرس بدمشق بالسهم وكان مقدم ألف وله معروف وخلف أموالا ومات الأمير سيف الدين كوليجار المحمدى .

وفيها : بدمشق فى ذى الحجة مات المعمر المسند زين الدين أيوب بن نعمه وكانت لحيته شعرات يسيرة وكان كحالا * ومات بها أيضا الصالح الزاهد الشيخ حسن المؤذن بالمأذنة الشرقية بالجامع وكان مجاورًا به * ومات بدر الدين مجد بن الموفق إبراهيم بن داود بن العطار أخو الشيخ علاء الدين ببستانه وصلاح الدين يوسف بن شيخ السلامية صهر الصاحب وشيعه الخلق وفجع به أبواه وكان شابا متميزًا من أبناء الدنيا المتنعمين .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة :

فيها وردت كتب الحجاج بما جرى بمكة شرفها الله تعالى حول البيت من ثورة عبيد مكة ساعة الجمعة بالوفد من النهب والجراحة وقتل جماعة من الحجاج وقتل أمير مصرى وهو أيدمر أمير جندار وابنه ولما بلغ السلطان ذلك غضب وجرد جيشا من مصر والشام للانتقام من فاعلى ذلك .

وفيها : فى المحرم أيضا مات الأمير الكبير شهاب الدين طغان بن مقدم الجيوش سنقر الأشقر ودفن بالقرافة جاوز الستين وكان حسن الشكل ومات الصالح كمال الدين محمد ابن الشيخ تاج الدين القسطلانى بمصر سمع ابن الدهان وابن علاق والنجيب وحدث وكان صوفيا .

وفيها : فى صفر مات قاضى القضاة عز الدين محمد بن قاضى القضاة تقى الدين سليمان بن حمزة الحنبلى بدمشق بالدير ومولده فى ربيع الآخر سنة خمس وستين سمع من الشيخ وابن النجارى وأبى بكر الهروى وطائفة وأجاز له ابن عبد الدائم وكان عاقلا ولى القضاء بعد ابن مسلم وحج ثلاث مرات .

وماتت : أم الحسن فاطمة بنت الشيخ علم الدين البرزالى سمعت الكثير من خلق وحدثت وكتبت ربعة وأحكام ابن تيمية والصحيح وحجت وكانت تجتهد يوم الحمام أن لا تدخل حتى تصلى الظهر وتحرص فى الخروج لإدراك العصر رحمها الله تعالى .

وفيها : فى صفر أيضاً وصل نهر الساحور إلى نهر قويق وانصبا إلى حلب بعد غرامة أموال عظيمة وتعب من العسكر والرعايا بتولية الأمير فخر الدين طمان .

وفيها : فى ربيع الأول مات بحلب الأمير سيف الدين أرغون الناصرى نائبها وخرجت جنازته بلا تابوت وعلى النعش كساء بالفقيرى من غير ندب ولا نياحة ولا قطع شعر ولا لبس جل ولا تحويل سرج حسبما أوصى به ودفن بسوق الخيل تحت القلعة وعملت عليه تربة حسنة ولم يجعل على قبره سقف ولا حجرة بل التراب لاغير وكان متقنا لحفظ القرآن مواظبا على التلاوة عنده فقه وعلم ويرد أحكام الناس إلى الشرع الشريف حتى كان بعض الجهال ينكر عليه ذلك وكتب صحيح البخارى بخطه بعد ما سمعه من الحجاز واقتنى كتبًا نفيسة وكان عاقلاً وفيه ديانة رحمه الله .

وفيها : فى صفر أيضاً ولى قضاء الحنابلة بدمشق الشيخ شرف الدين ابن الحافظ واستناب ابن أخيه القاضى تقى الدين عبد الله بن أحمد ومات القاضى الفقيه الأديب ضياء الدين على بن سليم بن ربيعة الأذرعى الشافعى بالرملة ناب عن القاضى عز الدين ابن الصائغ وناب بدمشق عن القونوى ونظم التنبيه فى الفقه فى ستة عشر ألف بيت وشعره كثير .

ومات : الرئيس زين الدين يوسف بن محمد بن النصبى بحلب سمع من شيخ الشيوخ عز الدين مسند العشرة وحدث قارب الثمانين .
وفيها : فى ربيع الآخر مات الأمير سيف الدين طرشى الناصرى بمصر أمير مائة حج غير مرة وفيه ديانة .
ومات : الشيخ علاء الدين ابن صاحب الجزيرة الملك المجاهد إسحاق ابن صاحب الموصل لؤلؤ بمصر سمع جزء ابن عرفة من النجيب والجمعة من ابن علاق وكان جنديا له ميرة ومات بحلب نور الدين الحسن بن الشيخ المقرى جمال الدين الفاضلى روى عن زينب بنت مكى وكان كاتبا بحلب ومات الأمير علم الدين سنجر البروانى بمصر فجأة كان أمير خمسين من الشجعان ومات الصالح المسند شرف الدين أحمد بن عبد المحسن بن الرفعة العدوى سمع وحدث ومات ليلة الجمعة تاسع عشرى ربيع الآخر بدر الدين محمد بن ناهض إمام الفردوس بحلب سمع عوالى الغيلانيات الكبير على القطب ابن عصرون وحدث وله نظم ومات رئيس المؤذنين بجامع الحاكم نجم الدين أيوب بن على الصوفى وكان بارعًا فى فنه له أوضاع عجيبة وآلات غريبة .
وفيها : فى جمادى الأولى عاد الأمير علاء الدين التنبغا إلى نيابة حلب وفرح الناس به وأظهروا السرور .
وفيها : حضر بمكة الأمير رميثة بن أبى نمى الحسنى وقرئ تقليده ولبس الخلعة بولاية مكة وحلف مقدم العسكر الذين وصلوا إليه والأمراء له بالكعبة الشريفة وكان يومًا مشهودا وكان وصول الجيش إلى مكة فى سابع عشر ربيع الآخر .
وفيه : مات الإمام الورع موفق الدين أبو الفتح الجعفرى المالكى وشيعه خلق إلى القرافة وقارب السبعين ولم يحدث .
ومات : العدل المعمر برهان الدين إبراهيم بن عبد الكريم العنبرى باشر الصدقات والأيتام والمساجد وهو خال ابن الزملكانى .
(ومات) القاضى تاج الدين بن النظام المالكى بالقاهرة .
ومات : أبو دبوس المغربى بمصر قيل إنه ولى مملكة قابس ثم أخذت منه فترح فأعطى إقطاعا فى الحلقة .
وفيها : فى جمادى الآخرة مات القاضى التاج أبو إسحاق عبد الوهاب بن عبد الكريم وكيل السلطان وناظر الخواص بمصر .
وفيه : وصل إلى دمشق العسكر المجرد إلى مكة ومقدمهم الحى بغا غابوا خمسة أشهر سوى أربعة أيام وأقاموا بمكة شهرا ويوما وحصل بهم الرعب فى قلوب العرب وهرب من بين أيديهم عطيفة والأشراف بأهلهم وثقلهم وعوض عن عطيفة بأخيه رميثة وقرر مكانه .

ومات : الأمير حسام الدين طرنطاى العادلى الدواندارى بمصر وكان دينا وله سماع .

ومات : المجد بن اللغينة ناظر الدواوين بالقاهرة .

ومات : الرئيس تاج الدين بن الدماملى كبير الكرامية بمصر قيل ترك مائة ألف دينار .

ووصل : الحاج عمر بن جامع السلامى إلى دمشق من إصلاح عين تبوك جمع لها من التجار دون عشرين ألفا وأحكمت .

وفيها : فى رجب مات بمصر العلامة فخر الدين عثمان بن إبراهيم التركمانى سمع من الأبرقوهى وشرح الجامع الكبير وألقاه فى المنصورية دروسا وكان حسن الأخلاق فصيحاً ودرس بها بعده ابنه .

ومات : بمصر القاضى جمال الدين بن عمر البوزنجى المالكى معيد المنصورية .

وفيها : فى شعبان كان بدمشق ريح عاصفة حطمت الأشجار ثم وقع فى تاسعه برد عظيم قدر البندق .

وفيه : جاء من الكرك الملك أحمد بن مولانا السلطان الملك الناصر وختن بعد ذلك بأيام وأنفذ إلى الكرك أخ له اسمه إبراهيم .

ومات : سيف الدين كشتمر الطباخى الناصرى بمصر كهلًا تفقه لأبى حنيفة وكان دينا وأحدثت بالمدرسة المعزية على شاطىء النيل الخطبة وخطب عز الدين عبد الرحيم بن الفرات حين رتب ذلك سيف الدين طقزدمر أمير الجيش .

وفيها : فى رمضان قدم دمشق العلامة تاج الدين عمر بن على اللخمى بن الفاكهانى المالكى من الإسكندرية لزيارة القدس والحج فحدث ببعض تصانيفه وسمع الشفاء وجامع الترمذى من ابن طرخان وصنف جزءًا فى أن عمل المولد فى ربيع الأول بدعة .

وفيها : فى ذى القعدة مات الصاحب تقى الدين بن السلعوس بالقاهرة فجأة حج وسمع من القارون .

ومات : القاضى جمال الدين أحمد بن محمد بن القلانسى التميمى درس بالأمينية والظاهرية وعمل الإنشاء بدمشق .

وفيها : فى ذى الحجة مات الأمير نجم الدين البطاحى ولى أستاذ دارية السلطنة ومات أمين الدين بن البص أنفق أموالًا فى بناء خان المزيرب وفى بناء مسجد الذباب والمأذنة قيل أنفق فى وجوه البر مائتى ألف وخمسين ألفا ومات بدمشق الأمير ركن الدين عمر بن بهادر وكان مليح الشكل وجاء التقليد بمناصب جمال الدين بن القلانسى لأخيه .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة :

فى المحرم منها توفى الشيخ الكبير العابد المقرى أبو محمد عبد الرحمن بن أبى محمد بن

سلطان القرامزى الحنبلى بجوبر ودفن بتربة له جوار قبة القلندرية بدمشق وكان مشهورًا بالمشيخة يتردد إليه الناس سمع من ابن أبى اليسر وابن عساكر وحدث بدمشق ومصر وقرأ بالروايات على الشيخ حسن الصقلى .

ومات : الأمير الكبير علم الدين الدميثرى ولى نيابة قلعة دمشق مدة .

وحصل : بحمص سيل عظيم هلك به خلائق ومات بحمام تنكز بها نحو مائتى امرأة وصغيرة وجماعة رجال دخلوا ليخلصوا النساء وهلك بعض المتفرجين بالجزيرة وإنهدمت دار المستوفى وهلك ابنه وصار وايخر جون الموتى من بواليع الحمام والقمين وكان بالحمام عروس فلهذا كثر النساء بالحمام * ومات بمصر الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى وزر بمصر وحج بالمصريين .

ومات السلطان الملك المؤيد : إسماعيل ابن الملك الأفضل على صاحب حماة مؤلف هذا التاريخ وله تصانيف حسنة مشهورة منها أصل هذا الكتاب ونظم الحاوى وشرحه شيخنا قاضى القضاة شرف الدين بن البارزى شرحًا حسنا وله كتاب تقويم البلدان وهو حسن فى بابه تسلطن بحماة فى أول سنة عشرين بعد نيابتها رحمه الله تعالى وكان سخيًّا محبا للعلم والعلماء متقنا يعرف علوما ولقد رأيت جماعة من ذوى الفضل يزعمون أنه ليس فى الملوك بعد المأمون أفضل منه . رحمه الله تعالى .

وفيها : فى صفر مات قاضى الجزيرة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن نصر الشافعى وكان له تعلق بالدولة ومكاتبة من بلده ثم تحول إلى دمشق .

وفيه : تملك حماة السلطان الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن الملك المؤيد على قاعدة أبيه وهو ابن عشرين سنة .

وفيها : فى ربيع الأول مات بالقاهرة القاضى الإمام المحدث تاج الدين أبو القاسم عبد الغفار بن محمد بن عبد الكافى بن عوض السعدى سعد خدام الشافعى ولد سنة خمسين تفقه وقرأ النحو على الأمين المحلى وسمع من ابن عزون وابن علان وجماعة وارتحل فلقى بالثغر عثمان بن عوف وعمل معجمه فى ثلاث مجلدات وأجاز له ابن عبد الدائم وروى الكثير وخرج أربعين تساعيات وأربعين مسلسلات وكان حسن الخط والضبط متقنا ولى مشيخة الحديث بالصاحبية وأفتى وذكر أنه كتب بخطه أزيد من خمسمائة مجلد .

ومات : بدمشق العلامة رضى الدين إبراهيم بن سليمان الرومى الحنفى المعروف بالمنطقى بدمشق بالنورية وكان دينا متواضعا محسنا إلى تلامذته حج سبع مرات .

ومات : الأمير علاء الدين طنبغا السلحدار عمل نيابة حمص ثم نيابة غزة وبها مات وحج بالشاميين سنة إحدى عشرة وسبعمائة .

ومات : بمكة خطيبها الإمام بهاء الدين محمد بن الخطيب تقى الدين عبد الله بن الشيخ

المحب الطبرى له نظم ونثر وخطب وفيه كرم ومروءة وفصاحة وخطب بعده أخوه التاج على

وفيها : فى ربيع الآخر ركب بشعار السلطنة الملك الأفضل الحموى بالقاهرة وبين يديه الغاشية ونشرت العصائب السلطانية والخليفية على رأسه وبين يديه الحجاب وجماعة من الأمراء وفرسه بالرقبة وبالشبابة وصعد القلعة هكذا .

وفيها : فى جمادى الأولى مات قاضى القضاة بدمشق شرف الدين أبو محمد عبد الله بن الإمام شرف الدين حسن بن الحافظ أبى موسى بن الحافظ الكبير عبد الغنى المقدسى الحنبلى فجأة كان شيخا مباركا .

ومات : فخر الدين على بن سليمان بن طالب بن كثيرات بدمشق .

ومات : بالإسكندرية الصالح القدوة الشيخ ياقوت الحبشى الإسكندرى الشاذلى وكانت جنازته مشهورة وقد جاوز الثمانين كان من أصحاب أبى العباس المرسى .

وفيها : فى رجب مات الإمام الصالح عز الدين عبد الرحمن ابن الشيخ العز إبراهيم بن عبد الله بن أبى عمر المقدسى الحنبلى سمع أباه وابن عبد الدائم وجماعة وكان خيرًا بشوشا رأسا فى الفرائض .

ومات : بدمشق الناصح محمد بن عبد الرحيم بن قاسم الدمشقى النقيب الجنائزى كان خبيرًا بألقاب الناس يحصل الدراهم والخلع ويتقيه الناس عفا الله عنه .

ومات : بمصر فخر الدين بن محمد بن فضل الله كاتب المماليك ناظر الجيوش المصرية كان له بر وعدمه الناس وعرفوا قدره بوفاته فإنه كان يشير على السلطان بالخيرات ويرد عن الناس أمورًا معظمات قلت .

وكم أمور حدثت بعده ... حتى بكت حزنًا عليه الرتوت

لو لم يمت ما عرفوا قدره ... ما يعرف الإنسان حتى يموت

سمع من ابن الأبرقوهى واحتيط على حواصله .

ومات : شيخ القراء شهاب الدين أحمد بن محمد بن يحيى بن أبى الحزم سبط السلعوس النابلسى ثم الدمشقى ببستانه ببيت لهيا وكان ساكنا وقورا .

ومات : بمصر الأمير سيف الدين أيجية الدواندار الناصرى الفقيه الحنفى كهلا وولى المنصب بعده الأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد ثم عزل بعد مدة .

وفيها : فى شعبان كان عرس الملك محمد بن السلطان على زوجته بنت بكتمر الساقى وسوارها ألف ألف دينار مصرية وذبح خيل وجمال وبقر وغنم وأوز ودجاج فوق عشرين ألف رأس وحمل له ألف قنطار شمع وعقد له ثمانية عشر ألف قنطار حلوى سكرية وأنفق على هذا العرس أشياء لا تحصى .

ومات : بالقاهرة جمال الدين محمد بن بدر الدين محمد بن جمال الدين محمد بن مالك الطائى الجيانى بلغ الخمسين وسمع من ابن النجارى جزأ خرجه له عمه وله نظم جيد ولم يحدث
ومات الأمير سيف الدين ساطى صهر سلار من العقلاء وفيه ديانة وله حرمة وافرة .
ومات : بدمشق أمين الدين سليمان بن داود الطبيب تلميذ العماد الدنيسرى كان سعيدًا فى علاجه وحصل أموالا قلت .

مات سليمان الطبيب الذى   أعده الناس لسوء المزاج
لم يفده طب ولم يغنه   علم ولم ينفعه حسن العلاج

كان مقدما على المداواة ودرس بالدخوارية مدة وعاش نحو سبعين سنة .

وفيها : طغى ماء الفرات وارتفع ووصل إلى الرحبة وتلفت زروع وانكسر السكر بدير بسير كسرا ذرعه اثنان وسبعون ذراعا وحصل تألم عظيم وعملوا السكر فلما قارب الفراغ انكسر منه جانب وغلت الأسعار بهذا السبب وتعب الناس بصعوبة هذا العمل .
وفيها : فى رمضان أمر بدمشق الأمير على بن نائب دمشق سيف الدين تنكز ولبس الخلعة عند قبر نور الدين الشهيد المشهور بإجابة الدعاء عنده ومشى الأمراء فى خدمته إلى العتبة السلطانية فقبلها .
وفيه : نقل من دمشق إلى كتابة السر بالأبواب السلطانية القاضى شرف الدين أبو بكر بن محمد بن الشيخ شهاب الدين محمود ونقل إلى دمشق القاضى محى الدين بن فضل الله وولده .
ومات : بدمشق فجأة الأمير سيف الدين بلبان العنقاوى الزراق الساكن بالسبعة وقد جاوز السبعين من أمراء الأربعين .
ومات : شيخ القراء ذو الفنون برهان الدين أبو اسحاق إبراهيم بن عمر الجعبرى الشافعى بالخليل ومولده سنة أربعين وستمائة وتصانيفه كثيرة اشتغل ببغداد وقرأ التعجيز على مصنفه بالموصل وأقام شيخا أربعين سنة .
ومات : بمصر الأمير سيف الدين سلامش الظاهرى أمير خمسين وقد قارب التسعين وكان دينا صالحا .
وفيها : فى شوال توجه السلطان للحج بأهله ومعظم أمرائه فى حشمة عظيمة (ومات) الإمام شهاب الدين أبو أحمد عبد الرحمن بن محمد بن عسكر المالكى مدرس المستنصرية ببغداد وله مصنفات فى الفقه وكان حسن الأخلاق ولد فى سنة أربع وأربعين بباب الأزج .
وفيها : فى ذى القعدة مات قاضى القضاة علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران السعدى المصرى بن الأخنائى بالعادلية بدمشق ودفن بسفح قاسيون كان من شهود

الحرابة بمصر ثم جعل حاكما بالإسكندرية ثم بدمشق لابن دقيق العيد ولازم الدمياطى مدة وسمع من أبى بكر بن الأنماطى وجماعة ومولده عاشر رجب سنة أربع وستين وكان عفيفا فاضلا عاقلا نزيها متدينا محبا للحديث والعلم شرح بعض كتاب البخارى .

وفيه : وفى النيل قبل النيروز بثلاثة وعشرين يومًا وبلغ أحد عشر من تسعة عشر وهذا لم يعهد من ستين سنة وغرق أماكن وأتلف للناس من القصب ما يزيد على ألف ألف دينار ونبت على البلاد أربعة أشهر .

وفيها : فى ذى الحجة مات قطب الدين موسى بن أحمد بن حسان ابن شيخ السلامية وكان ناظر الجيش الشامى ومرة المصرى ودفن بتربة أنشأها بجنب جامع الأفرم وعاش اثنتين وسبعين ورثاء علاء الدين بن غانم .

ومات : الشيخ الصالح المقرى شمس الدين محمد بن النجم أبى تغلب بن أحمد بن أبى تغلب الفاروثى ويعرف بالمربى جاوز الثمانين كان معلمًا فى صنعة الأقباع ويقرئ صبيانه ويتلو كثيرًا قرأ بالسبع على الكمال المحلى قديمًا .

ومات : العلامة الخطيب جمال الدين يوسف بن محمد بن مظفر بن حماد الحموى الشافعى خطيب جامع حماة كان عالمًا دينا سمع جزء الأنصارى من مؤمل البالسى والمقداد القيسى وحدث واشتغل وأفتى وكان على قدم من العبادة والإفادة رحمه الله تعالى .

ومات : العلامة شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن قاضى القضاة الحافظ سعد الدين مسعود بن أحمد الحارثى بالقاهرة تصدر للإقراء وحج مرات وجاور وسمع من العز الحرانى وجماعة وكان ذا تعبد وتصون وجلالة قرأ النحو على ابن النحاس والأصول على ابن دقيق العيد ومولده سنة إحدى وسبعين وولى بعده تدريس المنصورية قاضى القضاة تقى الدين .

ومات : كبير أمراء سيف الدين بكتمر الناصرى الساقى بعد قضاء حجه وابنه الأمير أحمد أيضًا وخلف ما لا يحصى كثرة ماتا بعيون القصب بطريق مكة ونقلا إلى تربتهما بالقرافة .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة :

فيها : فى المحرم أطلق الصاحب شمس الدين غبريال بعد مصادرة كثيرة .

ومات : بدمشق نقيب الأشراف شرف الدين عدنان الحسينى ولى النقابة على الأشراف بعد موت أبيه واستمر بها تسع عشرة سنة وهم بيت تشيع .

وفيها : فى صفر وصل الخبر بموت محدث بغداد تقى الدين محمود بن على بن محمود بن مقبل الدقوقى كان يحضر مجلسه خلق كثير لفصاحته وحسن آدابه وله نظم وولى مشيخة

المستنصرية وحدث عن الشيخ عبد الصمد وجماعة وكان يعظ وحمل نعشه على الرءوس وما خلف .درهما .

وفيه : قدم أمين الملك عبد الله الصاحب على نظر دمشق وهو سبط السديد الشاعر .

ومات : بدمشق الشيخ كمال الدين عمر بن الياس المراغى كان عالمًا عابدًا سمع منهاج البيضاوى من مصنفه .

وفيها : فى ربيع الأول ولى القضاء بدمشق العلامة جمال الدين يوسف بن جملة بعد الأخنائى .

وفيها : فى ربيع الآخر توجه القاضى محيى الدين بن فضل الله وابنه إلى الباب الشريف وتحول إلى موضعه بدمشق القاضى شرف الدين أبو بكر بن محمد بن الشهاب محمود وولى نقابة الأشراف بدمشق عماد الدين موسى بن عدنان .

وفى خامس عشر : شعبان من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة دخل الأمير بدر الدين لؤلؤ القندشى إلى حلب شادا على المملكة وعلى يده تذاكر وصادر المباشرين وغيرهم ومنهم النقيب بدر الدين محمد بن زهرة الحسينى والقاضى جمال الدين سليمان بن ريان ناظر الجيش وناصر الدين محمد بن قرناص عامل الجيش وعمه المحيى عبد القادر عامل المحلولات والحاج إسماعيل بن عبد الرحمن العزازى والحاج على بن السقا وغيرهم واشتد به الخطب وانزعج به الناس كلهم حتى البريثون وقنت الناس فى الصلوات وقلت فى ذلك .

قلبى لعمر الله معلول ... بما جرى للناس مع لولو
يا رب قد شرد عنا الكرا ... سيف على العالم مسلول
وما لهذا السيف من مغمد ... سواك يا من لطفه السول

كان هذا لؤلؤ مملوكا لقندش ضامن المكوس بحلب ثم ضمن هو بعد أستاذه المذكور ثم صار ضامن العداد ثم صار أمير عشرة ثم أمير طبلخانات ثم صار منه ما صار ثم إنه عزل ونقل إلى مصر وأراح الله أهل حلب منه فعمل بمصر أقبح من عمله بحلب وتمكن وعاقب حتى نساء مخدرات وصادر خلقا .

وفيها : فى جمادى الأولى مات عز القضاة فخر الدين بن المنير المالكى من العلماء ذوى النظم والنثر وألف تفسيرًا وأرجوزة فى السبع .

ومات : قاضى المجدل بدر الدين محمد بن تاج الدين الجعبرى .

ومات : قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الكنانى الحموى بمصر له معرفة بفنون وعدة مصنفات حسن المجموع كان ينطوى على دين وتعبد وتصون وتصوف وعقل ووقار

وجلالة وتواضع درس بدمشق ثم ولى قضاء القدس ثم قضاء الديار المصرية ثم قضاء الشام ثم قضاء مصر وولى مشيخة الحديث بالكاملية ومشيخة الشيوخ وحمدت سيرته ورزق القبول من الخاص والعام وحج مرات وتنزه عن معلوم القضاء لغناه مدة وقل سمعه فى الآخر قليلا فعزل نفسه ومحاسنه كثيرة ومن شعره :

لم أطلب العلم للدينا التى ابتغيت من المناصب أو للجاه والمال
لكن متابعة الأسلاف فيه كما كانوا فقدر ما قد كان من حالى

وفيها : فى جمادى الآخرة مات الرئيس تاج الدين طالوت بن نصير الدين بن الوجيه بن سويد بدمشق حدث عن عمر القواس وعاش خمسين سنة وهو سبط الصاحب جمال الدين بن صصرى وكان فيه دين وبر وله أموال .

ومات : العلامة مفتى المسلمين شهاب بن أحمد بن جهبل الشافعى بدمشق درس بالصلاحية وولى مشيخة الظاهرية ثم تدريس الباذرانية وله محاسن وفضائل .

ومات : الأمير علم الدين طرقشى المشد بدمشق .

وفيها : فى رجب مات الشيخ الإمام القدوة تاج الدين بن محمود الفارقى بدمشق عاش ثلاثا وثمانين سنة وكان عابدًا عاقلا فقيهًا عفيف النفس كبير القدر ملازما للجامع عالج الصرف مدة ثم ترك واتجر فى البضائع وحدث عن عمر بن القواس وغيره .

ومات : صاحبنا الأمير شهاب الدين أحمد بن بدر الدين حسن بن المروانى نائب بعلبك ثم والى البر بدمشق وكان فيه دين كثير التلاوة محبا للفضل والفضلاء ولى والده النيابة بقصير أنطاكية طويلا وبها مات .

وفيها : فى شعبان مات الخطيب بالجامع الأزهر علاء الدين بن عبد المحسن بن قاضى العسكر المدرس بالظاهرية والأشرفية بالديار المصرية .

وفيه : دخل القاضى تاج الدين محمد بن الزين حلب متوليا كتابة السر ولبس الخلعة وباشر وأبان عن تعفف عن هدايا الناس .

وفيها : فى رمضان مات بدمشق الأمير علاء الدين أوران الحاجب وكان ينطوى على ظلم من أولاد الأكراد ومات بحماة زين الدين عبد الرحمن بن على بن إسماعيل بن البارزى المعروف بابن الولى كان وكيل بيت المال بها وبنى بها جامعًا وكانت له مكانة ومروءة ومنزلة عند صاحب حماة .

ومات : مسند الشام المعمر تاج الدين أبو العباس أحمد بن المحدث تقى الدين إدريس كان فيه خير وديانة .

ومات : بحماة شيخ الشيوخ فخر الدين عبد الله بن التاج كان صواما عابدا ذا سكينة سمع من والده .

ومات : الإمام المؤرخ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الشافعى بالقاهرة وله تاريخ فى ثلاثين مجلدًا كان ينسخ فى اليوم ثلاثة كراريس وفضيلته تامة عاش خمسين سنة .

ومات : الإمام جمال الدين حسين بن محمود الربعى البالسى بالقاهرة قرأ بالروايات وكان شيخ القراءة وله وظائف كثيرة أم بالشجاعى ثم أم بالسلطان نيفا وثلاثين سنة وكان عالمًا كثير التهجد .

وفيها : فى ذى القعدة أخذ حاجب العرب بدمشق على بن مقلد فضرب وحبس وأخذ ماله وقطع لسانه وعزل ناصر الدين الدواتدار وضرب وصودر وأخذ منه مال جزيل وأبعد إلى القدس ثم قطع لسان ابن مقلد مرة ثانية فمات آخر اليوم (قلت) :

أوصيك فان قبلت منى أفلحت ونلت ما تحب
لا تدن من الملوك يوما فالبعد من الملوك قرب

ومات : بحلب أمين الدين عبد الرحمن الفقيه الشافعى المواقيتى سبط الأبهرى وكان له يد طولى فى الرياضى والوقت والعمليات ومشاركة فى فنون وكان عنده لعب فنفق عند الملك المؤيد بحماة وتقدم ثم بعده تأخر وتحول إلى حلب ومات بها .

قلت : وأهل حماة يطعنون فى عقيدة ويعجبنى بيتان الثانى منها مضمن لا لكونهما فيه فإن سريرته عند الله بل لحسن صناعتهما وهما :

إلى حلب خذ عن حماة رسالة أراك قبلت الأبهرى المنجما
فقولى له ارحل لاتقيمن عندنا وإلا فكن فى السر والجهر مسلما

ومات : الزاهد الولى أبو الحسن الواسطى العابد محرما ببدر قيل إنه حج وله ثمان عشرة سنة ثم لازم الحج وجاور مرات وكان عظيم القدر منقبضًا عن الناس .

وفيها : فى ذى الحجة مات الأمير الكبير مغلطاى كان مقدم ألف بدمشق وماتت الشيخة المسندة الجليلة أم محمد أسماء بنت محمد بن صصرى أخت قاضى القضاة نجم الدين سمعت وحدثت وكانت مباركة كثيرة البر وحجت مرات وكانت تتلو فى المصحف وتتعبد قلت :

كذلك فلتكن أخت ابن صصرى تفوق على النساء صبى وشيبا
طراز القوم انثى مثل هذى وما التأنيث لاسم الشمس عيبا

ومات : أيضًا بدمشق عز الدين إبراهيم بن القواس بالعقيبة ووقف داره مدرسة وأمسك حاجب مصر سيف الدين ألماس وأخوه قره تمر ووجد لهما مال عظيم .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وسبعمائة :

فى أول المحرم منها أفرج عن الأمير بدر الدين الفرمانى والأمير سيف الدين إسلام وأخيه وخلع عليهم .

وتوفى بالقدس : خطيبه وقاضيه الشيخ عماد الدين عمر النابلسى .

وفيها : فى صفر مات قاضى القضاة جمال الدين أبو الربيع سليمان الأذرعى الشافعى ويكنى أبا داود أيضًا بالسكتة ولى القضاء بمصر ثم بالشام مدة وكان عليه سكينة ووقار وأحضر ناصر الدين الدوانداز إلى مخدومه سيف الدين تنكز فضرب وأهين وكمل عليه مال يقوم به وحصلت صقعة أتلفت الكروم والخضراوات بغوطة دمشق .

ومات : الأمير سيف الدين صلعنة الناصرى وكان دينا يبدأ الناس بالسلام فى الطرقات ومات بطرابلس نائبها الأمير شهاب الدين قرطاى المنصورى من كبار الأمراء حج وأنفق كثيرًا فى سبل الخير رحمه الله تعالى .

ومات : بحماه قاضى القضاة نجم الدين أبو القاسم عمر بن الصاحب كمال الدين العقيلى الحنفى المعروف بابن العديم وكان له فنون وأدب وخط وشعر ومروءة غزيرة وعصبية لم تحفظ عليه أنه شتم أحدًا مدة ولايته ولا خيب قاصده (قلت) :

قد كان نجم الدين شمسا أشرقت بحماة للدانى بها والقاصى
عدمت ضياء ابن العديم فأنشدت مات المطيع فياهلاك العاصى

وفيها : فى ربيع الأول توفى الأمير سيف الدين طرنا الناصرى أمير مائة مقدم ألف بدمشق .

ومات : جمال الدين فرج بن شمس الدين قره سنقر المنصورى ورسم تنكز نائب السلطنة بعمارة باب توما وإصلاحه فعمر عمارة حسنة ورفع نحو عشرة أذرع ووسع وجدد بابه .

وفيها : فى ربيع الآخر وصل جمال الدين أقوش نائب الكرك إلى طرابلس نائبًا بها عوضًا عن قرطاى رحمه الله تعالى ووصل سيل إلى ظاهر دمشق هدم بعض المساكن وخاف الناس منه ثم نقص فى يومه ولطف الله تعالى وتوفيت أم الخير خديجة المدعوة ضوء الصباح وكانت تكتب بخطها فى الإجازات ودفنت بالقرافة .

وفيها : فى جمادى الأولى توفى الفاضل بدر الدين محمد بن شرف الدين أبى بكر الحموى المعروف بابن السمين بحماة وكان أبوه من فصحاء القراء رحمهما الله تعالى .

وفيها : فى جمادى الآخرة توفى بحلب شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن ابن القاضى

عماد الدين بن العجمى سمع الشمائل على والده وحدث وأقام مع والده بمكة فى صباه أربع سنين وكان شيخا محترما من أعيان العدول وعنده سلامة صدر رحمه الله تعالى ومات الأمير شمس الدين محمد بن الصيمرى ابن واقف المارستان بالصالحية .

وفيها : فى رجب وصل كتاب من المدينة النبوية يذكر فيه أن وادى العقيق سال من صفر وإلى الآن ودخل السيل قبة حمزة رضى الله عنه وبقى الناس عشرين يومًا ما يصلون إلى القبة وأخذ نخلا كثيرًا وخرب أماكن .

ومات : الأمير عز الدين نقيب العساكر المصرية ودفن بالقرافة .

ومات : الأمين ناصر الدين بن سويد التكريتى سمع على جماعة من أصحاب ابن طبرزد وحدث وكان له بر وصدقات وحج مرات وجاور بمكة ومات الشيخ العالم الربانى الزاهد بقى السلف نجم الدين اللخمى القبابى الحنبلى بحماة وكانت جنازته عظيمة وحمل على الرءوس سمع مسند الدارمى وحدث وكان فاضلًا فقيها فرضيا جليل القدر وفضائله وتقلله من الدنيا وزهده معروف نفعنا الله ببركته والقباب المنسوب إليها قرية من قرى أشموم الرمان متصلة بثغر دمياط .

(قلت) وقدم مرة إلى الفوعة وأتابها فسألنى عن الأكدرية إذا كان بدل الأخت خنثى فأجبت إنها بتقدير الأنوثة تصح من سبعة وعشرين وبتقدير الذكورة تصح من ستة والأنوثة تضر الزوج والأم والذكورة تضر الجد والأخت وبين المسألتين موافقة بالثلث فيضرب ثلث السبعة والعشرين وهو تسعة فى الستة تبلغ أربعة وخمسين ومنها تصح المسألتان للزوج ثمانية عشر وللأم اثنا عشر وللجد تسعة ولا يصرف إلى الخنثى شىء والموقوف خمسة عشر وفى طريقها طول ليس هذا موضعه فأعجب الشيخ رحمه الله تعالى ذلك .

وفيها : فى شعبان مات فجأة الإمام الحافظ أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمرى أخذ علم الحديث عن ابن دقيق العيد والدمياطى وكان أحد الأذكياء الحفاظ له النظم والنثر والبلاغة والتصانيف المتقنة وكان شيخ الظاهرية وخطيب جامع الخندق .

وفيها : يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر رمضان انفصل القاضى جمال الدين يوسف ابن جملة الحجى الشافعى من قضاء دمشق وعقد له مجلس عند نائب السلطنة تنكز وحكم بعزله لكونه عزر الشيخ الظهير الرومى فجاوز فى تعزيزه الحد ورسم على القاضى المذكور بالعذراوية ثم نقل إلى القلعة فإن القاضى المالكى حكم بحبسه وطولع السلطان بذلك فأمر بتنفيذه .

قلت : وأعجب بعض الناس حبسه أولا ثم رجع الناس إلى أنفسهم فأكبروا مثل ذلك ومما قلت فيه :

دمشق لازال ربعها خضر بعدها اليوم يضرب المثل
فضامن المكس مطلق فرح فيها وقاضى القضاة معتقل

ونفى الشيخ الظهير إلى بلاد المشرق وكانت مدة ولاية القاضى المذكور سنة ونصفا سوى أيام فكان الناس يرون أن حادثة القاضى وحبسه بالقلعة بقيامه على ابن تيمية جزاء وفاقا .

ومات : الشيخ سيف الدين يحيى بن أحمد بن أبى نصر محمد بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلى بحماة وكان شهمًا سخيا رحمه الله تعالى وفى منتصف الشهر وجد بالقاهرة يهودى مع مسلمة من بنات الترك فرجم اليهودى وأحرق وأخذ ماله كله وكان متمولا وحبست المرأة (قلت) :

هذا تعدى طوره فناله ما ناله فأعدموه عرضه وروحه وماله

وحكى لى عدل أنه أخذ منه ألف ألف درهم وثلاث صوانى زمرد .

وعزل : الأمير سيف الدين بلبان عن ثغر دمياط وأخذ منه مال وحبس .

وفيها : فى شوال توفى الصاحب شمس الدين غبريال وكان قد أخذ منه ألف ألف درهم وكان حسن التدبير فى الدنيويات وأسلم سنة إحدى وسبعمائة هو وأمين الملك معا .

وفيه : بالقاهرة خصى عبد أسود كان يتعرض إلى أولاد الناس فمات .

قلت :

يعجبنى وفاة من فيه فساد وأذى لاحبذا حياته وإن مت فحبذا

ومات : الامام شمس الدين محمد بن عثمان الأصفهانى المعروف بابن العجمى الحنفى كان مدرسًا بالإقبالية وحدث بالمدينة النبوية ودرس أيضًا بالمدرسة الشريفة النبوية وحدث بدمشق وكان فاضلًا وجمع منسكا على المذاهب ومات الشيخ الزاهد ناصر الدين محمد بن الشرف صالح بحماة أقام أكثر من ثلاثين سنة لا يأكل الفاكهة ولا اللحم وكان ملازما للصوم لا يقبل من أحد شيئًا قلت :

زرتـه مرتـين والحمد لله فعاينت خير تلك الزيارة
كان فيه تواضع وسكون وصلاح باد وحسن عبارة

وفيه : كتب بدمشق محضر بأن الصاحب غبريال كان احتاط على بيت المال واشترى أملاكا ووقفها وليس له ذلك فشهد بذلك جماعة منهم ابن الشيرازى وابن أخيه عماد الدين وابن مراجل وأثبت عند برهان الدين الزرعى ونفذوه وامتنع المحتسب عز الدين ابن القلانسى من الشهادة بذلك فرسم عليه وعزل من الحسبة قلت :

فديت امرأ قد راقب الله ربه   وأفسد دنياه لإصلاح دينه
وعزل الفتى فى الله أكبر منصبا   يقيه الذى يختشى بحسن يقينه

وفيها : فى ذى القعدة تولى قضاء قضاة الشافعية بدمشق شهاب الدين محمد ابن المجد عبد الله بن الحسين درس وأفتى قديماً وضاهى الكبار وتنقلت به الأحوال وهو على ما فيه غزير المروءة سخى النفس متطلع إلى قضاء حوائج الناس واستمر قاضيا إلى أن كان ما سيذكر وتوجه مهنا بن عيسى أمير العرب إلى طاعة السلطان بعد النفرة العظيمة عنه سنين ومعه صاحب حماة الملك الأفضل فأقبل السلطان على مهنا وخلع عليه وعلى أصحابه مائة وستين خامة ورسم له بمال كثير من الذهب والفضة والقماش وأقطعه عدة قرى وعاد إلى أهله مكرما ومات المجود الأديب بدر الدين حسن بن على بن عدنان الحمدانى ابن المحدث .

وفيها : أظن فى ذى الحجة مات القاضى مجد الدين حرمى ابن قاسم الفاقوسى الشافعى وكيل بيت المال ومدرس قبة الشافعى وكان معمرا وألزمت النصارى واليهود ببغداد بالغيار ثم نقضت كنائسهم ودياراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركنا لليهود عمر فى زمن يهوديته مدفناً له خسر عليه مالا طائلا فخرب مع الكنائس وجعل بعض الكنائس معبدًا للمسلمين وشرع فى عمارة جامع . يدرب دينار وكانت بيعة كبيرة جدا واشتهر عن جماعة من الشيعة فى قرية بتى بالعراق أنهم دخلوا على مريض منهم فجعل يصيح أخذنى المغول خلصونى منهم وكرر ذلك فاختلس من بينهم حيا فكان آخر عهدهم به وكان الرجل من فقهاء الشيعة يتولى عقود أنكحتهم إن فى ذلك لعبرة وأطلق ببغداد مكس الغزل وضمان الخمر والفاحشة وأعطيت المواريث لذوى الأرحام دون بيت المال وخفف كثير من المكوس ولله الحمد .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة :

فى المحرم منها رجع حسام الدين مهنا من مصر مكرما ومات الأمير بدر الدين كيلكدى عتيق شمس الدين الأعسر بدمشق وخلف أولادا وأملاكا ومات الأمير بكتمر الحسامى بمصر جدد جامع قلعة مصر ومات الملك العزيز ابن الملك المغيث ابن السلطان الملك العادل ابن الكامل كتب الكثير وعمر .

وفيها : فى صفر وصل إلى دمشق كاتب السر القاضى جمال الدين عبد الله ابن القاضى كمال الدين بن الأثير صاحب ديوان الإنشاء بدلا عن شرف الدين حفيد الشهاب محمود ومات شيخ المؤذنين وأنداهم صوتا برهان الدين إبراهيم ألوانى سمع من ابن عبد الدايم وجماعة وحدث .

ومات : بدمشق المسند المعمر بدر الدين عبد الله بن أبى العيش الشاهد وقد جاوز التسعين سمع من مكى بن قيس بن علان وكان يطلب على السماع وتفرد بأشياء (ومات) بدمشق تقى الدين عبد الرحمن بن الفويزة الحنفى . وفيها فى صفر أمر السلطان بتسمير رجل ساحر اسمه إبراهيم .

وفيها : فى ربيع الأول مات الشيخ أبو بكر ابن غانم بالقدس وكان له مكارم ونظم .

ومات : المحدث أمين الدين محمد بن إبراهيم ألوانى روى عن الشرف ابن عساكر وغيره وكان ذا همة ورحلة وحج ومجاورة وكانت جنازته ، مشهودة وطاب الثناء عليه .

ومات : نظام الدين حسن ابن عم العلامة كمال الدين بن الزملكانى وقد جاوز الخمسين وكان مليح الشكل لطيف الكلام ناظر الديوان البر .

ومات : كبير المجودين الخطيب بهاء الدين محمود بن خطيب بعلبك السلمى بالعقبة وتأسف الناس عليه لدينه وتواضعه وحسن شكله وبراعة خطه وعفته وتصونه كتب عليه خلق وكتب صحيح البخارى بخطه وعمر الأمير حمزة بدمشق حماما عند القنوات وأدبر فيه أربعة وعشرون جرنا وأوجز كل يوم بأربعين درهما وعظم حمزة وأقبل عليه تنكز بعد الدواندار ثم طغى وتجبر وظلم وعظم الخطب به فضربه تنكز وحبسه ونقل إلى القلعة ثم حبس بحبس باب الصغير ثم أطلق أياما وصودر ثم أهلك سرا بالبقاع قيل غرق وقطع لسانه من أصله وهو الذى أتلف أمر الدواندار وابن مقلد بن جملة وله حكايات فى ظلمه ورفع فيه يوم أمسك تسعمائة قصة وبولغ فى ضربه ورمى بالبندق فى جسده وما رق عليه أحد (قلت)

لـو تفطن العـاق الظلوم لحـاله لبكى عليهـا فهى بئس الحـال
يكفيـه شؤم وفـاتـه وقبيـح مـا يثنى عـليـه وبعـد ذا أهـوال

وفيها : فى ربيع الآخر توفى الفقير الصالح الملازم لمجالس الحديث أبو بكر بن هارون الشيبانى الجزرى روى عن ابن النجارى (وقدم) على نيابة طرابلس سيف الدين طينال الناصرى عوضا عن أقوش الكركى وحبس الكركى بقلعة دمشق ثم نقل إلى الإسكندرية .

وفيها : فى جمادى الأولى مات علاء الدين على ابن السلعوس التنوخى وقد باشر صحابة الديوان بدمشق ثم ترك واحتيط بمصر على دار الأمير بكتمر الحاجب الحسامى ونبشت فأخذ منها شىء عظيم .

وفيها : فى جمادى الآخرة مات مشد دار الطراز سيف الدين على بن عمر بن قزل سبط الملك الحافظ ووقف على كرسى وسيع بالجامع .

ومات : ببعلبك الفقيه أبو طاهر سمع من التاج عبد الخالق وعدة وكتب وحدث وعمل ستر ديباج منقوش على المصحف العثمانى بدمشق بأربعة آلاف درهم وخمسمائة قلت :

. . .

ستروا المكرم بالحرير وستره بالدر والياقوت غير كثير
ستروه وهو من الغواية سترنا عجبى لهذا الساتر المستور

ومات فجأة التاجر علاء الدين على السنجارى بالقاهرة وهو الذى أنشأ دار القرآن بباب الناطفانيين قلت :

ما مات من هذى صفاته فوفاه ذا عندى حياته
إن مات هذا صورة أحيته معنى سالفاته

ومات بمصر الواعظ شمس الدين حسين وهو آخر أصحاب الحافظ المنذرى سمع من جماعة وكان عالما حسن الشكل .

ومات : الفاضل الأديب زكى الدين المأمون الحميرى المصرى المالكى بمصر ولى نظر الكرك والشوبك وعمر نحو تسعين سنة .

وفيها : فى رجب مات الفقيه محمد بن محيى الدين محمد بن القاضى شمس الدين ابن الزكى العثمانى شابا درس مدة بدمشق .

ومات : الحافظ قطب الدين الكلبى بالحسينية حفظ الألفية والشاطبية وسمع من القاضى شمس الدين بن العماد وغيره وحج مرات وصنف وكان كيسا حسن الأخلاق مطرحا للتكلف طاهر اللسان مضبوط الأوقات شرح معظم البخارى وعمل تاريخا لمصر لم يتمه ودرس الحديث بجامع الحاكم وخلف تسعة أولاد ودفن عند خاله الشيخ نصر المنبجى .

وفيه : أخرج السلطان من حبس الإسكندرية ثلاثة عشر نفرًا منهم تمر الساقى الذى ناب بطرابلس وبيبرس الحاجب وخلع على الجميع وفيه طلب قاضى الإسكندرية فخر الدين بن سكين وعزل بسبب فرنجى .

وفيها : فى شعبان مات المفتى بدر الدين محمد بن الفويرة الحنفى سمع وحدث .

ومات : القاضى زين الدين عبد الكافى بن على بن تمام روى عن الأنماطى وأخذ عنه ابن رافع وغيره .

ومات : عز الدين يوسف الحنفى بمصر حدث عن إبراهيم وناب فى الحكم .

وفيها : فى رمضان مات صاحبنا شمس الدين محمد يوسف التدمرى خطيب حمص كان يفتى ويدرس وتولى قضاء الإسكندرية العماد محمد بن إسحق الصوفى .

وفيها : فى شوال قدم عسكر حلب والنائب من غزاة بلد سيس وقد خربوا فى بلد أذنه وطرسوس وأحرقوا الزروع واستاقوا المواشى وأتوا بمائتين وأربعين أسيرًا وما عدم من المسلمين سوى شخص واحد غرق فى النهر وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم فلما علم أهل إياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم فى خان ثم أحرقوا فقل

من نجافعلوا ذلك بنحو ألفى رجل من التجار البغاددة وغيرهم فى يوم عيد الفطر فلله الأمر واحترق فى حماة مائتان وخمسون حانوتا وذهبت الأموال واهتم الملك بعمارة ذلك وكان الحريق عند الفجر إلى طلوع الشمس وذكر أن شخصا رأى ملائكة يسوقون النار فجعل ينادى أمسكوا يا عباد الله لا ترسلوا فقالوا بهذا أمرنا ثم أن الرجل توفى لساعته وناب بدمشق فى القضاء شهاب الدين أحمد بن شرف الزرعى الشافعى قاضى حصن الأكراد وورد الخبر بحريق أنطاكية قبل رجوع العسكر فلم يبق بها إلا القليل ولم يعلم سبب ذلك .

وفيها : فى ذى القعدة توفيت زينب بنت الخطيب يحيى ابن الإمام عز الدين بن عبد السلام السلمى سمعت من جماعة وكان فيها عبادة وخير وحدثت .

ومات : الطبيب جمال الدين عبد الله بن عبد السيد ودفن فى قبر أعده لنفسه وكان من أطباء المارستان النورى بدمشق وأسلم مع والده الذبان سنة إحدى وسبعمائة .

ومات : حسام الدين مهنا بن عيسى أمير العرب وحزن عليه آله وأقاموا مأتما بليغا ولبسوا السواد أناف على الثمانين وله معروف من ذلك مارستان جيد بسرمين ولقد أحسن برجوعه إلى طاعة سلطان الإسلام قبل وفاته وكانت وفاته بالقرب من سلمية .

ومات : المحدث الرئيس العالم شمس الدين محمد بن أبى بكر بن طرخان الحنبلى سمع من ابن عبد الدائم وغيره وكان بديع الخط وكتب الطباق وله نظم .

وفيها : فى ذى الحجة مات الفقيه الزاهد شرف الدين فضل بن عيسى بن قنديل العجلونى الحنبلى بالمسمارية كان له اشتغال وفهم ويد فى التعبير وتعفف وقوة نفس عرض عليه خزن المصحف العثمانى فامتنع رحمه الله تعالى .

وفيها : وصل الأمير سيف الدين أبو بكر الباشرى إلى حلب وصحب معه منها الرجال والصناع وتوجه إلى قلعة جعبر وشرع فى عمارتها وكانت خرابا من زمن هولاكو وهى من أمنع القلاع تسبب فى عمارتها الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام ولحق المملكة الحلبية وغيرها بسبب عمارتها ونفوذ ماء الفرات إلى أسفل منها كلفة كثيرة .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وسبعمائة :

فيها : فى المحرم باشر السيد النقيب الشريف بدر الدين محمد ابن السيد شمس الدين بن زهرة الحسينى وكالة بيت المال بحلب مكان شيخنا القاضى فخر الدين أبى عمر وعثمان بن الخطيب زين الدين على الجبرينى .

وفيها : فى المحرم نزل نائب الشام الأمير سيف الدين تنكز بعسكر الشام إلى قلعة جعبر وتفقدها وقرر قواعدها وتصيد حولها ثم رحل فنزل برج بزاعا ومد له نائب حلب الأمير علاء

الدين الطنبغا به سماطا ثم سافر إلى جهة دمشق .

وفيها : فى سفر طلب من البلاد الحلبية رجال للعمل فى نهر قلعة جعبر ورسم أن يخرج من كل قرية نصف أهلها وجلا كثيرا من الضياع بسبب ذلك ثم طلب من أسواق حلب أيضا رجال واستخرجت أموال وتوجه النائب بحلب إلى قلعة جعبر بمن حصل من الرجال وهم نحو عشرين ألفا .

وفيها : فى جمادى الآخرة وصل البريد إلى حلب بعزل القاضى شمس الدين محمد بن بدر الدين أبى بكر بن إبراهيم بن النقيب عن القضاء بالمملكة الحلبية وبتولية شيخنا قاضى القضاة فخر الدين أبى عمر وعثمان ابن خطيب جبرين مكانه ولبس الخلعة وحكم من ساعته واستعفيته من مباشرة الحكم بالبر فى الحال فأعفانى وكذلك أخى بعد مدة فأنشدته ارتجالا .

جنبتنى وأخى تكاليف القضا وكفيتنا مرضين مختلفين
ياحى عالمنا لقد أنصفتنا فلك التصرف فى دم الأخوين

وفيه : أعنى ذا الحجة توجه الأمير عز الدين أزدمر النورى نائب بهنسى لمحاصرة قلعة درنده بمن عنده من الأمراء والتركمان وفتحت بالأمان فى منتصف المحرم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

وفيها : أعنى سنة ست وثلاثين وسبعمائة توفى الشيخ العارف الزاهد (مهنا ابن الشيخ إبراهيم) بن القدوة مهنا الفوعى بالفوعة فى خامس عشر شوال ورثيته بقصيدة أولها

أسأل الفوعة الشديدة حزنا عن مهنا هيهات أين مهنا
أين من كان أبهج الناس وجها فهو أسمى من البدور وأسنى

(ومنها) :

أين شيخى وقدوتى وصديقى وحبيبى وكل ما أتمنى
كيف لا يعظم المصاب لصدر نحن منه مودة وهو منا
جعفرى السلوك والوضع حتى قال عبس عنه مهنا مهنا
أى قلب به ولو كان صخرا ليس يحكى الخنساء نوحا وحزنا
أذكرتنا وفاته بأبيه وأخيه أيام كانوا وكنا

وهى طويلة كان جده مهنا الكبير من عباد الأمة وترك أكل اللحم زمانا طويلا لما رأى من اختلاط الحيوانات فى أيام هولاكو لعنه الله وكان قومه على غير السنة فهدى الله الشيخ مهنا من بينهم وأقام مع التركمان راعيا ببرية حران فبورك للتركمان فى مواشيهم ببركته وعرفوا بركته وحصل له نصيب من الشيخ حياة ابن قيس بحران وهو فى قبره وجرت له معه كرامات فرجع مهنا إلى الفوعة وصحب شيخنا تاج الدين جعفر السراج الحلبى وتلمذ له وانتفع به

وصرفه مهنا فى ماله وخلفه على السجادة بعد وفاته ودعا إلى الله تعالى وجرت له وقائع مع الشيعة وقاسى معهم شدائد وبعد صيته وقصد بالزيارة من البعد وجاور بمكة شرفها الله تعالى سنين ثم بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وجرت له هناك كرامات مشهورة بين أصحابه وغيرهم منها أن النبى صلى الله عليه وسلم رد عليه السلام من الحجرة وقال وعليك السلام يا مهنا ثم عاد إلى الفوعة وأقام بها إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى فى المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة وجلس بعده على سجادته ابنه الشيخ إبراهيم فسار أحسن سير ودعا إلى الله تعالى على قاعدة والده ورجع من أهل بلد سرمين خلق إلى السنة وقاسى من الشيعة شدائد وسببه قتل ملك الأمراء بحلب يومئذ سيف الدين قبجق الشيخ الزنديق منصورا من تار وجرت بسبب قتله فتن فى بلد سرمين ولم يزل الشيخ إبراهيم على أحسن سيرة وأصدق سريرة إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى فى ذى الحجة سنة ست عشرة وسبعمائة وجلس بعده على سجادته ابنه الشيخ الصالح اسماعيل ابن الشيخ إبراهيم ابن القدوة مهنا فسار أحسن سير وقاسى من الشيعة غبونا ولم يزل على أحسن طريقة إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى فى تامن صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وجلس بعده على السجادة أخوه لأبويه الشيخ الصالح مهنا بن إبراهيم مهنا إلى أن توفى فى خامس عشر شوال سنة ست وثلاثين وسبعمائة كما مر وتأسف الناس لموته فإنه كان كثير العبادة حسن الطريقة عارفا وجلس بعده على السجادة أخوه لأبيه الشيخ حسن وكان شيخنا عبس يحب مهنا هذا محبة عظيمة ويعظمه ويقول عنه مهنا مهنا يعنى انه يشبه فى الصلاح والخير جده وهم اليوم ولله الحمد بالفوعة جماعة كثيرة وكلهم على خير وديانة وقد أجزل الله عليهم المنة وجعلهم بتلك الأرض ملجأ لأهل السنة ولو ذكرت تفاصيل سيرة الشيخ مهنا الكبير وأولاده وأصحابه وكراماتهم لطال القول والله تعالى أعلم .

وفيها : مات القان أبو سعيدبن خربنده بن أرغون بن أبغا بن هولاكو صاحب الشرق ودفن بالمدينة السلطانية وله بضع وثلاثون سنة وكانت دولته عشرين سنة وكان فيه دين وعقل وعدل وكتب خطا منسوبا وأجاد ضرب العود وباشتغال التتار بوفاته تمكنا من عمارة قلعة جعبر بعد أن كانت هى وبلدها دائرة من أيام هولاكو فلله الحمد .

وفيها : توفى بدمشق الإمامان مدرس الناصرية كمال الدين أحمد بن محمد بن الشيرازى وله ست وستون سنة وقد ذكر لقضاء دمشق ومدرس الأمينية قاضى العسكر علاء الدين على ابن محمد بن القلانسى وله ثلاث وستون سنة وناظر الخزانة عز الدين أحمد بن محمد العقلى بن القلانسى المحتسب بها .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وسبعمائة :

وفيها : فى ربيع الأول توفى الأمير الشاب الحسن جمال الدين خضر ابن ملك الأمراء علاء

الدين الطنبغا بحلب ودفن بالمقام ثم عمل له والده تربة حسنة عند جامعه خارج حلب ونقل إليها وكان حسن السيرة ليس من أعجاب أولاد النواب فى شىء ومما قلت فيه تضمينا

أيبست أفئدة بالحزن يا خضر فالدمع يسقيك أن لم يسقك المطر
منها خلقت فلم يسمح زمانك أن يشين حسنك فيه الشيب والكبر
فإن رددت فما فى الرد منقصة عليك قد رد موسى قبل والخضر

وإن كان يتضمن هذا التضمين القول بموت الخضر عليه السلام .

وفيه : باشر تاج الدين محمد بن عبد الكريم أخو الصاحب شرف الدين يعقوب نظر الجيوش المنصورة بحلب فما هنئ بذلك واعترته الأمراض حتى مات رحمه الله فى سابع جمادى الآخرة من السنة المذكورة قلت :

ما الدهر إلا عجب فاعتبر أسرار تصريفاته واعجب
كم باذل فى منصب ماله مات وما هنى بالمنصب

وباشر مكانه فى شعبان منها القاضى جمال الدين سليمان بن ريان .

وفيها : فى رمضان المعظم وصل إلى حلب من مصر عسكر حسن الهيئة مقدمه الحاج أرقطاى وعسكر من دمشق مقدمهم قطلبغا الفخرى وعسكر من طرابلس مقدمه بهادر عبد الله وعسكر من حماة مقدمه الأمير صارم الدين أزبك والمقدم على الكل ملك الأمراء بحلب علاء الدين الطنبغا ورحل بهم إلى بلاد الأرمن فى ثانى شوال منها ونزل على مينا إياس وحاصرها ثلاثة أيام ثم قدم رسول الأرمن من دمشق ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم على أن يسلموا البلاد والقلاع التى شرقى نهر جهان فتسلموا منهم ذلك وهو ملك كبير وبلاد كثيرة كالمصيصة وكوبرا والهارونية وسرفندكار وآياس وباناس وبخيمة والنقير التى تقدم ذكر تخريبها وغير ذلك فخرب المسلمون برج آياس الذى فى البحر واستنابوا بالبلاد المذكورة نوابا وعادوا فى ذى الحجة منها والحمد لله .

قلت : وهذا فتح اشتمل على فتوح وترك ملك الأرمن جسدا بلا روح خائفا على ما بقى بيده على الإطلاق وكيف لا ومن خصائص ديننا سراية الأعتاق فياله فتحا كسر صلب الصليب وقطع يد الزنار وحكم على كبير أناسهم المزمل فى بجاده بالخفض على الجوار والله أعلم .

وفيها : فى ذى الحجة توفى الأمير العابد الزاهد صارم الدين أزبك المنصورى الحموى بمنزلة نزلها مع العسكر عند آياس وحمل إلى حماة فدفن بتربته كان من المعمرين فى الإمارة ومن ذوى العبادة والمعروف وبنى خانا للسبيل بمعرة النعمان شرقيها وعمل عنده مسجدا وسبيلا للماء وله غير ذلك رحمه الله ذكر لى جماعة بحلب وهو مسافر إلى بلاد الأرمن أنه رؤى له بحماة منام يدل على موته فى الجهاد وحمله إلى حماة وحوله الملائكة .

قلت : ولقد تجمل لهذا الجهاد وتحمل وتكلف لمهمة وتكفل حتى كأنه توهم فترة سلاحه عن الكفاح فرسم أن تحد السيوف وتعتقل الرماح فلاح على حركاته الفلاح وسيحمد سراه عند الصباح والله أعلم .

وفيها : وقف الأمير الفاضل صلاح الدين يوسف بن الأسعد الدواندار داره النفيسة بحلب المعروفة أولا بدار ابن العديم مدرسة على المذاهب الأربعة وشرط أن يكون القاضى الشافعى والقاضى الحنفى بحلب مدرسيها وذلك عند عوده من بلد سيس صحبة العسكر منصرفا إلى منزله بطرابلس .

قلت : ولقد كانت الدار المذكورة باكية لعدم بنى العديم فصارت راضية بالحديث عن القديم نزع الله عنها لباس الباس والحزن وعوضها بحلة يوسف عن شقة الكفن فكمل رخامها وذهبها وجعل ثمال اليتامى عصمة للأرامل مكتبها وكملها بالفروع الموصلة والأصول المفرعة وجملها بالمرابع المذهبة والمذاهب الأربعة وبالجملة فقد كتبها صلاح الدنيا فى ديوان صلاح الدين إلى يوم العرض وتلا لسان حسنها اليوسفى وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولما وقف الأمير صلاح الدين المذكور على هذه الترجمة تهلل وجهه وقال ما معناه ياليتك زدتنا من هذا .

وفيها : توفى الشيخ الكبير الشهير المتزهد محمد بن عبد الله بن المجد المرشدى بقريته من عمل مصر له أحوال وطعام يتجاوز الوصف ويقال إنه كان مخدوما قيل إنه أنفق فى ثلاث ليال ما يساوى خمسة وعشرين ألفاً رحمه الله تعالى ونفعنا به .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة :

وفيها : فى المحرم توفى ناصر الدين محمد بن مجد الدين محمد بن فرباص دخل بلاد سيس لكشف الفتوحات الجهائية فتوفى هناك رحمه الله تعالى ودفن بتربة هناك للمسلمين .

وفيها : فى صفر توفى بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن الدقاق الدمشقى ناظر الوقف بحلب وفى أيام نظره فتح الباب المسدود الذى بالجامع بحلب شرقى المحراب الكبير لأنه سمع أن بالمكان المذكور رأس زكرياء النبى صلى الله على نبينا وعليه وسلم فارتاب فى ذلك فأقدم على فتح الباب المذكور بعد أن نهى عن ذلك فوجد بابا عليه تأزير رخام أبيض ووجد فى ذلك تابوت رخام أبيض فوقه رخامة بيضاء مربعة فرفعت الرخامة عن التابوت فإذا فيها بعض جمجمة فهرب الحاضرون هيبة لها ثم رد التابوت وعليه غطاؤه إلى موضعه وسد عليه الباب ووضعت خزانة المصحف العزيز على الباب وما نجح الناظر المذكور بعد هذه الحركة وابتلى بالصرع إلى أن عض لسانه فقطعه ومات نسأل الله أن يلهمنا حسن الأدب .

وفيها : فى أواخر ربيع الأول قدم إلى حلب العلامة القاضى فخر الدين محمد بن على

المصرى الشافعى المعروف بابن كاتب قطوبك واحتفل به الحلبيون وحصل لنا فى البحث معه فوائد منها قولهم إذا طلب الشافعى من القاضى الحنفى شفعة الجار لم يمنع على الصحيح لأن حكم الحاكم برفع الخلاف قال وهذا مشكل فإن حكم الحاكم ينفذ ظاهرا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم فإنما أقطع به قطعة من نار وأما كون القاضى لا ينقض هذا الحكم فتلك سياسة حكيمة ومنها قولهم يقضى الشافعى الصلاة إذا اقتدى بالحنفى علم أنه ترك واجبا كالبسملة يعنى على صحيح ولا يقضى المقتدى بحنفى افتصد ولم يتوضأ قال وهذا مشكل فإن الحنفى إذا افتصد ولم يتوضأ وصلى فهو متلاعب على اعتقاده فينبغى أن يقضى الشافعى المقتدى به وإذا ترك البسملة فصلاته صحيحة عنده فينبغى أن لا يقضى الشافعى المقتدى به وفيه نظر ومنها قولهم فى الصداق أن قيمة النصف غير نصف القيمة هذا معروف ولكنه قال قول الرافعى وغيره أن الزوج فى مسائل التشطير يغرمها نصف القيمة لا قيمة النصف مشكل وكانوا بدمشق لا يساعدوننى على استشكاله حتى رأيته لإمام الحرمين وذلك لأن القيمة خلف لما تلف وإنما يستحق نصف الصداق فليغرمها قيمة النصف لا نصف القيمة .

ومنها : انه ذكر أن الشيخ صدر الدين لما قدم من مصر قال لقد سألنى ابن دقيق العيد عن مسألة أشهرته ليلتين وصورتها رجل قال لزوجته إن ظننت بى كذا فأنت طالق فظنت به ذلك قالوا تطلق ومعلوم أن الظنى لا ينتج قطعيا فكيف أنتج هنا القطعى قال العلامة فخر الدين وكنت يومئذ صبيا فقلت ليس هذا من ذلك فإن المعنى إن حصل لك الظن بكذا فأنت طالق والحصول قطعى فينتج قطعيا فقال صدر الدين بهذا أجبته .

ومنها : قولهم إذا ادعى على امرأة فى حبالة رجل أنها زوجته فقالت طلقتنى تجعل زوجته ويحلف أنه لم يطلق رأى فى هذه المسألة ما يراه شيخنا قاضى القضاة شرف الدين ابن البارزى وهو أن المراد بذلك امرأة مبهمة الحال .

ومنها : إنما انعقد السلم بجميع ألفاظ البيع ولم ينعقد البيع بلفظ السلم لأن البيع يشمل بيع الأعيان وبيع ما فى الذمة فصدق البيع عليهما صدق الحيوان على الإنسان والفرس فإن الحيوان جنس لهذين النوعين وكذلك البيع جنس لهذين النوعين بخلاف السلم فإنه بيع ما فى الذمة فلا يصدق على بيع العين كالنوع لا يصدق على الجنس ولذلك تسمعهم يقولون الجنس يصدق على النوع ولا عكس .

ومنها : قولهم يسجد للسهو بنقل ركن ذكرى إن أريد به أنه ترك الفاتحة مثلا فى القيام وقرأها فى التشهد سهوا فهذا يطرح غير المنظوم وإن فعل ذلك عمدا بطلت صلاته وإن أريد غير ذلك فما صورته فأجاب أن صورة المسألة أن يقرأ الفاتحة فى القيام ثم يقرأها فى التشهد مثلا فوافق ذلك جوانبا فيها .

ومنها : أنهم قالوا خمس رضعات تحرم بشرط كون اللبن المحلوب فى خمس مرات على الصحيح ثم ذكروا قطرة اللبن تقع فى الحب وهذا تناقض فقال لا تناقض فالمراد بقطرة اللبن فى الحب إذا وقعت تتمة لما قبلها وهذا حسن مهم فإن شيخنا لفراره من مثل ذلك بشرط أن يكون اللبن المغلوب بما شيب به قدرا يمكن أن يسقى منه خمس دفعات لو انفرد عن الخليط ولا شك أن هذا قول ضعيف والصحيح عند الرافعى أن هذا لا يشترط والتناقض يندفع بما تقدم من جواب العلامة فخر الدين .

وفيها : وأظنه فى ربيع الآخر ورد الخبر إلى حلب بأن نائب الشام تنكز قبض على علم الدين كاتب السر القبطى الأصل بدمشق وولى موضعه القاضى شهاب الدين يحيى ابن القاضى عماد الدين إسماعيل بن القيسرانى الخالدى وعذب النائب العلم المذكور وعاقبه وصادره وبينه وبين العلامة فخر الدين المصرى قرابة فلحقه شؤمه ولفحه سمومه وسافر من حلب خائفا من نائب الشام فلما وصل دمشق رسم عليه مدة وعزل عن مدارسه وجهاته ثم فك الترسيم عنه وبعد موت تنكز عادت إليه جهاته وحسنت حاله ولله الحمد .

وفيها : فى رجب ورد الخبر بوفاة القاضى شهاب الدين محمد بن المجد عبد الله قاضى القضاة الشافعى بدمشق صدمت بغلته به حائطا فمات بعد أيام وخلق الناس موضع الصدمة من ذلك الحائط بالخلوق ومن لطف الله به أن السلطان عزله بمصر يوم موته بدمشق وعزل القاضى جلال الدين محمد القزوينى عن قضاء الشافعية بمصر ونقله إلى القضاء بالشام موضع ابن المجد ورسم بمصادرة ابن المجد فلما مات صودر أهله وكان ابن المجد فيه خير وشر ودهاء ومروءة قلت :

لا يـيـأسـن مخـلـط من رحمـة الله العفـو
دلـيـل هـذا قـولـه وآخـرون اعـتـرفـوا

وولى بعد جلال الدين قضاء الديار المصرية قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة وأحسن السيرة وعزل القاضى برهان الدين ابن عبد الحق أيضاً عن قضاء الحنفية بالديار المصرية وولى مكانه القاضى حسام الدين الغورى قاضى القضاة ببغداد كان الوافد إلى مصر عقيب الفتن الكائنة بالمشرق لموت أبى سعيد .

وفيها : فى رجب أيضا باشر القاضى بهاء الدين حسن ابن القاضى جمال الدين سليمان بن ريان مكان والده نظر الجيوش بحلب فى حياة والده وبسعيه له .

وفيها : فى رجب مات بحلب فاضل الحنفية بها الشيخ شهاب الدين أحمد بن البرهان إبراهيم ابن داود ولى قضاء عزاز ثم نيابة القضاء بحلب مدة ثم انقطع إلى العلم وله مصنفات وولى ابنه داود جهاته .

وفيها : فى رمضان توفى القاضى محيى الدين يحيى بن فضل الله كاتب السر بمصر وقد ناف على التسعين وله نظم ونثر .

وفيها : أخرج الخليفة أبو الربيع سليمان المستكفى بالله من مكانه بمصر عنفا إلى قوص وقلت فى ذلك مضمنا من القصيدة المشهورة لأبى العلاء بيتا وبعض بيت

أخرجوكم إلى الصعيد لعذر　　غير مجد فى ملتى واعتقادى
لا يغيركم الصعيد وكونوا　　فيه مثل السيوف فى الأغماد

وفيها : فى رمضان أيضاً ورد الخبر إلى حلب بوفاة العلامة زين الدين محمد ابن أخى الشيخ صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن المرحل من أكابر الفقهاء المفتين المدرسين الأعيان المتأهلين للقضاء بدمشق

أدينه تندب أم سمته　　أم عقله الوافر أم علمه
فاق على الأقران فى جده　　فمن رآه خاله عمه

وتولى تدريس الشامية البرانية مكانه القاضى جمال الدين يوسف بن جملة فمات ابن جملة قيل إنه ما ألقى فيها إلا درسًا أو درسين لاشتغاله بالمرض ووليها بعده القاضى شمس الدين محمد بن النقيب بعد أن نزل عن العادلية .

وفيها : فى ثالث شوال ورد الخبر بوفاة العلامة شيخ الإسلام زين الدين محمد بن الكتانى علم الشافعية بمصر وصلى عليه بحلب صلاة الغائب كان مقدما فى الفقه والأصول معظمًا فى المحافل متضلعا من المنقول ولولا انجذابه عن علماء عصره وتيهه على فضلاء دهره لبكى على فقده أعلامهم وكسرت له محابرهم وأقلامهم ولكن طول لسانه عليهم هون فقده لديهم (قلت) :

فجعت بكتباتها مصر　　فمثله لا يسمح الدهر
يا زين مذهبه كفى أسفا　　أن الصدور بموتك انسروا
ما كان من بأس لو أنك بالـ　　ـعلماء بر أيها البحر

وفيها : فى شوال أيضاً رسم ملك الأمراء بحلب الطنبغا بتوسيع الطرق التى فى الأسواق اقتداء بنائب الشام تنكز فيما فعله فى أسواق دمشق كما مر ولعمرى قد توقعت عزله عن حلب لما فعل ذلك فقلت حينئذ

رأى حليا بلدا دائرا　　فزاد لإصلاحها حرصه
وقاد الجيوش لفتح البلاد　　ودق لقهر العدا فحصه
وما بعد هذا سوى عزله　　إذا تم أمر بدا نقصه

وفيها : فى عاشر شوال ورد الخبر بوفاة الفاضل المفتى الشيخ بدر الدين محمد ابن قاضى

بارين الشافعى بحماة كان عارفا بالحاوى الصغير ويعرف نحوًا وأصولا ، وعنده ديانة وتقشف وبينى وبينه صحبة قديمة فى الاشتغال على شيخنا قاضى القضاة شرف الدين ابن البارزى وسافر مرة إلى اليمن رحمه الله ونفعنا ببركته. (قلت) :

فجعت حماة ببدرها بل صدرها ... بل بحرها بل حبرها الغواص
الله أكبر كيف حال مدينة ... مات المطيع بها ويبقى العاصى

وفيه : ولى قضاء الحنفية بحماة جمال الدين عبد الله ابن القاضى نجم الدين عمر بن العديم شابا أمرد بعد عزل القاضى تقى الدين بن الحكيم فإن صاحب حماة آثر أن لا ينقطع هذا الأمر من هذا البيت بحماة لما حصل لأهل حماة من التأسف على والده القاضى نجم الدين وفضائله وعفته وحسن سيرته رحمه الله تعالى وجهز قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم صاحبنا شهاب الدين أحمد بن المهاجر إلى حماة نائبا عن القاضى جمال الدين المذكور إلى حين يستقل بالأحكام وخلع صاحب حماة عليهما فى يوم واحد .

وفيه : ورد الخبر أن الأمير سيف الدين أبا بكر التابيرى قدم من الديار المصرية على ولاية بر دمشق .

وفيها : فى ذى القعدة توفى بدمشق العلامة القاضى جمال الدين يوسف بن جملة الشافعى معزولا عن الحكم من سنة أربع وثلاثين وسبعمائة كان جم الفضائل غزير المادة صحيح الاعتقاد عنده صداقة فى الأحكام وتقديم للمستحقين وكان قد عطف عليه النائب وولاه تدريس مدارس بدمشق (قلت)

بكت المجالس والمدارس جملة ... لك يابن جملة حين فاجأك الردى
فاصعد إلى درج العلى واصعد فمن ... خدم العلوم جزاؤه أن يصعدا

وفيها : فى ذى القعدة توفى شيخى المحسن إلىّ ومعلمى المتفضل علىّ قاضى القضاة شرف الدين أبو القاسم هبة الله ابن قاضى القضاة نجم الدين أبى محمد عبد الرحيم ابن قاضى القضاة شمس الدين أبى الطاهر إبراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله بن حسان بن محمد ابن منصور بن أحمد بن البارزى الجهنى الحموى الشافعى علم الأئمة وعلامة الأمة ، تعين عليه القضاء بحماة فقبله وتورع لذلك عن معلوم الحكم من بيت المال فما أكله بل فرش خده لخدمة الناس ووضعه ولم يتخذ عمره درة ولا مهمازا ولا مقرعة ولا عزر أحدا بضرب ولا أخراق ولا أسقط شاهدا على الإطلاق هذا مع نفوذ أحكامه وقبول كلامه والمهابة الوافرة والجلالة الظاهرة والوجه البهى الأبيض المشرب بحمرة واللحية الحسنة التى تملأ صدره والقامة التامة والمكارم العامة والمحبة العظيمة للصالحين والتواضع الزائد للفقراء والمساكين أفنى شبيبه فى المجاهدة والتقشف والأوراد وأنفق كهولته فى تحقيق العلوم والإرشاد وقضى شيخوخته فى تصنيف الكتب

الجياد وخطب مرات لقضاء الديار المصرية فأبى وقنع بمصره واجتمع له من الكتب مالم يجتمع لأهل عصره وكف بصره فى آخر عمره فولى ابن ابنه مكانه وتفرغ للعلوم والتصوف والديانة وصار كلما علت سنه لطف فكره وجاد ذهنه وشدت الرحال إليه وسار المعول فى الفتاوى عليه واشتهرت مصنفاته فى حياته بخلاف العادة ورزق فى تصانيفه وتآليفه السعادة .

فمنها : فى التفسير كتاب البستان فى تفسير القرآن مجلدان وكتاب روضات جنات المحبين اثنا عشر مجلدا ومنها فى الحديث كتاب المجتبى مختصر جامع الأصول وكتاب المجتبى وكتاب الوفا فى أحاديث المصطفى وكتاب المجرد من السند وكتاب المنضد شرح المجرد أربع مجلدات ومنها فى الفقه كتاب شرح الحاوى المسمى بإظهار الفتاوى من أعوار الحاوى وكتاب تيسير الفتاوى من تحرير الحاوى وهما أشهر تصانيفه وكتاب شرح نظم الحاوى أربع مجلدات وكتاب المغنى مختصر التنبيه وكتاب تمييز التعجيز ومنها فى غير ذلك كتاب توثيق عرى الإيمان فى تفضيل حبيب الرحمن والسرعة فى قراءات السبعة والدراية لأحكام الرعاية للمحاسبى وغير ذلك حدثنى رحمه الله تعالى فى ذى القعدة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة قال رأيت الشيخ محيى الدين النووى بعد موته فى المنام فقلت له ما تختار فى صوم الدهر فقال فيه اثنا عشر قولا للعلماء فظهر لشيخنا أن الأمر كما قال وإن لم تكن الأقوال مجموعة فى كتاب واحد وذلك أن فى صوم الدهر فى حق من لم ينذر ولم يتضرر به أربعة أقوال الاستحباب وهو اختيار الغزالى وأكثر الأصحاب والكراهة وهو اختيار البغوى صاحب التهذيب والإباحة وهو ظاهر نص الشافعى لأنه قال لا بأس به والتحريم وهو اختيار أهل الظاهر حملا لقوله صلى الله عليه وسلم فيمن صام الدهر لا صام ولا أفطر على أنه دعاء عليه وفى حق من نذر ولم يتضرر به خمسة أقوال الوجوب وه اختيار أكثر الأصحاب والاستحباب والإباحة والكراهة والتحريم وفى حق من يتضرر بأ تفوته السنن أو الاجتماع بالأهل ثلاثة أقوال التحريم والكراهة والإباحة ولا يجىء الوجو ولا الاستحباب فهذه اثنا عشر قولا فى صوم الدهر وهذا المنام من كرامات الشيخ محيى الد والقاضى شرف الدين رضى الله عنهما والله أعلم وأخبرنى حين أجازنى أنه أخذ الفقه من طر العراقيين عن والده وجد أبى الطاهر إبراهيم وهو عن القاضى عبد الله ابن إبراهيم الحمو عن القاضى أبى سعد بن أبى عصرون الموصلى عن القاضى أبى على الفارقى عن الشيخ إسحاق الشيرازى عن القاضى أبى الطيب الطبرى عن أبى الحسن الماسرجسى عن أبى الحـ المروزى ومن طريق الخراسانيين عن جده المذكور عن الشيخ فخر الدين عبد الرحمن عساكر الدمشقى عن الشيخ قطب الدين مسعود النيسابورى عن عمر بن سهل الدامغانى حجة الإسلام أبى حامد الغزالى عن إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى عن والده أبى محمد الجو عن الإمام أبى بكر القفال المروزى عن أبى إسحاق المروزى المذكور عن القاضى أبى العباس

ابن شريح عن أبي القاسم الأنماطى عن أبي إسماعيل المزنى والربيع المرادى كلاهما عن الإمام الأعظم أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعى وهو أخذ عن إمام حرم الله مسلم بن خالد الزنجى عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهم وعن إمام حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك عن نافع عن ابن عمر وابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم عن نبينا سيد المرسلين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلواته عدد معلوماته. وله نظم قليل فمنه ما كتب به إلى صاحب حماة يدعوه إلى وليمة

طعام العرس مندوب إليه ... وبعض الناس صرح بالوجوب
فجبرا بالتناول منه جريا ... على المعهود فى جبر القلوب

ومن نثره الذى يقرأ طردا وعكسا قوله * سور حماه بربها محروس * ولما بلغنى خبر وفاته كتبت كتابا إلى ابن ابنه القاضى نجم الدين عبد الرحيم ابن القاضى شمس الدين إبراهيم ابن قاضى القضاة شرف الدين المذكور (سورته) وينهى أنه بلغ المملوك بوفاة الحبر الراسخ بل انهداد الطود الشامخ * وزوال الجبل الباذخ * الذى بكته السماء والأرض * وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض * فشرقت أجفان المملوك بالدموع واحترق قلبه بين الضلوع * وساواه فى الحزن الصادر والوارد * واجتمعت القلوب لما تم لمأتم واحد * فالعلوم تبكيه * المحاسن تعزى فيه * والحكم ينعاه * والبر يتفداه * والأقلام تمشى على الرءوس لفقده * والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده * ولما صلى عليه يوم الجمعة صلاة الغائب بحلب اشتد الضجيج * وارتفع المشيج * وعلت الأصوات فلا خاص إلا حزن قلبه * لا عام الإطار لبه * فإنه مصاب زلزل الأرض * وهدم الكرم المحض * وسلب الأبدان قواها * ومنع عيون الأعيان كرها * ولكن عزى الناس لفقده * كون مولانا الخليفة من بعده * فإنه بحمد الله خلف عظيم * لسلف كريم * وهو أولى من قابل هذا الفادح القادح بالرضا * وسلم إلى الله سبحانه فيما قضى * فإنه سبحانه يحيى ما كانت الحياة أصلح * ويميت إذا كانت الوفاة أروح * وقد نظم المملوك فيه مرثية أعجزه عن تحريرها اضطرام صدره * وحمله على تسطيرها انتهاب صبره وها هى

برغمى أن بيتكم يضام ... ويبعد عنكم القاضى الإمام
سراج للعلوم أضاء دهرا ... على الدنيا لغيبته ظلام
تعطلت المكارم والمعالى ... ومات العلم وارتفع الطغام
عجبت لفكرتى سمحت بنظم ... أيسعدنى على شيخى نظام
وأرثيه رثاء مستقيما ... ويمكننى القوافى والكلام
ولو أنصفته لقضيت نحبى ... ففى عنقى له نعم جسام
حشا أذنى ذرا ساقطته ... عيونى يوم حم له الحمام

لقد لؤم الحمام فإن رضينا ... بما يجنى فنحن إذا لئام
ألا يا عامنا لا كنت عاما ... فمثلك ما مضى فى الدهر عام
أتفجعنا بكتانى مصر ... وكان به لساكنها اعتصام
وتفتك بابن جملة فى دمشق ... ويعلوها لمصرعه القتام
وكان ابن المرحل حين يبكى ... لخوف الله تبتسم الشآم
وحبر حماة تجعله ختاما ... أذاب قلوبنا هذا الختام
ولما قام ناعيه استطارت ... عقول الناس واضطرب الأنام
ولو يبقى سلونا من سواه ... فإن بموته مات الكرام
ألهو بعدهم وأقر عينا ... حلال اللهو بعدهم حرام
فياقاضى القضاة دعاء صب ... برغمى أن يغيرك الرغام
ويا شرف الفتاوى والدعاوى ... على الدنيا لغيبتك السلام
ويا ابن البارزى إذا برزنا ... بثوب الحزن فيك فلا نلام
سقى قبراً حللت به غمام ... من الأجفان أن يخل الغمام
إلى من ترحل الطلاب يوما ... وهل يرجى لذى نقص تمام
ومن للمشكلات وللفتاوى ... وفصل الأمر إن عظم الخصام
وكان خليفة فى كل فن ... وعينا للخليفة لا تنام
ألا يا بابه لازلت قصدا ... لأهل العلم يغشاك الزحام
فإن حفيد شيخ العصر باق ... يقل به على الدهر الملام
أنجم الدين مثلك من تسلى ... إذا فدحت من النوب العظام
وفى بقياك عن ماض عزاء ... قيامك بعده نعم القيام
إذا ولى لبيتكم إمام ... عديم المثل يخلفه إمام
وفى خير الأنام لكم عزاء ... وليس لساكن الدنيا دوام
أنا تلميذ بيتكم قديما ... بكم فخرى إذا افتخر الأنام
وإن كنتم بخير كنت فيه ... ويرضينى رضاكم والسلام
لكم منى الدعاء بكل أرض ... ونشر الذكر ما ناح الحمام

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وسبعمائة :

فيها : فى المحرم توفى بمصر شيخنا قاضى القضاة فخر الدين عثمان بن زين الدين على بن عثمان المعروف بابن خطيب جبرين قاضى حلب وابنه كمال الدين محمد وذلك أن الشناعات

كثرت عليه فطلبه السلطان على البريد إليه فحضر عنده * وقد طار لبه * وخرج وقد انقطع قلبه * وتمرض بمصر مده * وأراحه الله بالموت من تلك الشدة * وحسب المنايا أن يكن أمانيا * ولقد كان رحمه الله فاضلاً فى الفقه والأصول والنحو والتصريف والقراءات مشاركا فى المنطق والبيان وغيرهما وله الشرح الشامل الصغير ويدل إياه على ذكاء مفرط وله شرح مختصر ابن الحاجب فى الأصول وشرح البديع لابن الساعاتى فى الأصول أيضا وفرائض نظم وفرائض نثر ومجموع صغير فى اللغة وغير ذلك كان رحمه الله سريع الغضب سريع الرضا كثير الذكر لله تعالى (قلت) :

من هو فخر الدين عثمان فى   مراحم الله وإحسانه
مات غريبا خائفا نازحا   عن أنس أهليه وأوطانه
وبعض هذى فيه ما يرتجى   له به رحمة ديانه
فقل لشانيه ترفق ففى   شانك ما يغنيك عن شانه

ورأيت مكتوبا بخطه هذه الكلمات * وكنت سمعتها من لفظه قبل ذلك وهى الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل فمن جعل السببي موجبا فقد أخطأ ومن محاه ولم يجعل له أثرا فقد أخطأ ومن جعل السبب سببا والمسبب هو الفاعل فقد أصاب ومولده رحمه الله بمصر فى العشر الأواخر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وسبعمائة .

وفيها : فى العشر الأوسط من ربيع الآخر توفى السيد الشريف بدر الدين محمد بن زهرة الحسينى نقيب الأشراف ووكيل بيت المال بحلب * ومن الاتفاق أنه مات يوم ورود الخبر بعزل ملك الأمراء علاء الدين الطنبغا عن نيابة حلب وكان بينهما شحناء فى الباطن (قلت):

قد كان كل منهما   يرجو شفا أضغانه
فصار كل واحد   مشتغلا بشانه

كان السيد رحمه الله حسن الشكل وافر النعمة معظما عند الناس شهما ذكيا وجده الشريف أبو ابراهيم هو ممدوح أبى العلاء المعرى كتب إلى أبى العلاء القصيدة التى أولها .

غير مستحسن وصال الفوانى   بعد سنين حجة وثمان
غير مستحسن وصال الغوانى   بعد ستين حجة وثمان

ومنها :

كل علم مفرق فى البرايا   جمعته معرة النعمان

فأجابه أبو العلاء بالقصيدة التى أولها

عللانى فإن بيض الأمانى   فنيت والظلام ليس بفانى

ومنها : يا أبا إبراهيم قصر عنك الشعر لما وصفت بالقرآن .

وفيها : فى العشر الأول من جمادى الأولى قدم الأمير سيف الدين طرغاى إلى حلب نائباً بها وسر الناس بقدومه وأظهروا الزينة وصحبته القاضى شهاب الدين أحمد بن القطب كاتب السر مكان تاج الدين بن الزين خضر المتوجه إلى مصر صحبة الأمير علاء الدين الطنبغا وكان رنك المنفصل جوكانين ورنك المتصل خونجا فقال بعض الناس فى ذلك

كم أتى الدهر بطرد وبعكس وبدع
راح عنا رنك ضرب وأتانا رنك بلغ

وفيها : فى السابع والعشرين من جمادى الأولى ورد الخبر إلى حلب بوفاة قاضى القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى قاضى دمشق بهاكان رحمه الله إماما فى علم المعانى والبيان له فيه مصنفات جامعة متقنة وله يد فى الأصولين ويحل الحاوى وكان كبير القدر واسع الصدر ولى أولاً خطابة دمشق ثم قضاءها ثم قضاء مصر ثم قضاء دمشق حتى مات بها سامحه الله تعالى وبلغنى أن بينه وبين الإمام الرافعى قرابة وقرب العهد بسيرته يغنى عن الإطالة وبنى على النيل دارًا قيل بما يزيد على ألف ألف درهم فأخذت منه ثم أخرج إلى دمشق قاضيا كما تقدم

وفيها : فى جمادى الآخرة ورد الخبر إلى حلب بوفاة الشيخ بدر الدين أبى اليسر محمد ابن القاضى عز الدين محمد ابن الصائغ الدمشقى بها كان نفعنا الله به عالما فاضلا متقللا من الدنيا زاهدا جاءته الخلعة والتقليد بقضاء دمشق فامتنع أتم امتناع واستعفى بصدق إلى أن أعفى فمن يومئذ حسن ظن الناس به وفطن أهل القلم وأهل السيف لجلالة قدره قلت

ما قضاء الشام الأشرف ولمن يتركه أعلى شرف
يا أبا اليسر لقد أذكرنا فعلك المشكور أفعال السلف

وفيه : ورد الخبر أن الأمير علاء الدين الطنبغا وصل من مصر إلى غزة نائبا بها فسبحان من يرفع ويضع ألاله الخلق والأمر جرت بينه وبين نائب الشام الأمير سيف الدين تنكز شحناء اقتضت نقلته من حلب وتوليته بعدها غزة فإن نائب الشام متمكن عند السلطان رفيع المنزلة

وفيها : فى أوائل رجب توفى بمعرة النعمان ابن شيخنا العابد إبراهيم بن عيسى ابن عبد السلام كان من عباد الأمة ويعرف الشاطبية والقراءات وله يد طولى فى التفسير وزهادته مشهورة كان أولا يحترف بالنساجة ثم تركها وأقبل على العبادة والصيام والقيام ونسخ كتب الرقائق وغيرها فأكثر ووقف كتبه على زوايا وأماكن وهو من أصحاب الشيخ القدوة مهنا الفوعى نفعنا الله ببركتهما وكان داعيًا إلى السنة بتلك البلاد وتوفى بعده بأيام الشرف حسين ابن داود بن يعقوب الفوعى بالفوعة وكان داعيا إلى التشيع بتلك البلاد قلت :

وقام لنصر مذهبه عظيما وحدد ظفره وأطال نابه
تبارك من أراح الدين منه وخص منه أعراض الصحابة

وفيه : ورد الخبر بوفاة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله المعروف بابن المهاجر الحنفى بحماة نائباً عن قاضيها جمال الدين عبد الله بن العديم حسبما تقدم ذكره كان فاضلا فى النحو والعروض وله نظم حسن ولهج فى آخر وقته بمدائح الرسول ﷺ .

وفيه : ورد الخبر إلى حلب أن الشيخ تقى الدين على بن السبكى تولى قضاء القضاة الشافعية بدمشق المحروسة بعد أن حدث الخطيب بدر الدين محمد ابن القاضى جلال الدين نفسه بذلك وجزم به وقبل الهناء فقال فيه بعض أهل دمشق .

قد سبك السبكى قلب الخطيب فعيشه من بعدها ما يطيب

وفيه : طلب القاضى جمال الدين سليمان بن ريان على البريد من حلب إلى دمشق لمباشرة نظر الجيوش بالشام واستمر بدمشق إلى أن نكب تنكز كما سيأتى فعزل بالتاج إسحاق ثم حضر إلى حلب وأقام بداره بالمقام .

وفيها : فى شعبان قدم الأمير الفاضل صلاح الدين يوسف الدواندار شادا بالمملكة الحلبية

وفيها : فى رمضان ورد الخبر أن الأمير سيف الدين أبا بكر البانيرى باشر النيابة بقلعة الرحبة وهو الذى كان تولى تجديد عمارة جعبر كما تقدم فقال فيه بعض الناس

يا باذلا فى جعبر جهده ما خيب السلطان مسعاكا
عوضك الرحبة عن ضيق ما قاسيت قد أفرحنا ذاكا
فضاجع البق وناموسها لولا ضجيعاك لزرناكا

وفيه : شرع نائب الشام تنكز فى الرجوع من متصيده بالمملكة الحلبية وكان قد حضر إليها فى شعبان ومعه صاحب حماة الملك الأفضل وحريم وحظايا وحشم وحمام ولحق الفلاحين والرعية بذلك كلفة وضرر كبير واجتمع نائب الشام وصاحب حماة على إعادة بدر الدين محمد بن على المعروف بابن الحمص رامى البندق المشهور إلى منزلته من الرماية بعد أن كان قد أسقط على عادتهم وأسقطوا من كان أسقطه واجتمعت أنا بابن الحمص المذكور بحلب فسألته أن يرينى شيئاً من حذفه فى البندق فرمى إلى حائط فكتب عليه بالبندق ما صورته محمد بن على بخط جيد ثم أمر غلامه فصار الغلام يرمى بندقاً إلى الجو وهو يتلقاه فيصيبه فى سرعة على التوالى فجاء من ذلك بالعجب العجيب .

وفيه : نادى مناد فى جامع حلب وأسواقها وقدامه شاد الوقف بدر الدين بتليك الأسندمرى من أمراء العشرات بما صورته معاشر الفقهاء والمدرسين والمؤذنين وأرباب وظائف

الدين قد برز المرسوم العالى إن كل من انقطع منكم عن وظيفته وغمز عليه يستأهل ما يجرى عليه فانكسرت لذلك قلوب الخاص والعام وعظم به تألم الأنام وظهر مشد الوقف المذكور عن بغض وعناد لأهل العلم والدين فوقع منه يوم عيد الفطر كلمة قبيحة أقامت عليه الناس أجمعين وعقد له بدار العدل يوم العيد مجلس مشهود وأفتينا بتجديد إسلامه وعزله وضر به وهو ممدود ونودى عليه فى الملإ جزاء وفاقا وقطعنا أن لحوم العلماء مسمومة اتفاقا ولولا شفاعة الشافعى فيه لدخل نار مالك بما خرج من فيه ولو كان برا لما خاض هذا البحر ولجمع قلبه ومذبحه بين الفطر والنحر وبالجملة فقد ذاق مرارة القهر والقسر فإن نداءه الذى انكسر به القلب انقلب به الكسر

وفيها : فى تاسع شوال وصل إلى حلب قاضى القضاة زين الدين عمر بن شرف الدين محمد بن البلفيائى المصرى الشافعى وباشر الحكم من يومه وخرج النائب والأكابر لتلقيه وسر به الناس لما سمعوا من ديانته بعد شغور المنصب نحو عشرة أشهر من حاكم شافعى

وفيها : حج الأمير سيف الدين بشتك الناصرى من مصر وأنفق فى الحج أموالاً عظيمة وكان صحبته على ما بلغنا ستمائة راوية وتكلم الناس فى القبض عليه عند عوده بمدينة الكرك فما أمكن ذلك ودخل مصر وصعد القلعة فتلقاه السلطان بالحسنى .

ثم دخلت سنة أربعين وسبعمائة :

فيها : فى المحرم ورد الخبر بوفاة الشيخ علم الدين أبى محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالى المحدث الدمشقى بخليص مريدا للحج رحمه الله تعالى كان حسن الأخلاق كثير الموافاة للناس محبوبا إليهم وله تصانيف فى الحديث والتاريخ والشروط وكان حسن الأداء كثير البكاء فى حال قراءة الحديث فصيحًا رحمه الله تعالى .

وفيها : فى المحرم بلغنا شنق ابن المؤيد شرف الدين أبى بكر الواعظ المحتسب نائب الوكالة باللاذقية خافوا بطرابلس من طول لسانه واتصاله بأعيان المصريين وقامت عليه بينة بألفاظ تقتضى انحلال العقيدة فحملوا عبد العزيز المالكى قاضى القدس على الحكم بقتله وشارك فى واقعته القاضى جلال الدين عبد الحق المالكى قاضى اللاذقية فتعب القاضيان بجريرته وقاسيا شدائد .

وفيها : فى صفر وردت البشارة بقبض الملك الناصر على النشو شرف الدين القبطى الأصل وأنه وأخاه رزق الله تحت العقوبة ثم قتل أخوه نفسه وأوقدت لهلاكهما الشموع بالقاهرة كان النشو قد قهر أهل القاهرة وبالغ فى الطرح والمصادرة فعظمت به المصيبة وقتل خلقا تحت العقوبة فأتى الناس فى هلاكه بيوت المسألة من أبوابها وبنت الأوتاد نظم الدعوات

على أسبابها وطلبوا لبحر ظلمه المديد من الله خبنا وبترا فدارت الدوائر عليه بهذه الفاصلة الكبرى (قلت) .

النشولا عدل ولا معرفة قد آن للأقدار أن تصرفه
من أتلف الناس وأموالهم يحق للسلطان أن يتلفه

وفيه : قدم الأمير المكاس الغشوم المشوم (لؤلؤ القندشى) إلى حلب منفيا من مصر بلا إقطاع .

وفيه : عزل قاضى القضاة بحلب زين الدين عمر البلفيانى عنها لوحشة جرت بينه وبين طرغاى نائب حلب فكاتب فيه فعزل وهو فقيه كبير مقتصد فى المأكل والملبس (قلت)

وكان والله عفيفا نزها وله عرض عريض ما اتهم
وهو لا يدرى مدارة الورى ومدارة الورى أمر مهم

وفيها : فى ربيع الأول عزل الأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد الدواندار عن الشد على المال والوقف بحلب ونقل إلى طرابلس فضاق طرغاى من جيرته فعمل عليه وكان قد عزم على تحرير الأوقاف بحلب فما قدر قلت .

لقد قالت لنا حلب مقالا وقد عزم المشد على الرواح
إذا عم الفساد جميع وقفى فكيف أكون قابلة الصلاح

وفيها : فى جمادى الآخرة ولى القاضى برهان الدين بن إبراهيم بن خليل بن إبراهيم الرسعنى قضاء الشافعية بحلب بذل لطرغاى نائبهامالا فكاتب فى ولايتها وهو أول من بذل فى زماننا على القضاء بحلب وكان القضاة قبله يخطبون ويعطون من بيت المال حتى يلوا ولذلك لم يصادف راحة فى ولايته ويعجبنى قول القائل .

فلان لا تحزن إذا نكبت واعرف ما السبب
* فما تولى حاكم بفضة إلا ذهب *

وفيها : توفى طقتمر الخازن نائب قلعة حلب كانت تصدر منه فى الدين ألفاظ منكرة واشترى قبل وفاته دارا عند مدرسة الشاذ بخت وعمل فيهاتصاوير وكثر الطعن عليه بسببها قلت :

ماحل فيها زحل إلا لنحس المشترى
فانعدمت صورته من شؤم تلك الصور

وخلف مالا طائلا

وفيها : فى شعبان توفى الخليفة أبو الربيع سليمان المستكفى بالله فى قوص وقد تقدم أنه أخرج إلى الصعيد سنة ثمان وثلاثين وخلافته تسع وثلاثون سنة ولله قولى على لسانه مثلى

يعيش بالموت* ويبلغ المنى بالفوت* إلى كم لهم العيشة الرطبة * ولى مجرد الخطبة * فلهم الملك الصريح * ولسليمان الريح *

أحمد الله الذى جنبنى كلف الملك وأمرا صعبا
لم أجد للملك ماء صافيا فتيممت صعيدا طيبا

وفيها : بعد موت المستكفى بويع بالخلافة أبو اسحاق إبراهيم ابن أخى المستكفى

وفيها : كان الحريق بدمشق وذهبت فيه أموال ونفوس واحترقت المنارة الشرقية والدهشة وقيسارية القواسين وتكرر وأقرت طائفة من النصارى بدمشق بفعله فصلب تنكز منهم أحد عشر رجلا ثم وسطوا بعد ان أخذ منهم ألف ألف درهم وأسلم ناس منهم وبيعت بنت الملين بمال كثير فاشتراها تنكز وعملت المقامة الدمشقية فى هذا المعنى وسميتها صفو الرحيق * فى وصف الحريق * وختمتها بقولى

وعادت دمشق فوق ما كان حسنها وأمست عروسا فى جمال مجدد
وقالت لأهل الكفر موتوا بغيظكم فما أنا إلا للنبى محمد *
ولا تذكروا عندى معابد دينكم فما قصبات السبق إلا لمعبد

وفيها : فى ذى الحجة باشر القاضى ناصر الدين محمد بن الصاحب شرف الدين يعقوب كتابه السر بحلب وسرنابه .

وفيه : قبض على تنكز نائب الشام وأهلك بمصر رسم السلطان لطشتمر حمص أخضر وكان نائباً بصفد أن يأتيه من حيث لا يحتسب ويقبض عليه وما أشبه تمكنه عند السلطان الملك الناصر إلا بجعفر عند الرشيد والرشيد أضمر إهلاك جعفر ست سنين حتى قتله والملك الناصر أضمر إهلاك تنكز عشر سنين وهو يخوله ويعظمه وينعم عليه وفى قلبه له ما فيه حتى قبض عليه وكان تنكز عظيم السطوة شديد الغضب قتل خلقا منهم عماد الدين إسماعيل بن مزروع الفوعى نائب قبجق بدمشق وعلى بن مقلد حاجب العرب والأمير حمزة رماه بالبندق ثم أهلكه سرًّا وغيرهم وله بدمشق والقدس وغيرهما آثار حسنة وأوقاف وقتل أكثر الكلاب بدمشق ثم حبس الباقى وحال بين إناثها وذكورها ولما استوحش من السلطان عزم على نكثه من جهة التتر وأخذ السلطان من أمواله ما يفوت الحصر زعم بعضهم أنه يقارب مال قارون وكان قبل ذلك قد تبرم من نقيق الضفادع فأخرجها من الماء فقال بعض الناس فيه .

تنكز تنكز بدمشق تيها وذلك قد يدل على الذهاب
وقالوا للضفادع ألف بشرى بميتته فقلت وللكلاب

وتولى دمشق بعده الطنبغا الحاجب الصالحى كان تنكز قد سعى عليه حتى نقل من نيابة حلب إلى نيابة غزة فأورثه الله أرضه ودياره .

وفيها : بعد حادثة تنكز عوقب أمين الملك عبد الله الصاحب بدمشق واستصفى ماله ومات تحت العقوبة قبطى الأصل وكان فيه خير وشر ووزر بمصر ثلاث مرات وفيه يقول صاحبنا الشيخ جمال الدين بن نباتة المصرى .

لله كم حال امرئ مقتر قضيت فى القدس بتنفيسه
كم درهم ولى ولكنه قد أخذ الأجر على كيسه

وقال فيه أيضاً :

روت عنك أخبار المعالى محاسن كفت بلسان الحال عن ألسن الحمد
فوجهك عن بشر وكفك عن عطا وخلفك عن سهل ورأيك عن سعد

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وسبعمائة :

فيها : فى المحرم وسط بدمشق (طغية وجنغية) من أصحاب تنكز وكانا ظالمين .

وفيها : عزل طرغاى عن حلب وكان على طمعه يصلى ويتلو كثيرا .

وفيها : توفى الشيخ محمد بن أحمد بن تمام زاهد الوقت بدمشق .

وتوفى الملك أنوك ابن الملك الناصر وكان عظيم الشكل .

وفيها : ضربت رقبة عثمان الزنديقى بدمشق على الإلحاد والباجر بقية سمع منه من الزندقة مالم يسمع من غيره لعنه الله .

وتوفى الأمير صلاح الدين يوسف ابن الملك الأوحد وكان من أكابر أمراء دمشق ومن بقايا أجواد بنى شيركوه وكان تنكز على شممه بدمشق ينزل إلى ضيافته كل سنة فينفق على ضيافة تنكز نحو ستين ألف درهم

وفيها : توفى السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى رحمه الله تعالى وله ستون سنة بعد أن خطب له ببغداد والعراق وديار بكر والموصل والروم وضرب الدينار والدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام ومصر وحج مرات وحصل لقلوب الناس بوفاته ألم عظيم فانه أبطل مكوسا وكان يستحيى أن يخيب قاصديه وأيامه أيام أمن وسكينة وبنى جوامع وغيرها لولا تسليط لؤلؤ والنشو على الناس فى آخر وقته وعهد لولده ﴿ السلطان الملك المنصور ﴾ أبى بكر فجلس على الكرسى قبل موت والده وضربت له البشائر فى البلاد ﴿ ولى من تهنئة وتعزية فى ذلك ﴾ .

ما أساء الدهر حتى أحسنا رق فاستدرك حزنا بهنا
بينما البأساء عمت من هنا وإذا النعماء عمت من هنا

فبحق أن يسعى محزنا وبصدق حين يدعى محسنا
فلئن أوحشنا بدر السما فلقد آنسنا شمس السنا
علما أبدله من علم ظاهر الإعراب مرفوع البنا
فجزى الله بخير من نأى ووقى من كل ضير من دنا

أجل والله لقد أساء الدهر وأحسن وأهزل وأسمن وأحزن وسروعق وبر إذ أصبح الملك وباعه بفقد الناصر قاصر قد ضعفت أركانه ومات سلطانه فماله من قوة ولا ناصر فأمسى بحمد الله وقد ملأ القصور بالمنصور سرورا وأطاعه الدهر وأهله فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا .

وفيها : ورد إلى حلب زائرا صاحبنا (التاج اليمانى) عبد الباقى بن عبد المجيد بن عبد الله النحوى اللغوى الكاتب العروضى الشاعر المنشى وجرت معه بحوث (منها مسألة نفيسة) وهى مالو قال له عندى اثنا عشر درهما وسدسا كم يلزمه فاستبهمت هذه المسألة على الجماعة فيسر الله لى حلها فقلت يلزمه سبعة دراهم إذ المعنى اثنا عشر دراهم وأسداسا فيكون النصف دراهم وهى ستة دراهم والنصف أسداسا وهى ستة أسداس بدرهم فهذه سبعة ولو قال اثنا عشر درهما وربعا لزمه سبعة ونصف ولو قال اثنا عشر درهما وثلثا لزمه ثمانية أو ونصفا فتسعة وهكذا ومما أنشدنى لنفسه قوله

تجنب أن تنم بك الليالى وحاول أن ينم لك الزمان
ولا تحفل إذا كملت ذاتا أصبت العز أم حصل الهوان

وقوله

بخلت لواحظ من أتانا مقبلا بسلامها ورموزهن سلام
فعذرت نرجس مقلتيه لأنها تخشى العذار فإنه نمام

وفيها : نقل طشتمر حمص أخضر من نيابة صفد إلى نيابة حلب .

وفيها : فى ذى الحجة وصل إلى حلب الفيل والزرافة جهزهما الملك الناصر قبل وفاته لصاحب ماردين .

وفيها : فتح الأمير علاء الدين أيدغدى الزراق ومعه بعض عسكر حلب قلعة خندروس من الروم كانت عاصية وبها أرمن وتتر يقطعون الطرقات .

وفيها : صلى بحلب صلاة الغائب على الشيخ عز الدين عبد المؤمن بن قطب الدين عبد الرحمن ابن العجمى الحلبى توفى بمصر وكان عنده تزهد وكتب المنسوب .

وفيها : توفى بإياس الأمير علاء الدين مغلطاى الغزى تقدمت له نكاية فى الأرمن ونقل إلى تربته بحلب .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة :

فى المحرم منها بايع السلطان الملك المنصور أبو بكر الملك الناصر الخليفة الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان كان قد عهد إليه والده بالخلافة فلم يبايع فى حياة الملك الناصر فلما ولى المنصور بايعه وجلس معه على كرسى الملك وبايعه القضاة وغيرهم .

وفيها :فى صفر توفى شيخ الإسلام الحافظ جمال الدين يوسف بن الزكى عبد الرحمن ابن المزى الدمشقى بها منقطع القرين فى معرفة أسماء الرجال مشاركا فى علوم وتولى مشيخة دار الحديث بعده قاضى القضاة تقى الدين السبكى .

وفيها : فى صفر (خلع السلطان الملك المنصور) أبو بكر ابن الملك احتج عليه قوصون الناصرى ولى نعمة أبيه بحجج ونسب إليه أمورا وأخرجه إلى قوص إلى الدار التى أخرج الملك الناصر والده الخليفة المستكفى إليها جزاء وفاقا ثم أمر قوصون والى قوص فقتله بها وأقام فى الملك أخاه الملك الأشرف كجك وهوابن ثمان سنين (فقلت فى ذلك) .

سلطاننا اليوم طفل والأكابر فى خلف وبينهم الشيطان قد نزغا
وكيف يطمع من مسته مظلمة أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا .

وفيها : فى جمادى الآخرة جهز قوصون مع الأمير قطلبغا الفخرى الناصرى عسكرا لحصار السلطان أحمد ابن الملك الناصر بالكرك وسار الطنبغا نائب دمشق والحاج أرقطاى نائب طرابلس بإشارة قوصون إلى قتال طشتمر بحلب لكون طشتمر أنكر على قوصون ما اعتمده فى حق أخيه المنصور أبى بكر ونهب الطنبغا بحلب مال طشتمر وهرب طشتمر إلى الروم واجتمع بصاحب الروم أرتنائم إن الفخرى عاد عن الكرك إلى دمشق بعد محاصرة أحمد بها أياما وبعد أن استمال الناصر أحمد الفخرى فبايعه ولما وصل الفخرى إلى دمشق بايع للناصر من بقى من عسكر دمشق المتأخرين عن المضى إلى حلب صحبة الطنبغا هذا كله والطنبغا ومن معه بالمملكة الحلبية ثم سار الفخرى إلى ثنية العقاب وأخذ من مخزن الأيتام بدمشق أربعمائة ألف درهم وكان الطنبغا قد استدان منه مائتى ألف درهم وهو الذى فتح هذا الباب ولما بلغ الطنبغا ما جرى بدمشق رجع على عقبه فلما قرب من دمشق أرسل الفخرى إليه القضاة وطلب الكف عن القتال فى رجب فقويت نفس الطنبغا وأبى ذلك وطال الأمر على العسكر فلما تقاربوا بعضهم من بعض لحقت ميسرة الطنبغا بالفخرى ثم الميمنة وبقى الطنبغا والحاج أرقطاى والمرقبى وابن الأبى بكرى فى قليل من العسكر فهرب الطنبغا وهؤلاء إلى جهة مصر فجهز الفخرى وأعلم الناصر بالكرك (وخطب للناصر أحمد) بدمشق وغزة والقدس فلما وصل

الطنبغا مصر وهو قوى النفس بقوصون قدر الله سبحانه تغير أمر قوصون وكان قد غلب على الأمر لصغر الأشرف فاتفق أيد غمش الناصرى أميراخور ويلبغا الناصرى وغيرهما وقبضوا على قوصون ونهبت دياره واختطف الحرافيش وغيرهم من دياره وخزائنه من الذهب والفضة والجواهر والزركشي والحشر والسروج والآلات مالا يحصى لأن قوصون كان قد انتقى عيون ذخائر بيت المال واستغنى من دار قوصون خلق كثير وقتل على ذلك خلق وأرسلوا قوصون إلى الاسكندرية وأهلك بها (وقبضوا على الطنبغا) وحبسوه بمصر ولما بلغ طشتمر بالروم ما جرى رجع من الروم إلى دمشق فتلقاه الفخرى والقضاة ثم رحل الفخرى وطشتمر إلى مصر بمن معهما .

وفيها : فى شهر رمضان سافر الملك الناصر أحمد من الكرك فوصل مصر وعمل أعزية لوالده وأخيه وأمر بتسمير والى قوص لقتله المنصور (وخلع) الأشرف كجك الصغير (وجلس الناصر على الكرسى) هو والخليفة وعقد بيعته قاضى القضاة تقى الدين السبكى ثم أعدم الطنبغا والمرقبى .

وفيها : كسر حسن بن تمر تاش بن جوبان من التتر طغاى بن سوتاى فى الشرق وتبيعه إلى بلد قلعة الروم فاستشعر الناس لذلك .

وفيها : عزل الملك الأفضل محمد ابن السلطان الملك المؤيد صاحب حماة والمعرة وبارين وبلادهن ونقل إلى دمشق من جملة أمرائها تغيرت سيرة الأفضل وما كان فيه من التزهد قبل عزله وحبس التاج بن العز طاهر بن قرناص بين حائطين حتى مات وقطع أشجار بستانه وظهر فى الليل من بعض أعقاب أشجار البستان التى قطعت نورفها أفلح بعد ذلك * وتولى نيابة حماة بعده مملوك أبيه سيف الدين طقز تمر * .

وفيها عزل عن قضاء الحنفية بحماة القاضى جمال الدين عبد الله ابن القاضى نجم الدين ابن العديم وتولى مكانه القاضى تقى الدين محمود بن الحكم * .

وفيها أهلك طاجار الدواندار وكان مسرفا على نفسه * .

وفيها توفى الأفضل صاحب حماه بدمشق معزولا ونقل إلى تربته بحماة فخرج نائبها للقاء تابوته وحزن عليه وحلف أنه ما تولى حماة إلا رجاء أن يردها إلى الأفضل مكافأة لإحسان أبيه *

وفيها : فى جمادى الأولى توفى القاضى برهان الدين إبراهيم * الرسعنى قاضى الشافعية بحلب وكان متعففا ويعرف فرائض رحمه الله تعالى *

وفيها : فى جمادى الأولى أيضا عوقب لؤلؤ القندشى بدار العدل بحلب حتى مات واستصفى ماله وشمتت به الناس * قلت

ألؤلؤ قـد ظلمت النـاس لكن بقـدر طلوعـك اتفق النـزول
كبـرت فكـنت فى تـاج فـلما صغرت سحقت سنة كـل لولـو

* وفيها : توفى الأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبى بكر أحد الأمراء بحلب كان من رجال الدنيا وله مارستان بطرابلس وارتفع به الدهر وانخفض ودفن بتربة فى جامع أنشأه بحلب بباب أنطاكية *

وفيها : توفى الخطيب بدر الدين محمد ابن القاضى جلال الدين القزوينى خطيب دمشق وتولى السبكى الخطابة وجرى بينه وبين تاج الدين عبد الرحيم أخى الخطيب المتوفى وقائع وفى آخر الأمر تعصبت الدماشقة مع تاج الدين فاستمر خطيبًا .

وفيها : فى شهر رمضان وصل القاضى علاءالدين على بن عثمان الزرعى المعروف بالفرع إلى حلب قاضى القضاة ولاه الطاغية الفخرى بالبذل فاجتمع الناس وحملوا المصحف وتضرروا من ولاية مثله فرفعت يده عن الحكم فسافر أياما ثم عاد بكتب فما التفتوا إليها فسافر إلى مصر وحلب خالية عن قاض شافعى .

وفيها : فى شوال عم الشام ومصر جراد عظيم كان أذاء قليلا .

وفيها : فى ذى الحجة وصل أيدغمش الناصرى إلى حلب نائبا بها فى حشمة عظيمة وأحسن وعدل وخلع على كثير من الناس وأقام بحلب إلى صفر ثم نقل إلى نيابة دمشق وتأسف الحلبيون لانتقاله عنهم (قلت) :

يـعـرف مـن تـقـبـله أرضـا مـن لـزم الأوسط مـن فـعـله
لا تـقبـل المسـرف فى جـوره كـلاولا المسـرف فى عـدلـه

(ونقل) طزتمر من حماة إلى حلب مكان أيدغمش ودخلها فى عشرى صفر وتولى نيابة حماة مكانه الأمير العالم علم الدين الجاولى * ثم نقل الجاولى إلى نيابة غزة وولى نيابة حماة مكانه آل ملك ثم بعده الطنبغا الماردانى كل هذا فى مدة يسيرة وجرى فى هذه السنة من تقلبات الملوك والنواب واضطرابهم ما لم يجر فى مئات من السنين (قلت)

عجـائب عـامنـا عـظمت وجلت أعـامـا كـان أم مـائتـين عـامـا
تصول على الملوك صيـال قاض قليـل الـدين فى مـال اليتـامى

وفيها : فى ذى الحجة وصل إلى حلب القاضى حسام الدين الغورى قاضى الحنفية بمصر الوافد إليها من قضاء بغداد منفيا من القاهرة لما اعتمده فى الأحكام ولمعاضدته لقوصون ولسوء سيرته فإنه قاضى تتر * ولى بيتان فى ذم حمام هما

حـامكم فى كـل أوصـافـه يشبـه شخصـا غـير مـذكـور
شـديـد بـرد وسـخ مـوحش قليـل مـاء فـاقـد النـور

فيغيرها بعض الناس فجعل البيت الأول كذا

حـــامكم حتى كـــل أوصـــافـــه   يـشبـــه وجـــه الحـــاكـم الـغـــورى

وتممه بالبيت الثانى على حاله

وفيها : فى ذى الحجة سافر السلطان الناصر أحمد إلى الكرك وأخذ من ذخائر بيت المال بمصر مالا يحصى وصحب طشتمر والفخرى مقيدين فقتلهما بالكرك قتلة شنيعة ويطول الشرح فى وصف جراءة الفخرى وإقدامه على الفواحش حتى فى رمضان ومصادرته للناس حتى انه جهز من صادر أهل حلب فأراح الله العالم منه وحصن الناصر الكرك واتخذها مقاماً له

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة :

فيها : فى المحرم انقلب عسكر الشام على الملك الناصر أحمد وهو بالكرك وكاتبوا إلى مصر (فخلع الناصر وأجلس أخوه السلطان الملك الصالح إسماعيل) على الكرسى بقلعة الجبل واستتاب آل ملك .

وفيها : فى ربيع الآخر حوصر السلطان أحمد بالكرك واحتج عليه أخوه الصالح بما أخذه من أموال بيت المال وحصل بنواحى الكرك غلاء لذلك .

وفيها : فى جمادى الآخرة توفى نائب دمشق أيدغمش ودفن بالقبيبات ويقال إن دمشق لم يمت بها من قديم الزمان إلى الآن نائب سواء وتولاها مكانه طقزتمر نائب حلب .

وفيها : فى رجب وصل الأمير علاء الدين الطنبغا الماردانى نائبا إلى حلب .

وفيها : وفى شهر رمضان توفى الشيخ تاج الدين عبد الباقى اليمانى الأديب وقد أناف على الستين وتقدم ذكر وفوده إلى حلب رحمه الله تعالى وزر باليمن وتنقلت به الأحوال وله نظم ونثر كثير وتصانيف

وفيها : فى شوال خرج الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى من مصر بعسكر لحصار الكرك وكذلك من دمشق فحاصروا الناصر بها بالنفط والمجانيق وبلغ الخبز أوقية بدرهم وغلت دمشق لذلك حتى أكلوا خبز الشعير .

وفيها : وصل علاء الدين القرع إلى حلب قاضيا للشافعية وأول درس ألقاه بالمدرسة قال فيه كتاب الطهارة باب الميات فأبدل الهاء بالتاء قلت أنا للحاضرين لو كان باب الميات لما وصل القرع إليه ولكنه باب الألوف ثم قال قال الله تعالى وجعلها كلمة باقية فى عنقه مكان فى عقبه فقلت أنا لا والله ولكنها فى عنق الذى ولاه فاشتهرت عنى هاتان التنذيدتان فى الآفاق .

وفيها : فى ربيع الآخر عزل الأمير سليمان بن مهنا بن عيسى عن إمارة العرب ووليها

مكانه الأمير عيسى بن فضل بن عيسى وذلك بعد القبض على فياض بن مهنا بمصرْ وكان سليمان قد ظلم وصادر أهل سرمين وربط بعض النساء فى الزناجير وهجم عبيده على المخدرات فأغاثهم الله فى وسط الشدة ثم أعيد بعد مدة قريبة إلى الإمارة .

وفيها : توفى بحلب الأمير الطاعن فى السن سيف الدين يلبصطى التركمانى الأصل رأس الميمنة بها وكان قليلَ الأذى مجموع الخاطر .

وفيها : توفى بحلب طنبغا حجى كان جهزه الفخرى إليها نائبا عنه فى أيام خروجه بدمشق وهو الذى جبى أموالا من أهل حلب وحملها إلى الفخرى وأخذ لنفسه بعضها وباء بإثم ذلك

وفيها : توفى بحلب الشيخ كمال الدين المهمازى كان له قبول عند الملك الناصر محمد ووقف عليه حمام السلطان بحلب وسلم إليه تربة ابن قرا سنقر بها وكان عنده تصون ومروءة (قلتْ)

لوفاة الكمال فى العجم وهن فلقد أكثروا عليه التعازى
قل لهم لو يكون فيكم جواد كان فى غنية عن المهمازى

وفيها : فى رجب اعتقل القرع بقلعة حلب معزولا ثم فك عنه الترسيم وسافر إلى جهة مصر

وفيها : فى رجب توفى بطرابلس نائبها ملك تمر الحجازى ووليها مكانه طرغاى وفيه تولى نيابة حماة يلبغا التجباوى

وفيها : فى شعبان وصل القاضى بدر الدين إبراهيم بن الخشاب على قضاة الشافعية بحلب فأحسن السيرة *

وفيها توفى بحلب الحاج على بن معتوق الدبيسرى وهوالذى عمر الجامع بطرف بانقوسا ودفن بتربته بجانب الجامع .

* وفيها : توفى بهادر التمرتاشى بالقاهرة وكان بعد وفاة الملك الناصر من الأمراء الغالبين على الأمر .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وسبعمائة :

فيها : أغارت التركمان مرات على بلاد سيس فقتلوا ونهبوا واسروا وشفوا الغليل بما فتكت الأرمن ببلاد قرمان

وفيها : فى صفر توفى الأمير علاء الدين الطنبغا الماردانى نائب حلب ودفن خارج باب المقام وله بمصر جامع عظيم وكان شابا حسنًا عاقلاً ذا سكينة

وفيها : مزقنا كتاب فصوص الحكم بالمدرسة العصرونية بحلب عقيب الدرس وغسلناه وهو من تصانيف ابن عربى تنبيها على تحريم قنيته ومطالعته وقلت فيه

هذى فصوص لم تكن بنفيسة فى نفسها
أنا قد قرأت نقوشها فصوابها فى عكسها

وفيها : توفى بحلب الأمير سيف الدين بهادر المعروف بحلاوة أحد الأمراء بها وله أثر عظيم فى القبض على تنكز وكان عنده ظلم وتوعد أهل حلب بشر كبير فأراحهم الله منه (قلت :

حلاوة مر فما أملحه أن يدفنا
إلى البلا مسيرا وفى الثرى مكفنا

وفيها : فى صفر بلغنا أنه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن المرحل النحوى الحرانى الأصلى المصرى الدار والوفاة كان متضلعاً من العربية وعنده تواضع وديانة نقلت له مرة وهو بحلب أن أبا العباس ثعلباأجاز الضم فى المنادى المضاف والشبيه به الصالحين للألف واللام فاستغرب ذلك وأنكره جدا ثم طالع كتبه فرآه كما نقلت فاستحى من إنكار ذلك مع دعواه كثرة الاطلاع فقلت

من بعد يومك هذا لا تنقل النقل تغلب
لو أنك ابن خروف ما كنت عندى كثعلب

وفيها : فى ربيع الأول وصل يلبغا التجباوى إلى حلب نائباً وهو شاب حسن كان الملك الناصر يميل إليه وأعطاه مرة أربعمائة ألف درهم ومرة مائة فرس مسمومة وغالب مال تنكز وتولى نيابة حماة مكانه سيف الدين طقزتمر الأحمدى وعنده عقل وعدل وعند يلبغا عفاف عن مال الرعية وسطوة وحسن أخلاق فى الخلوة *

وفيه سافر قاضى القضاة بحلب بدر الدين إبراهيم بن الخشاب إلى مصر ذاهبا بنفسه عن مساواة القرع وذلك حين بلغه تطلب القرع بحلب ولابن الخشاب يد طولى فى الأحكام وفن القضاء متوسط الفقه *

وفيه توفى سليمان بن مهنا أمير العرب وفرح أهل إقطاعه بوفاته والقاضى شرف الدين أبو بكر بن محمد ابن الشهاب محمود الحلبى كاتب السر ووكيل بيت المال بدمشق توفى بالقدس الشريف كاتب السر بالقاهرة للملك الناصر محمد أولا وفيه وصل عسكران من حماه وطرابلس للدخول إلى بلاد سيس لتمرد صاحبها كندا صطيل الفرنجى ولمنعه الحمل ومقدم عسكر طرابلس الأمير صلاح الدين يوسف الدواندار أنشدنى بحلب فى سفرته هذين البيتين للإمام الشافعى قيل إنهما ينفعان لحفظ .البصر

يـاناظـرى بيعقـوب أعيـذكـما بما استعاذ بـه إذ خانـه البصر
قميص يوسف ألقاه على بصرى بشير يوسف فاذهب أيها الضرر

فأنشدت بيتين لى ينفعان إن شاء الله تعالى لحفظ النفس والدين والأهل والمال وهما :

أمررت كفا سبحت فيها الحصى ورووت الـركـب بمـاء طـاهـر
* عـلى معـاشى ومعـادى وعـلى ذريـتى وبـاطـنى وظـاهـرى *

وفيها : فى جمادى الأولى عاد العسكر المجهز إلى بلد سيس وما ظفروا بطائل كانوا قد أشرفوا على أخذاذنه وفيهاخلق عظيم واموال عظيمة وجفال من الأرمن فتبرطل أقسنقر مقدم عسكر حلب من الأرمن وثبط الجيش عن فتحها واحتج بأن السلطان ما رسم بأخذها وتوفى أقسنقر المذكور بعد مدة يسيرة بحلب مذمومًا وأبى الله أن يتوفاه ببلاد سيس مغازيا

وفيها : نقلت جثة تنكز من ديار مصر إلى تربته بدمشق وتلقاها الناس ليلا بالشمع والمصاحف والبكاء ورقوا له ووقع بدمشق عقيب ذلك مطر فعدوا ذلك من بركة القدوم بجثته .

وفيها : فى جمادى الأولى توفى بدمشق الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الهادى كان بحرًا زاخرًا فى العلم * وفيه قتل الزنديق إبراهيم بن يوسف المقصانى بدمشق لسبه الصحابة وقذفه عائشة رضى الله عنهم ووقوعه فى حق جبريل عليه السلام *

وفيها : فى العشرين من شهر رجب توفى بجبرين الشيخ محمد بن الشيخ نبهان كان له القبول التام عند الخاص والعام وناهيك أن طشتمر حمص أحضر على قوة نفسه وشممه ووقف على زاويته بجبرين حصة من قرية حريثان لها مغل جيد وبالجملة فكأنما ماتت بموته مكارم الأخلاق وكاد الشام يخلو من المشهورين على الإطلاق * قلت .

وكنت إذا قابلت جبر بن زائرا يكـون لقلبى بـالمقـابلة الجـبر
كـان بنى نبهان يـوم وفـاتـه نجوم سماء خر من بينها البدر

زرته قبل وفاته رحمه الله فحكى لى قال حضرت عند الشيخ عبس السر جاوى وأنا شاب وهو لا يعرفنى فحين رآنى دمعت عينه وقال مرحبًا بشعار نبهان وأنشد .

وما أنت إلا من سليمى لأننى أرى شبها منها عليـك يلوح

وحكى لى مرة أخرى قال حضرت بالفوعة غسل الشيخ إبراهيم بن الشيخ مهنا لما مات وقرأنا عنده سورة البقرة وهو يغسل فلما وصلنا إلى قوله تعالى ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا رفعنا أيدينا للدعاء فرفع الشيخ إبراهيم يديه معنا للدعاء وهو ميت على المغتسل ومحاسن الشيخ محمد وتلقيه للناس وتواضعه ومناقبه ومكاشفاته كثيرة مشهورة رحمه الله ورحمنا به آمين *

وفيها : فى منتصف شعبان وقعت الزلزلة العظيمة وخربت بحلب وبلادها أماكن ولا سيما منبج فإنها أقلت ساكنها وأزالت محاسنها وكذلك قلعة الراوندان وعملت أنا فى ذلك رسالة أولها نعوذ بالله من شر ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ونستعينه فى طيب الإقامة بها وحسن الرحلة عنها نعم نستعيذ بالله ونستعين من سم هذه السنة فى أم أربعة وأربعين وختمتها بقولى .

منبج أهلها حكوا دود قز عندهم نجعل البيوت قبورا
رب نعمهم فقد ألفوا من شجر التوب جنة وحريرا

والله أعلم وصارت الزلازل تعاود حلب وغيرها سنة وبعض أخرى * وفى الحديث إن كثرة الزلازل من أشراط الساعة *

وفيه : توفى طرغاى نائب طرابلس *

وفيه : بلغنا أن أرتنا صاحب الروم كسر سليمان خان ملك التتر قصد بالتتار إلى الروم فانكسر كسرة شنيعة * ثم بلغنا أن الشيخ حسن بن تمرتاش بن جوبان قتل وهذا من سعادة الإسلام فإن المذكور كان فاسد النية لكون الملك الناصر محمد قتل أباه وأخذ ماله كما تقدم .

وفيها : قطع خبر فياض بن مهنا بن عيسى فقطع الطرق ونهب .

وفيها : فى شهر رمضان وصل إلى حلب قاضى القضاة نور الدين محمد بن الصائغ على قضاء الشافعية وهو قاض عفيف حسن السيرة عابد .

وفيها : فى شوال حاصر يلبغا النائب بحلب زين الدين قراجا بن دلغادر التركمانى بجبل الدلدل وهو عسر إلى جانب جيحان فاعتصم منه بالجبل وقتل فى العسكر وأسر وجرح وما نالوا منه طائلا فكبر قدره بذلك واشتهر اسمه وعظم على الناس شره وكانت هذه حركة رديئة من يلبغا .

وفيها : توفى كمال الدين عمر بن شهاب الدين محمد بن العجمى الحلبى كان قد تفنن وعرف أصولا وفقها وبحث على شرح الشافية الكافية فى النحو مرة وبعض أخرى ودفن ببستانه رحمه الله وما خرج من بنى العجمى مثله *

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وسبعمائة :

فيها : فى صفر حوصرت الكرك ونقبت وأخذ الملك الناصر أحمد وحمل إلى أخيه الملك الصالح بمصر فكان آخر العهد به .

وفيها : وصل إلى ابن دلغادر أمان من السلطان وأفرج عن حريمه وكن بحلب واستقر فى الأبلستين .

وفيها : فى ربيع الآخر بلغنا وفاة الشيخ أثير الدين (أبى حيان) النحوى المغربى بالقاهرة كان بحرا زاخرا فى النحو وهو فيه ظاهرى وكان يستهزئ بالفضلاء من أهل القاهرة ويحتملونه لحقوق اشتغالهم عليه وكان يقول عن نفسه أنا أبو حيات بالتاء يعنى بذلك تلاميذه وله مصنفات جليلة منها تفسير القرآن العظيم وشرح التسهيل وارتشاف الضرب من ألسنة العرب مجلد كبير جامع ومختصرات فى النحو وله نظم ليس على قدر فضيلته فمن أحسنه قوله .

وقابلنى فى الدرس أبيض ناعم واسمر لدن أورثا جسمى الردى
فذاهر من عطفيه رمحا مثقفا وذا سل من جفنيه عضا مهندا

وفيها : فى جمادى الأولى توفى بحلب الحاج محمد بن سلمان الحلبى المعزم كان عنده ديانة وإيثار وله مع المصروعين وقائع وعجائب .

وفيه : توفى بطرابلس الأمير الفاضل صلاح الدين يوسف بن الأسعد الدواندار أحد الأمراء بطرابلس وهو واقف المدرسة الصلاحية بحلب كما تقدم وكان من أكمل الأمراء ذكيا فطنا معظما لرسول الله صلى الله عليه وسلم حسن الخط وله نظم كان كاتباً ثم صار دواندار قبجق بحماة ثم شاد الدواوين بحلب ثم حاجباً بها ثم دواندار الملك الناصر ثم نائباً بالإسكندرية ثم أميرا بحلب وشاد المال والوقف ثم أميراً بطرابلس رحمه الله تعالى .

وفيها : فى شعبان بلغنا وفاة الشيخ نجم الدين القحفيزى بدمشق فاضل فى العربية والأصولين ظريف حسن الأخلاق ومن ذلك أنه أنشد مرة قول الشاعر * أيا نخلتى سلمى * إلخ فقال له بعض التلامذة يا سيدى وما تيس الماء * فقال الشيخ إن شئت أن تنظره فانظر فى الخابية تره .

وفيها : توفى بدمشق قاضى القضاة جلال الدين الحنفى الأطروش .

وفيها : توفى الأمير علاء الدين أيدغدى الزراق أتابك عسكر حلب مسنا وله سماع وحكى لى أنه حر الأصل من أولاد المسلمين وهو فاتح قلعة خندروس كما تقدم .

وتوفى كندغدى العمرى نائب البيرة مسنا عزل عنها قبل موته بأيام وعزموا على الكشف عليه فستره الله بالوفاة ببركة محبته للعلماء والفقراء وسيف الدين بلبان جركس نائب قلعة المسلمين طال مقامه بها وخلف مالا كثيرًا لبيت المال .

وفيها : فى شهر رمضان اتفق سيل عظيم بطرابلس هلك فيه خلق منهم ابنا القاضى تاج الدين محمد بن البارنبارى كاتب سرها وكان أحد الابنين الغريقين ناظر الجيش بها والآخر موقع الدست ورق الناس لأبيهما فقلت وفيه تضمين واهتدام .

وارحمتـاه لـه فـان مصابـه بـابن يبرحـه فكيف ابنـان
مـا أنصفتـه الحـادثـات رمينـه بـودعـين ومـا لـه قلبـان

وزاد نهر حماه وغرق دورا كثيرة ولطم العاصى خرطلة شيزر فأخذها وتلفت بساتين البلد لذلك ويحتاج إعادتها إلى كلفة كبيرة .

وفيها : فى ذى القعدة توفى بدمشق القاضى شمس الدين محمد بن النقيب الشافعى وتولى تدريس الشامية مكانه تاج الدين عبد الوهاب بن السبكى ثم تولاها السبكى بنفسه خوفا عليها كان ابن النقيب بقية الناس ومن أهل الإيثار وأقام حرمة المنصب لما كان قاضى حلب فقيها كبيرا محدثا أصولياً متواضعا مع الضعفاء شديدا على النواب (قال رحمه الله) دخلت وأنا صبى أشتغل على الشيخ محيى الدين الفووى فقال لى أهلا بقاضى القضاة فنظرت فلم أجد عنده أحدًا غيرى فقال اجلس يامدرس الشامية وهذا من جملة كشف الشيخ محيى الدين وابن النقيب حكى هذا بحلب قبل توليته الشامية * وحكى لى يوما وإن كنت قد وقفت عليه فى مواضع من الكتب أنه رفع إلى أبى يوسف صاحب أبى حنيفة رضى الله عنهما مسلم قتل كافرا فحكم عليه بالقود فأتاه رجل برقعة ألقاها إليه فيها .

يـا قـاتـل المسلم بـالكـافـر	جـرت وما العـادل كـالجـائـر
يـامـن ببـغـداد وأعـمـالهـا	من علماء النـاس أو شـاعـر
استـرجعوا وابكـو على دينكم	واصـطبـروا فـالأجـر للصـابـر

فبلغ الرشيد ذلك فقال لأبى يوسف تدارك هذا الأمر بحيلة لئلا تكون فتنة فطالب أبو يوسف أصحاب الدم ببينة على صحة الذمة وثبوتها فلم يأتوا بها فأسقط القود وحكى لنا يوما فى بعض دروسه بحلب أن مسألة ألقيت على المدرسين والفقهاء بدمشق فما حلها إلا عامل المدرسة وهى رجل صلى الخمس بخمسة وضوءات وبعد ذلك علم أنه ترك مسح الرأس فى أحد الوضوءات فتوضأ خمس وضوءات وصلى الخمس ثم تيقن أيضا أنه ترك مسح الرأس فى أحد الوضوءات * الجواب يتوضأ ويصلى العشاء فيخرج عن العهدة بيقين لأن الصلاة المتروكة المسح أولا إن كانت العشاء فقد صحت الصلوات الأربع قبلها وهذه العشاء المأمور بفعلها خاتمة الخمس وإن كانت غير العشاء فالعشاء الأولى والصلوات الخمس المعادة والعشاء الثالثة صحيحة وغايته ترك مسح فى تجديد وضوء ولهذا يجب أن يشترط عدم الحدث إلى أن يصلى الخمس ثانيا .

قلت : التحقيق أن الوضوء ثانيا كان يغنيه عنه مسح الرأس وغسل الرجلين لأن الشرط أنه لم يحدث إلى أن يصلى الخمس ثانيا وكذلك كان ينبغى للمجيب أن يقول له إن كنت لم تحدث إلى الآن فامسح رأسك واغسل رجليك وصل العشاء إذ كان الجديد عدم وجوب التتابع وإن كنت محدثا الآن فلابد من الوضوء كما قال .

وفيها : استرجع السلطان الملك الصالح ما باعه الملك المؤيد وابنه الأفضل بحماه والمعرة

وبلادهما من أملاك بيت المال وهو بأموال عظيمة وكان غالب الملك قد طرح على الناس غصبا وقد اشتريت به تقادم إلى الملك الناصر فقال بعض المعريين فى ذلك .

طرحوا علينا الملك طرح مصادر ثم استردوه بلا أثمان
وإذا يد السلطان طالت واعتدت فيد الإله على يد السلطان

وكأنما كاشف هذا القائل فإن مدة السلطان لم تطل بعد ذلك .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وسبعمائة :

والتتار مختلفون مقتتلون من حين مات القان أبو سعيد وبلاد الشّرق والعجم فى غلاء ونهب وجور بسبب الخلف من حين وفاته إلى هذه السنة .

وفيها : فى ربيع الآخر (توفى السلطان) الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون بوجع المفاصل والقولنج وكان فيه ديانة ويقرأ القرآن وفى آخر يوم موته جلس مكانه أخوه السلطان الملك الكامل شعبان وأخرج آل ملك نائب أخيه إلى نيابة صفد وقمارى إلى نيابة طرابلس .

وفيها : فى ربيع الآخر نقل يلبغا الناصرى من نيابة حلب إلى نيابة دمشق مكان طقزتمر وسافر طقزتمر إلى مصر بعد المبالغة فى امتناعه من النقلة من دمشق فما أجيب إلى ذلك وتوفى طقزتمر بمصر بعد مدة يسيرة وكان عنده ديانة .

وفيها : وصل الأمير سيف الدين أرقطاى إلى حلب نائبا وأبطل الخمور والفجور بعد اشتهارها ورفع عن القرى الطرح وكثيرا من المظالم ورخص السعر وسررنا به .

وفيها : عزل سيف بن فضل بن عيسى عن إمارة العرب ووليها أحمد بن مهنا وأعيد أقطاع فياض بن مهنا إليه ورضى عنه واستعيد من أيدى العرب من الأقطاعات والملك شىء كثير وجعل خاصاً لبيت المال .

وفيها : فى جمادى الأولى صلى بحلب صلاة الغائب على القاضى عز الدين بن المنجا الحنبلى قاضى دمشق وهو معرى الأصل .

وفيها : فى شهر رمضان وصل القاضى بهاء الدين حسن بن جمال الدين سليمان بن ريان إلى حلب ناظرا على الجيش على عادته عوضا عن القاضى بدر الدين محمد بن الشهاب محمود الحلبى ثم ما مضى شهر حتى أعيد بدر الدين عوضاً عن بهاء الدين وهكذا صارت المناصب كلها بحلب قصيرة المدة كثيرة الكلفة (قلت) .

ساكنى مصر أين ذاك التأنى والتأنى وما لكم عنه عذر

يخسر الشخص ماله ويقاسي تعب الدهر والولاية شهر

وفيها : كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع نقرًا فى الحجر ما مضمونه مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندى والأمير وذلك أحد عشر يوما وبعض يوم فى كل سنة وهذا القدر هو التفاوت بين السنة الشمسية والقمرية وهذه مسامحة بمال عظيم .

وفيها : قتلت الأرمن ملكهم كند اصطبل الفرنجى كان علجا لا يدارى المسلمين فخربت بلادهم وملكوا مكانه .

وفيها : فى أواخرها ملكت التركمان قلعة كابان وربضها بالحيلة وهى من أمنع قلاع سيس مما يلى الروم وقتلوا رجالها وسبوا النساء والأطفال فبادر صاحب سيس الجديد لاستنقاذها فصادفه ابن دلغادر فأوقع بالأرمن وقتل منهم خلقا وانهزم الباقون (قلت) .

صاحب سيس الجديد نادى كابان عندى عديل روحى
* قلنا تأهب لغير هذا فهذا فتوح على الفتوح

وبعد فتحها قصد النائب بحلب أن يستنيب فيها من جهة السلطان فعتى ابن دلعادر عن ذلك فجهزوا عسكرا لهدمها ثم أخذتها الأرمن منه بشؤم مخالفته لولى الأمر وذلك فى رجب سنة سبع وأربعين وسبعمائة .

وفيها : فى ذى الحجة قبض على قمارى الناصرى نائب طرابلس وعلى ال ملك نائب صفد وولى طرابلس بيدمر البدرى وصفد أرغون الناصرى .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وسبعمائة :

والتتار مختلفون كما كانوا .

وفيها : فى المحرم طلب الحاج أرقطاى نائب حلب إلى مصر وتمكن فى مصر وارتفع شأنه وصار رأس مشورة مكان حسنكلى بن البابا فإنه توفى قبل ذلك بأيام وفيه أقبل إلى حلب وبلادها من جهة الشرق جراد عظيم فكان أذاه قليلا بحمد الله (قلت) .

رجل جراد صدها عن الفساد الصمد
فكم وكم لطفه فى هذه الرجل يد

وفيها : فى ربيع الأول وصل إلى حلب الأمير سيف الدين طقتمر الأحمدى نائبا نقل إليها من حماة وولى حماة مكانه أسندمر العمرى .

وفيها : فى جمادى الأولى سافر القاضى ناصر الدين محمد بن الصاحب شرف الدين

يعقوب وولى كتابة السر بدمشق وتولى كتابة السر بحلب مكانه القاضى جمال الدين إبراهيم بن الشهاب محمود الحلبى .

وفيها : فى جمادى الأولى بلغنا أن نائب الشام يلبغا خرج إلى ظاهر دمشق خوفا من القبض عليه وشق العصا وعاضد أمراء مصر حتى خلع السلطان الملك الكامل شعبان وأجلسوا مكانه أخاه السلطان الملك المظفر أمير حاج وسلموا إليه أخاه الكامل فكان آخر العهد به وناب عن المظفر بمصر الحاج أرقطاى المنصورى ولما تم هذا الأمر تصدق يلبغا فى المملكة الحلبية وغيرها بمال كثير ذهب وفضة شكرا لله تعالى وكان هذا الملك الكامل سيئ التصرف بتولية المناصب غير أهلها بالبذل ويعز لهم عن قريب ببذل غيرهم وكان يقول عن نفسه أنا ثعبان لا شعبان .

وفيها : فى رجب توفى بحلب الأمير شهاب الدين قرطاى الاسند مرى من مقدمى الألوف أمير عفيف الذيل متصون .

وفيها : فى مستهل رجب سافر طقتمر الأحمدى نائب حلب إلى الديار المصرية وسببه وحشة بينه وبين نائب الشام فإنه ما ساعده على خلع الكامل وحفظ إيمانه .

وفيها : وقع الوباء ببلاد أزبك وخلت قرى ومدن من الناس ثم اتصل الوباء بالقرم حتى صار يخرج منها فى اليوم ألف جنازة أو نحو ذلك حكى لى ذلك من أثق به من التجار ثم اتصل الوباء بالروم وهلك منهم خلقا وأخبرنى تاجر من أهل بلدنا قدم من تلك البلاد أن قاضى القرم قال أحصينا من مات بالوباء فكانوا خمسة وثمانين ألفا غير من لا نعرفه والوباء اليوم بقبرس والغلاء العظيم أيضا .

وفيها : فى شعبان وصل إلى حلب الأمير سيف الدين بيدمر البدرى نقل إليها من طرابلس وولى طرابلس مكانه وهذا البدرى عنده حدة وفيه بدرة ويكتب على كثير من القصص بخطه وهو خط قوى .

وفيها : توفى بطرابلس قاضيها شهاب الدين أحمد بن شرف الزرعى وتولى مكانه القاضى شهاب الدين أحمد بن عبد اللطيف الحموى .

وفيها : فى ذى الحجة صدرت بحلب واقعة غريبة وهى أن بنتا بكرا من أولاد أولاد عمر التبزينى كرهت زوجها ابن المقصوص فلقنت كلمة الكفر لينفسخ نكاحها قبل الدخول فقالتها وهى لا تعلم معناها فأحضرها البدرى بدار العدل بحلب وأمر فقطعت أذناها وشعرها وعلق ذلك فى عنقها وشق أنفها وطيف بها على دابة بحلب وبتيزين وهى من أجمل البنات وأحياهن فشق ذلك على الناس وعمل النساء عليها عزاء فى كل ناحية بحلب حتى نساء اليهود وأنكرت القلوب قبح ذلك وما أفلح البدرى بعدها قلت :

وضـح الناس من بـدر منـير يـطوف مشرعـا بين الرجـال
ذكرت ولا سواء بها السبايـا وقد طافـوا بهن على الجمـال

وفيه : ورد البريد بتولية السيد علاء الدين على بن زهرة الحسينى نقابة الأشراف بحلب مكان ابن عمه الأمير شمس الدين حسن بن السيد بدر الدين محمد بن زهرة وأعطى هذا إمارة طبلخانات بحلب .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وسبعمائة :

والتتار مختلفون .

وفيها : فى ثالث المحرم وصل إلى حلب القاضى شهاب الدين بن أحمد بن الرياحى على قضاء المالكية بحلب وهو أول مالكى استقضى بحلب ولابد لها من قاضى حنبلى بعد مدة لتكمل به العدة أسوة مصر ودمشق وفى السنة التى قبلها تجدد بطرابلس قاضى حنفى مع الشافعى .

وفيها : فى المحرم صلى بحلب صلاة الغائب على القاضى شرف الدين محمد بن أبى بكر بن ظافر الهمدانى المالكى قاضى المالكية بدمشق وقد أناف على الثمانين كان دينا خيرا متجملا فى الملبس وهو الذى عاضد تنكز على نكبة قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن جملة وهاهم قد التقوا عند الله تعالى .

وفيه : ظهر بين منبج والباب جراد عظيم صغير من بزر السنة الماضية فخرج عسكر من حلب وخلق من فلاحى النواحى الحلبية نحو أربعة آلاف نفس لقتله ودفنه وقامت عندهم أسواق وصرفت عليهم من الرعية أموال وهذه سنة ابتدأ بها الطنبغا الحاجب من قبلهم قلت .

قصد الشام جراد سن للغلات سنا فتصـالحنا عليـه وحفرنـا ودفنا

وفيها : فى المحرم سافر الأمير ناصر الدين بن المحسنى بعسكر من حلب لتسكين فتنة ببلد شيزر بين العرب والأكراد قتل فيها من الأكراد نحو خمسمائة نفس ونهبت أموال ودواب .

وفيها : فى المحرم عزمت الأرمن على نكبة لإياس فأوقع بهم أمير إياس حسام الدين محمود بن داود الشيبانى وقتل من الأرمن خلقا وأسر خلقا وأحضرت الرءوس والأسرى إلى حلب فى يوم مشهود فلله الحمد .

وفيها : منتصف ربيع الأول سافر بيدمر البدرى نائب حلب إلى مصر معزولا أنكروا عليه ما اعتمده فى حق البنت من تزيين المقدم ذكرها وندم على ذلك حيث لا ينفعه الندم .

وفيه : وصل إلى حلب نائبها أرغون شاه الناصرى فى حشمة عظيمة نقل إليها من صفد

وفيه : قطعت الطرق وأخيفت السبل بسبب الفتنة بين العرب لخروج إمرة العرب عن

أحمد بن مهنا إلى سيف بن فضل بن عيسى قلت .

نريد لأهل مصر كل خير   وقصدهم لنا حتف وحيف
وهل يسمو لأهل الشام رمح   إذا استولى على العربان سيف

وفيها : فى ربيع الآخر قدم على كركر ولختا وما يليها عصافير كالجراد المنتشر فتنازع النأس إلى شيل الغلات بدارا وهذا مما لم يسمع بمثله .

وفيه : وصل تقليد القاضى شرف الدين موسى بن فياض الحنبلى بقضاء الحنابلة بحلب فصار القضاة أربعة ولما بلغ بعض الظرفاء أن حلب تجدد بها قاضيان مالكى وحنبلى أنشد قول الحريرى فى الملحمة .

ثم كلا النوعين جاء فضلة   منكرا بعد تمام الجملة

وفيها : فى جمادى الأولى هرب يلبغا من دمشق بأمواله وذخائره التى تكاد تفوت الحصر خشية من القبض عليه وقصد البر فخانه الدليل وخذله أصحابه وتناوبته العربان من كل جانب وألزمه أصحابه قهرا بقصد حماة ملقيا للسلاح فلقيه نائب حماه مستشعرًا منه وأدخله حماه ثم حضر من تسلمه من جهة السلطان وساروا به إلى جهة مصر فقتلوه بقاقون ودفن بها وهذا من لطف الله بالإسلام فإنه لو دخل بلاد التتار أتعب الناس ورسم السلطان بإكمال جامعه الذى أنشأه بدمشق وأطلق له ما وقفه عليه وهو جامع حسن بوقف كثير وكان يلبغا خيرا للناس من حاشيته بكثير وكان عفيفا عن أموال الرعية وما علمنا أن أحدا من الترك ببلادنا حصل له ما حصل ليلبغا جمع شمله بأبيه وأمه وإخوته وكل منهم أمير إلى أن قضى نحبه رحمه الله تعالى .

وفيها : فى جمادى الآخرة نقل أرغون شاه من نيابة حلب إلى نيابة دمشق فسافر عاشر الشهر وبلغنا أنه وسط فى طريقه مسلمين وهذا أرغون شاه فى غاية السطوة مقدم على سفك الدم بلا تثبت قتل بحلب خلقا ووسط وسمر وقطع بدويا سبع قطع بمجرد الظن بحضرته (وغضب) على فرس له قيمة كثيرة مرح بالعلافة فضربه حتى سقط ثم قام فضربه حتى سقط وهكذا مرات حتى عجز عن القيام فبكى الحاضرون على هذا الفرس فقيل فيه .

عقلت طرفك حتى   أظهرت للناس عقلك
لا كان دهر يولى   على بنى الناس مثلك

وفيه : اقتتل سيف بن فضل أمير العرب وأتباعه أحمد وفياض فى جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف ونهبت جماله وماله ونجا بعد اللتيا والتى فى عشرين فارسا وجرى على بلد المعرة وحماه وغيرهما فى هذه السنة بل فى هذا الشهر من العرب أصحاب سيف وأحمد وفياض من النهب وقطع الطرق ورعى الكروم والزروع والقطن والمقاثى مالا يوصف .

وفيه : انكسر الملك الأستر بن تمرتاش ببلاد الشرق كسرة شنيعة ثم شربوا من نهر مسموم فمات أكثرهم ومزقهم الله كل ممزق وكان هذا المذكور ردىء النية موتورا فذاق وبال أمره .

وفيها : فى أواخرها وصل إلى حلب نائبا فخر الدين أياز نقل إليها من صفد .

وفيها : فى رمضان (قتل السلطان الملك المظفر) أمير حاج ابن الملك الناصر بن قلاوون بمصر وأقيم مكانه أخوه (السلطان الملك الناصر حسن) كان الملك المظفر قد أعدم أخاه الأشرف كجك وفتك بالأمراء وقتل من أعيانهم نحو أربعين أميرا مثل بيدمر البدرى نائب حلب ويلبغا نائب الشام وطقتمر النجمى الدواندار وأقسنقر الذى كان نائب طرابلس ثم صار الغالب على الأمر بمصر أرغون العلائى والكتمر الحجازى وتتمش عبد الغنى أمير مائة مقدم ألف وشجاع الدين غرلو وهو أظلمهم ونجم الدين محمود بن شروين وزير بغداد ثم وزير مصر وهو أجودهم وأكثرهم برا ومعروفا حكى لنا أن النور شوهد على قبره بغزة وكان المظفر قد رسم لعبد أسود ضورة يابا أن يأخذ على كل رأس غنم تباع بحلب وحماة ودمشق نصف درهم فيوم وصول الأسود إلى حلب وصل الخبر بقتل السلطان فسر الناس بخيبة الأسود .

وفيها : فى شوال طلب السلطان فخر الدين أياز نائب حلب إلى مصر وخافت الأمراء أن يهرب فركبوا من أول الليل وأحاطوا به فخرج من دار العدل وسلم نفسه إليهم فأودعوه القلعة ثم حمل إلى مصر فحبس وهو أحد الساعين فى نكبة يلبغا وأيضاً فإنه من الجركس وهم أضداد لجنس التتار بمصر وكان المظفر قد مال عن جنس التتار إلى الجركس ونحوهم فكان ذلك أحد ذنوبه عندهم فانظر إلى هذه الدول القصار التى ما سمع بمثلها فى الأعصار (قلت) .

هـذى أمـور عـظام من بعضهـا القلب ذائب
مـا حـال قـطر يليـه فى كـل شهـرين نـائب

وفيها : فى ذى الحجة وصل إلى حلب (الحاج أرقطاى) نائبا بعد أن خطبوه إلى السلطنة والجلوس على الكرسى بمصر فأبى وخطبوا قبله إلى ذلك الخليفة الحاكم بأمر الله فامتنع كل هذا خوفا من القتل فلما جلس الملك الناصر حسن على الكرسى طلب الحاج أرقطاى منه نيابة حلب فأجيب وأعفى الناس من زينة الأسواق بحلب لأنها تكررت حتى سمجت (قلت) .

كم ملك جـاء وكم نـائب يـازينة الأسـواق حتى متى
قد كرروا الزينة حتى اللحى مـا بقيت تلحق أن تنبتـا

وفيه : بلغنا أن السلطان أبا الحسن المرينى صاحب المغرب انتقل من الغرب الجوانى من فاس إلى مدينة تونس وهى أقرب إلينا من فارس بثلاثة أشهر وذلك بعد موت ملكها أبى بكر من الحفصيين بالفالج وبعد أن أجلس أبو الحسن ابنه على الكرسى بالغرب الجوانى وقد أوجس

المصريون من ذلك خيفة فإن بعض الأمراء المصريين الأذكياء أخبرنى أن الملك الناصر محمدا كان يقول رأيت فى بعض الملاحم أن المغاربة تملك مصر وتبيع أولاد الترك فى سويقة مازن وهذا السلطان أبو الحسن ملك عالم مجاهد عادل كتب من مدة قريبة بخطه ثلاث مصاحف ووقفها على الحرمين وعلى حرم القدس وجهز معها عشرة آلاف دينار اشترى بها أملاكاً بالشام ووقفت على القراء والخزينة للمصاحف المذكورة (ووقفت على نسخة توقيع) بمسامحة الأوقاف المذكورة بمؤن وكلف وإحكار أنشأه صاحبنا الشيخ جمال الدين ابن نباتة المصرى أحد الموقعين الآن بدمشق أوله الحمد لله الذى أرهف لعزائم الموحدين غربا وأطلعهم بهممهم حتى فى مطالع الغرب شهبا وعرف بين قلوب المؤمنين حتى كان البعد قربا وكان القلبان قلبا وأيد بولاء هذا البيت الناصرى ملوك الأرض وعبيد الحق سلما وحربا وعضد ببقائه كل ملك إذا نزل البر أنبته يوم الكفاح أملا ويوم السماح عشبا واذا ركب البحر لنهب الأعداء كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا وإذا بعث هداياه المتنوعة كانت عرابا تصحب عربا ورياضا تسحب سحبا وإذا وقف أوقاف البر سمعت الآفاق من خط يده قرآنا عجبا واهتزت بذكراه عجبا .

ومنها : وذوى الولاء قريب وإن نأت داره ودان بالمحبة وإن شط شط بحره ومزاره وهو بأخباره النيرة محبوب كالجنة قبل أن ترى موصوف كوصف المشاهد وإن حالت عن الاكتحال بطلعته أميال السرى ولما كان السلطان أبو الحسن سر الله ببقائه الإسلام والمسلمين وسره بما كتب من اسمه فى أصحاب اليمين وما أدراك ما أصحاب اليمين هو الذى مد اليمين بالسيف والقلم فكتب فى أصحابه وسطر الختمات الشريفة فنصر الله حزبه بما سطر من أحزابها ومد الرماح أرشية فاشتقت من قلوب الأعداء قليبا والأقلام أروية فشفت ضعف البصائر وحسبك بالذكر الحكيم طبيبا .

ومنها : ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدى وخط سطورها بالعربى وطالما خط فى صفوف الأعداء بالهندى .

ومنها : وأمر بترتيب خزنة وقراء على مطالع أفقها ووقف أوقافها تجرى أقلام الحسنات فى إطلاقها وطلقها وحبس أملاكاشامية تحدث بنعم الأملاك التى سرت من مغرب الشمس إلى مشرقها ورغب فى المسامحة على تلك الأملاك من أحكار ومؤونات وأوضاع ديوانية وضع بها خط المسامحة فى دواوين الحسنات المسطرات فأجيب على البعد داعية وقوبل بالأسعاف والإسعاد وقفه ومساعيه وختمها بقوله والله تعالى يمتع من وقف هذه الجهات بما سطر له فى أكرم الصحائف وينفع الجالس من ولاة الأمور فى تقريرها ويتقبل من الواقف .

وفيه : صلى بحلب صلاة الغائب على الشيخ شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبى الدمشقى منقطع القرين فى معرفة أسماء الرجال محدث كبير مؤرخ من مصنفاته كتاب تاريخ الإسلام وكتاب الموت وما بعده وغير ذلك وكف بصره فى آخر عمره

ومولده سنة ثلاث وسبعين وستمائة واستعجل قبل موته فترجم فى تواريخه الأحياء المشهورين بدمشق وغيرها واعتمد فى ذكر سير الناس على أحداث يجتمعون به وكان فى أنفسهم من الناس فآذى بهذا السبب فى مصنفاته أعراض خلق من المشهورين .

وفيها : كان الغلاء بمصر ودمشق وحلب وبلادهن والأمر بدمشق أشد حتى انكشفت فيه أحوال خلق وجلا كثيرون منها إلى حلب وغيرها وأخبرنى بعض بنى تيمية ان الغرارة وصلت بدمشق إلى ثلثمائة وبيع البيض كل خمس بيضات بدرهم واللحم رطل بخمسة وأكثر والزيت رطل بستة أو سبعة .

وفيها : فى ذى الحجة قيد الأمير شهاب الدين أحمد بن الحاج مغلطاى القره سنقرى وحمل إلى دمشق فسجن بالقلعة وكان مشد الوقف بحلب وحاجبا وكان قبل هذه الحادثة قد سعى فى بعض القضاة وقصد له إهانة بدار العدل فسلم الله القاضى وأصيب الساعى المذكورربما كان طلبه من مصر يوم سعيه فى القاضى ثم خلص بعد ذلك وأعيد إلى حلب وصلح حاله .

وفيها : توفى بدمشق ابن علوى أوصى بثلاثين ألف درهم تفرق صدقة وبمائتى ألف وخمسين ألفا تشترى بها أملاك وتوقف على البر فاجتمع خلق من الحرافيش والضعفاء لتفريق الثلاثين ألفا ونهبوا خبزا من قدام الخبازين فقطع أرغون شاه نائب دمشق منهم أيدى خلق وسمر خلقا بسبب ذلك فخرج منهم خلق من دمشق وتفرقوا ببلاد الشمال .

وفيها : فى ذى الحجة ضرب نبراوز بالنون نائب قلعة المسلمين قاضيها برهان الدين إبراهيم بن محمد بن ممدود واعتقله ظلما وتجبرا فبعد أيام قليلة طلب النائب إلى مصر معزولا ويغلب على ظنى أنه طلب يوم تعرضه للقاضى فسبحان رب الأرض والسماء الذى لا يهمل من استطال على العلماء (قلت) .

قل لأهل الجاه مهما رمتم عزا وطاعه
لا تهينوا أهل علم فإذا هم سم ساعه

وفيه : فى العشر الأوسط من آذار وقع بحلب وبلادها ثلج عظيم وتكرر أغاث الله به البلاد * واطمأنت به قلوب العباد * وجاء عقيب غلاء أسعار * وقلة أمطار (قلت)

ثلج بآذار أم الكافور فى مزاجه ولونه والمطعم
لولاه سالت بالغلادماؤنا من عادة الكافور إمساك الدم

وفيها : جاءت ريح عظيمة قلعت أشجار كثيرة وكانت مراكب للفرنج قد لجت للوثوب على سواحل المسلمين ففرقت بهذه الريح وكفى الله المؤمنين القتال قلت .

قل للفرنج تأدبوا وتجنبوا فالريح جند نبينا إجماعاً
إن قلعت فى البر أشجارًا فكم فى البحر يومًا شجرت أقلاعا

وفيها : توفى الحاج إسماعيل بن عبد الرحمن العزازى بعزاز كان له منزلة عند الطنبغا الحاجب نائب حلب وبنى بعزاز مدرسة حسنة وساق إليها القناة الحلوة وانتفع الجامع وكثير من المساجد بهذه القناة وله آثار حسنة غير ذلك رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وسبعمائة :

وقراجا ابن دلغادر التركمانى وجماعته قد شغبوا واستطالوا ونهبوا وتسمى بالملك القاهر وأبان عن فجور وحمق ظاهر ودلاه بغروره الشيطان حتى طلب من صاحب سيس الحمل الذى يحمل إلى السلطان .

وفيها : فى شهر رجب وصل الوباء إلى حلب كفانا الله شره وهذا الوباء قيل لنا إنه ابتدأ من الظلمات من خمس عشرة سنة متقدمة على تاريخه وعملت فيه رسالة سميتها النبا عن الوبا .

فمنها : اللهم صلى على سيدنا محمد وسلم * ونجنا .. بجاهه من طغيان الطاعون وسلم * طاعون روّع وأمات * وابتدأ خبره من الظلمات * فواها له من زائر * من خمس عشرة سنة دائر * ماصين عنه الصين * ولا منع منه حصن حصين * سل هنديا فى الهند * واشتد على السند * وقبض بكفيه وشبك * على بلاد أزبك * وكم قصم من ظهر * فيما وراء النهر ثم ارتفع ونجم * وهجم على العجم * وأوسع الخطا * إلى أرض الخطا * وقرم القرم ورمى الروم بجمر مضطرم * وجرا الجرائر * إلى قبرص والجزائر * ثم قهر خلقا بالقاهرة وتنبهت عينه لمصر فإذاهم بالساهره * وأسكن حركة الإسكندرية * فعمل شغل الفقراء مع الحريزية (ومنها) .

أسكندرية ذا الوبا سبع يمد إليك ضبعه
صبرا لقسمته التى تركت من السبعين سبعه

ثم تيمم الصعيد الطيب * وأبرق على برقة منه صيب * ثم غزا غزه * وهزعقلان هزه * وعك إلى عكا * واستشهد بالقدس وزكى * فلحق من الهاربين الأقصى بقلب كالصخرة * ولولا فتح باب الرحمة لقامت القيامة فى مره * ثم طوى المراحل * ونوى أن يحلق الساحل فصاد صيدا * وبغت بيروت كيدا * ثم صدد الرشق * إلى جهة دمشق * فتربع ثم وتميد وفتك كل يوم بألف وأزيد * فأقل الكثرة * وقتل خلقا بثرة (ومنها) .

أصلح الله دمشقا وحماها عن مسبه
نفسها خست إلى أن تقتل النفس بحبه

ثم أمر المزه * وبرز إلى برزه * وركب تركيب مزج على بعلبك * وأنشد فى قارة

قفانبك * ورمى حمص نجلل * وصرفها مع علمه أن فيها ثلاث علل * ثم أطلق الكنه فى حماه * فبردت أطراف عاصيها من حماه .

يا أيها الطاعون إن حماة من　　خير البلاد ومن أعز حصونها
لا كنت حين شممتها فسممتها　　ولثمت فاها آخـذا بقرونها

ثم دخل معرة النعمان * فقال لها أنت منى فى أمان * حماة تكفيك * فلا حاجة لى فيك .

رأى المعرة عينا زانها حور　　لكن حاجبها بالجور مقرون
ماذا الذى يصنع الطاعون فى بلد　　فى كل يوم له بالظلم طاعون

ثم سرى إلى سرمين والفوعه * فشعث على السنة والشيعة * فسن للسنة أسنته شرعا * وشيع فى منازل الشيعة مصرعاً * ثم أنطى انطاكية بعض نصيب * ورحل عنها حياء من نسيانه ذكرى حبيب * ثم قال لشيزر وحارم لا تخافا منى فأنتما من قبل ومن بعد فى غنى عنى * فالأمكنة الردية * تصح فى الأزمنة الوبية * ثم أذل عزاز وكازه * وأصبح فى بيوتها الحارث ولا أغنى ابن حلزه * وأخذ من أهل الباب * أهل الألباب * وباشر تل باشر * ودلك دلوك وحاشر * وقصد الوهاد والتلاع * وقلع خلقا من القلاع * ثم طلب حلب * ولكنه ما غلب .

ومنها : ومن الأقدار * أنه يتتبع أهل الدار * فمتى بصق أحد منهم دما * تحققوا كلهم عدما * ثم يسكن الباصق الأجداث * بعد ليلتين أو ثلاث سألت بارىء النسم * فى دفع طاعون صدم فمن أحس بلع دم * فقد أحس بالعدم (ومنها) .

حـلب والله يـكـفـى　　شـرهـا أرض مـشقـه
أصبحـت حيـة سـوء　　تقتـل النـاس ببـزقـه

فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية فلا رزقوا * وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل فلا عاشوا ولا عرقوا * فهم يلهون ويلعبون * ويتقاعدون على الزبون اسودت الشهباء فى * عينى من وهم وغش كادت بنو نعش بها * أن يلحقوا ببنات نعش ومما أغضب الإسلام * وأوجب الآلام * أن أهل سيس الملاعين * مسرورون لبلادنا بالطواعين .

سكان سيس يسرهم ما ساءنا　　وكذا العوائد من عدو الدين
فـالله ينقله إليهم عـاجـلا　　ليمزق الطاغوت بالـطاعون

ومنها : فإن قال قائل هو يعدى ويبيد قلت بل الله يبدى ويعيد فإن جادل الكاذب فى دعوى العدوى وتأول قلنا فقد قال الصادق صلى الله عليه وسلم فمن أعدى الأول استرسل

ثعبانه وانساب وسمى طاعون الأنساب وهو سادس طاعون وقع فى الإسلام وعندى أنه الموتان الذى أنذر به نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام .

كان وكان

أعوذ بالله ربى من شر طاعون النسب   بارودة المستعلى قد طار فى الاقطار
دولاب دهاشانه ساعى لصارخ مارثى   ولا فدا بذخيره فتاشه الطيار
يدخل إلى الدار يحلف ما أخرج إلا بأهلها   معى كتاب القاضى بكل من فى الدار

وفى هذا كفاية ففى الرسالة طول .

وفيها : أسقط القاضى المالكى الرياحى بحلب تسعة من الشهود ضربة واحدة فاستهجن منه ذلك وأعيدوا إلى عدالتهم ووظائفهم .

وفيها : قتل بحلب زنديقان أعجميان كانا مقيمين بدلوك .

وفيها : بلغنا وفاة القاضى زين الدين عمر البلفيائى بصفد بالوباء والشيخ ناصر الدين العطار بطرابلس بالوباء وهو واقف الجامع المعروف بها .

وفيها : توفى القاضى جمال الدين سليمان بن ريان الطائى بحلب منقطعًا تاركا للخدم ملازما للتلاوة .

وفيها : بلغنا أن أرغون شاه وسط بدمشق كثيراً من الكلاب .

وفيها : توفى الأمير أحمد بن مهنا أمير العرب وفت ذلك فى أعضاد آل مهنا وتوجه أخوه فياض الغشوم القاطع للطرق الظالم للرعية إلى مصر ليتولى الإمارة على العرب مكان أخيه أحمد فأجيب إلى ذلك فشكا عليه رجل شريف أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله وتعرض إلى حريمه فرسم السلطان بإنصافه منه فأغلظ فياض فى القول طمعاً بصغر سن السلطان فقبضوا عليها قبضاً شنيعاً .

وفيها : فى سلخ شوال توفى قاضى القضاة نور الدين محمد بن الصائغ بحلب وكان صالحاً عفيفاً ديناً لم يكسر قلب أحد ولكنه لخيريته طمع قضاة السوء فى المناصب وصار المناحيس يطلعون إلى مصر ويتولون القضاء فى النواحى بالبذل وحصل بذلك وهن فى الأحكام الشرعية (قلت) .

مريد قضا بلدة   له حلب قاعده   فيطلع فى ألفه   وينزل فى واحدة

وكان رحمه الله من أكبر أصحاب ابن تيمية وكان حامل رايته فى وقعة الكسروان المشهورة .

وفيها : فى عاشر ذى القعدة توفى بحلب صاحبنا الشيخ الصالح زين الدين عبد الرحمن بن هبة الله المعرى المعروف بإمام الزجاجية من أهل القرآن والفقه والحديث عزب منقطع عن الناس كان له بحلب دويرات وقفهن على بنى عمه وظهر له بعد موته كرامات منها أنه لما وضع فى الجامع ليصلى عليه بعد العصر ظهر من جنازته نور شاهده الحاضرون ولما حمل لم يجد حاملوه عليهم منه ثقلا حتى كأنه محمول عنهم فتعجبوا لذلك ولما دفن وجلسنا نقرأ عنده سورة الأنعام شممنا من قبره رائحة طيبة تغلب رائحة المسك والعنبر وتكرر ذلك فتواجد الناس وبكوا وغلبتهم العبرة وله محاسن كثيرة رحمه الله ورحمنا به آمين ومكاشفاته معروفة عند أصحابه (وفى العشر) الأوسط منه توفى (أخى الشقيق) وشيخى الشفيق القاضى جمال الدين يوسف ترك فى آخر عمره الحكم وأقبل على التدريس والإفتاء وكان من كثرة الفقه والكرم وسعة النفس وسلامة الصدر بالمحل الرفيع رحمه الله تعالى ودفن بمقابر الصالحين قبلى المقام بحلب (قلت) .

أخ أبقى ببذل المال ذكرا وإن لا موه فيه ووبخوه
أزال فراقه لذات عيشى وكل أخ مفارقه أخوه

وفيه : توفى الشيخ على ابن الشيخ محمد بن القدوة نبهان الجبرينى بجبرين وجلس على السجادة ابنه الشيخ محمد الصوفى كان الشيخ على بحرا فى الكرم رحمه الله ورحمنا بهم آمين (وفى الثامن والعشرين) من ذى القعدة ورد البريد من مصر بتولية قاضى القضاة نجم الدين عبد القاهر بن أبى السفاح قضاء الشافعية بالمملكة الحلبية وسررنا بذلك ولله الحمد .

وفيه : ظهر بمنبج على قبر النبى متى وقبر حنظلة بن خويلد أخى خديجة رضى الله عنها وهذان القبران بمشهد النور خارج منبج وعلى قبر الشيخ عقيل المنبجى وعلى قبر الشيخ ينبوب وهما داخل منبج وعلى قبر الشيخ على وعلى مشهد المسيحات شمالى منبج أنوار عظيمة وصارت الأنوار تنتقل من قبر بعضهم إلى قبر بعض وتجتمع وتتراكم ودام ذلك إلى ربع الليل حتى انبهر لذلك أهل منبج وكتب قاضيهم بذلك محضرا وجهزه إلى دار العدل بحلب ثم أخبرنى القاضى بمشاهدة ذلك أكابر وأعيان من أهل منبج أيضاً وهؤلاء السادة هم خفراء الشام ونرجو من الله تعالى ارتفاع هذا الوباء الذى كاد يفنى العالم ببركتهم إن شاء الله تعالى (قلت) .

اشفعوا يا رجال منبج فينا لارتفاع الوبا عن البلدان
نزل النور فى الظلام عليكم إن هذا يزيد فى الإيمان

وفيها : فى ذى الحجة بلغنا وفاة القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى بدمشق بالطاعون منزلته فى الإنشاء معروفة * وفضيلته فى النظم والنثر موصوفه * كتب السر

للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالقاهرة بعد أبيه محيى الدين ثم عزل بأخيه القاضى علاء الدين وكتب السر بدمشق ثم عزل وتفرغ للتأليف والتصنيف حتى مات عن نعمة وافرة دخل رحمه الله قبل وفاته بمدة معرة النعمان فنزل بالمدرسة التى أنشأتها ففرح لى بها وأنشد فيها بيتين أرسلها إلى بخطه وهما .

وفى بلد المعرة دار علم — بنى الوردى منها كل مجد
هى الوردية الحلواء حسنا — وماء البشر منها ماء ورد

(فأجبته بقولى)

أمولانا شهاب الدين إنى — حمدت الله أذبك ثم مجدى
جميع الناس عندكم نزول — وأنت جبرتنى ونزلت عندى

تـم الكتـاب

فهرس

الموضوع | رقم الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٩/٣٥٠٧
الترقيم الدولى	977-02-5757-5 ISBN

١/٩٢/١٠٥ طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)